خالد حسيني

وردَّدت الجبالُ الصدى

رواية



ترجمة : يارا البرازي



وَرَدَّدت الجبال الصدى

▪ خالد حسيني
▪ ورددت الجبال الصدى
▪ ترجمة : يارا البرازي

▪ الطبعة الأولى 2014
▪ الإخراج الضوئي: هالا خليل
▪ الناشــــر: دال للنشـــــر والتوزيــــع
سـورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170
هـاتـف: 00963 944 464830
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

خالد حسيني

ورددت الجبال الصدى

رواية

ترجمة : يارا البرازي



أهـدي هذا الكتاب إلى نـور عيناي

ولـدي حـارث و ابنتي فـرح

و إلى أبي، الذي كان سيفخر بي لو كان حياً.

إليـك يا إيلين أيضاً.

خارج مضمار كل الأفكار

كل مفاهيم الخير و الشر، الفضيلة و الخطيئة

هناك مرج واسع بلا نهاية

سألقاك هناك

جلال الدين الرومي

القرن الثالث عشر

المحتويات

الفصل الأول

خريف عام 1952

إذاً، تريدون أن أحكي لكم قصة وسوف أقص عليكم واحدة. قصة واحدة فقط. ولا تطلبوا واحدة أخرى. الوقت متأخر، ولدينا يوم سفر طويل غداً، أنا وأنت يا باري. جسدك يحتاج للنوم الليلة. وأنت أيضاً يا عبد الله. فأنا أعتمد عليك في غيابنا ـ أنا وأختك ـ يا صغيري، وكذلك أمكم. والآن سأحكي قصة واحدة. استمعا، كلاكما، استمعا جيداً. ولا تقاطعاني.

في قديم الزمان، عندما كان الغيلان والجن والعمالقة يعيشون على الأرض، كان هناك مزارع اسمه بابا أيوب يعيش مع عائلته في قرية صغيرة اسمها «ميدان سابز» . ولأنه كان مسؤولاً عن إطعام عائلة كبيرة، كانت أيامه تذوب دون أن يشعر بها وهو غارق بالعمل الدؤوب. كان يعمل بجد من الفجر للغروب كل يوم، يحرث حقله ويقلب تربته ويهتم بشجيرات الفستق الحلبي الضئيلة. كنت تستطيع رؤيته منحنياً في

حقله طوال الوقت.. وظهره متقوس، كالمنجل الذي يلوّح به طوال النهار، وغالباً ما نزفت يداه الخشنتان لكثرة كدّه في العمل. وكل ليلة.. كان النوم يسرقه بمجرد ملامسة خده للوسادة.

وبشكل عام، لم تكن تلك حاله وحده. كانت الحياة في ميدان سابز صعبة لكل قاطنيها. وبجوارهم، كانت القرى الشمالية التي تحتضنها الوديان أكثر حظاً، حيث تنتشر أشجار الفواكه والأزهار والهواء العليل، وتجري جداول طافحة بالماء البارد الصافي. إلا أن ميدان سابز كانت مكاناً مقفراً ولم تكن تشبه أبداً اسمها الذي يعني حرفياً (البستان الأخضر). تقع هذه القرية وسط سهل منبسط مغبر تحيطه سلسلة جبال وعرة، وتهب فيه رياح حارة تذر الرمال في العيون. وكان إيجاد الماء صراعاً يومياً لأن آبار القرية، وحتى العميقة منها، كانت تجف. نعم، كان هناك نهر، لكنه كان على بعد مسيرة نصف نهار، وكان موحلاً طوال العام. والآن، بعد عشر سنوات من جفاف الآبار، جف النهر أيضاً. وهكذا كان على سكان القرية أن يجهدوا أنفسهم في ضعف عملهم العادي ليحصلوا على نصف ما يكفيهم لمعيشتهم.

ومع ذلك، كان بابا أيوب يصنف نفسه مع المحظوظين لأنه يمتلك عائلة يقدرها أكثر من كل شيء في العالم. أحب زوجته ولم يرفع صوته أويده عليها يوماً ،كان يستشيرها ويقدر رأيها ويجد بصحبتها سروراً حقيقياً. وفيما يخص أبناءه، فقد كان مباركاً بخمسة أبناء، ثلاثة صبيان وبنتين، وكان يحبهم جميعاً حباً جماً. كانت بناته مطيعات ويتمتعن باللطف والشخصية والسمعة الجيدة. أما أبناؤه فقد علمهم قيم الشرف والشجاعة والصداقة وبذل الجهد دون تذمر رغم صغر سنهم. وقد أطاعوه،كما يتوجب على الأبناء المطيعين أن يفعلوا، وساعدوا والدهم في عمله.

رغم محبته العميقة لكل أبناءه، إلا أن شغف بابا أيوب بأصغر أبنـاءه ـ قيس ـ كان فريداً، والذي يبلغ مـن العمـر ثلاثـة أعـوام. كـان قـيس طفـلاً صـغيراً يتمتـع بعيـنين زرقـاوين عميقـتين. وكـان يسـحر كـل مـن يلتقيـه بضحكته الخبيثة. كمـا كـان أحـد أولئـك الأطفـال الـذين يتمتعـون بطاقـة متفجرة يضيع أمامها كل الأطفال الموجودين حولـه. وعنـدما تعلـم المشـي، استمتع كثيراً بذلك لدرجة أنه كان يمـارس المشـي طـوال النهـار، وبشـكل مثير للمتاعب كان يمشي أثناء نومه أيضاً، ويتجول خـارج البيـت الطـيني رغم الظلام. أصاب القلق الأبوين.. فماذا لـو وقـع في بئـر أوضـاع أو أصابه الأسوأ.. فمن الممكن أن يهاجمـه أحـد الحيوانـات المفترسـة الـتي تجـوب السهوب في الليل. جربوا عدة حلـول دون فائـدة. وفي النهايـة، وجـد بابـا أيوب حلاً بسيطاً، كما تكون عادة أفضل الحلول، فقد أزال جرساً صـغيراً عن رقبة إحدى عنزاته وعلقه بدلاً من ذلك حول عنق قيس. وبهذه الطريقة أوقظهم الجرس لدى نهوض قيس في الليل. توقفت عادة المشي الليلي بعـد فترة إلا أن قيس تعلق بالجرس مع مرور الوقت ورفض خلعه. ولـذا، ومـع أن الغرض الأصلي منه لم يعد موجوداً إلا أن الجـرس بقـي معلقـاً في رقبـة الصبي. وعندما كان بابا أيوب يعود للبيت بعد يوم عمـل شـاق كـان قـيس يركض إليه معانقاً إياه دافناً رأسه في بطن أبيه، والجرس يجلجل مع كـل خطوة من خطواته الصغيرة، كان أبوه يحمله ويـدخل بـه للبيـت، وقـيس يراقب أباه بانتباه عظيم وهو يغتسل، وبعدها يجلس بجانبه وقت العشـاء. وبعد أن يأكلوا يرتشف بابا أيـوب شـايه ويراقـب عائلتـه، ويتخيـل اليـوم الذي سيرى كل أبنائه متزوجين ولهـم أبنـاؤهم. وعنـدها سـيكون بطريـرك عائلة فخوراً لأعظم درجة.

وللأسف يا عبد الله، انتهت أيام سـعادة بابـا أيـوب عنـدما هـاجم القرية غول مخيف. وبينمـا كـان يقـترب قادمـاً مـن الجبـال، اهتـزت

الأرض مع كل خطوة يخطيها باتجاههم. رمى القرويون معاولهم ومجارفهم وبعثروا فؤوسهم. وأقفلوا أبوابهم على أنفسهم والتفوا حول أسرهم. وعندما توقفت أصوات الخطى الباعثة على الصمم، أظلمت السماء فوق ميدان سابز بسبب ظله الكبير. وقيل أن قروناً مقوسة نمت من رأسه وغطى الشعر الأسود الخشن أكتافه وذيله القوي. وقيل أن عيناه احمرتا.. لا أحد يعلم على وجه التأكيد، وأنت تفهم ذلك، لا يوجد شخص حي رآه ليخبرنا على وجه التحديد عن الذي جرى. فالغول أكل فوراً أولئك الذين تجاسروا ليسرقوا لمحة واحدة يتيمة. وهكذا أبقى القرويون عيونهم مثبتة على الأرض بحكمة، لأنهم عرفوا جيداً مصير أولئك الذين نظروا إليه.

علم كل أهل القرية بسبب مجيء الغول. سمعوا حكايات زياراته للقرى الأخرى وكانوا يتعجبون من عدم زيارته لقريتهم. فكروا أن الحياة الصارمة الفقيرة لميدان سابز كانت من صالحهم ، فأطفالهم كانوا قليلي التغذية ولم يكن لهم لحم يكسو عظامهم كأطفال القرى الأخرى ومع ذلك، ها هو حظهم قد نفد.

ارتعدت القرية، حبست أنفاسها. صلت العوائل لأن يتجاوز الغول بيوتهم، لأنه إن نقر على سقفهم فهو يعني أنه يريد أحد أطفالهم. ليرميه في كيسه ويحمله على ظهره ويعود من حيث أتى. لن يرى أحد ذاك الطفل الفقير مجدداً. وإذا ما رفضت العائلة إعطاءه ابنها سيقوم الغول بأخذ كل الأبناء.

إذاً.. إلى أين يأخذ الغول الأطفال. يأخذهم لحصنه الذي يقع على قمة أحد الجبال العالية. بعيداً جداً عن ميدان سابز، كان على المرء أن يقطع ودياناً وعدة صحارى وسلسلتي جبال ليصل إليه. وأي عاقل كان ليفعل هذا.. هه؟ قالوا أن الحصن مليء بالزنازين التي تتدلى على جدرانها

السواطير.. وخطافات اللحم المعلقة من الأسقف. تحدثوا عن أسياخ شيّ وحفر نار عملاقة. وفي النهاية قالوا أن الغول لا يحب لحم البالغين، لكنه سيتجاوز ذلك لو أحسّ بوجود شخص متطفل يحاول الاقتراب منه.

أعتقد أنكما عرفتما السقف الذي نقره الغول. وعندما سمع بابا أيوب ذاك الصوت.. أفلتت من شفتيه تنهيدة بكاء معذبة. وغابت زوجته عن الوعي رعباً. بكى الأطفال لهول ما سمعوا واستولى عليهم الحزن لأنهم عرفوا أن واحداً منهم سيذهب بلا رجعة. وكان عليهم تسليم قربانهم عند الفجر.

ماذا أقول لك عن الألم الذي عانى منه الأبوين تلك الليلة؟هل من المعقول أن يقوم أبٌ باختيار مجحفٍ قاس كهذا؟ وبعيداً عن سمع أولاده، ناقش بابا أيوب وزوجته مشكلتهم. تكلما وبكيا، تكلما وبكيا. طوال الليل، ذرعا الغرفة جيئة وذهاباً، وبينما كان الفجر يقترب بسرعة توجب عليهما الوصول لقرار يعجب الغول، وإلا أخذ الغول كل أبناءهم بسبب ترددهم. في النهاية.. جمع بابا أيوب خمسة أحجار متماثلة من الأرض قرب بيته. وعلى كل واحدة، خربش اسم أحد أبناءه ورمى الحجارة في كيس خيش وأعطاه لزوجته. تراجعت الأم للوراء برعب كما لو أن الكيس يخبئ أفعى سامة.

«لا أستطيع فعل ذلك» قالت لزوجها وهي تهز رأسها بأسى. «لا يمكن أن أقوم أنا بالاختيار.. لا أحتمل القيام بذلك».

«ولا أنا».

من نافذته.. عرف بابا أيوب أن الفجر سينبلج بعد لحظات ليغطي التلال الشرقية بالنور. لم يبق من الوقت سوى القليل. حدق بتعاسة نحو أبناءه الخمسة. عليه أن يقطع إصبعاً ليحافظ على اليد. أغلق عينيه وسحب حجرة من كيسه.

أفترض أنكما عرفتما الصخرة التي اختارها بابا أيوب. عندما رأى الاسم.. رفع وجهه للسماء وأفلت صرخة.. وبقلبه المكسور رفع ابنه الأصغر بين ذراعيه، قيس، الذي كان يثق بأبيه ثقة عمياء، لف ذراعيه حول رقبة أبيه بسعادة. وهكذا.. فتح بابا أيوب الباب وأودعه خارجاً.. وأغلق الباب وراء الولد الذي أدرك أن هناك خطأً ما. ووراء الباب وقف الأب، وعيونه مغلقتان بشدة، والدموع تنهمر منهما وهو يسمع طرق الكفين الصغيرتين على الباب منادياً أباه ليسمح له بالدخول. وقف بابا أيوب هناك متمتماً «سامحني، سامحني» ارتجت الأرض وعلا صراخ ابنه. وراحت الأرض تهتز تحت أقدام الغول الفائز بغنيمته، مراراً وتكراراً إلى أن اختفى في المدى. وهدأت الأرض. وعمّ الصمت.. إلا من صوت أنين بابا أيوب وهو يطلب الغفران من ولده قيس.

عبدالله، لقد نامت أختك.غط قدميها بالبطانية. نعم هذا جيد. لربما يتوجب عليّ التوقف الآن. لا؟ أتريدني أن أتابع؟ هل أنت متأكد؟ حسناً؟

أين كنت؟ آه نعم. تلت تلك الأحداث فترة حداد لأربعين يوماً. وطوال كل تلك الأيام، طبخ الجيران وجبات طعام للعائلة المنكوبة وسهروا معهم حداداً. أحضروا معهم ما يستطيعونه من شاي وحلوى، خبز ولوز . حملوها بحزن تماماً كما قدموا تعازيهم وتعاطفهم. لم يستطع بابا أيوب التفوه بأكثر من كلمة شكر لهؤلاء الناس. جلس في زاوية، يبكي، تتفجر الدموع من عينيه كما الشلالات، التي كانت كافية لإنهاء مشكلة جفاف القرية. لا نتمنى أن يصيب عذابه ومعاناته حتى أكثر الرجال حقارة.

مرت عدة سنوات،استمر الجفاف خلالها، وغرقت ميدان سابز في الفاقة والعوز الأسوأ على الإطلاق. مات عدة أطفال رضع عطشاً في مهودهم، وغاضت الآبار وجف النهر، بخلاف ألم بابا أيوب الذي كان

كنهر ينتفخ أكثر فأكثر مع مرور كل يوم. لم يعد إنساناً مفيداً لعائلته، فقد توقف عن العمل والصلاة ولم يكن يأكل إلا بالكاد. تولى أبناؤه الباقين القيام بأعماله..فهو لم يكن يفعل أي شيء سوى الجلوس وحيداً على طرف حقله محدقاً بالجبال. لم يعد يتحدث لأحد من القرويين لاعتقاده بأنهم كانوا يهمسون عنه أشياء من وراء ظهره. كانوا يقولون عنه أنه جبان لأنه أعطى ابنه للغول بكل تلك البساطة. فأي أب حقيقي كان سيقاتل الغول.. وسيموت بين يديه دفاعاً عن عائلته.

في إحدى الليالي حدث زوجته بما يدور في خاطره...

«لا أحد يقول عنك هذا» أجابت زوجته. «لا أحد يعتقد أنك جبان».

«أستطيع سماعهم» أجابها.

«أنت لا تسمع سوى صوت وساوسك يا زوجي». قالت. لم تخبره بأن القرويين همسوا بذلك فعلاً وراء ظهره. ولم تخبره أيضاً بأنهم كانوا يقولون عنه أنه أصيب بالجنون.

وفي أحد الأيام، أعطاهم بابا أيوب البرهان القاطع على ذلك. نهض فجراً دون أن يوقظ أحداً من أبناءه أو زوجته، وضع بعضاً من كسرات الخبز البائت في كيسه، ارتدى حذائه وربط منجله حول خصره.. وانطلق.

مشى أياماً وأياماً، سار إلى أن وصل لمكان بدت الشمس منه مجرد وهج أحمر ضعيف في الأفق البعيد. وفي الليالي، نام في كهوف تصفر بها الريح. أو بالقرب من الأنهار أو تحت الأشجار أو بين شقوق الصخور. أكل كل خبزه، وعندما نفد الخبز منه أكل أي شيء كان يجده على طريقه.. توت بري، فطر، أسماك اصطادها بيديه العاريتين من الجداول.. وفي بعض الأيام لم يكن يأكل مطلقاً، ومع ذلك استمر في المشي. سألته مجموعة من المسافرين يوماً عن وجهته، فأخبرهم، بعضهم ضحكوا عليه، والبعض الآخر أسرع بالابتعاد عنه خيفة

جنونه، وبعض آخرين صلّوا لأجله، لأنهم كانوا أيضاً ممن فقدوا أبنائهم بسبب الغول. تابع بابا أيوب مسيرته بتصميم. عندما تشقق حذاؤه ربطه لقدميه بالحبال. وعندما تمزقت الحبال واصل مشيه حافياً. وهكذا، سافر عابراً الصحاري والوديان والجبال.

أخيراً، وصل إلى الجبل الذي يعلوه حصن الغول. بدأ بالتسلق فوراً بلهفة دون أن يرتاح. تمزقت ثيابه ودميت قدماه وتكتل شعره بالغبار.. لكن عزيمته ظلت ثابتة لا تني. مزقت الصخور الوعرة نعليه، نقرت الصقور خديه عندما وصل في تسلقه لأعشاشها. أطاحت به الرياح على كتف الجبل وكادت أن تقتله. ومع كل ذلك.. تابع التقدم.. من صخرة لأخرى إلى أن وقف أخيراً أمام بوابة حصن الغول الهائلة. وراح يرمي بالحصى على البوابة.

«من الذي يجرؤ؟» قصف صوت الغول الهواء كالرعد عندما أحس بطرق الحصى على بوابته.

عرّف بابا أيوب عن اسمه وقال «أنا مزارع من قرية ميدان سابز».

«وهل تنشد الموت؟ لا بد أنك تتمناه وإلا لم تكن لتزعجني هنا في بيتي. ماذا تريد؟».

«أتيت لأقتلك».

مر وقت من الصمت وبعدها فتحت البوابة محدثةً صريراً، وهناك وقف الغول متمعناً في بابا أيوب بكل أمجاده المرعبة.

«حقاً» قال بصوت هادر كالرعد.

«بكل تأكيد» أجابه بابا أيوب. «بشكل أو بآخر، سيموت أحدنا اليوم».

للحظة، بدا أن الغول سيطيح بالرجل بضربة واحدة ويلتهمه مرةً واحدةً بأسنانه الحادة. لكن شيئاً ما أصاب ذاك المخلوق بالتردد. أكد النظر فيه وضاقت عيناه. ربما كان جنون الرجل، ولربما كان منظره..

ملابسه الممزقة، وجهه الدامي، الغبار الذي يكسوه من رأسه إلى أخمص قدميه، قروحه الجلدية المفتوحة.. أو لربما كان ذاك الشيء في نظراته، ففي عيني ذاك الرجل العجوز لم تكن توجد ذرة واحدة من الخوف.

«من أين قلت أنك تأتي؟».

«من قرية ميدان سابز» أجابه بابا أيوب.

«لا بد أنها بعيدة جداً بالنظر لمظهرك.. تلك القرية».

«لم آت إلى هنا للثرثرة، جئت إلى هنا..» وقاطعه الغول رافعاً مخلبه.

«نعم، نعم، جئت لقتلي، أعرف ذلك. ولكن، يمكنني أن أقول بضع كلمات أخيرة قبل أن تقتلني، أليس كذلك؟».

«لا بأس» قال بابا أيوب. «ولكن عدة كلمات فقط».

«أشكرك» ابتسم الغول ابتسامة عريضة «هل لي أن أسألك عن الذنب الذي اقترفته بحقك كي أستحق الموت؟».

«لقد أخذت مني ولدي الأصغر» أجابه بابا أيوب. «وقد كان أغلى مخلوق عندي».

شخر المخلوق ونقر بمخلبه على ذقنه. «لقد سلبتُ العديد من الآباء أبناءهم» أجاب الغول.

سحب بابا أيوب منجله من خصره بغضب. «وها أنا أنتقم لهم جميعاً».

«لا بد لي من القول أن شجاعتك مثيرة للإعجاب».

«أنت لا تعرف أي شيء عن الشجاعة» أجابه بابا أيوب. لأن الشجاعة تعني أن يكون لديك ما يمكن أن تفقده إذا ما تشجعت، وأنا ليس لدي ما أخسره».

«ستخسر حياتك».

«لقد سلبتني إياها من قبل».

شخر الغول مرة ثانية وتمعن في بابا أيوب. وبعد فترة قال «حسناً جداً، كما تريد، سأمنحك المبارزة التي طلبت. ولكن أولاً أريد منك أن تتبعني».

«أسرع» قال بابا أيوب «فقد نفد صبري».

مشى الغول باتجاه باب عملاق ولم يكن أمام بابا أيوب سوى أن يتبعه. مشى خلفه عبر المداخل المتعددة كالمتاهات التي كانت تلامس الغيوم مدعمة بأعمدة هائلة. عبروا العديد من السلالم وغرف كبيرة بما فيه الكفاية لاحتواء ميدان سابز بأكملها. إلى أن أوصل الغول بابا أيوب لغرفة مهولة الاتساع.. وفي آخر تلك الغرفة شاهد بابا أيوب ستارة.

أشار له الغول أن يقترب. وقف بابا أيوب بجانب الغول. فتح الغول الستائر خلفها.. كانت توجد نافذة زجاجية. وعبر تلك النافذة رأى بابا أيوب حديقة ضخمة جداً. أحاطت بها أشجار السرو، وفرشت أرضها بأزهار من كل الألوان والأنواع. رأى فيها أحواض ماء مرصوفة بالخزف الأزرق ومحاطة بشرفات من الرخام تمتد حولها مساحات شاسعة من العشب الأخضر. رأى بابا أيوب نوافير ماء تشدو بالماء تحت ظلال أشجار الرمان. لم يكن ممكناً تخيل وجود كل ذاك الجمال في ثلاث أعمار قد يعيشها بابا أيوب.

لكن الأمر الذي جعل بابا أيوب يتهاوى على ركبتيه كان رؤيته لأطفال يركضون ويلعبون بسعادة في الحديقة. كانوا يطاردون بعضهم في الممرات وحول الأشجار. يلعبون لعبة الغميضة ويختبئون وراء الأسيجة. فتشت عيني بابا أيوب بين الأطفال، ووجدت أخيراً ما كان يبحث عنه. ها هو هناك... ابنه قيس.. حي يرزق.. وبصحة ممتازة. ازداد طوله وكان شعره أطول مما كان أبوه يذكر. يرتدي قميصاً أبيضاً جميلاً فوق بنطال لطيف. وكان يضحك بسعادة راكضاً وراء اثنين من رفاقه.

«قيس» همس بابا أيوب، وأمامه على الزجاج كانت أنفاسه ترسم

ضباباً. وبعدها صرخ منادياً ابنه.

«لا يستطيع سماعك» همس الغول «كما أنه لا يستطيع رؤيتك أيضاً».

راح بابا أيوب يتقافز غضباً، لوح بذراعيه وطرق على الزجاج بعنف شديد إلى أن أغلق الغول الستائر.

«أنا لا أفهم» قال بابا أيوب «كنت أعتقد...».

«هذه مكافئتك» أجابه الغول.

«وضح ما تقول.. أنا لا أفهمك» صاح بابا أيوب.

«لقد كنت أختبرك».

«تختبرني!».

«كنت أختبر حبك. كان التحدي قاسياً، أرى ذلك بوضوح، خسارتك الفادحة لابنك بادية عليك.

لكنك نجحت في الاختبار وهذه جائزتك. وتلك جائزته هو».

«لكني لم أختر أي شيء» وبكى بابا أيوب. «ماذا لو رفضت اختبارك كله؟».

«لو فعلت، لكان مصير أبناءك جميعاً هو الموت، لأنهم كانوا سيلعنون بأية حال وهم أبناء لرجل ضعيف. أب جبان يقبل بأن يراهم جميعاً أمواتاً بدل أن يتحمل عبئ ضميره. أنت تقول أن مجيئك إلى هنا ليس شجاعة، لكني أرى كل الشجاعة فيك. ما فعلته والمشقة التي وافقت على تحملها تتطلب الشجاعة. ومن أجل ذلك، أنا أحترمك».

سحب بابا أيوب منجله بضعف فانزلق من يده وجلجل صوت سقوطه على الرخام. خارت ركبتاه ورغب أن يجلس.

«ابنك لا يذكرك. هذه هي حياته الآن، وها أنت قد رأيت سعادته بأم عينك. إنه يحظى هنا بأفضل أنواع الطعام والملابس، يحظى بالصداقة الحقيقية والمودة الصافية. يتعلم هنا شتى أنواع اللغات والفنون

ويتعرف على طرق الحكمة والإحسان. لا ينقصه أي شيء. وفي يوم ما وعندما سيصبح رجلاً، قد يختار أن يغادر هذا المكان، وسيمتلك الحرية لتنفيذ ما يختاره. أعتقد أنه سيؤثر في العديد من الناس بلطفه وسيجلب السعادة لكثير ممن سجنوا داخل أحزانهم».

«أريد أن أراه، أريد أن آخذه معي للمنزل».

«هل تريد ذلك حقاً؟».

نظر بابا أيوب في عيني الغول.

مشى الغول باتجاه خزانة موجودة بجانب الستائر وأخرج من إحدى أدراجها ساعة رملية. «هل تعرف ما هذا يا عبد الله، إنها ساعة رملية. أنت تعرف ذلك. حسن».

أخذ الغول الساعة الرملية ووضعها أمام قدمي بابا أيوب.

«سوف أسمح لك بأخذه معك. إذا اخترت ذلك؛ فلن يستطيع العودة إلى هنا مطلقاً. كما لن تستطيع أنت أيضاً العودة إلى هنا. عندما ينتهي الرمل الموجود في الأعلى.. سأسألك عن قرارك».

وبذلك غادر الغول الغرفة تاركاً بابا أيوب أمام اختيار مؤلم جديد.

سآخذه للمنزل. هكذا فكر الأب بسرعة. هذه كانت رغبته التي يتمناها بكل ذرة من كيانه. ألم يتصور هذه اللحظة في ألف حلم، أن يحمل قيس الصغير ثانيةً ويقبل خديه ويتحسس نعومة يديه الصغيرتين بأصابعه؟ ورغم ذلك.. فكر بنوعية الحياة التي تنتظره هناك. حياة القرية الصعبة، سيكون فلاحاً في أفضل الأحول، كحاله هو، أو أكثر قليلاً من ذلك. وهذا إن لم يمت بسبب الجفاف كالعديد من أطفال القرية. هل تستطيع مسامحة نفسك عندها يا بابا أيوب..تساءل. هل سيسامحك هو على حرمانه من هذه الرفاهية والحياة المترعة بالفرص لأسبابك الأنانية الخاصة؟ ومن ناحية أخرى كيف سيحتمل تركه هنا

بعد أن عرف أنه على قيد الحياة..كيف سيفارقه بعد أن عرف أنه محروم من رؤيته رغم وجوده بين الأحياء؟ كيف سيحتمل كل هذا؟ بكى بابا أيوب كما لم يفعل من قبل. رفع الساعة الرملية ورماها على الحائط ببؤس شديد.. وهناك، تحطمت الساعة إلى ألف قطعة وتناثرت رمالها الناعمة في جميع أنحاء الغرفة.

دخل الغول الغرفة ووجد بابا أيوب مرتخي الأكتاف واقفاً فوق الحطام الزجاجي.

«أنت وحش قاس» قال له الأب.

«لو كنت قد عشت حياتاً طويلة جداً كالتي عشتها، لكنت عرفت أن الوحشية والحنان ليسا سوى ظلين مختلفين من ذات اللون. هل اتخذت قرارك؟».

جفف بابا أيوب دموعه والتقط منجله وربطه حول خصره ومشى نحو الباب ببطء مطرق الرأس.

«أنت أبٌ جيدٌ» قال الغول بينما كان بابا أيوب يمر من أمامه.

«أتمنى أن تشوى في الجحيم لما فعلته بي» قال له الأب. خرج من الغرفة وكان في طريقه للمدخل عندما ناداه الغول.

«خذ هذه» وأعطاه الغول قارورة زجاجية صغيرة تحتوي على سائل غامق اللون.

«اشربها في طريق عودتك للبيت. الوداع».

مضت أيام عديدة على مغادرة بابا أيوب حصن الغول. وهناك في ميدان سابز، جلست زوجته على أطراف حقلهم تتمنى عودة زوجها بذات الشدة التي تمنى بها بابا أيوب رؤية ابنهما قيس. كان أملها في عودته يتناقص مع مضي كل يوم. وبدأ الناس يتكلمون عنه بصيغة الماضي وكأنه مات ورحل إلى الأبد. جلست الزوجة على التراب يومها

تتمتم صلاة عندما لمحت شخصاً يقترب من القرية آتياً من جهة الجبال. اعتقدت أنه شحاذ في أول الأمر، لأنه بدا لها نحيلاً جداً تغطيه بالكاد بعض الخرق الرثة، عيناه غائرتان وخداه مجوفان كمعبدين للصلاة. لم تعرفه إلا حين اقترب منها. قفز قلبها فرحاً وصاحت مبتهجة بعودته.

اغتسل بابا أيوب وتناول طعاماً ومن ثم لزم بيته فيما كان القرويون يحومون حول البيت متسائلين عن مكانه كل ذاك الوقت.

«أين كنت بابا أيوب؟».

«احك لنا ماذا رأيت؟».

«ماذا حدث معك؟».

لم يستطع الرجل إجابتهم على أي من أسئلتهم، لأنه لم يكن يذكر أي شيء مما جرى معه. لم يذكر أي شيء عن رحلته الطويلة، عن تسلقه جبل الغول، عن حديثه مع الوحش، عن القصر الهائل، أو عن الغرفة ذات الستائر. كان يبدو كمن استيقظ من نومه دون أن يذكر أي شيء عن حلمه. لم يتذكر الحديقة السرّية، ولا الأطفال، والأهم من ذلك كله.. لم يذكر رؤيته لابنه قيس وهو يلعب مع أصدقاءه بين الأشجار. وفي الحقيقة.. كانت الحيرة تصيبه لدى ذكر أحدهم لصبي اسمه قيس، لقد نسي كلياً وإلى الأبد أنه كان أباً لطفل اسمه قيس.

هل ترى يا عبدالله الرحمة في هذا؟ لقد محت الجرعة السحرية التي أخذها من الغول كل تلك الذكريات من ذهنه، كانت جائزته لاجتيازه امتحان الغول الثاني بنجاح.

ذاك الربيع، رضيت السماء على ميدان سايز أخيراً، لم يهطل الرذاذ الناعم المعتاد لسنوات، بل هطلت أمطار عظيمة من السماء وقابلها الفلاحون العطاش بأذرع مفتوحة. راح المطر يطرق أسقف

الفلاحين طوال النهار مغطياً كل الأصوات الأخرى. تدحرجت حبات المطر الثقيلة على أوراق الأشجار. طفحت الآبار بالمياه وارتفع مستوى النهر. غطى اللون الأخضر السهول الشرقية. أزهرت الأزهار البرية. ولأول مرة منذ سنوات عديدة، لعب الأطفال على العشب الأخضر جنباً إلى جنب مع الأبقار التي راحت ترعى مباشرة من الأرض.

وعندما توقفت الأمطار، كان لدى الفلاحين أعمال يتوجب القيام بها.. فقد تبعثرت بعض الجدران الطينية وتدلت بضعة سقوف وتحولت الأرض الزراعية لمستنقعات. لكن الفلاحين لم يكونوا ليتذمروا من كل هذه المهام بعد سنوات الجفاف الرهيبة تلك. بنيت الجدران وأصلحت السقوف وفتحت قنوات الري. وفي ذاك الخريف، أنتجت أرض بابا أيوب أفضل وأوفر محصول فستق في حياته. وفي الواقع، راحت محاصيله تزداد وتتضاعف مع مرور الأعوام حجماً ونوعيةً. كان يجلس فخوراً وراء أهرامات من فستقه في المدن الكبرى حيث بدأ ببيع محصوله كأسعد رجل مرّ يوماً من هذا العالم. لم يُصب الجفاف ميدان سابز بعد ذلك أبداً.

بقي القليل من القصة ليروى، يا عبد الله. قد تسأل.. هل عبر شاب وسيم القرية ممتطياً حصانه وهو في طريقه لخوض المغامرات العظيمة؟ هل توقف ربما لشرب الماء الذي بات وفيراً في القرية الآن؟ وهل جلس لتناول الطعام مع أهل القرية؟ بمن فيهم بابا أيوب؟ لا أستطيع إخبارك. كل ما أستطيع قوله هو أن بابا أيوب كبر في السن إلى أن أصبح رجلاً عجوزاً جداً، وأنه زوج أبناءه كما تمنى دوماً، وأن أبناءه حملوا العديد من أبنائهم الذين جلبوا لبابا أيوب سعادة عظيمة.

وأستطيع إخبارك أيضاً، أن بابا أيوب، ولسبب غير معروف، لم يكن يستطيع النوم في بعض الليالي. مع أنه كان رجلاً كهلاً، إلا أنه

كان ما يزال قادراً على الوقوف على قدميه بمساعدة عصاه. وهكذا. في إحدى ليالي الأرق.. نهض من فراشه دون إيقاظ زوجته وأمسك عصاه وغادر المنزل. راح يمشي في الظلام وعصاه تنقر الأرض أمامه ، والنسمات الليلية تمسّد وجهه. إلى أن وصل لصخرة مسطحة على طرف حقله حيث كان يجلس عادةً لساعة أو أكثر محدقاً في النجوم، في الغيمات الطافية أمام وجه القمر. في هذه الليلة فكر بحياته الطويلة وشكر الإله على كل الخيرات والأمور المبهجة التي منحه إياها. كان تمني أي شيء أكثر مما قد وهبه الله فعلاً مجرد تفاهة. تنهد بسعادة وأنصت للريح القادمة من الجبال، وإلى أصوات طيور الليل.

ومن وقت لآخر، كانت يتناهى لسمعه صوت آخر. وكان الصوت نفسه كل مرة، رنين جرس. لم يفهم سبب سماعه لهذا الصوت في الليل رغم أن كل الخراف والأبقار نائمة. أحياناً كان يغالط نفسه وينكر ما تسمعه أذناه، وأحياناً أخرى كان يثق بأن ما سمعه ليس سراباً وينادي في الظلام «هل هناك أحد هنا؟ من هناك؟» لم يتلق العجوز إجابة على نداءاته أبداً. لم يفهم بابا أيوب أبداً ما يحصل معه، كما لم يفهم أبداً لماذا تنتابه موجة إحساس ما، إحساس يماثل الاستيقاظ من حلم حزين دون تذكر أي شيء سوى خاتمته بالكاد، كلما كان يسمع صون رنين أي جرس، ولماذا تفاجئه جلجلة الأجراس كوصول ضيف على حين فجأة ممن تحملهم الريح معها. ومن ثم ينتهي الإحساس كما بدأ، سريعاً، كما تنتهي كل الأشياء الأخرى.

وهكذا يا ولدي، تنتهي القصة. ليس لدي ما أقوله أكثر من هذا. لقد تعبت وتأخر الوقت. يجب أن أستيقظ وأختك مع الفجر. أطفا شمعتك. أغمض عينيك. نم جيداً يا صغيري. وسنودع بعضنا صباحاً.

الفصل الثاني

خريف العام 1952

لم يضرب الأب ولده عبدالله يوماً. ولذلك، عندما فعل ذلك، ولطم جانب رأسه فوق الأذن، قفزت من عيني الصبي دموع الدهشة وجحظ محجراه كنخلة مفتوحة الأوراق من المفاجأة. رمش الولد بعينيه ليبتلع دموعه.

«اذهب للبيت» قال الأب صاراً أسنانه بغضب. ومن البعيد، سمع عبدالله صوت باري وهي تبكي.

ثم ضربه أبوه مرة أخرى، ضربة أقوى، هذه المرة على الخد الأيسر. احترق وجهه وسالت دموعه أكثر فأكثر. وصفرت أذنه اليسرى. انحنى الأب فوقه، واقترب من عيني الصبي جداً إلى أن غطى بوجهه المجعد المظلم كل ما يحيط بهما من صحارى وجبال وسموات.

«قلت لك أن تذهب للبيت». قالها وعينيه تنزفان حزناً.

لم ينبس الصبي بكلمة. ابتلع لعابه بصعوبة وحدق بأبيه، رمش

بعينيه أمام الوجه الذي كان يقي عينيه من الشمس.

وفي العربة الحمراء الصغيرة، بكت باري ونادته وصوتها يهتز خوفاً. أوقفه أبوه بنظرته القاسية وتركه عائداً للعربة. مدت باري يديها الصغيرتين من سريرها. وهكذا، أفسح لهم عبدالله الطريق وهو يمسح دموع عيونه بكفيه. ومشى وراءهم.

بعد برهة من تحركهم، رمى الأب حصاة صغيرة باتجاهه، كما كان الأطفال في الطرقات يرمون كلب باري بالحجارة، ما عدا أن أولئك الأطفال كانوا يقصدون إيلام الكلب وإيذاءه. سقطت حصاة الأب على بعد بضعة أقدام من قدمي عبدالله بهدوء، وعندما تابع الأب سيره تعقبهم عبدالله مرة أخرى.

أخيراً، عندما مالت الشمس عن ذروتها، توقف الأب مجدداً. وعاد باتجاه عبدالله وهو يتفكر في الأمر، ويشير بيده.

«ألن تستسلم!» قال له.

امتدت يد باري الصغيرة من سرير العربة لتستقر في يد عبدالله. نظرت إليه بعينين طافحتين دمعاً وأشرقت ابتسامتها العريضة إلى أن رأى فجوات أسنانها اللبنية الصغيرة التي سقطت حديثاً وكأن لا ضرر سيصيبها ما دام بجانبها. أطبق أصابعه على يدها كما كان يفعل كل ليلة وقت النوم في مهدهما الصغير، تتلاصق الرؤوس وتتشابك الأرجل.

«كان من المفترض أن تبقى في البيت» قال الأب «مع أمك وإقبال، كما أمرتك».

وفي رأس عبد الله الصغير دارت الأفكار.. تلك زوجتك، أمي هي المرأة التي دفناها منذ سنوات. لكنه عرف كيف يخنق كلماته قبل أن تتفوه بها شفتيه.

«حسناً، تعال معنا. ولكني أحذرك، لا بكاء بعد اليوم أبداً».

«نعم».

«أحذرك.. لن أحتمله».

ابتسمت باري ابتسامة عريضة لعبدالله، ونظر هو لعينيها الشاحبتين وخديها المستديرين الورديين، وابتسم لها أيضاً.

واعتباراً من تلك اللحظة، مشى عبدالله بجانب العربة المندفعة فوق الطريق الصحراوي المليء بالحفر ممسكاً بيد باري الصغيرة. تبادلا الحديث عن ذكرياتهما السرّية السعيدة. لكنهما لم يقولا سوى القليل خوفاً من إثارة غضب الأب كي لا يفسد عليهما لحظاتهما هذه. وعلى مدى المسافات، لم يكن هناك أحد سواهم هم الثلاثة.. لا شيء.. لا أحد على مدّ البصر عدا المنحدرات الصخرية النحاسية. امتدت الصحراء أمامهم منبسطة وعريضة وكأنها خلقت لأجلهم، لأجلهم وحدهم. الهواء ساكن، مشتعل، السماء زرقاء بعيدة. الصخور بارزة فوق أرضيات متشققة. لم يسمع عبدالله أي صوت غير صوت أنفاسه وصرير العجلات الإيقاعي تحت عربة الصغيرة الحمراء المتجهة للشمال.

توقفوا للراحة بعد فترة في ظل جلمود صخري. رمى الأب مقود العربة أرضاً متأوهاً. قوس ظهره للخلف، أصابته قشعريرة، ورفع وجهه للشمس.

«كم من الطريق تبقى لكابول؟» سأل عبدالله أباه. أحنى الأب رأسه ونظر إليهما. كان اسمه سابور، بشرته داكنة ووجهه ذو عظام بارزة حادة، له أنف متقوس كمنقار صقر الصحاري.. وعينان مستقرتان عميقاً داخل محجريهما. كان الأب نحيلاً كقصبة، لكن عمراً من العمل الشاق جعل عضلاته قوية، مشدودة بإحكام كالخيزران الهندي الملفوف حول ذراعي الكرسي الخشبي.

«سنصل بعد غد». قال وهو يرفع قربة الماء لشفاهه «إذا أسرعنا في المشي». راحت تفاحة آدم في رقبته ترتفع وتنخفض وهو يأخذ جرعة

طويلة من الماء.

«لماذا لم يوصلنا العم نبي؟ لديه سيارة» قال عبدالله.

أدار الأب عينيه باتجاه الصبي.

«لو فعل لما كان علينا أن نمشي كل هذا الطريق».

لم يقل الأب أي شيء. نزع طاقيته الملوثة بالسخام ومسح عرق جبينه بكم قميصه.

برزت إصبع باري من العربة وهي تصرخ «واحدة أخرى».

نظر عبد الله بالاتجاه الذي أشارت إليه وتتبع إصبعها إلى بقعة في الظل حيث كانت هناك ريشة طويلة رمادية كالفحم بعد احتراقه. مشى عبد الله إليها والتقطها من الجذع. نفخ عنها الغبار.فكر بأنها قد تكون قد سقطت من صقر، أو حمامة، أو لربما قبرة صحراء. لقد رأى العديد من هذه الطيور اليوم. لا... إنها لصقر. نفخ عليها مرة أخرى وأعطاها لباري التي اختطفتها بسعادة.

في البيت، في شادباغ، تركت باري تحت وسادتها علبة شاي صفيحية قديمة أعطاها إياها أخوها عبد الله. كان مزلاجها صدئاً وعلى غطائها رسم رجل هندي ملتح يرتدي عمامة وسترة حمراء طويلة ويحمل بكلتا يديه فنجان شاي يتصاعد منه البخار. احتفظت بكل الريش الذي جمعته داخل ذاك الصندوق. تلك الريشات كانت أثمن ما تملك. بينها الخضراء العميقة وريش الديك الأحمر الغامق الكثيف، ريشة ذيل من حمامة بيضاء وأخرى لعصفور بنّي منقطة بلطخات غامقة. أكثر ما كان يثير فخر باري هو ريشة طاووس خضراء قزحية الألوان لها عين واسعة جميلة على الطرف الأعلى.

أهداها عبد الله هذه الريشة منذ شهرين. كان قد سمع عن صبي في القرية المجاورة يمتلك طاووساً. وفي أحد الأيام، كان الأب مشغولاً

بحفر الخنادق بعيداً في بلدة تقع جنوب شادباغ. مشى عبد الله إلى القرية المجاورة وبحث، عن الولد وطلب منه ريشة من ذيل طاووسه. انتهت المفاوضات بينهما على أن يعطيه الولد الريشة مقابل حذاءه. وصل عبد الله عائداً إلى شادباغ وريشة الطائر مثبتة في خصر بنطاله تحت القميص، وقدماه المتشققتين تنزفان وتتركان وراءه لطخات دامية. ومع كل خطوة يخطوها كانت نار الألم تلتهم قدميه بالأشواك والشظايا المغروسة بتصميم من أراد أن يخبئ كنزاً.

وعندما وصل إلى البيت وجد زوجة أبيه بروانة خارج الكوخ، منحنية أمام الفرن تحضر الخبز اليومي. تفاداها بسرعة واختبأ وراء شجرة البلوط العملاقة قرب البيت وراح ينتظر انتهائها. اختلس النظر إليها وهي تعمل.. كان لها كتفان عريضان وذراعان طويلتان وكفان خشنان بأصابع قصيرة ثخينة. لها وجه مستدير مكتنز لا يحتوي على أي من نعومة وبراءة الفراشة التي كانت تحمل اسمها.

تمنى عبد الله لو كان باستطاعته أن يحبها كما كان يحب أمه. أمه التي نزفت حتى الموت وهي تضع أخته باري منذ ثلاثة أعوام ونصف، عندما كان هو في السابعة من عمره. أمه التي لم يغب وجهها عن مخيلته يوماً. أمه التي حملته دوماً إلى صدرها ومسدت خده كل ليلة قبل النوم وغنت له تهويدة:

وجدت جنية صغيرة حزينة

في ظل شجرة الأوراق الكبيرة

اعرف جنية صغيرة حزينة

ذهبت بها الريح ذات ليلة.

كان يتمنى لو كان يستطيع أن يحب أمه الجديدة بنفس الطريقة.

وقد كان يعتقد أن بروانة أيضاً كانت تتمنى الأمر نفسه، لو أنها تستطيع أن تحبه، كما كانت تحب إقبال، ابنها ذو العام الواحد من العمر، الذي كانت تقبل وجهه دوماً، والذي تقلق عليه بسبب عطسة أو سعال بسيط. أو كما كانت تحب عمر.. ابنها البكري. كانت تعشقه. لكنه مات من برودة الشتاء القاسية العام قبل الماضي. لم يكن يبلغ من العمر سوى أسبوعين، بالكاد، سمّاه الوالدان قبل أن يموت. كان أحد الأطفال الثلاثة الذين توفاهم الموت ذاك الشتاء المتوحش. تذكر عبد الله بروانة وهي ممسكة بجثة ابنها الصغيرة المقمطة، والحزن يأكلها. تذكر يوم دفنوه أعلى التلة الصغيرة فوق الأرض الجليدية، وتحت السماء الغائمة. والشيخ يتلو الصلوات.. ورشقات من الثلج تلفح وجوههم وتندس في عيونهم مع كل هبة ريح.

توقع عبد الله غضب بروانة عندما ستعرف أنه قايض حذاءه الوحيد مقابل ريشة طاووس. وهو الحذاء الذي عمل الأب طويلاً تحت الشمس ليستطيع دفع ثمنه. قد تتركه لشأنه عندما ستعرف، وقد تضربه، لأنها ضربته قبل ذلك عدة مرات. كانت يديها ثقيلة قاسية بعد سنوات من حمل أختها المريضة.. كانت يداها تعرفان جيداً كيف تكنسان الأرض كما كانتا تعرفان كيف تصفعا بقوة.

ومن أجل الصدق، لم تشعر بروانة يوماً بالرضى بعد ضربه، وبنفس الوقت كانت عاجزة عن إظهار بعض من الرقة تجاه ابني زوجها. مرة، خاطت لباري ثوباً أخضراً وفضياً صنعته من قماش جلبه الأب من كابول. وفي أحد المرات علّمت عبد الله بصبر عجيب كيفية كسر بيضتين مع بعضهما دون أن يكسر المح. كما أنها في يوم مضى علمتهما كيف يصنعان الدمى من قش الذرة، كما كانت تفعل مع أختها عندما كانتا صغيرتين. كما علمتهما كيف يصنعان الملابس للدمى من فضلات

القماش الممزقة.

كان عبد الله يعرف أن كل تلك التصرفات تنبع من الشعور بالواجب، لا أكثر، وهو شيء لا يقارن بالمحبة والشغف الذين تعامل ابنها إقبال بهما. كان عبد الله يعرف أي طفل ستنقذه بروانة أولاً إذا اشتعلت النيران في بيتهم يوماً، دون تردد. في النهاية.. كان الأمر بسيطاً، لم يكونوا أطفالها هي، هو وباري. وكل الناس يحبون أبناءهم هم. لم يكن بيد عبد الله وباري فعل أي شيء لتغيير هذا الواقع. كانا بقايا امرأة أخرى.

انتظر عبد الله ريثما أدخلت بروانة الخبز للمنزل، وراقبها وهي تخرج حاملة إقبال بذراع وتتأبط تحت الذراع الأخر بعض الغسيل. راقب خببها باتجاه الجدول وانتظرها إلى أن ابتعدت ثم انسل للمنزل. في الداخل، جلس، وأخرج صندله البلاستيكي القديم، وهو الحذاء الآخر الوحيد الذي كان يمتلكه. عرف الولد أن ما فعله كان أمراً غير معقول. ولكنه لقي مكافئته عندما استلقى بجانب باري وأيقظها بلطف، وأخرج الريشة من وراء ظهره كساحر ورأى المفاجأة ترتسم على وجهها ومن ثم البهجة وهي تقبل خديه، بالطريقة التي تدغدغت بها وهو يقرب الريشة الناعمة من أسفل ذقنها.. وفجأة، تلاشى ألم قدميه وكأنه لم يكن.

مسح الأب وجهه بكمه مرة أخرى وتناوبوا الشرب من قربة الماء، وعندما انتهوا قال له الأب: «أنت متعب يا ولد».

«لا» أجاب عبد الله. مع أنه كان متعباً حقاً، كان مستنزفاً وقدماه متأذيتان. لم يكن عبور الصحراء بصندل أمراً سهلاً.

«تسلق إلى العربة» قال له الأب.

في العربة، جلس عبد الله خلف باري وأسند ظهره إلى جدار العربة الخلفي، وكانت عظام ظهر أخته الصغيرة تضغط على بطنه وصدره.

ومع تقدم العربة.. راح عبد الله يحدق إلى السماء والجبال.. صفوف من التلال تلي أخرى، إلى التلال المستديرة البعيدة عبر المسافات. راقب ظهر أبيه وهو يسحبهم. رأسه المنحني وقدميه اللتان تحفران الرمل البني المحمر. وعبور قافلة بدو الكوشي، موكب ترابي مجلجل بأصوات الأجراس وصرير الجمال، ورأى امرأة مكحلة العينين ذات شعر بلون الحنطة تبتسم له.

ذكره شعرها بشعر أمه، وقد آلمه هذا كثيراً، تألم على فراق لطافتها والسعادة الغريزية التي كانت تشع منها، على الحيرة التي كانت تنتابها من وحشية الناس.. وكأنها توفيت للتو. تذكر ضحكتها ذات الشهقة وإمالتها لرأسها حين تشعر بالخجل. كانت أمه امرأة رقيقة الجسد والمشاعر، ناعمة، ضعيفة، ذات خصر ضيق ولبدة شعر تتدلى دوماً من تحت وشاحها. وكان يتعجب بينه وبين نفسه ..كيف يمكن لمثل هذا الجسم الصغير الضعيف أن يحتوي كل تلك البهجة والطيبة. هذا غير ممكن في الطبيعة. هكذا كان يعتقد. كان المرح ينسكب منها، من عينيها. أما الأب فقد كان شخصاً مختلفاً. كان مجبولاً بالقسوة. كانت عيناه تنظران إلى ذات العالم الذي كانت الأم تنظر إليه، ومع ذلك لم تكن عيناه تحويان سوى اللامبالاة. الكدح الذي لا ينتهي. في عالم الأب.. لا شيء مجاني. حتى الحب. يجب أن يدفع لقاء كل شيء. وإذا كان المرء فقيراً فإن عملته هي المعاناة. نظر عبدالله إلى فرق الشعر في رأس أخته الصغيرة، إلى رسغها الضيق المعلق إلى طرف العربة، وعرف أن شيئاً من أمه ما زال حياً في أخته باري. شيء من تكريسها لذاتها بكل بهجة للآخرين، تفاؤلها العظيم. إن باري هي الشخص الوحيد الذي لن يؤذيه في حياته. وفي بعض الأيام، كان عبد الله يشعر أن باري هي العائلة الحقيقية الوحيدة التي كان يحظى بها.

تحولت ألوان النهار ببطء لتستحيل السماء للون الرمادي، وبدت قمم الجبال البعيدة وكأنها صور ظليلة لعمالقة يستلقون في البعيد. كانوا قد مروا بالعديد من القرى خلال النهار. ومعظمها واسعة ومتربة مغبرة مثل قريتهم شادباغ. بنيت البيوت على هيئة مربعات من اللبن المشوي، بعضها كان يستند على حواف الجبال وبعضها لا. وبدت لهم أشرطة من الدخان تتصاعد من السقوف. حبال الغسيل، نساء أمام نيران الطبخ، بضعة أشجار حور، دجاج، أبقار وماعز، ودائماً ترى مسجداً. وآخر قرية عبروها كانت ملاصقة لحقل خشخاش. حيث لوح لهم رجل عجوز ونادى بشيء لم يفهمه عبد الله. وبالمقابل لوح له الأب أيضاً.

«عبدالله» صاحت باري.

«نعم».

«هل تعتقد أن شوجا حزين؟ هل يؤذيه أحد ما؟».

«لا أحد سيؤذيه. إنه كلب كبير يا باري، يستطيع الدفاع عن نفسه».

كان شوجا كلباً كبيراً، ولا بد أنه كان يوماً ما كلب قتال، لأن أحدهم قطع أذنيه وذيله. عندما وصل ذاك الكلب الضالّ إلى شادباغ، رماه الأطفال بالحجارة ونكزوه بفروع الأشجار وأسياخ دواليب الدراجات الصدئة. ومع ذلك لم يقاومهم. ملّ الأطفال من مضايقته مع الوقت وتركوه لشأنه. وبالرغم من ابتعادهم عنه، بقي شوجا حذراً، وكأنه لن ينسى لهم قسوتهم معه في الماضي.

تفادى شوجا كل الناس في شادباغ عدا باري. معها وحدها كان يفقد هدوءه. كان حبه لها هائلاً وصافياً. كانت عالمه كله. في الصباح، كان ينتظر خروجها من المنزل لينهض، ينفض جسده كله ويهز قرمة ذيله المجدوع بعنف ويتراقص حولها وكأنه يقفز فوق الجمر. يركض حولها في دوائر سعيدة. يمشي ورائها كظلها طوال النهار ويتشمم كعبي

قدميها. وعندما يحل المساء، أوان الفراق، يستلقي أمام باب المنزل يائساً بانتظار الصباح.

«ابّو للّه؟».

«نعم».

«عندما سأكبر، هل سأعيش معك؟».

راقب عبدالله مغيب الشمس البرتقالية في الأفق. «إذا أردت. لكنك لن ترغبين بذلك».

«سأفعل».

«سترغبين في بيت خاص بك».

«باستطاعتنا أن نكون جيراناً».

«ربما».

«لن تعيش بعيداً عني».

«ماذا لو مللت من وجودي».

وخزته بمرفقها. «لن أمل من وجودك».

ابتسم عبد الله ابتسامة عريضة لنفسه.

«حسناً».

«ستسكن قريباً مني».

«نعم».

«إلى أن نشيخ معاً».

«نشيخ معاً».

«وسنبقى معاً دائماً»

«نعم، دائماً».

التفتت ونظرت إليه «هل تعدني، ابو اللّه؟».

«أعدك، دائماً وإلى الأبد».

لاحقاً، حمل الأب ابنته على ظهره وتقدم مشياً، وراح عبد الله يجر العربة الفارغة وراءهم. وبينما كانوا يمشون، غرق الصبي في غيبوبة بلا أفكار. لم يكن يشعر سوى بركبتيه وهما تتقدمان، وحبات العرق المتدحرجة من حافة طاقيته. وقدميّ باري الصغيرتين وهما تخبان على ظهر الأب. متعلقاً بظل الأب الطويل فوق أرضية الصحراء الرمادية، الذي كان يبتعد عنه إذا تباطأ.

كان العم نبي أخو بروانة الأكبر من وجد هذا العمل الجديد للأب وهو يعمل طاهياً وسائقاً في كابول. وكان يقود السيارة مرة كل شهر لزيارتهم. وكانوا يعرفون بوصوله من صوت نفير السيارة وصراخ أطفال القرية الذين يطاردون السيارة الزرقاء الكبيرة ذات الحواف اللماعة والسقف الأسمر، كانوا يصفعون الزجاج والنوافذ إلى أن يطفئ المحرك ويخرج منها مبتسماً، بوجهه الوسيم وسالفيه الطويلين وشعره الأسود المجعد المسرح من جبهته للخلف، وهو يرتدي حلته الزيتونية الكبيرة جداً عليه وقميصه الأبيض ذو الكمين البنيين. كان الجميع يخرج لرؤية ذاك الشخص الذي يقود السيارة، مع أنهم يعرفون أنها تعود لسيد ما وليست له، ولأنه كان يرتدي بذلة ويعمل في المدينة الكبيرة، كابول.

وفي زيارته الأخيرة أخبر الأب عن العمل. حيث أن أرباب عمله كانوا يبنون دار ضيافة ملحقاً بمنزلهم في الفناء الخلفي مع حمامه الخاص، وهو مبنى منفصل عن البيت الرئيسي، وكان العم نبي من اقترح عليهم أن يشغلوا أبا عبد الله، لأنه كان يعرف كيف يدبر أموره في مواقع البناء. وقال العم أن الأجر سيكون مجزياً وسيدوم شهراً فقط ريثما ينتهي العمل.

كان الأب يعرف خبيراً في مواقع البناء لأنه قد عمل بعدد منها من قبل. وحسب ما يذكر عبدالله، فإن أباه كان يتجول باحثاً عن عمل ويدق الأبواب سائلاً عن من يشغله ليوم واحد. وقد سمعه مرة يقول لشيخ القرية الملا شكيب أنه لو كان قد ولد حيواناً لكان بغلاً دون شك. اصطحبه أبوه معه إلى أعماله تلك. قطفوا التفاح مرة في بلدة تبعد مسير يوم كامل عن شادباغ، وتذكر عبد الله كيف وقف أبوه فوق السلم ليوم كامل حتى مغيب الشمس، تذكر كتفيه المحنيين من الكدّ، ورقبته المحروقة من الشمس وجلد ساعديه السميك، وأصابعه العريضة تلتف حول التفاح وتقطفه كل واحدة على حدى. وفي بلدة أخرى صنعوا طوباً لبناء مسجد. وهناك، علمه أبوه كيف يجمع الطين الجيد، وهو ذو اللون الغامق العميق، كيف ينخلونه ليفصلوا عنه الأوساخ، ويضيفون له القش. وعلمه بصبر كيف يعاير الماء كي لا يتحول الخليط إلى سائل غير مفيد. خلال العام الماضي وحده كان الأب قد عمل في حمل الحجارة وكنس القمامة وحرث الحقول وعمل مع مجموعة لرصف الطرقات بالإسفلت.

عرف عبد الله في قرارة نفسه أن والده كان يلوم نفسه سراً على موت عمر الصغير. فلو كان قد وجد عملاً أكثر أو عملاً أفضل لكان استطاع شراء ملابس أكثر دفئاً للرضيع، وبطانيات أسمك. ولربما استطاع شراء مدفأة مناسبة لتدفئة المنزل. لم يتفوه الأب بكلمة عن عمر منذ دفنه، لكن عبد الله كان يعرف بم يفكر الأب.

يذكر عبد الله رؤيته لوالده يوماً بعد موت عمر واقفاً وحده تحت شجرة البلوط العملاقة. هذه الشجرة كانت أضخم وأعلى من أي شيء في شادباغ، كانت أقدم من القرية نفسها. وقد سمع أباه يوماً يقول أنها لربما شهدت مسير جيش الإمبراطور بابور وهو في طريقه لاحتلال كابول. قال له أنه أمضى نصف سني طفولته في ظلها الهائل وفي

محاولة تسلق أغصانها المتدلية، وأن أباه ـ أي جد عبد الله ـ ربط حبالاً طويلة إلى أحد أغصانها الثخينة وصنع لهم أرجوحة، البدعة التي قاومت فصولاً قاسيةً لا تحصى، وقاومت الرجل العجوز نفسه. حكى له كيف كان يتناوب مع بروانة وأختها معصومة الركوب في تلك الأرجوحة عندما كانوا أطفالاً.

ولكن، في هذه الأيام، كان الأب منهكاً دوماً ومستنزفاً من العمل الشاق، لذا لم يكن يستطيع تلبية باري وهي تشد كميه راجيةً إياه أن يرفعها لتطير في الأرجوحة.

«ربما غداً يا باري».

«قليلاً فقط يا أبي، انهض أرجوك».

«ليس الآن، في وقت آخر».

وهكذا كانت تستسلم في النهاية وتترك كميه. كان وجه الأب ينهار أحياناً عندما يراها وهي تذهب عنه. ويستدير في سريره ساحباً لحافه ومغمضاً عينيه المرهقة.

لا يمكن لعبد الله أن يتخيل أن أباه كان طفلاً يتأرجح يوماً. لم يستطع يوماً تخيله كطفل صغير مثله. صبي معفى من الهموم، صبي سعيد، يركض بلا هدى بين الحقول المفتوحة مع رفاقه. هذا الأب ذو الكفين المشققتين والوجه المحفور بالخطوط العميقة من التعب. الأب الذي يبدو أنه قد ولد والمجرفة بيده، وأنه ولد والطين محشي تحت أظافره.

وجب عليهم المبيت في الصحراء تلك الليلة كانوا قد تناولوا آخر ما لديهم من الخبز وحبة البطاطا المسلوقة التي جهزتها لهم بروانة. أوقد الوالد النار وجهّز الإبريق من أجل تحضير الشاي.

وفي تلك الأثناء استلقى عبدالله خلف الموقد وقد غمر نفسه بالبطانية الصوفية خلف باري التي مددت أقدامها الباردة مقابله. انحنى الأب أمام النار وأشعل سيجارة.

استلقى عبدالله على ظهره وعدلت باري نومها لتضع خدها تحت عظم ترقوته كما اعتادت يومياً. تنفس ملئ رئتيه رائحة الصحراء الجافة وأمعن النظر في السماء المثقلة بالنجوم كبلورات الثلج: تومض وتتلألأ، وفي القمر الهلالي الذي بزغ مغطياً ما حوله بغلالة شبحية. تداعى فكر عبدالله للشتاء قبل الماضي، عندما أظلمت الدنيا وصفرت الريح من خلال شقوق الباب، ببطء وبصوت عال، ولزمن طويل، كانت تتسرب من كل شق صغير في سقف البيت. وفي الخارج، محا الثلج معالم القرية، وكانت الليالي طويلة والسماء خالية من النجوم، أما الأيام فقد كانت قصيرة، كئيبة لأن الشمس لم تكن تظهر سوى لفترات وجيزة ومن ثم تعود لاختبائها. تذكر بكاء عمر الطويل، ومن ثم صمته المفاجئ. ومن ثم خروج والده المتجهم ليقطع لوحاً خشبياً بمنجله الهلالي الذي يشبه القمر في السماء الآن، وتذكره وهو يقطع اللوح على الأرض المتجمدة من الصقيع ليضعه فوق رأس قبر صغير. وها هم الآن، في نهاية الخريف مرة أخرى والشتاء لهم بالمرصاد. ومع ذلك، لم يسمع والده أو بروانة يتحدثان عنه، كما لو أن الحديث عن الشتاء يعجل بوصوله.

«أبي؟» ومن الجانب الآخر للنار أجابه الأب بصوت همهمة ناعم

«هل تسمح لي بمساعدتك في بناء دار الضيافة؟».

ارتفع الدخان من سيجارة الأب وهو يحدق في الظلام. تحرك على الصخرة التي كان يستلقي عليها وقال

«أفترض أن بإمكانك المساعدة على خلط الطين».

«لا أعرف كيفية فعل ذلك».

«سأعلمك، وستتعلم».

قالت باري: «ماذا عني؟».

«أنت؟؟» قال الأب ببطء. وتناول سحبة من سيجارته وحرّك الجمر بعود متيبس. تراقصت الشرارات الصغيرة المتفرقة في العتمة. «أنت ستكونين المسئولة عن الماء، عن تزويدنا بحاجتنا منها لأن الرجل لا يستطيع العمل وهو يشعر بالظمأ».

صمتت باري. فأردف عبدالله «والدنا محقّ» وهو يشعر أن باري تريد اللعب بالأوساخ والوحل بيديها وأن أملها بذلك قد خاب بعد ما قالها أبوها. فتابع «لن نستطيع إكمال دار الضيافة ما لم تحضري لنا الماء».

مرر الأب العود تحت مقبض إبريق الشاي ورفعه عن النار ووضعه جانباً ليبرد. ثم قال «اسمعي.. أنجزي مهمة الماء بنجاح وسوف أوكل لك مهمة أخرى».

مالت باري بذقنها نحو وجه عبدالله ونظرت إليه بابتسامة مضيئة. تذكرها وهي رضيعة، عندما كانت تنام على صدره، تذكر عندما كان يفتح عينيه في الليل ليجد ابتسامة عريضة صامتة على وجهها تماماً كما يراها الآن.

مع أنه كان في العاشرة من عمره، إلا أنه من كان يربّيها. كان الشخص الذي توقظه عندما تستيقظ ليلاً قبل أن تتعلم الكلام، لينهض ويحملها في الليل ويغير حفاظها الملوّث. كان الشخص الذي يحمّمها، لم تكن تلك مهمة الأب ـ لأنه كان رجلاً ـ بالإضافة لأنه كان دوماً منهكاً من العمل. أمّا زوجته بروانة الحامل بعمر فقد كانت بطيئة الحركة وغير قادرة على تلبية احتياجات باري. لم تمتلك يوماً الصبر أو الطاقة للعناية بها. وهكذا، وقعت مسؤولية العناية بباري على عاتق عبدالله الذي لم يمانع يوماً في ذلك، بل كان يقوم بكل شيء بسرور. أسعدته حقيقة أنه

من علمها أخذ خطوتها الأولى وساعدها لتلفظ كلمتها الأولى. كانت العناية بأخته هدف وجوده في الحياة..هكذا كان يعتقد، أن الله أوجده للقيام بهذه المهمة، ولهذا، كان يعتني بأخته بعد موت أمهما.

«بابا» قالت باري. «احك لنا قصة».

«لقد تأخر الوقت».

«أرجوك يا أبي».

كان الأب رجلاً صموتاً بطبيعته. لم يكن يتفوه بأكثر من جملتين متتاليتين إلا نادراً. ولكنه أحياناً، ولأسباب لا يعرفها عبدالله، كان يتفتّح فجأة، ويبدأ برواية قصص مشوقة. كان يضع عبدالله وباري أمامه بينما تعمل بروانة بقدورها في المطبخ ويحكي لهم قصص جدته. يحملهم لأرض السلاطين والجن والغيلان والدراويش والحكماء. وفي أوقات أخرى كان يخترع لهم القصص من عقله مباشرة، والتي كانت تدلّ على خيال واسع وعالم سحري يدهش عبدالله. لم يشعر الصغير بحضور الشخصية الحقيقية لأبيه وحيويته النابضة وصدقه إلا في تلك الأوقات، عندما كان يخبرهم قصصه. كما لو كانت حكاياته لمحات من عالمه الأصلي، الغامض والبعيد.

وهكذا، عرف عبدالله من معالم وجه والده أن لا قصة ستروى الليلة.

«الوقت متأخر» قال الأب ثانية. رفع الإبريق بطرف شاله المتدلي من كتفه وصبّ لنفسه كوب شاي. نفخ البخار وأخذ رشفة ووجهه يتوهج بلون برتقالي أمام النار.

سحب عبدالله البطانية فوق رأسيهما، وغنى تحتها وراء رقبة باري:

وجدت جنية صغيرة حزينة

تحت ظل شجرة ورقية

وتابعت باري بصوتها النعسان

أعرف جنية صغيرة حزينة

وغرقت في النوم بعد تفوهها لهذه الكلمة.

صحا عبد الله بعد فترة من النوم ولم يجد أباه. انتصب بخوف. تلاشت النار تقريباً ولم يبق منها سوى بضع شذرات قرمزية من الجمر. نظر يساراً ويميناً لكنه لم يميّز شيئاً في الظلام الممتد والخانق في نفس الوقت. شعر باصفرار وجهه وتلاحق أنفاسه وخفقان قلبه والحدة في أذنيه. حبس أنفاسه وهمس «أبي؟؟».

عمَّ الصمت.

نما الرعب كالفطر في صدره بسرعة وبغزارة. جلس جيداً بجسد مشدود وأصاخ السمع لوقت طويل. لم يسمع أي شيء. كانا هناك وحدهما، هو وباري والظلمة تلفهم. لقد تُركوا وحدهم، تركهم أبوهم. أحس عبدالله باتساع الصحراء الحقيقي يحيط بهم، بالعالم الواسع من حولهم للمرة الأولى، وفهم معنى أن يفقد الإنسان طريقه في مثل هذا الفضاء المترامي دون من يرشده ويساعده لتلمس الطريق. ومن ثم تسللت أسوأ الأفكار لذهنه. تخيل أن أبوه قد مات وأن قاطع طريق ما قد حزّ عنقه. وأن أولئك المجرمين سيطبقون عليه وعلى أخته، وهم يتمهلون ويأخذون وقتهم، يستمتعون، يتسلّون.

«أبي؟؟» صاح ثانية بصوت عالٍ وسمع الصدى دون أن يجيبه أحد.

«أبي؟؟».

نادى أباه كثيراً ومخلب الرعب يخنق رقبته. لم يعد يدري كم مرة ناداه دون أن يجيبه أحد. تصوّر وجوهاً مختبئةً في الجبال المرتفعة المحيطة بهم، تراقبهم وتبتسم بحقد. استولى عليه الرعب وارتجفت أمعاؤه. بدأ يرتعش وبكى دون تنفس. وشعر بنفسه على حافة الصراخ.

ومن ثمّ، سمع خطوات تقترب منه، ولمح هيئة تتشكل في الظلام.

«اعتقدت أنك رحلت» قال عبد الله بصوت متهدج. جلس الأب بجانب بقايا النار. فتابع عبدالله:

«أين كنت؟».

«عد للنوم يا ولد».

«لن تتركنا.. أليس كذلك يا أبي؟ لن تتركنا».

نظر له الأب بتعبير غير مفهوم وقال «ستوقظ أختك».

«لا تتركنا».

«هذا يكفي، توقف الآن».

اضطجع عبدالله ثانية وأحاط أخته بذراعيه بإحكام وقلبه يضرب كالطبل في حنجرته.

لم يزر عبدالله كابول من قبل. وكل ما كان يعرفه عنها وصله عن طريق حكايات العم نبي. كان قد زار بضع بلدات مجاورة أثناء مرافقته لتجوال أبيه في أعماله، لكنه لم يذهب من قبل إلى مدينة حقيقية. وبالتأكيد، لم تهيئه أي من روايات العم نبي عن العاصمة لمواجهة زحام ونشاط أكبر مدينة وأكثرها انشغالاً. أحاطت به إشارات المرور والمقاهي والمطاعم ومخازن لها واجهات زجاجية ولافتات ملونة لامعة، سيارات متدافعة بصخب في الشوارع المزدحمة، تمر بدقة شديدة بين الحافلات الكبيرة والمشاة والدراجات. رأى عربات بعجلات حديدية تثب فوق أسفلت الشوارع وتجرها الأحصنة المجلجلة أعلى وأسفل الجادات. مشى مع أبيه وباري على أرصفة تعج بباعة السجائر والعلكة، ومنصات بيع المجلات والصحف، وحدادين يصلحون حذوات الأحصنة. وعلى التقاطعات، شاهد شرطة مرور بزيهم الرسمي غير المتناسب مع الطقس على الإطلاق وهم يطلقون صفاراتهم ويقومون بإشارات يدوية بثقة تامة دون أن يعيرهم أحد

أي اهتمام. جلس على كرسي رصيف قرب دكان جزار ووضع أخته في حضنه، وأكلوا سوياً من صفيحة معدنية الطعام الذي اشتراه لهم والدهم من كشك في الشارع، طبق فاصولياء بصلصة الكزبرة.

«انظر أبوالله» قالت باري وأشارت لدكان على الرصيف المقابل لهم. وقفت وراء واجهته الزجاجية امرأة شابة ترتدي فستاناً أخضراً مطرزاً بروعة بالخرز الصغير اللامع. ووضعت فوقه وشاحاً طويلاً مماثلاً، وتحته كانت ترتدي بنطالاً أحمراً. كانت تقف بثبات وتحدق بلامبالاة بالمارة دون أن ترمش بعينيها. لم تتحرك قيد أنملة طوال فترة الغداء وبقيت ثابتةً بعد انتهائهم أيضاً. وفي آخر الشارع لمح عبدالله ملصقاً ضخماً معلقاً إلى واجهة بناية عالية، يحمل صورة امرأة هندية في حقل زنبق تحت المطر المنهمر وهي تحاول تفاديه بشكل هزلي في كوخ صغير. كانت تبتسم ابتسامة عريضة باستحياء وقد بلل المطر لباسها ـ الساري. تساءل عبدالله إن كان هذا ما قصده العم نبي عندما أخبرهم عن السينما، حيث يذهب الناس لمشاهدة الأفلام، حيث كان يمنّي النفس بأن يصحبه العم نبي مع أخته إبّان كل زيارة شهرية للعم. ابتسم من سعادة التفكير في الأمر.

بعد الأذان مباشرة، رأى العم نبي يتوقف بالسيارة إلى جانب المسجد المغطى بالخزف الأزرق. خرج من السيارة مرتدياً بذلته الزيتونية المعتادة وكاد أن يصيب شاباً يقود دراجة هوائية بفتحه للباب إلا أن الشاب انحرف عن طريقه بدقة ومهارة.

أسرع العم نبي إلى أمام السيارة وعانق الأب. وعندما رآهما سوياً، هو وباري، تجهم وجهه. انحنى أمام وجوههم وقال:

«هل تعجبكم كابول يا أطفال؟».

«إنها صاخبة جداً» قالت باري، ضحك العم نبي.

«إنها صاخبة بالفعل، هيّا بنا. اصعدي. سترين أشياء كثيرة من السيارة، امسح قدميك قبل الركوب بالسيارة يا سابور. تفضل إلى الأمام».

كان المقعد الخلفي للعربة بارداً وقاسياً وبنفس لون الطلاء الخارجي الأزرق. انزلق عبدالله في الداخل ووصل للنافذة الخلفية وساعد باري للجلوس في حضنه. ومن مكانه، لاحظ نظرات الحسد في عيون المتفرجين الواقفين في الشارع وهم يراقبون السيارة. نظرت إليه باري وتبادلا تكشيرة فهم متبادل.

راقب الأطفال النهر الذي يقطع المدينة وهم يسمعون العم نبي يقول بأنه سيأخذ طريقاً طويلةً للبيت حتى يشاهدوا القليل من معالم كابول. أشار لهم إلى قمة أحد التلال وقال أنها تدعى: تابا ـ ماران جان وإلى ضريح مقبب يشرف على المدينة وقال أن الشاه نادر، والد الملك الظاهر قد دُفن هناك. أشار لهم إلى حصن بالا ـ حصار أعلى جبل شيرداوازا ـ كوخ وقال أن البريطانيين استعملوه في الحرب العالمية الثانية ضد أفغانستان.

«ما هذه يا عم نبي؟» نقر عبدالله على النافذة مُشيراً إلى بناء أصفر طويل.

«ذلك مستودع. إنه مصنع الخبز الجديد» التفت العم نبي إليه وغمزه وهو يقود بيد واحدة «وقد أقيم بفضل أصدقاءنا الروس».

تعجب عبدالله، مصنع للخبز! تصوّر بروانة في شادباغ وهي تلصق العجين على جوانب فرن التندوري.

وأخيراً، انعطف العم نبي إلى شارع نظيف عريض مخطط بأشجار سرو منتظمة. كانت البيوت هنا رائعة، وأكبر من أي بيت شاهده عبدالله من قبل... بيوت بيضاء وصفراء وأخرى باللون السماوي، يتألف معظمها من طابقين ومحاطة بجدران عالية ومغلقة بأبواب معدنية سميكة. وهناك، اكتشف عبدالله سيارات مماثلة لسيارة العم نبي

مصفوفةٍ على طول الشارع.

أوقف العم نبي السيارة في ممر مسيّج بصَفّ أجمات مقصوصة بعناية شديدة. ووراء ذاك المر ظهر لهم بيت أبيض كبير جداً مؤلف من طابقين.

«بيتك كبير جداً» قالت باري بأنفاسها المذهولة واتسعت عيناها بالفرح.

تراجع رأس العم نبي للخلف من شدة الضحك وقال «أليس كذلك. لا يا صغيرة.. هذا منزل رب عملي. وسنلتقيه الآن. تصرّفي بأدبٍ الآن».

اكتشفوا أن البيت أروع من الداخل بعد أن قادهم العم نبي إليه. وخمن عبدالله أنه كبير كفاية ليتّسع نصف بيوت شادباغ على الأقل. شعر كما لو أنه يدخل قصر الغول في حكاية أبيه. أما الحديقة، فظهرت لهم من بعيد، مصممة بشكل جميل، تحفّ بها صفوف متلاحقة من شتى أنواع الأزهار والألوان، والأجمات الصغيرة الخضراء، مُنكّهةً بأشجار الفواكه كالكرز والتفاح والمشمش والرمان وأشجار أخرى لم يعرفها عبدالله. ورأى منصّة مسقوفة تصل البيت بالحديقة ـ قال العم نبي أنها تدعى شرفة ـ وكانت محاطة بشبكات خشبية تعرش عليها الكرمة الخضراء. وفي طريقهم للغرفة التي ينتظرهم بها السيد والسيدة وحداتي، استرق عبدالله النظر إلى حمام يحتوي مرحاضاً خزفياً سمع عنه من العم نبي من قبل، ومغسلة متألقة تعلوها صنابير برونزية. تعجّب عبدالله من الحياة التي يمكن الحصول فيها على الماء بمجرد فتح صنبور، بينما كان يُمضي ساعاتٍ أسبوعياً لسحب دلاء الماء من بئر شادباغ العمومي.

جلسوا على أريكة ضخمة مزينة بشرائط ذهبية وأسندوا ظهورهم لمساند ناعمة عليها مرايا صغيرة جداً مثمّنة الأضلاع. وأمامهم، على الجدار المقابل للأريكة، عُلقت لوحة احتلّت معظم الجدار، رُسم فيها

نحّات مُسنّ منحن فوق طاولة عمله وهو ينحت قطعة حجرية بإزميل. أما النافذة المفتوحةُ التي تحفّ بها ستائر خمرية، فقد كانت مفتوحة على شرفة لها سور حديدي يصل لارتفاع الخصر. كل شيء في الغرفة كان لامعاً، دون أي ذرة غبار.

لم يشعر عبدالله في حياته من قبل بأنه قذر، إلا في هذه اللحظات.

جلس رب عمل العم نبي على كرسي جلدي ويداه متقاطعتان فوق صدره وراح ينظر إليهم بتعبير بعيد غائم في عينيه، ولكن عبدالله لم يجد فيهما أي قدر من العداوة أو الرفض. كان ذاك الشخص أطول من أبيهم كما لاحظ عبدالله وهو واقف لتحيتهم. كان كتفاه ضيّقان وشفتيه رقيقتين وجبهته عالية لامعة، يرتدي بذلة بيضاء ضيقة عند الخصر وقميص أخضر مفتوح الياقة تحتها وعلى كمّيه زرّين بيضاويين مزدانان بحجارة كريمة. لم يتفوه الرجل بأكثر من عشر كلمات طوال الجلسة.

نظرت باري لصحن البسكويت الموضوع أمامهم، لم يتخيل عبدالله يوماً وجود كل هذه الأصناف من البسكويت، أحدها على نكهة الشوكولا بهيئة الإصبع وتحيط بها دوامات كريمية مستديرة بيضاء. وأخرى صغيرة ومستديرة لونها أبيض مائل للبرتقالي في المنتصف، أما البسكويت الأخضر الذي وُضع في المنتصف فقد شكّل هيئة تشبه الأوراق.

«هل ترغب بواحدة؟» قالت السيدة وحداتي «هيا، تفضلا كلاكما، لقد أحضرتها لكما».

التفت عبدالله لأبيه ليتأكد من الإذن بالأكل كما فعلت باري. وقد سحر هذا التصرف السيدة وحداتي التي رفعت حاجبيها وأمالت رأسها وابتسمت. أومأ الأب قليلاً برأسه وقال بصوت منخفض. «يأخذ كل منكما واحدة».

«آه، هذا لن يكفي» قالت السيدة وحداتي «لقد أرسلت نبي

لإحضارها من مخبز في منتصف المدينة لأجلكما».

أدار الأب بصره بعيداً وبانت الدهشة الخائفة على وجهه. كان يجلس على حافة الأريكة ويحمل طاقيته المحطمة بكلتا يديه، اتجه بركبه بعيداً عن السيدة وأبقى عينيه على زوجها.

تناول عبدالله بسكويتتين وأعطى واحدة لباري.

«آه، خذ واحدة أخرى، لا نريد لتعب نبي أن يذهب سدى» قالت السيدة بصوت مبتهج و ابتسمت لنبي.

«لا مشكلة إطلاقاً» قال نبي بخجل.

وقف نبي قرب الباب بجانب خزانة زجاجية طويلة. رأى عبدالله على رفوفها إطارات فضية تحوي صوراً للسيد وزوجته. بدوا في الصور مع زوجين آخرين وهما يرتديان الأوشحة الصوفية فوق المعاطف السميكة ويقفون أمام نهر متدفق بغزارة. وفي صورة أخرى بدت ضحكة السيدة وهي تحمل كأساً زجاجية، وذراعها العاري يلف خصر رجل لا يشبه السيد. كما رأى صورة زفاف أيضاً، هو بقامته الطويلة الأنيقة مرتدياً بذلة سوداء، وهي بفستان أبيض طويل ممتد ورائها على الأرض، وكلاهما يبتسمان بثغرين مغلقين.

ألقى عليها عبدالله نظرة خاطفة.. على خصرها النحيل وفمها الصغير الجميل وحاجبيها المقوسين وأظافر قدميها الطلية باللون الوردي المماثل لطلاء شفتيها. تذكر زيارتها إلى شادباغ قبل عامين عندما كانت باري في الثانية، عندما حضرت لأنها أرادت مقابلة عائلة العم نبي. وقد أتت مرتدية فستاناً بلون الدراق دون أكمام ونظارات شمسية غامقة اللون بحواف سميكة، تذكر نظرة الدهشة على وجه أبيه. كانت تبتسم طوال الوقت وتسأل عن أحوال أهل القرية وحياتهم وتستعلم عن أسماء الأطفال وأعمارهم. تصرفت وكأنها نشأت معهم هناك تحت سقف بيتهم

الطيني الواطئ بجدرانه المسودة بالسخام. وجلست بجانب النافذة الشبكية والحاجز البلاستيكي الذي يفصل الغرفة الرئيسية عن المطبخ، حيث ينام الأطفال أيضاً. كانت زيارتها استعراضاً حقيقياً عندما أصرت على خلع حذائها العالي عند الباب والجلوس أرضاً بدلاً من الكرسي الذي قدمه لها الأب. كما لو كانت واحدة منهم. كان في الثامنة فقط من عمره في ذلك الوقت، لكنه استوعب ما كان يجري.

أكثر ما كان عبدالله يذكره من تلك الزيارة هو بروانة الحبلى بأخيه إقبال في ذلك الوقت والتي بقيت متكومة على بعضها طوال الوقت مثل الكرة، جالسة في الزاوية بصمت رهيب وكتفيها منحنيين للأمام وقدميها مخبأتين تحت بطنها المنتفخ. كما لو كانت تحاول الذوبان والاختفاء في الجدار. كانت تواري وجهها وراء حجاب وسخ. ومع ذلك، فقد رأى عبدالله الخزي يتصاعد منها كالبخار، والإحراج.. وكم شعرت بأنها تافهة وصغيرة الحجم. في ذلك اليوم أشفق على زوجة أبيه.. معا فاجئه.

تناولت السيدة وحداتي علبة سجائرها وأشعلت واحدة.

«أخذتهم في جولة طويلة ليروا قليلاً من معالم المدينة» قال العم نبي.

«جيد، جيد». ردت السيدة وحداتي «هل زرت كابول من قبل يا سابور؟»

أجابها الأب «مرة أو مرتين، بيبي ساهيب».

«وهل لي أن أسألك عن انطباعك؟».

«إنها مكتظة جداً». قال الأب باستهجان.

«نعم إنها كذلك».

التقط السيد وحداتي كتلة من النسيج عن كم سترته ونظر إلى أسفل نحو السجادة.

«مزدحمة ومتعبة أيضاً» قالت السيدة. أومأ الأب كما لو أنه فهم قصدها.

«كابول جزيرة حقيقية، بعضهم يعتقد بأنها تقدمية وقد يكون ذلك حقيقياً، إنه حقيقي بما فيه الكفاية كما أفترض، لكنه لا يشمل بقية البلاد».

نظر الأب إلى الأسفل نحو الطاقية في يده، ورمش بعينيه.

«لا تُسئ فهمي، أنا أدعم أي جدول أعمال تقدمي مخلص يخص المدينة. لأن الله يعلم أن بلادنا تحتاج أي مخطط لكن المدينة مسرورة من نفسها أكثر من اللازم. أقسم لك. إن التفاخر والتباهي في هذه المدينة يتنامى ويتعاظم بشكل متعب لي. لطالما احترمت حياة الريف، أنا مولعة بها، بالمحافظات البعيدة والقرى الصغيرة، بأفغانستان الحقيقية».

أومأ الأب بحيرة.

«قد لا أوافق على أغلب التقاليد العشائرية، لكن الناس يعيشون هناك حياةً أكثر أصالة كما يبدو لي. تسود بينهم الألفة والتواضع والكرم، كما أنهم فخورون بأنفسهم. هل هذه الكلمة صحيحة يا سليمان، الفخر؟».

«اصمتي يا نيلا» قال زوجها بهدوء.

تلا ذلك صمت كثيف. راقب عبدالله السيد وحداتي وهو ينقر بأصابعه على ذراعي كرسيه وزوجته تبتسم له بإحكام، وانطباع أحمر الشفاه على عقب سيجارتها وقد قاطعت ساقيها وأسندت مرفقها إلى ذراع الكرسي.

«لربما لم أكن أتفوه بالكلام المناسب» كسرت الصمت «إنهم يتمتعون بالكرامة»، وابتسمت لتكشف عن أسنانها البيضاء المنتظمة. لم يسبق لعبدالله رؤية أسنان كهذه. وتابعت «تلك هي الكلمة المناسبة، الناس في الريف لديهم كرامة، تظهر عليهم الكرامة وكأنهم يرتدونها مثل إشارة على صدورهم تقول: *أنا أصيل*. وأنا أرى ذلك فيك، يا سابور».

«شكراً لك بيبي ساهيب». تمتم الأب وهو يتحرك على الأريكة دون

أن يرفع نظره عن طاقيته.

أومأت السيدة وحداتي برأسها ونظرت نحو باري وتابعت «هل لي أن أقول أنك جميلة جداً»، فاقتربت باري من عبدالله. فأردفت السيدة وحداتي:

«اليوم رأيت السحر، والجمال والنعمة في الوجه الذي كنت أبحث عنه»، وابتسمت. ثم توجهت بالحديث بالأب «هذه أبيات للرومي، هل سمعت به؟ قد يعتقد المرء أنه كتب هذه الأبيات فيك ولأجلك يا صغيرتي».

«السيدة وحداتي شاعرة معروفة» قال العم نبي.

مد السيد وحداتي يده لصحن البسكويت وأخذ واحدة وقسمها نصفين وتناول لقمة صغيرة.

«نبي يحاول أن يبدو لطيفاً» قالت السيدة: وحداتي وهي ترمقه بنظرة دافئة من عينيها. ولح عبدالله حمرة الخجل من جديد وهي تعلو خدّي العم نبي. أطفأت السيدة سيجارتها بعدة ضغطات عليها في المنفضة. وقالت:

«هل أستطيع اصطحاب الأطفال إلى مكان ما؟».

تنفس السيد وحداتي بغضب وضرب بكفّيه على ذراعي الكرسي وبدا كأنه سينهض من مكانه لكنه لم يفعل.

«سأصحبهم للسوق» قالت السيدة للأب. «إذا كنت تسمح بذلك سابور، نبي سوف يوصلنا وسوف يُريك سليمان موقع العمل في الخارج، لترى ما يجب عليك فعله». أومأ الأب. وأغمض السيد عينيه ببطء.

نهضوا جميعاً للذهاب.

فجأة، تمنى عبدالله أن يشكر الأب أولئك الناس على الشاي والبسكويت وأن يتركوا فوراً هذا البيت المثقل بأساليب الترف والراحة

بصوره وستائره، يمكنهم أن يملؤوا قربة مائهم ويشتروا الخبز وبعض البيض المسلوق لرحلة العودة، ليعودوا من حيث قدموا، عبر الصحراء والجلاميد الصخرية والتلال وقصص الأب. بإمكانه أن يتبادل جرّ عربة باري مع أبيه، وقد يصلون لقريتهم خلال يوم. مع أن رئاتهم سيملؤها الغبار وسيتمكن التعب من أطرافهم إلا أنهم سيكونون قد رجعوا إلى شادباغ ثانية، سيسرع إليهم كلبهم شوجا عندما سيلمحهم من البعيد، وسيدور فرحاً حول باري. سيكونون في موطنهم.

قال سابور: «اذهبوا يا أولاد».

أخذ عبد الله خطوة واحدة للأمام وحاول أن يقول شيئاً، لكن يد العم نبي الثقيلة حطت فوق كتفه وأدارته ليقوده عبر الممر للخارج وهو يقول:

«انتظر حتى ترى الأسواق في هذا المكان، أنت لم تر شبيهاً لها من قبل، كلاكما».

جلست السيدة في المقعد الخلفي وعطرها الثقيل يملأ الجو حولهم إلى جانب شيء آخر لم يتبينه عبدالله، رائحة شيء حلو المذاق ولاذع بعض الشيء. أمطرتهم بأسئلتها بينما قاد العم نبي السيارة.. من هم أصدقاءهم وهل كانوا يذهبون للمدرسة، وسألتهم حول أيامهم الرتيبة والجيران والألعاب التي يلعبونها. سقطت أشعة الشمس على خدها الأيمن واستطاع عبدالله رؤية الشعيرات الزغبية الصغيرة الضبابية على خدها وخطاً ضعيفاً تحت فكها حيث ينتهي أثر مستحضرات التجميل.

«لديّ كلب» قالت باري.

«حقاً».

«إنه نموذج حقيقي للكلاب» قال العم نبي من مقعد القيادة.

«اسمه شوجا، وهو يعرف متى أكون حزينة».

«هكذا هي الكلاب» قالت السيدة وحداتي «وهم أفضل بهذه الشيمة من بعض الناس الذين قابلتهم».

مرّوا بالسيارة أمام ثلاث تلميذات يرتدين زيهن الرسمي الأسود والأوشحة البيضاء مربوطة تحت ذقونهن.

«أذكر ما قلته قبل قليل، لكن كابول ليست بذلك السوء» قالت السيدة وحداتي وهي تلعب بطوقها بشرود. نظرت من النافذة وبدت كأن جبالاً تثقل كتفيها.

«أكثر ما أحبه هنا هو الجو بعد هطول المطر، يصبح الهواء نظيفاً جداً. وبداية الصيف، عندما تواجه الشمس الجبال» ابتسمت بوجه شاحب «سيكون وجود طفل معنا في المنزل أمراً جيداً، بعض الضجيج من باب التغيير، بعض الحياة».

نظر عبدالله إليها وشعر بخطورتها على عائلته، تسلل من أعمق أعماقها شيء ما، من تحت العطر واللطف ومساحيق التجميل. وجد نفسه يفكر بدخان طبخ بروانة ورفوف المطبخ الغارقة في فوضى الصحون غير المتلائمة والقدور الملطخة والدلاء المختلفة الأحجام. افتقد الملاءات التي كانت تغطيه مع أخته مع أنها كانت وسخة وممزقة تتسرب منها رياح الربيع الغادرة بسهولة. افتقد كل شيء. لم يفتقد منزله، موطنه، مسكنه بهذا الشكل أبداً من قبل.

غرقت السيدة في مقعدها مرة أخرى وتنهدت بعمق وهي تعانق حقيبتها كما تعانق المرأة الحبلى بطنها المنتفخ.

ركن العم نبي السيارة بجانب رصيف مكتظ وهناك كان السوق، بجانب مسجد ذي مآذن تحلق عالياً إلى السماء، ويتكون من متاهة مزدحمة من الممرات المغطاة بالقباب أو المفتوحة في بعض الأماكن. مشوا أمام أكشاك تبيع المعاطف الجلدية، والخواتم المزينة بالجواهر الثمينة،

والتوابل بأنواعها. مشى العم نبي وراءهم بينما رافقوا هم السيدة في المقدمة. وارتدت السيدة نظارات سوداء جعلتها تشبه القطة بشكل أو بآخر.

ترددت نداءات الباعة في كل مكان حولهم لأنهم كانوا يصرخون تقريباً من كل كشك. تجاوزوا دكاكين بلا واجهات تبيع الكتب وآلات الراديو والمصابيح وقدور الطبخ الفضية. شاهد عبدالله جنديين يرتديان جزمات متربة ومعاطف سميكة وسمراء، وهما يتشاركان لفافة التبغ ويراقبان كل الناس بلامبالاة.

توقفوا أمام متجر لبيع الأحذية. وفتشت السيدة بين صفوف الأحذية المعروضة على الصناديق، بينما دخل العم نبي إلى الكشك التالي ويداه مشبوكتان وراء ظهره، وراح يتفحص بعض العملات القديمة المعروضة للبيع.

«ما رأيك بهذا؟» قالت السيدة لباري وهي تحمل بيديها حذاء رياضة جديداً أصفر اللون.

«إنه جميل جداً» قالت باري وهي تنظر للحذاء دون تصديق لما يجري.

«هيا لنجربه».

ساعدتها السيدة لتلبسه وربطت لها الأربطة، ومن ثم رفعت بصرها ونظرت لعبدالله» سنبحث لك عن واحد أيضاً، لا أصدق أنك قطعت الطريق مشياً من القرية بهذا الصندل. هز عبدالله رأسه وبدا فكره شارداً. لمح أسفل الممر رجلاً عجوزاً خشن اللحية قدماه كبيرتان عاريتان يتسول المارة.

«انظر يا أبو الله». رفعت باري قدماً واحدة ومن ثم الأخرى. ومن ثم قفزت بقدميها على الأرض. نادت السيدة العم نبي وطلبت منه أن يأخذ باري في جولة لنهاية الزقاق لترى إن كان الحذاء مناسباً لها. أخذها العم من يدها وابتعد بها. نظرت السيدة لعبدالله وقالت: «أنت تعتقد أنني شخص سيء، بسبب ما قلته سابقاً».

راقب عبدالله العم نبي وباري عندما تجاوزا المتسول العجوز الذي قال لباري شيئاً ما، فرفعت باري وجهها للعم وقالت له شيئاً، فرمى العم للمتسول قطعة نقدية معدنية. بدأ عبدالله يبكي دون صوت.

«آه كم أنت صبي حنون!» قالت السيدة بشكل مباغت. «أنت لطيف جداً»، وناولته محرمة من حقيبتها.

أطاح عبدالله بالمحرمة بعيداً عن وجهه بحركة عصبية من يده وقال بصوت متصدع «رجاء لا تفعلي ذلك»، فجلست السيدة بجانبه ورفعت نظارتها فوق شعرها. دمعت عيناها أيضاً وعندما مسحتهما بالمنديل تلطخ هذا الأخير بسواد كحلها.

«أنا لا ألومك على كرهك لي، هذا من حقك، لكني، ولا أعتقد أنك ستفهم ذلك الآن، هذا أفضل لها، يوماً ما ستفهم».

رفع عبدالله وجهه للسماء وناح بصوت مسموع لدى وصول باري إليهم وعينيها طافحتين بالامتنان ووجهها مشرق من شدة السعادة.

أحضر سابور فأساً في صباح أحد أيام ذاك الشتاء وقطع شجرة البلوط العملاقة بمساعدة ابن الشيخ شكيب وبعض الرجال الآخرين. لم يحاول أحدهم التدخل. وقف عبدالله بجانب بقية الأولاد لمراقبة ما يجري. أول ما فعله الأب هو قص الأرجوحة. تسلق الشجرة وقطع حبالها بسكين. ومن ثم بدأ مع بقية الرجال بالقطع بالمناشير حتى شارف العصر على الانتهاء، وعندها، سقطت الشجرة مُطلقة صوت آهةٍ هائلة. أخبر الأب عبدالله أنهم بحاجة للخشب لتدفئتهم في الشتاء. لكنه كان يضرب الشجرة بفأسه بعنف رهيب وفكه مشدود بحزم ووجهه غائم، يكاد ينطق بأنه لا يستطيع رؤية تلك الشجرة أكثر من ذلك في حياته.

تحت سماء بلون الحجارة، كان الرجال يقطعون الشجرة المقطوعة المرمية على الأرض وأنوفهم وخدودهم حمراء من البرد، وصدى أنصال فؤوسهم يتردد في الفراغ كلما ضربوا الخشب. صعد عبدالله فوقها لالتقاط الفروع الصغيرة التي يستطيع حملها. سقط الثلج لأول مرة قبل يومين. لم يكن كثيفاً، ليس بعد، بل واعداً بكثير من الأهوال التي ستأتي. سيهبط الشتاء قريباً على شادباغ، الشتاء ببلورات ثلجه وأكوامها والرياح الأسبوعية التي تكشط الجلد عن اليدين بطرفة عين. أما الآن، فهو ما زال قليلاً على الأرض متناثراً من هنا إلى سفوح التلال الحادة الانحدار وراسماً مع اون الأرض لطخات بنية وبيضاء.

جمع عبدالله ما يستطيع حمله بين ذراعيه من الفروع الصغيرة وحملهم لكومة تكبر رويداً رويداً في مكان قريب. كان يلبس جزمة جديدة خاصة بالثلج وقفازات ومعطف شتائي سميك مستعمل، لكنه كان كالجديد تماماً بعدما أصلح له والده السّحاب المقطوع. كان معطفاً جيداً ازرق اللون ومبطناً بالفراء البرتقالي من الداخل. ولديه أربع جيبات عميقة وقلنسوة مشدودة حول وجهه. دفع القلنسوة للخلف وتنفس بعمق في الهواء البارد من حوله راسماً بأنفاسه غيمات ضبابية طويلة.

بدأت الشمس بالتواري وراء الأفق، لكن الطاحونة القديمة ما تزال مرئية من قبل عبدالله، وهي تلقي بظلال رمادية داكنة على بيوت القرية الطينية، تنهدت أذرعها الطويلة كلما عصفت بها الريح القادمة من التلال بصوت مكسور. كانت الطاحونة البيت الرئيسي لطيور مالك الحزين الأزرق صيفاً. لكنها اليوم وقد حل الشتاء باتت مسكناً للغربان بعد أن رحلت طيور الصيف. وكان عبدالله يصحو كل يوم على نعيقهم القاسي.

استرعى شيء على يمينه انتباهه على الأرض، ركع على ركبتيه وخلع قفازه والتقطها، التقط الريشة الصغيرة الصفراء.

دعاهم صديق والده لاحتفال كان يقيمه الليلة بمناسبة وصول مولوده الجديد، حيث سيذهب هو وأبوه وأخوه نصف الشقيق إقبال. هناك، سيغني للرجال مطرب برفقة شخص ينقر على الدف. سيشربون الشاي ويتناولون الخبز الطازج الدافئ وحساء البطاطا. بعدئذ، سيغمس الشيخ شكيب إصبعه في طاسة الماء المحلى بالسكر ويدسها في فم الرضيع . ومن ثم سيتناول حجره الأسود اللماع وشفرته الحادة وسيرفع القماش عن بطن الولد. إنه مجرد طقس عادي هنا. هكذا ستستمر الحياة في شادباغ.

أدار عبدالله الريشة في يده وقال لنفسه أنه لن يبكي. هكذا أمره والده. لا بكاء بعد اليوم. لن أبكي.

ولم يبك بالفعل. لم يسألهم أحد عن باري. لم يذكر اسمها أحد حتى. ودائماً ما دُهش عبدالله من السهولة الكلية التي اختفت بها من حياتهم.

لم يجد عبدالله انعكاساً لحزنه سوى في شوجا. الكلب الذي كان يحضر لطرق بابهم كل صباح لترميه بروانة بالحجارة. وقد هاجمه الأب بعود في أحد المرات ليطرده لكنه استمر بالعودة. كان نشيجه الحزين يُسمع كل ليلة وكانوا يجدونه كل صباح ملتصقاً ببابهم وذقنه مرتخية فوق ذراعيه الأماميين وعينيه غائمتين بسوداوية. استمر هذا لأسابيع إلى أن رآه عبدالله ذات صباح متجهاً بعرجته نحو التلال ورأسه منحن من الحزن. لم يره أحد في شادباغ بعد ذلك.

دس عبدالله الريشة الصفراء في جيبه وبدأ بالمشي باتجاه الطاحونة.

بعض الأحيان، عندما يكون الأب وحيداً وغير منتبه لوجود شخص ما بقربه، كان وجهه يفيض بغيوم تتحول مع الوقت لظلال عاطفة مفقودة منه، وكان عبدالله يباغته في تلك الأوقات ويرى أباه محطماً منهاراً ومجرداً من كل ما هو ضروري، من الحياة. كان يتجول أويجلس في حرارة الفرن الحديدي الجديد الكبير وطفله الصغير إقبال جالس في

حضنه وهو يحدق بغفلة نحو النيران. اختفى صوته المعتاد ونسيه الجميع بما فيهم عبدالله، كما لو أن شيئاً أثقل على كل كلمة يتفوه بها. انكمش سابور وتقوقع داخل صمته الطويل، واسودّ وجهه. لم يعد يحكي قصصاً لأحد منذ عودتهم من كابول. فكر عبدالله أنه لربما قد باع لأسرة وحداتي موهبته أيضاً كما باع ابنته.

اختفت الموهبة

تبخرت

لم يبق منها شيء

غير هذه الكلمات: *لم يكن لدي أي خيار آخر يا عبدالله. كنا مجبرين على التخلي عنها.*

لقد قطع إصبعاً لينقذ الكف.

ركع عبدالله على الأرض وراء الطاحونة أمام قاعدة حجر البرج الأساسي. نزع قفازيه وحفر في الأرض. فكر بحاجبيها الكثيفين وجبهتها المدورة العريضة وابتسامتها المسننة ذات الفجوات. سمع في رأسه رنين ضحكتها وهو يعم المنزل كما كان يحصل من قبل. تذكر الشجار الذي وقع عند عودتهم ذلك اليوم من السوق. فزع باري. الصراخ. والعم نبي يحملها ويأخذها بسرعة. تابع عبدالله الحفر حتى وصلت يديه لشيء معدني. أدخل يده تحت صندوق الشاي ورفعه من الحفرة، ومسح التراب البارد عن الغطاء.

كثيراً ما فكّر مؤخراً بالقصة التي حكاها لهم أبوهم في الليلة السابقة لسفرهم إلى كابول، عن الفلاح المسنّ بابا أيوب والغول. كان عبدالله يجد نفسه واقفاً على بقعة وقفت عليها باري مرة، وهناك.. شعر بغيابها كرائحة تنبثق من الأرض تحت أقدامه، خارت ركبتاه وانهار قلبه وتاق لنقطة من الجرعة السحرية التي أعطاها الغول لبابا أيوب كي

ينسى، لينسى هو أيضاً ذات المرار.

لكن النسيان لم يحدث. بقيت باري تحوم حول عبدالله أنّى ذهب.. دون دعوة. كانت كالغبار العالق بقميصه، عششت باري في الصمت الراكد المعتاد في المنزل، في الصمت المتدفق بين الكلمات، المجوفة والباردة أحياناً، وانطوى أحياناً على أمور لم تحكى، كالغيمة التي تحمل المطر دون أن تسقطه. حلم في بعض الليالي بأنه في الصحراء ثانية، وحده، محاط بالجبال، ومن بعيد.. يرى ضوءاً صغيراً جداً يلمع وينطفئ، يلمع وينطفئ، كرسالة في الظلمة.

فتح صندوق الشاي ووجد جميع ريشات باري، ريش الديكة والبط والحمامات وريشة الطاووس أيضاً. رمى الريشة الصفراء معهم في الصندوق وتأمّل في يوم ما في المستقبل.

تأمّل.

باتت أيامه في شادباغ معدودة. كان واثقاً من هذا الآن، مثل شوجا. لم يعد لديه ما يربطه بهذا المكان. سينتظر حتى نهاية الشتاء وحلول الربيع. وسينهض ذات صباح قبل الفجر وسيخرج من الباب. سيختار لنفسه اتجاهاً وسيبدأ المسير. سيمشي بعيداً عن شادباغ حيثما تأخذه قدماه. وإذا ما ارتحل يوماً عبر حقل واسع وتملكه اليأس، سيتوقف وسيغلق عينيه ليفكر بريشة الصقر التي وجدتها باري في الصحراء. سيتصور الريشة وهي تسقط عن الطير بين الغيوم على ارتفاع نصف ميل عن الأرض، وتيارات الرياح العنيفة تتقاذفها عبر أميال وأميال من الصحراء والجبال لتهبط أخيراً عند قدمي تلك الصخرة لتجدها باري أخيراً، من بين كل الأماكن ورغم كل العقبات. كانت هذه الحقيقة تصعقه كالأعجوبة، وكذلك الأمل، بأن أشياء كهذا حدثت حقاً في الحياة. وعندها سيفهم الأمور بشكل أفضل، وسيحزم أمره، وسيفتح عينيه، وسيمضي.

الفصل الثالث

ربيع العام 1949

شمت بروانة الرائحة قبل أن ترفع اللحاف وترى البقع واللطخات على أرداف معصومة، أسفل الفخذين، على الشراشف والمفرش واللحاف. نظرت معصومة إليها نظرة خجولة ملأى بطلب المغفرة، وخزي عميق طازج بعد كل تلك السنوات.

«أنا آسفة»، همست معصومة.

أرادت بروانة أن تعوي لكنها أجبرت نفسها بدلاً من ذلك على ابتسامة مزيفة. لا تحتاج بروانة لبذل جهد كبير في أوقات مثل هذه لتتذكر، لبذل جهد للاحتفاظ بالحقيقة الوحيدة الثابتة.. هذا ما جنت يداها، كل هذه الفوضى. لم يقع لها أي شيء ظلماً. إنها تستحق كل هذا. تنهدت وبدأت بمسح البطانيات الملوثة متخوفة مسبقاً من العمل الذي ينتظرها.

«سأقوم بتنظيفك».

بدأت معصومة بالبكاء دون صوت، دون أي تغيير في إيقاع تنفسها. دموع فقط. تقطر، تتدفق. وباكراً قبل انبلاج الصبح، أشعلت بروانة ناراً للطهي في الخارج. وانتظرتها حتى اشتعلت كما يجب ثم ملأت دلواً بالماء من البئر العمومي ووضعته فوق النار. كانت تستطيع رؤية الطاحونة من هنا، ومسجد القرية حيث تعلمت القراءة هي وأختها معصومة على يد شيخ القرية الملا شكيب عندما كانوا صغاراً، وتستطيع رؤية بيت الشيخ أيضاً أسفل المنحدر. ولاحقاً، عندما ستعتدل الشمس في السماء، سيتغير لون سطح منزله المربع إلى الأحمر بسبب الطماطم التي نشرتها زوجته تحت الشمس لتجففها. حدقت بروانة إلى الأعلى في النجوم التي ما زالت تظهر في الفجر، شاحبة باهتة، نقلت نظرها بين النجمات بلامبالاة. واستجمعت قواها لتبدأ.

وفي الداخل، أدارت معصومة لتنام على بطنها، وغسلت منشفة بالماء ودلكت ظهر أختها لتنظفه، لتمسح القذارة عن لحم ساقيها المترهلتين.

«لم الماء دافئة؟» سألتها معصومة وفمها مخبأ في الوسادة. «لماذا تكبدت ذاك العناء؟ لا يجب عليك ذلك. فأنا لن أعرف الفرق على أية حال».

«ربما، لكنني أعرف». وهي تكشر من الرائحة الكريهة. «والآن توقفي عن الكلام ودعيني أنهي عملي».

وهكذا، كان يوم بروانة يبدأ دائماً، منذ أن توفي والداهما منذ أربع سنوات. أولاً تطعم الدجاج، تقطع الخشب، وتنقل دلاء الماء من وإلى البئر. تصنع العجين وتخبز الخبز في التندوري خارج بيتهم الطيني. ثم تكنس الأرضية. أما بعد الظهر، فتقرفص بجانب الجدول مع نساء القرية الأخريات وتغسل معهن غسيلها فوق الصخور. وبعد ذلك، وإذا كان اليوم جمعة كاليوم، فإنها تزور قبري والديها في المقبرة وتتلو على روحيهما صلاة مختصرة. وطوال النهار، وهي تقوم بكل أعمالها

الرتيبة، تجد الوقت الكافي لتحريك معصومة من جانب لجانب، وتدس وسادة تحت أحد أردافها مرة ووسادة تحت الآخر في المرة التالية. وفي ذلك اليوم، بحثت عن سابور بعينيها مرتين، ووجدته.

وجدته أول مرة مقرفصاً أمام حفرة النار مشغولاً بتهوية النار في الحفرة، وعيناه متضيقتان من شدة الدخان، وبرفقته ولده، عبد الله. ومن ثم وجدته يتكلم لاحقاً مع رجال آخرين، رجال لهم عوائل مثله الآن، لكنهم كانوا مرة أطفال القرية الذين لعب معهم وطير الطائرات الورقية برفقتهم وطارد الكلاب ولعب الغميضة. سابور هذه الأيام ذو حمل ثقيل، إنسان محكوم بمأساة، زوجة ميتة ولديه طفلان بلا أم، أحدهما رضيع. سابور يتكلم الآن بصوت متعب مسموع بالكاد، يمشي متثاقلاً حول القرية، ولا يتعدى كونه نسخة منكمشة عن شخصيته القديمة.

راقبته بروانة من بعيد بتوق يكاد يشلها عن الحركة. وحاولت أن تحول بصرها عنه لدى مرورها بقربه. وعندما تلاقت نظراتهما بالصدفة أومأ لها ببساطة، وتدفق الدم لوجنتيها ليفضحها.

تلك الليلة، اضجعت بروانة وهي بالكاد قادرة على رفع ذراعيها. ارتمى رأسها بإعياء وتمددت في سريرها تنتظر لحظة النوم. ومن ثم، أتى الصوت في الظلام..

«بروانة؟».

«نعم».

«هل تذكرين عندما كنا نركب الدراجة سوية؟».

«ممم».

«أتذكرين كم أسرعنا ونحن نهبط التل. والكلاب تطاردنا».

«أذكر».

«أتذكرين صراخنا عندما اصطدمنا بتلك الصخرة...».

شعرت بروانة بابتسامة أختها في الظلام. «غضبت ماما منا كثيراً ذاك اليوم، وكذلك نبي. لقد قضينا على دراجته».

أغمضت بروانة عينيها.

«بروانة؟».

«نعم».

«هلا تنامين بجانبي الليلة؟».

رفست بروانة اللحاف برجليها وشقت طريقها عبر الكوخ إلى سرير أختها معصومة وانزلقت بجانبها. أراحت معصومة خدها على كتف بروانة ولفت صدر أختها بذراعها. همست.. «أنت تستحقين العيش مع شخص أفضل مني».

«لا تبدأي ثانية» همست بروانة. لعبت بشعر معصومة لمدة طويلة وربتت لها بصبر كما تفضل.

دردشتا لوقت طويل بكسل وبصوت خافت حول أشياء غير مهمة وأنفاسهما تدفئ وجه الأخرى. كانت هذه اللحظات لحظات سعادة نسبية لبروانة. تتذكران طفولتهن والأنف مقابل الأنف تحت البطانية، وهن تهمسن بالأسرار وتثرثرن، وتضحكن بصوت لا يكاد يسمع. نامت معصومة ولسانها يدور حول حلم، وبروانة تحدق خارج النافذة في السماء الفاحمة. وفكرها يثب بين شظايا الأفكار ويسبح أخيراً لصورة رأتها يوماً في مجلة قديمة، وهي صورة توأمين متجهمي الوجه من سيام ملتصقين عند الجذع بكتلة لحمية سميكة. مخلوقان مرتبطان بشكل معقد، يتشكل دمهما في نخاع واحد منهما ويجري في عروقهما معاً، إنهما متحدين دائماً. شعرت بروانة بانقباض، بيأس، يمتد ليعصر صدرها، أخذت نفساً عميقاً. حاولت توجيه أفكارها إلى سابور مرة أخرى وبدلاً من ذلك وجدت نفسها تفكر في الإشاعة التي سمعتها في

القرية، كانوا يقولون أنه يبحث عن زوجة جديدة. أجبرت وجهه على الخروج من ذهنها بالقوة لتطرد الفكرة الحمقاء تلك من داخلها.

كانت ولادة بروانة مفاجأة.

تلوّت معصومة بهدوء بين يدي القابلة قبل أن تأتي صرخة الوالدة ويطل رأس آخر ليأتي للحياة. كان وصول معصومة هادئاً. بل إنها هي، الملاك، من ولدت نفسها كما حكت القابلة نفسها في ما بعد. أما ولادة بروانة فقد كانت رحلة طويلة، مسيرة عذاب للأم وخطيرة على الوليدة. حررتها القابلة من الحبل الملفوف حول الرقبة بشكل قاتل وكأنه لا يريد إفلاتها. في أسوأ لحظات حياة بروانة، عندما كان بغضها لنفسها يبتلعها، كانت تعتقد أن ذلك الحبل كان أكثر دراية منها. لربما كان يعرف أي شطري الحياة أنسب لها.

رضعت معصومة من أمها في الوقت المحدد كما نامت بانتظام. ولم تبك إلا عندما كانت تحتاج للطعام أو لتغيير أقمطتها. وعندما تستيقظ، كانت تحب أن تلعب وتلاطف، كانت طفلة يسرة سعيدة، حزمة ضاحكة من الأقمطة تحب أن تمص كمها. اعتاد الناس أن يمدحوا هدوءها.

أما بروانة فقد كانت طفلة مستبدة. مارست على الأم سلطة كاملة. أما أبوهما، المتحير من خبث الأطفال ذاك، فكان يأخذ أخ الطفلتين الأكبر سناً - نبي - ويهرب للنوم في بيت أخيه، فاراً من بؤس الليل الملحمي بالنسبة للأم الذي تتخلله بضعة لحظات من الراحة فقط. كانت تهز بروانة وتحملها طوال الليل وتغني لها. كانت تجفل من تمزيق بروانة الرضيعة لثديها كما لو أنها تريد كل نقطة حليب في عظامها لها وحدها. لكن الرضاعة كانت بلا طائل. حتى بعد العشاء. كانت بروانة تصرخ وتركل غير آبهة بتضرعات أمها.

كانت معصومة تراقب من زاويتها في الغرفة وتعابير العجز تتكلم على وجهها، وكأنها كانت تشفق على أمها في هذا المأزق.

قالت الأم يوماً للأب أن نبي لم يكن يوماً هكذا. فأجابها بأن الأطفال مختلفين لا يشبه أحدهم الآخر.

«إنها تقتلني، تلك البنت..».

«هذا الحال سيتغير، كما يتغير الطقس السيئ».

وقد تغير الحال فعلاً. قد يكون السبب المغص، أو أي مرض غير مؤذ آخر، لكن الأوان قد فات، وقد تركت بروانة بصمتها في ذهن الجميع.

في عصر أحد أيام الصيف والتوأمتين لهما من العمر عشرة أشهر، تجمع القرويون في شادباغ بعد أحد الأعراس. عملت النساء بهمة محمومة لسكب الأرز الأبيض المنفوش المزركش ببعض الزعفران في الأطباق الكبيرة، قطعن الخبز، كشطن الأرز المحمص من قاع القدور، مررن صحون الباذنجان المقلي المزين باللبن والنعناع المجفف. كان نبي في الخارج يلعب مع أحد الأطفال. وجلست الأم مع إحدى جاراتها على بساط تحت شجرة البلوط العملاقة. وبين الحين والآخر كانت تلقي نظرة خاطفة على بنتيها النائمتين جنباً إلى جنب في الظل.

استيقظت الرضيعتين بعد وجبة الطعام بينما كان الناس يتناولون الشاي. وفي الحال، تناول شخص ما معصومة. راحت تتنقل من يد ليد، من خال لعمة إلى ابن العم بمرح، تثب من حضن ذاك إلى ركبة تلك. دغدغتها العديد من الأيدي، ولامستها أنوف الكثيرين، وأضحكتهم جميعاً عندما شدت لحية الشيخ شكيب. كانوا جميعاً معجبين بشخصيتها الطفولية الاجتماعية المحببة. رفعوها لأعلى وأثنوا على احمرار وجنتيها، وياقوت عينيها الزرقاوين، على انحناء حاجبيها اللطيف وهم يتكهنون بالجمال المذهل الذي ستغدو عليه بعد بضع سنين.

راقبت بروانة ما يجري مع معصومة بهدوء وهي في حضن أمها، وشعرت ببعض الحيرة لأنها لم تكن تفهم سبب كل هذا الاهتمام. نظرت لها أمها بين الحين والآخر وأمسكت قدمها الصغيرة جداً بنعومة وكأنها تعتذر منها. وفي تلك اللحظة، لاحظ أحدهم بزوغ سنين لبنيين جديدين في فم معصومة. وبضعف، قالت الأم أن بروانة كان لديها ثلاثة.. لكن أحداً لم ينتبه لما قالته.

عندما كانت البنات في التاسعة من عمرهن، اجتمعت العائلة في بيت سابور مساء أحد أيام رمضان لتتشاركا الإفطار سوياً. جلس الكبار على المساند المتكئة إلى جدران الغرفة، علت أصوات الثرثرة بصخب وشربوا الشاي وتمنوا لبعضهم أفضل الأمنيات. أمسك الرجال العجائز بمسابحهم. جلست بروانة بهدوء، تغمرها السعادة لأنها تتنفس ذات الهواء الذي كان سابور يتنفسه، سعيدة على مقربة من عينيه الداكنتين كعيون البوم. راقبته أثناء المساء وهو يلتهم مكعبات السكر، وهو يحك جبهته، ويضحك من قلبه على شيء ما قاله أحد الأعمام. وعندما كان يمسكها متلبسة بالنظر إليه (كما حصل مرة أو مرتين تلك السهرة) كانت عيناها تتحول مباشرة لحالة من الغياب لتفادي الإحراج وركبها تقصف رعباً، وفمها يجف إلى أن تلتصق شفتاها وتعجز عن النطق.

فكرت بروانة في دفتر يومياتها المخبئ تحت كومة الوسائد في البيت. دائماً ما كان سابور يخترع قصصاً، حكايات مليئة بالجن والشياطين والغيلان والجنيات، ولهذا، دائماً ما كان الأطفال يجتمعون حوله وينصتون بهدوء مطلق بينما يؤلف لهم الأساطير. قبل حوالي ستة أشهر، سمعته يخبر أخاها نبي أنه يفكر بتدوين قصصه، بعد ذلك بقليل كانت بروانة مع أمها في سوق البلدة المجاورة، وهناك، في كشك المواد المستعملة، وجدت بروانة دفتر ملاحظات جميل مسطر بخطوط ناعمة ومغلف بجلد سميك

أسمر غامق منقوش على طول حوافه.. حملته، وعرفت أن أمها لا تستطيع دفع ثمنه، ولذلك، انتظرت حتى أبعد صاحب الكشك نظره عنها ودست الدفتر تحت بلوزتها.

ومنذ تلك اللحظة، منذ ستة أشهر حتى الآن، لم تجد بروانة الشجاعة لإعطاء سابور ذاك الدفتر. خافت أن يسخر منها أو أن يرفض أخذه. وبدلاً من ذلك، تمددت كل ليلة في سريرها، وحملت الدفتر بين كفيها سراً تحت البطانية، ومسدت جلده بأطراف أصابعها. غداً، وعدت نفسها كل ليلة، غداً سأحمله إليه.

لاحقاً ذاك المساء، خرج كل الأطفال للعب خارجاً. تناوبوا جميعاً على التأرجح في أرجوحة جدّ سابور المعلقة إلى شجرة البلوط العملاقة. أخذت بروانة دورها لكن سابور كان ينسى دفعها دوماً لأنه كان مشغولاً برواية قصة جديدة أخرى من قصصه. وفي هذه المرة كانت قصة عن شجرة البلوط العملاقة نفسها، والتي كانت في القصة ذات قوى سحرية. إذا كان لديك أمنية ـ قال لهم ـ اركع بجانب جذع الشجرة واهمس لها بها، وإذا وافقت الشجرة على منحك ما طلبته ستطرح منها عشرة أوراق على رأسك.

عندما تباطأت الأرجوحة طلبت بروانة من سابور مواصلة دفعها لكن الكلمات اختنقت في حنجرتها. كان سابور ومعصومة يبتسمان لبعضهما البعض، وفي يد سابور، رأت بروانة الدفتر، دفترها.

لاحقاً قالت معصومة «وجدته في البيت، هل كان لك؟ سأسدد ثمنه لك بطريقة ما. أعدك. أنت لا تمانعين.. أليس كذلك؟ عندما وجدته اعتقدت أنه مناسب له جداً. مناسب لكتابة قصصه. هل رأيت النظرة على وجهه؟ هل رأيتها يا بروانة؟».

أجابت بروانة بالنفي، قالت أنها لا تمانع، لكنها كانت تنهار من الداخل وتتغضن. استعادت في ذهنها مراراً وتكراراً ابتسامة سابور

ومعصومة لبعضهما البعض، النظرة التي تقاسماها. كانا غافلين كلياً عن وجودها، وكأنها جني تبخر لدخان رقيق كما كان الجني في قصص سابور يتحول ويختفي.

عندما بلغتا الحادية عشرة من العمر، كان لدى بروانة فهم مبكر بخصوص سلوك الأولاد الغريب تجاه الفتيات اللواتي يعجبونهن بشكل خاص. رأت هذا بوضوح كلما كانت على طريق العودة من المدرسة برفقة معصومة. كانت المدرسة غرفة خلفية تابعة لمسجد القرية حيث يعلمهم الشيخ شكيب القراءة والكتابة إلى جانب حفظ القرآن، ويستظهر لهم الشعر. كانت شادباغ قرية محظوظة بوجود مثل هذا الرجل الحكيم العارف، كما أخبرهن أبوهن. وغالباً ما صادفت الفتيات في طريقهن للمنزل مجموعة من الأولاد يجلسون على جدار، وبينما كن يعبرن من أمام أولئك الصبيان كن يتعرضن لبعض المضايقات، أحياناً كانوا يرمونهن ببعض الحصى الصغيرة. عادة ما كانت بروانة تصرخ في وجههم وترد لهم حصاهم برميهم بالصخور، بينما تسحبها معصومة من مرفقها وتهمس لها بصوت عاقل أن تستمرا في طريقهما بسرعة، كي لا تغضبن الأولاد. لكنها كانت تسيء الفهم. لم تكن بروانة غاضبة لأنهم رموهن بالحصى، بل لأنهم قصدوا رمي معصومة بتلك الحصى ليلفتوا انتباهها. عرفت معصومة أن تعاظم الاستعراض يعني تعمق رغبتهم أكثر وأكثر في أختها. لاحظت طريقة نظرهم وانزلاق عيونهم اليائسة من أعجوبة رهافة معصومة وهم عاجزين عن تحويل بصرهم. وعرفت أن لا شيء يختبئ وراء نكاتهم البليدة وتكشيراتهم الفاسقة سوى فزعهم من حبها.

وفي أحد الأيام، قذف أحدهم صخرة بدلاً من الحصاة أمام قدمي الأختين، وعندها تناولتها معصومة، ضحك الصبيان ودفعوا بعضهم بعضاً. كانت الحجرة ملفوفة بورقة. وعندما أصبحتا على مسافة مناسبة

من الصبيان فتحتها. قرأتا الورقة. «أقسم، منذ رأيت، وجهك، تحول العالم كله لسراب بالنسبة لي. أحتار في حديقة وجهك أيّ هي الزهرة وأيّ هي الورقة.. حتى الطيور الشاردة بسببك لا تستطيع تمييز طعامها على الأرض». كانت هذه ترجمة سيئة لإحدى قصائد الرومي التي تعلموها من الشيخ شكيب.

«إنهم يتطورون» قالت معصومة مع ضحكة خافتة. وأسفل الورقة كتب الصبي «أريد أن أتزوجك» وتحت ذلك خربش «ملحقاً «لدي ابن عم لأختك، إنه زوج ممتاز، يمكنهما أن يزرعا حقل عمي سوياً»

مزقت معصومة الورقة وقالت لبروانة أن لا تكترث بكلامهم «إنهم بلهاء» قالت.

«مشوهون» أجابت بروانة موافقة.

كان هذا الجهد القليل من معصومة كافياً لتضميد الحزن على وجه بروانة. كانت الملاحظة سيئة بما فيه الكفاية، لكن الذي لسع حقاً كان الرد. لم يحدد الصبي الفتاة المقصودة بالرسالة، ولكن معصومة افترضت لا شعورياً أن القصيدة مهداة لها هي، وأن ابن العم لبروانة. لأول مرة، رأت بروانة نفسها في عيني أختها، فهمت صورتها في ذهن أختها، والتي كانت ذات الصورة الموجودة في أذهان الجميع. وهذا أحبطها. ومن ثم تابعت معصومة بلامبالاة وعبوس «بالإضافة لأني محجوزة».

وصل نبي في زيارته الشهرية. إنه عملياً قصة النجاح الوحيدة في العائلة، ولربما في القرية بكاملها، فيما يخص عمله في كابول، كان الجميع يهرع للقائه ومراقبة وصوله وهو يقود سيارة صاحب العمل الزرقاء اللامعة إلى شادباغ ذات رأس النسر المتألق على مقدمتها، وسط صراخ الأطفال وركضهم بجانب السيارة.

«كيف الأحوال؟» سألهم نبي.

جلسوا هم الثلاثة داخل الكوخ يتناولون الشاي واللوز، وفكرت بروانة أن نبي وسيم جداً، عظام خديه محفورة بدقة وعينيه البندقيتين براقتين، بسالفيه الفاحمين والشعر الأسود السميك البارز كجدار من جبهته. وهو يرتدي بذلته الزيتونية المألوفة الكبيرة عليه كالعادة. وترى أنه فخور بها رغم أنها أكبر من مقاسه، يقوّم قبتها، يطوي الأكمام لأنها طويلة، ويطوي أسفل البنطال، دون أن يستطيع استئصال رائحة البصل المحروق طويلة الأمد من جسده.

«حسناً، استضفنا الملكة الحميراء البارحة على الشاي والبسكويت» ردت معصومة، وتابعت «أثنت على اختيارنا الرائع للديكور» ابتسمت بلطف لأخيها وبانت أسنانها المصفرة. ضحك نبي ونظر للأسفل إلى فنجانه. فقبل أن يجد عمله هذا في كابول كان يساعد في العناية بأخته. لكنه لم يستطع. كان ذلك صعباً كثيراً عليه. وكان السفر إلى كابول هروباً محموداً بالنسبة إليه. وهكذا، كانت بروانة تحسد أخيها، لكنها لم تكن تحسده كلياً، وكانت تعرف أن هناك ما هو أعمق من عنصر التكفير عن الذات في المبلغ الشهري الذي يمنحها إياه كلما أتى.

سرحت معصومة شعرها ووضعت بعض الكحل على عينيها كما كانت تفعل كلما زارهم أخيها نبي. وكانت بروانة تعرف أنها تفعل هذا لتسعد أخاها، ولأنه صلتها الوحيدة بكابول. في ذهنها، كان يربطها بالبهجة والترف، بالمدينة الحافلة بالسيارات والأضواء والمطاعم الفخمة والقصور الملكية، بغض النظر عن بعدها المكاني عن كل تلك الأشياء. تذكرت بروانة يوم أخبرتها معصومة منذ زمن بعيد أنها فتاة مدينة محتجزة في قرية.

سألته معصومة بخبث: «ماذا عنك.. هل وجدت زوجة؟».

لوح نبي بيده بسخرية كما كان يفعل كلما سأله أبوية ذاك السؤال.

«متى ستأخذني في جولة حول كابول مجدداً يا أخي؟»: سألته معصومة.

أخذهم نبي إلى كابول العام الماضي. أخذهم من شادباغ وقاد بهم السيارة إلى كابول، وجال بهم كل شوارع المدينة. أراهم كل المساجد ومناطق التسوق والسينمات والمطاعم. وأشار لمعصومة إلى مكان قصر باغي ـ بالا المتربع على قمة تلة تشرف على المدينة، حيث رفع أخته من المقعد الأمامي للسيارة وحملها بين ذراعيه إلى ضريح إمبراطور المغول. وقد صلوا هناك، ثلاثتهم، في جامع الشاه جاهان، وتناولوا غداءهم على حافة البركة الخزفية الزرقاء. لربما كان هذا اليوم أسعد أيام معصومة منذ الحادث. ومن أجل ذلك، كانت بروانة ممتنة لأخيها.

«قريباً إنشاء الله» أجابها نبي ركبتي، قر كأسه بإصبعه.

«هل تمانع تعديل هذا المسند تحت ركبتي، نبي؟ نعم، هذا أفضل بكثير». تابعت معصومة «لقد أحببت كابول، ولو استطعت، لمشيت إليها مشياً غداً».

«لربما في وقت آخر» أجابها نبي.

«ماذا.. أنا أمشي؟؟؟».

تلعثم نبي: «لا، أنا أعني..». وابتسم ابتسامة عريضة عندما ضحكت أخته.

وفي الخارج، أعطى نبي لأخته مبلغاً من المال وأسند كتفه للجدار وأشعل سيجارة، بعد أن استسلمت معصومة لغفوة قيلولتها.

«رأيت سابور قبل قليل، وضعه فظيع، لقد أخبرني باسم الرضيعة ونسيته الآن».

«اسمها باري» أجابته بروانة.

أومأ برأسه «لم أسأله عن الموضوع، لكنه يفكر بالزواج ثانية».

بدت بروانة شاردة الذهن وهي تحاول أن تبدي عدم اهتمامها بالموضوع، لكن قلبها كان يطرق في أذنيها. وكانت تشعر بسيلان العرق على جسدها.

«كما قلت، أنا لم أسأله، سابور هو من فتح الموضوع، أخذني جانباً وأخبرني».

كانت بروانة تشتبه أن نبي يعرف ما اجتهدت كل تلك السنوات لتخفيه عن مشاعرها تجاه سابور. صحيح أن معصومة هي أختها التوأم، لكن نبي هو الشخص الذي فهمها دائماً. لكنها لا تفهم لماذا يخبرها هذه الأخبار، ما نفع الحديث في هذا الأمر؟ ما يحتاجه سابور هو امرأة غير مرتبطة، امرأة ليس لديها ما يعيقها، امرأة حرة وقادرة على تكريس ذاتها له، لابنه، ولابنته حديثة الولادة. أما وقتها هي فهو مستهلك دوماً، محسوب جداً، كما هي حياتها كلها.

«أنا متأكدة من أنه سيجد إحداهن» أجابت.

أومأ نبي «سأحضر الشهر القادم» سحق لفافة تبغه تحت قدمه واستأذن للمغادرة.

وعندما دخلت بروانة إلى الكوخ فوجئت بمعصومة مستيقظة «اعتقدت أنك كنت نائمة»، سحبت معصومة عينيها باتجاه النافذة، رمشت ببطء، بتعب لا ينتهي.

عندما كانت الفتاتان في الثالثة عشرة، اعتادتا الذهاب لبازاراتا البلدات القريبة منهم بدلاً عن الأم. حيث كانت رائحة الماء المرشوش حديثاً ترتفع من الأرض غير المعبدة. تمشتا على طول الطرقات المليئة بالأكشاك التي تبيع الأراجيل والشالات الحريرية والقدور النحاسية والساعات القديمة. والدجاج المذبوح المعلق من أقدامه، ولحوم الحمل والبقر.

في كل ممر، لمحت بروانة عيون الرجال وهي تتعلق بانتباه بأختها معصومة. رأتهم وهم يبذلون الجهد كي لا يبدو عليهم الانتباه، لكن جهودهم كانت تذهب عبثاً، عاجزين عن فصل عيونهم عنها. وإذا ما أدارت معصومة نظرها باتجاههم بدوا مسرورين بغباء. وكأنهم يتخيلون أن لحظة ما جمعتهم بها. كانت تقاطع كلامهم، هي من تجعل ركب الشجعان تقصف، ومن تسقط أمامها أكواب الشاي من أيدي الرجال.

في أحد الأيام، شعرت معصومة بالضغط أكثر من المعتاد كما لو كانت خجلى مما يحصل معها، وأخبرت بروانة أنها تود البقاء في المنزل ذلك اليوم، أرادت أن لا ينظر إليها أحد. في تلك الأيام، وكما كانت بروانة تدرك قبل زمن طويل، أدركت معصومة متأخرة أن جمالها سلاح فتاك، كبندقية محشوة موجهة إلى رأسها هي. مع أن الإطراء كان يسعدها في معظم الأوقات. ومع أنها كانت تستمتع عندما تستخدم قوتها في إخراج رجل عن الطريق بابتسامة عابرة ولكن محسوبة، أوفي جعل الألسنة تتلعثم. كان جمالها يبهر العيون.

وبجانبها، كانت بروانة، بصدرها المستوي وطبيعتها الشاحبة. بشعرها الأجعد ووجهها الحزين الثقيل ورسغيها السميكين وكتفيها الذكوريين. أيُّ ظلّ فتاة مثير للشفقة كانت بروانة، ممزقة من الرعب من أن يراها أحد مع معصومة، من أن تكون معها ضمن دائرة الاهتمام ولكن فقط، كعشبة ضارة تحاول الظهور بجانب زنبق الماء.

حاولت بروانة تجنب الوقوف بجانب المرآة مع أختها كل حياتها، كان مثل هذا الموقف قادراً على تجريدها من الأمل، لأنها سترى بكل وضوح كل ما كانت قد حُرمت منه. ولكن علناً، كل عين شخص غريب كانت مرآة، ولم يكن أمامها أي مهرب.



حملت معصومة للخارج وجلستا كلاهما على الفراش الذي أعدته. رتبت المساند كي ترتاح المريضة وتسند ظهرها للحائط. الليل هادئ، والصراصير تنقنق، والظلام، لا يقطعه سوى فوانيس بعض النوافذ وثلاثة أرباع قمر ينير السماء.

ملأت بروانة زجاجة النارجيلة بالماء وتناولت قطعتين متماثلتين من الأفيون مع قليل من التبغ وأسقطتهما في طاسة النارجيلة. أشعلت الفحم وأعطت النارجيلة لأختها. أخذت المرأة سحبة طويلة من الخرطوم وهي تتكئ إلى المساند، وسألت بروانة إذا ما كانت تستطيع إراحة سيقانها على حضنها. رفعت بروانة الساقين المشلولتين الهزيلتين ووضعتهما في حضنها.

عندما تدخن معصومة، يستكين وجهها وتتدلى شفتاها ويميل رأسها بقلق إلى الجانب ويصبح صوتها بعيداً بطيئاً. على طرف فمها يلوح شبح ابتسامة أقرب للغرابة والكسل من الرضا. قليلاً ما تتحدثان في مثل هذه الأوقات. تستمع بروانة للنسيم وغرغرة الماء في النارجيلة. تراقب النجوم والدخان وهو يتصاعد فوقها. ويلفهما صمت لطيف، فكلاهما لا تمتلكان الحافز لملأه بكلمات غير ضرورية.

إلى أن قالت معصومة «هل تفعلين شيئاً لأجلي؟» نظرت إليها بروانة.

«أريدك أن تأخذينني إلى كابول» قالت وهي تزفر الدخان ببطء، وتراقبه يدور ويتضافر ويتحول لأشكال متحركة في كل ومضة عين.

«هل أنت جادة؟».

«أريد رؤية قصر دارو ـ لامان. لم تتسنى لنا الفرصة لرؤيته المرة الماضية. ولربما استطعنا الذهاب لمدفن بابور مرة ثانية».

انحنت بروانة للأمام لتتبين معالم وجه أختها، باحثة عن لمحة

مزاح.. لكنها لا ترى في ضوء القمر سوى الهدوء المطلق وألق العينين الثابتتين تصميماً.

«رحلة كهذه ستستغرق منا مسير يومين على الأقل، ومن المحتمل أن نحتاج لثلاثة».

«تخيلي وجه نبي عندما نفاجئه ويرانا على بابه».

«نحن لا نعرف أين يعيش».

«لقد أخبرنا عن اسم الحي التي يعيش فيه، سنقرع بعض الأبواب ونسأل، هذا ليس صعباً».

«كيف سنصل إلى هناك باعتقادك يا معصومة؟».

سحبت خرطوم النارجيلة من بين شفتيها وأردفت «عندما كنت اليوم خارجاً تعملين جاء الشيخ شكيب للزيارة، وتحدثنا لفترة طويلة. أخبرته أننا ذاهبتان إلى كابول لبضعة أيام، أنا وأنت فقط. منحنا بركاته، وأعارنا بغله. أي أن كل شيء مرتّب كما ترين».

«أنت مجنونة».

«حسناً. هذا هو ما أرغب به. إنها أمنيتي».

أسندت بروانة ظهرها للحائط وهزت رأسها، وتصاعدت نظرتها إلى الظلام الذي تزركشه الغيوم.

«لقد ضجرت جداً يا بروانة.. أنا أموت».

تنهدت بروانة عميقاً ونظرت إلى أختها. سحبت معصومة الخرطوم إلى فمها وتابعت الحديث «أرجوك لا تحرميني من هذا الطلب الأخير».

كان الوقت مبكراً جداً، والفتاتان في السابعة عشرة من عمرها، تجلسان على فرع عال من شجرة البلوط وتدليان قدميهما. «سابور سيطلبني» صاحت معصومة بصوت عالي النبرة.

«يطلبك؟» أجابتها بروانة دون أن تفهم عما تتحدث، ومن ثم اتضحت لها الصورة.

«حسناً، لن يقوم هو بذلك، أبوه من سيطلبني».

فهمت بروانة الحديث الآن. غرق قلبها وغاص إلى قدميها. «كيف عرفت؟» قالتها بشفاه خدرة.

بدأت معصومة بالكلام بسرعة مسعورة، لكن بروانة لم تكن تسمع أي شيء منه. راحت تتصور زفاف أختها إلى سابور، وأطفالاً يرتدون ملابسهم الجديدة ويحملون سلال الحناء المترعة بالزهور ووراءهم لاعبوا الدوهول والشاهناي. رأت سابور وهو يفتح كف معصومة ويضع فيها الحناء ويربطها بشريط أبيض. سمعت الصلوات والتبريكات والتهاني ولمحت الهدايا. رأتهما وهما ينظران لبعضهما تحت الحجاب المطرز بخيوط ذهبية وهما يطعمان بعضهما بعضاً ملاعق العصير الحلو والماليدا. وهناك، بين الضيوف لمحت نفسها تراقب الحدث. وتعرف أنه يتوجب عليها أن تبتسم وتصفق وأن تبدو سعيدة حتى لو كان قلبها مكسوراً متصدعاً.

انسلت الريح واكتسحت الشجرة وهزت الأوراق والفروع. وكان على بروانة أن تتمالك نفسها. توقفت معصومة عن الكلام وهي تبتسم ابتسامة عريضة وتعضّ شفتها السفلى. «لقد سألتني كيف أعرف.. سأخبرك.. لا.. سوف أريك».

استدارت ومدت يدها لجيبها. وبينما كانت تدير ظهرها لبروانة وتفتش في جيبها مدت بروانة يديها تحت فرع الشجرة ورفعته من الغضب الذي استبد بها ،ثم تركته. اهتز الغصن. لهثت معصومة وفقدت توازنها وضربت يديها الفراغ بعنف ومالت للأمام. راقبت بروانة حركات يديها.. لم يكن ما فعلتاه دفعاً بمعنى الدفع، لكن أطراف أصابع بروانة لامستا ظهر معصومة ومرّت وهلة من الدفع الخفيف جداً.

لكنه دام لحظة قصيرة قبل أن تمد بروانة يديها جيدا وتمسك بقميص أختها وسط صوتيهما وهما تناديان بعضهما بعضاً برعب. أمسكت بروانة بالقميص وبدت للحظة وكأنها أنقذت أختها. وعندها.. تمزق القماش وانزلق القميص من قبضتها.

سقطت معصومة عن الشجرة. بدت السقطة لها بلا نهاية. اصطدم جذعها بالفروع وهي تتهاوى، أفزعت الطيور ومزقت الأوراق، وراح جسدها يسرع، يثب، يكسر فروعاً صغيرة، إلى أن وصلت للجذع السميك الذي علقت به الأرجوحة وعلقت به من أسفل ظهرها وصدر عنها صوت ارتطام مسموع. انطوت مناصفة للخلف تقريباً.

تحلق الجميع حولها بعد عدة دقائق، نبي وأبوه يبكيان والأب يهز معصومة محاولاً إيقاظها. كل الوجوه انسدلت كما الستائر للأسفل. تناول أحدهم يدها ووجدها مغلقة بشدة. وعندما فتحوا الأصابع وجدوا عشرة وريقات خضراء مجعدة في كفها.

«عليك أن تقومي بهذا الليلة، إذا انتظرت حتى الصباح فستفقدين القدرة». قالت معصومة.

وفيما وراء الوهج الخافت للنار التي أذكتها بروانة بالأعشاب الضارة والعيدان الهشة امتدت حولهم الفسحة اللانهائية المقفرة، لا يحدها سوى الرمال والجبال، ويبتلعها الظلام. سافرتا ليومين تقريباً خلال التضاريس الوعرة متوجهتين إلى كابول. مشت بروانة بجانب البغل وربطت معصومة بالسرج وأمسكت بيدها. مشتا ومشتا على طرق منحنية صاعدة وهابطة عبر الحواف الصخرية. والأرض تحت أقدامهم مرشوشة بالأعشاب الصدئة، محفورة بشقوق العناكب التي تزحف في كل مكان.

وقفت بروانة بجانب النار ونظرت لمعصومة التي أعطت ظهرها للنار.

«ماذا وراء رحلة كابول هذه؟».

«يفترض بأنك الذكية ما بيننا».

«لا تفعلي هذا بي».

«أنا متعبة يا بروانة، حياتي ليست حياةً. وجودي رحلة عقاب لكلينا».

«دعينا نعود» اختنقت حنجرة بروانة «لا أستطيع فعل هذا، لا أستطيع تركك هنا».

بكت معصومة وأجابتها «أنا أتركك، أنا أطلق سراحك».

فكرت بروانة بليلة مضت منذ زمن بعيد، كانت تدفع معصومة في الأرجوحة. راقبتها وهي توازي سيقانها وتسقط رأسها للخلف وهي تعود للخلف في كل هزة وأثر شعرها الطويل الذي كان يخفق كالشراشف على حبال الغسيل. تذكرت كل الدمى الصغيرة التي صنعتاها من قش الذرة وكيف صنعتا لها فساتين أعراس بيضاء من قصاصات القماش القديم.

«أخبريني، أختي».

ابتلعت بروانة الدموع التي كانت تشوّه الرؤية أمامها ومسحت أنفها بظاهر يدها. «ابنه عبد الله والبنت الرضيعة وباري، أتعتقدين أنك تستطيعين محبتهم كما لوكانا ولديك؟».

«معصومة».

«هل تستطيعين؟».

«يمكنني أن أحاول». ردت بروانة.

«جيد، تزوجي سابور إذاً، اعتني بأطفاله، وأنجبي أبناء لك أيضاً».

«لقد أحبَّكِ أنت. لم يحبني أنا يوماً».

«سيفعل، إذا مُنح الوقت لذلك».

«كل هذا بسببي» قالت بروانة «هذا كله ذنبي، كله».

«لا أفهم ما تعنين ولا أريد فهمه. في هذه المرحلة، كل ما أريد هو أن تتزوجي سابور. سيتفهم الناس ذلك يا بروانة، سيخبرهم الشيخ شكيب أنه يبارك هذا الأمر».

رفعت بروانة رأسها للسماء المظلمة.

«كوني سعيدة يا بروانة، أرجوك كوني سعيدة، اسعدي لأجلي».

شعرت بروانة أنها ستخبرها بكل شيء، ستخبرها كم كانت مخطئة بحقها، ستخبرها بمدى جهلها بأختها التي تشاركت معها الرحم ذاته، ستخبرها كيف أن حياتها ولكل تلك السنين الطويلة لم تكن أكثر من محاولة اعتذار أخرس عما جرى. ولكن ما الجدوى. لن تتحقق راحتها الحقيقية سوى على حساب معصومة مرة أخرى. عضت الكلمات وابتلعتها قبل أن تتفوه بها. لقد آلمت أختها بما فيه الكفاية.

«أريد أن أدخن» قالت معصومة.

احتجت بروانة لكنها قاطعتها بصلابة: «إنه الوقت المناسب».

جلبت بروانة النارجيلة من الكيس المربوط إلى رأس السرج بأيديها المرتجفة، هيأت الخليط العادي في طاسة النارجيلة وسمعت أختها تقول «أكثر، ضعي أكثر بكثير من هذا».

أخذت شهقة وتبللت خدودها، أضافت كمية، ثم كمية أخرى، ثم أخرى. أشعلت الفحم ووضعت النارجيلة بجانب أختها.

«الآن» قالت معصومة ووهج النيران البرتقالي يومض على خديها، وفي عيونها. «إذا كنا تحبينني يا بروانة، إذا كنت أختي حقاً... غادري، اتركيني. لا تقبّليني، لا تودّعيني، ولا تجبريني على التوسل إليك».

بدأت بروانة بقول شيء ما لكن معصومة أصدرت صوتاً مفاجئاً

ومتألماً وأدرات رأسها بعيداً.

رفعت بروانة قدميها لترحل بتثاقل. مشت إلى البغل وربطت السرج وأمسكت برسن الحيوان وأدركت فجأة أنها لا تعرف كيف تعيش بدون أختها. لا تعرف إذا ما كانت تستطيع. كيف ستحتمل الأيام عندما ستشعر أن غياب معصومة هو حمل أكبر وأعمق بكثير من وجودها الآن وهي بهذه الحالة؟ كيف ستدوس على المكان الذي كانت تحتله معصومة؟

«تشجعي»... سمعت معصومة تقول ذلك من بعيد. سحبت الحبال وأدارت البغل وبدأت المسير.

مشت، تقطع الظلمات وريح ليلية مثلجة تمزق وجهها وتحني رأسها للأسفل، التفتت مرة وحيدة للخلف قبل أن تختفي. ورأت من خلال عينيها الغائمة بالدموع نار المخيم كلطخة صغيرة صفراء، بعيدة، خافتة. تصورت أختها التوأم متمددة بجانب النار وحيدة في العتمة. قريباً، ستنطفئ النار وستبرد معصومة. أمرتها غريزتها بالعودة لتغطي أختها بالبطانية ولتتمدد بجانبها. استدارت حول نفسها وتابعت المشي. وهنا.. سمعت شيئاً ما، مثل النواح، توقفت بروانة وأمالت رأسها، وعندها سمعتها ثانيةً، بدأ قلبها يطرق في صدرها، تساءلت بفزع، أهي أختي تناديني، هل غيرت رأيها؟. أو ربما كان صوت ابن آوى أو ثعلب يعوي بعيداً في الظلام. لا يمكن أن تتأكد، وفكرت أنه قد يكون صوت الريح.

«لا تتركيني يا أختاه، عودي».

لا توجد طريقة للتأكد سوى العودة من نفس الطريق، وبالفعل استدارت بروانة ومشت بضع خطوات باتجاه معصومة، ثم توقفت. كانت أختها على حق. إذا رجعت إليها الآن فلن تملك الشجاعة لتتركها نهاراً. ستفقد الجرأة وستبقى مع أختها. ستبقى معها للأبد،

هذه هي فرصتها الوحيدة.

أغمضت بروانة عينيها، لوّحت الريح وشاحها فانقلب وغطى وجهها.

لا يجب أن يعرف أحد بما جرى، سيكون هذا سرّها الكبير. لن يشاركها به أحد سوى هذه الجبال. السؤال الحقيقي هو إن كانت قادرة على متابعة الحياة مع هذا السر، وهي تعتقد أنها تعرف الجواب على هذا السؤال. عاشت حياتها مع الأسرار. سمعت النواح مرة أخرى من بعيد.

كل الناس أحبوك يا معصومة، لم يحبني أحد أبداً.

ولماذا يا أختي.. ماذا فعلت، ما كان ذنبي؟

تجمدت بروانة وبقيت ساكنة لفترة من الوقت في الظلام. ومن ثم، اتخذت قرارها. استدارت، وأسدلت رأسها ومشت باتجاه الأفق غير المرئي. بعد ذلك بقليل، توقفت عن الالتفات للخلف وعرفت أنها لو التفتت مرة أخرى ستضعف وتفقد عزيمتها، سترى دراجة قديمة تسرع هابطةً التلة وتتقافز فوق الحصى والصخور، وستشعر بالمعدن يضرب مؤخراتهن وسحب الغبار المتطايرة مع كل انزلاق مفاجئ. سترى نفسها تجلس على الإطار ومعصومة على السرج، وتستدير للوراء بأقصى سرعة وتكاد تسقط الدراجة بسبب الميل الشديد. لكن بروانة غير خائفة، لأنها تعرف أن أختها لن تقذفها عن الدراجة ولن تؤذيها. يذوب عالمها في دوامة الحماس وتصفر الريح في آذانهن وتنظر بروانة للأمام لأختها وأختها تنظر للخلف، وتلتقي العينان، وتضحكان في نفس اللحظة من الكلاب الضالة التي تلاحقهن.

تابعت بروانة السير نحو حياتها الجديدة. مشت، والظلام حولها يحتضنها كرحم أم، وعندما رفعت وجهها ونظرت لسديم الفجر ورأت الضوء الشاحب المنبثق من الشرق المنسكب على الصخر، عرفت أنها ولدت اليوم من جديد.

الفصل الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما ستقرأ هذه الرسالة يا سيد ماركوس سأكون قد رحلت عن هذا العالم، لأنني عندما أعطيتك إياها طلبت أن لا تفتحها إلا بعد موتي. دعني أولاً أخبرك كم سُررت بمعرفتك خلال السبع سنوات الماضية. وبينما أكتب كلماتي هذه أفكر بولعٍ بطقسنا السنوي في زراعة الطماطم في الحديقة، وزياراتك الصباحية لكوخي لشرب الشاي وتبادل الأحاديث، وتعليمنا المتبادل لبعضنا الفارسية والانكليزية. أنا أشكرك على صداقتك لي ومراعاتك لسنين عمري وعلى جهدك في العمل المخلص الذي قدمته لهذه البلاد، وكلي ثقة بأنك سترسل شكري وامتناني لكل الزملاء المحبين أيضاً، وخصوصاً للآنسة أمرا أديموفيك، التي تمتلك قدرة عجيبة على الحنان والتعاطف، ولابنتها الشجاعة والرائعة، روشي.

يجب أن أقول أنني لا أرسل هذه الرسالة لك وحدك يا سيد

ماركوس بل لشخص آخر أتمنى أن تمرر له الرسالة، كما سأشرح لك لاحقاً. سامحني، لأنني سأزعجك بتكرار أمور تعرفها مسبقاً. وأذكرها بدافع الضرورة فقط. لمنفعتها كما سترى. تحتوي هذه الرسالة على ما هو أبعد من عنصر الاعتراف، إنها تحتوي أيضاً على أمور واقعية دفعتني للكتابة. ولأجل هذه الأمور، أخشى أنني سأحتاج لمساعدتك يا صديقي.

فكرت طويلاً، من أين أبدأ هذه القصة؟ ليس هذا بالأمر السهل بالنسبة لرجل في منتصف الثمانينيات من عمره. إن عمري الحقيقي هو لغز بالنسبة لي، كما هو بالنسبة للأفغان المعاصرين لي، لكنني واثق من تقديراتي لأنني أتذكر بوضوح معركة بالأيدي بيني وبين صديق لي، وفيما بعد أصبح هذا الصديق نسيبي، سابور، في اليوم الذي سمعنا بذلك، كان الشاه نادر قد أصيب بطلق ناري وقتل، وأن ابنه الشاب زهير قد اعتلى العرش، وحصل ذلك في العام 1933. يمكنني أن أبدأ القصة من هنا، كما أعتقد. أومن مكان آخر. إن القصص كالقطارات المتحركة، لا يهم أبداً من أين تركبها، لأنك ستصل غايتك عاجلاً أم آجلاً على متنها. لكني أعتقد أني سأرويها ابتداءً من ذات الشيء الذي يختمها. نعم، أعتقد أنه أمر مفهوم أن أختم حسابي هذا مع نيلا وحداتي.

لقد قابلتها لأول مرة في العام 1949 عندما تزوجت رب عملي.

كنت أعمل في ذلك الوقت عند السيد سليمان وحداتي منذ عامين بعد أن انتقلت لكابول من شادباغ، القرية التي ولدتُ فيها. كنت قد عملت لسنة قبل ذلك عند عائلة أخرى في نفس الحي. ظروف مغادرتي لشادباغ، قريتي، ليست شيئاً يدعو للفخر. واعتبر هذه الجملة أول

اعترافاتي. كنت مخنوقاً بالعيش في شادباغ مع أخواتي، كانت إحداهن عاجزة. لا أقول هذا لتبرئة نفسي، لكنني كنت شاباً جداً يا سيد ماركوس، كنت شاباً متلهفاً للعالم، كان عقلي مترعاً بالأحلام البسيطة والمبهمة، لكن هذا ما كانت عليه، وكنت أرى شبابي يهرب مني وينحسر. تضاءلت فرصي يوماً بعد يوم بالحياة هناك، لذلك غادرت، ذهبت لأوفر لأخواتي المال اللازم، نعم.. هذا صحيح، لكنني كنت هارباً بنفس الوقت.

بما أنني كنت أعمل على مدار الساعة عند السيد وحداتي فقد كنت أعيش في بيته أيضاً، في تلك الأيام، كان البيت مختلفاً جداً عن الحالة الحزينة التي وصلت لتجده عليها عام 2002 يوم نزلتَ كابول. كان المكان جميلاً مفعماً بالمجد. أشرق البيت في تلك الأيام باللون البيض كما لو كان مزججاً بالماس، تنفتح البوابة الأمامية على ممر سيارات عريض يوصلك لاستراحة عالية السقف مزينة بزهريات خزفية طويلة ومرآة دائرية لها إطار من خشب الجوز. تماماً حيث تعلق أنت اليوم صورة صديقة طفولتك القديمة على الشاطئ. غطيت أرضية غرفة الجلوس الرخامية المتألقة بسجادة تركمانية حمراء غامقة. اختفت السجادة الآن، كما اختفت الأريكات الجلدية وطاولة القهوة المصنوعة يدوياً وطاولة الشطرنج والمقصورة الطويلة المصنوعة من خشب الماهوغاني. ما بقي إلى اليوم ليس سوى القليل مما كان وأعتقد أنه لم يعد كما كان في السابق.

أذكر أن عظام فكي السفلى ارتخت عندما دخلت المطبخ المبلط بالخزف للمرة الأولى، واعتقدت أنه كبير كفاية ليجلس به كل أهل قريتي ليأكلوا سوية. وجدت فيه فرناً له ستة رؤوس، ثلاجة، محمصة، والكثير من القدور والمقالي والسكاكين والعدة لتكون تحت

تصرفي. وأربعة حمامات، بُلط كل منها بالسيراميك بطريقة معقدة ووضعت فيها المغاسل الخزفية. أترى تلك الفتحات المربعة في منضدة حمامك العلوي يا سيد ماركوس؟ لقد كنا نملأها بأحجار الفيروز.. فقط من أجل جمالية المكان.

ومن ثم كانت الحديقة. لا بد يا سيد ماركوس أن تجلس ذات يوم في مكتبك في الطابق العلوي وتحاول تصوّر الحديقة كما كانت ذات يوم. كنا ندخلها من شرفة نصف دائرية مسوّرة بكرمات العنب الخضراء. والمرج كان يومئذ أخضراً منثوراً بالياسمين والجيرانيوم والزنبق والجاور وصفين من الأشجار المثمرة. كان من الممكن للإنسان يا سيد ماركوس أن يستلقي تحت إحدى أشجار الكرز ويغمض عينيه وينصت للنسيم العابر بين الأوراق ليتأكد أنه لا يوجد مكان على الأرض أفضل للعيش من هذا.

خصّصوا لي كوخاً خلف الساحة. له نافذة وجدرانه مطلية بالكلس الأبيض وفسحة كافية لتلبية متطلبات شاب أعزب محدود مثلي. كان عندي سرير، منضدة وكرسي، ومكان كافٍ لفتح سجادة الصلاة خمس مرات في اليوم. كان هذا يكفيني يومها، وما زال يكفيني حتى الآن.

طبخت للسيد وحداتي بمهارة اكتسبتها من أمي المتوفاة أولاً ولاحقاً من طباخ أوزبكي مسنّ عمل لدى العائلة التي كنت أعمل عندهم قبل السيد وحداتي. كما كنت أيضاً، وبغبطةٍ، سائق سيارة السيد وحداتي الشفروليه الزرقاء ذات الفينيل الأسمر في الأعلى والمقاعد الزرقاء، من طراز العام 1945، ذات العجلات المصنوعة من الكروم. كانت تلك سيارة أسطورية تجذب الأنظار أينما ذهبنا. سمح لي بقيادتها لأني أثبتُّ أنني سائق ماهر ومتعقل، بالإضافة إلى أنه كان من الجيل النادر الذي لم يستمتع بقيادة السيارة أبداً.

أرجوك أن لا تعتقد أني أتفاخر يا سيد ماركوس إذا قلت عن نفسي أني كنت خادماً جيداً، فقد تعلمت ما يحب السيد وحداتي وما يكره من خلال ملاحظاتي لسلوكه. عرفت عاداته وطقوسه وحفظتها على أكمل وجه. على سبيل المثال، كان يحب الذهاب في نزهة على الأقدام كل صباح بعد تناول الإفطار. ولم يكن يُفضل الذهاب وحيداً، وهكذا كان يفترض بي مرافقته. التزمت بهذه النزهة بالطبع مع أنني لم أجد مبرراً لوجودي. لم يكن يتفوه بأي كلمة في هذه النزهات، وبدا لي دوماً ضائعاً في أفكاره الخاصة. كان يمشي بسرعة ويُثبِّت كفيه وراء ظهره ويومئ برأسه للمارة وأكاد أسمع ضربات كعبي حذاءه الجلدي الملمع للتو على الأرصفة بينما أكتب لك الآن. ولأن سيقانه كانت طويلة وخطواته واسعة، كنت أتخلف وراءه دوماً وأجبر على الركض للّحاق به أحياناً. في بقية النهار كان ينسحب لدراساته في الطابق العلوي غالب الأيام، يقرأ أو يلعب الشطرنج مع نفسه. كان يحب الرسم وأنا لم أكن قادراً على تمييز مهارته، على الأقل في ذلك الوقت، لأنه لم يدعني أرى أعماله يوماً، ولأنني غالباً ما كنت أراه غارقاً على مكتبه بجانب النافذة أوعلى الشرفة وجبينه متغضن من العبوس وهو يحرك قلم الفحم على دفتر الرسم.

كنت آخذه في جولة حول المدينة كل بضعة أيام، ولزيارة أمه كل أسبوع، وقد حضر بضع تجمعات عائلية أيضاً، ومع ذلك، فقد تفادى معظمها، كما حضر الجنازات وحفلات عيد الميلاد والزفاف. كنت آخذه شهرياً لمخزن مستلزمات الفنون، حيث كان يتزود بأقلام الباستيل والفحم ومحاياته ومباريه ودفاتر رسمه. كان أحياناً يرغب في الجلوس في المقعد الخلفي والقيام بنزهة. كنت أسأله: «إلى أين يا سهيب؟». كان يستهجن وكنت أتابع: «حسناً، سهيب». كنت أعشق

التروس وننطلق في جولة تمتد لساعات حول المدينة دون أي هدف أو غرض، من حي لآخر، نمضي بجانب النهر ونعود من طريق بالاـ حصار، وفي بعض الأحيان كنا نذهب لزيارة قصر دارو-لامان. وفي بعض الأيام كنت أقود السيارة إلى بحيرة غارغا، حيث كنت أركن بجانب ضفة النهر وأطفئ المحرك والسيد يجلس بشكل مثالي في الخلف دون أن يتفوه بحرف، ويبدوسعيداً بمجرد إنزال نافذته والنظر لطيران العصافير من شجرة لشجرة، وبالنظر لخيوط الضوء التي تضرب وجه البحيرة وتتبعثر لألف شظية تتهادى فوق الماء. كنت أراقبه من مرآتي وأرى فيه أكثر إنسان وحيد على وجه هذه الأرض.

و مرة في الشهر كان السيد وحداتي يسمح لي بسخاءه أن أستعير السيارة لأذهب بها لقريتي شادباغ كي أزور أختي بروانة وزوجها سابور. وكلما كنت أذهب للقرية كانت حشودها تحييّني وصراخ الأطفال الراكضين بجوار السيارة وهم يصفعون أطراف السيارة وينقرون النوافذ يغطيني. وكان بعضهم يحاول التسلق فوق السيارة ويتوجب علي عندئذ أن أطردهم خوفاً على الطلاء من الخدش أو خوفاً من أن يُسببوا انبعاجاً في الحاجز.

«انظر إلى نفسك يا نبي، أنت شخص مشهور الآن».

أطفاله عبد الله وباري فقدا أمهم (أختي بروانة كانت زوجة أبيهم) ولهذا كنت أحاول أن أكون عطوفاً عليهم، وخصوصاً على ابنه البكري عبد الله الذي بدا أكثر حاجة للحنان من أخته. وهكذا كنت آخذه في جولة بالسيارة، وكان دائماً يُصر على اصطحاب أخته الرضيعة معه حاملاً إياها بإحكام في حضنه ونحن ندور في أنحاء شادباغ. تركته يُشغّل ماسحات الزجاج الأمامي وعلمته كيف يحول أضواء السيارة من الخفيفة للعالية.

وبعد خمود الاهتمام بالسيارة، كنت أشرب الشاي مع أختي وزوجها وأخبرهم عن حياتي في كابول، ولم أخبرهم الكثير عن السيد وحداتي. في الحقيقة، كنت مولعاً به، لأنه عاملني جيداً وهكذا بدا لي الحديث عنه بالسوء في غيابه كالخيانة. ولو كنت موظفاً أقل احتفاظاً بالأسرار لكنت أخبرتهم أن سليمان وحداتي مخلوق محير، لأنه رجل راض بالحياة دون أن يتمتع بالثروة التي ورثها. كنت أخبرتهم أنه لا يمتهن أي شيء ولا تظهر عليه أي عاطفة ولا يوجد لديه أي دافع لترك شيء ما منه في هذا العالم. كنت سأخبرهم أنه عاش حياةً تفتقر لدافع أو لهدف، كما كانت عليه جولاتنا في السيارة، حياةً عاشها من المقعد الخلفي، وراقبها وهي تخبو، حياةً بلا قيمة.

هذا ما كنت سأقوله لهم، لكنني لم أفعل. ومن حسن الأمور أنني لم أفعل. لأنني كنت سأكون مخطئاً جداً.

خرج السيد وحداتي في أحد الأيام للساحة مرتدياً بذلة مخططة لطيفة، وهي بذلة لم أره يرتديها من قبل، وطلب مني أن أوصله إلى حي راق في المدينة. وعندما وصلنا أمرني أن أتوقف خارج بيت محاط بسور عال جميل، راقبته عندما دقّ الجرس عند البوابة وعندما أجابه الخادم. ذاك البيت أضخم من بيت السيد وحداتي وأجمل. زيّنته أشجار السرو الطويلة وحدّدت ممرّه مع صفٍّ كثيفٍ من أجمات مزهرة لم أتعرف عليها. كان الفناء الخلفي أكبر بمرتين من فناء بيت السيد والجدران عالية جداً لدرجة أن رجلين يقفان فوق بعضهما البعض لن يستطيعا استراق النظر للداخل. كان هذا بيت ثري كبير. لاحظت هذا.

حدث هذا في يوم مشرق في بداية الصيف وكانت السماء تشع بنور

الشمس والهواء الدافئ يدخل من النوافذ المفتوحة. وبما أن وظيفة السائق أن يقود، فإن أغلب وقته كان يُصرف في الانتظار. ينتظر خارج المتاجر، وصالات الزفاف مكتفياً بسماع الموسيقى الخافتة. ولتمضية ذاك اليوم لعبت بضع مرات بالورق. وعندما مللتها نزلت من السيارة وأخذت بضع خطوات. جلست في السيارة مرة أخرى وفكرت في اقتناص قيلولة قبل خروج السيد وحداتي.

وعندها فُتحت البوابة الأمامية وظهرت شابة سوداء الشعر مرتدية نظارات شمسية وفستان قصير الأكمام بلون البرتقال اليوسفي يصل إلى الركبتين. كانت ساقاها عاريتين وكذلك قدميها. لم أعرف إن كانت قد لاحظتني وأنا أجلس في السيارة لأنها لم تصدر أي إشارة على ذلك. أراحت كعب إحدى قدميها إلى الحائط وعندما رفعت قدمها قليلاً ارتفع فستانها وكشف بعضاً من فخذها. شعرت بحرق ينتشر في خدي نزولاً إلى رقبتي.

اسمح لي هنا أيها السيد ماركوس بتقديم اعتراف ذي طبيعة مقيتة جداً، في ذلك الوقت كنت في أواخر عشرينياتي، شاب في ذروة الحاجة لامرأة. لم أكن واحداً من شباب قريتي الذين لم يروا في حياتهم ساق امرأة قبل الزواج، كان عندي بعض التجارب. فقد زرت في كابول في بعض المناسبات أماكناً يمكنها إجابة رغباتي بكل تقدير وارتياح. أذكر هذا كي تعرف أنه من غير الممكن لأي فتاة ليل أن تقارن مع هذا المخلوق الرشيق الجميل الذي خرج أمامي يومها أبداً.

أشعلتْ سيجارة وهي تستند للحائط ودخنتها ببطء وهي تمسكها بطرف أناملها وتلفّ يدها كلما رفعتها لشفاهها. راقبتها باهتمام بالغ. ذكرتني حركات يدها برسم توضيحي كنت رأيته يوماً في كتاب لامع يُظهر امرأة لها ذات الشعر الداكن وهي تتمدد مع حبيبها في حديقة

وتعرض عليه كأساً من النبيذ بأصابعها الشاحبة الدقيقة. في نقطة ما جذب انتباهها شيء ما يجري في الشارع بالاتجاه المعاكس، وانتهزتُ تلك الفرصة لتسريح شعري الأشعث بفعل الحر. وعندما أدارت وجهها باتجاهي مرة أخرى تجمدتُ من جديد. أخذتْ بضع أنفاس أخرى من اللفافة وسحقتْ السيجارة ضد الحائط ومشتْ بتسكع للداخل.

كان بإمكاني التنفس أخيراً.

تلك الليلة استدعاني السيد وحداتي إلى غرفة الجلوس وقال «لدي أخبار لك يا نبي، سوف أتزوج». عرفت عندها أنني بالغت في تقدير ولعه بالاختلاء بنفسه. انتشرتْ أخبار الارتباط بسرعة شديدة ولحقت بها الإشاعات التي سمعتها من العمال الآخرين في بيت السيد وحداتي. أهمها كانت تلك التي سمعتها من زهيد البستاني الذي كان يعمل لدينا ثلاثة أيام في الأسبوع لجز العشب وتشذيب الأشجار والأجمات، وهو شخص لم أكن أسعدُ برفقته، وكانت لديه عادة بغيضة، حيث كان ينقر لسانه بعد كل جملة، لسانه الذي كان يرمي منه الإشاعات تماماً كما يرمي الأسمدة بكفيه. كان واحداً من مجموعة العمال الدائمين مثلي الذين عملوا في الحي كطباخين وبستانيين وسعاة. كانوا يحضرون لكوخي مرة أو مرتين في الأسبوع بعد انتهاء العمل لتناول الشاي مساءً. لا أذكر كيف بدأت هذه الطقوس، وهي طقوس لم أستطع إيقافها مهما حاولت فيما بعد، خوفاً من أبدو وقحاً أو غير مضياف، أو ما هو أسوأ، أن أبدو متكبراً عليهم.

في إحدى الليالي وبينما كنا نتناول الشاي، أخبرنا زهيد أن عائلة السيد وحداتي تعارض الزواج بسبب شخصية العروس الغير مرغوبة. قالوا بأنها معروفة في كابول بأن لا شرف لديها ولا ناموس، ومع أنها كانت في العشرين من عمرها فقط، إلا أنها كانت قد «رُكِبَتْ في جميع

أنحاء البلد» كسيارة السيد وحداتي. والأسوأ من هذا ليس عدم إنكارها لكل هذه الادعاءات، بل أنها كتبت عن مغامراتها أشعاراً وقصائد. انتشرت همهمات الاستنكار في الغرفة عند هذه النقطة، وأشار أحد الرجال أنهم في قريته كانوا ليجزوا عنق مثل هذه المرأة.

وعندها وقفت وأخبرتهم أني سمعت ما يكفي، وبختهم على نميمتهم وجلوسهم كالنساء العجائز في حلقة الخياطة وذكرتهم أننا كنا سنكون في قرانا نجمع الروث من وراء البقر لو لم يُشغّلنا أمثال السيد وحداتي، أين ولاؤكم لأسيادكم، أين احترامكم لهم؟

مرت وهلة قصيرة من الصمت اعتقدت فيها أنني أثرت على أولئك البلهاء ومن ثم كسرت السكوت ضحكة غبية. قال زهيد أني منافق كبير، ولربما ستؤلف سيدة المنزل المقبلة عني قصيدة وتسميها «إلى نبي، المنافق الكبير» هرعت للخارج بسخط، لكني لم أبتعد. فثرثرتهم أثارتني، وعلى الرغم من استعراض الاستقامة الذي قدمته وكل كلامي عن الاحترام إلا أنني بقيت ضمن مدى أصواتهم، لم أردْ تفويت كلمة من التفاصيل التي كانوا يروونها.

لم تدم الخطوبة سوى أيام قليلة، دون مراسم ومطربين وراقصين وعرس ضخم، وتم عقد القران باستقبال الشيخ مع شاهد وخربشة التواقيع على ورقة. وبهذا، وبعد أقل من أسبوعين على رؤيتي لها في تلك المرة الأولى، انتقلت السيدة وحداتي للمنزل.

واسمح لي هنا أن أخبرك أني من الآن وصاعداً سأبدأ بتسميتها (نيلا). وهذه حرية لم تكن متاحة لي وقتها ولم أكن لأقبل بها حتى لو سمحوا هم لي بها. ناديتها دوماً (بيبي ساهيب) بالاحترام المتوقع

مني، لكني سأستغني عن هذه الرسميات وأشير إليها بالطريقة التي كنت أفكر بها تجاهها دوماً.

عرفت منذ البداية أن زواجهما لم يكن سعيداً، نادراً ما لمحت نظرة ودّ بينهما أو كلمة حنونة. كانا شخصين يعيشان في نفس البيت دون أن تتقاطع طرقهما إلا نادراً.

كنت أقدم للسيد إفطاره المعتاد.. قطعة خبز محمص ونصف كوب من الجوز مع الشاي الأخضر بالهال دون سكر، وبيضة مسلوقة. كان يحب أن يسيل الصفار بمجرد نقره لقشرة البيضة. وقد تعلمت أن أحضر البيض له بهذه الطريقة بعد العديد من المحاولات الفاشلة بسبب القلق البالغ من الفشل من ناحيتي. وبينما كنت أرافق السيد في نزهته الصباحية اليومية كانت نيلا تنام حتى الظهر أو أكثر أحياناً، وتستيقظ في الوقت الذي كنت استعد فيه لتقديم الغداء للسيد وحداتي.

وبينما كنت أقوم بأعمالي الصباحية اليومية كنت أتعذب بانتظار اللحظة التي ستفتح يها نيلا باب غرفة الجلوس للخروج للشرفة، أتقلب بين أفكاري بانتظارها، هل سترفع شعرها اليوم، هل ستضمه في كعكة، أم ستسدله على كتفيها؟ هل ستضع نظاراتها الشمسية؟ هل سترتدي الصنادل والعباءة الحريرية الزرقاء مع الحزام أم القرمزية ذات الأزرار المستديرة الكبيرة؟

وعندما كانت تدخل أخيراً، كنت أشاغل نفسي في الساحة وأتظاهر بمسح السيارة أو بسقاية إحدى الأجمات، لكني كنت أراقبها طوال الوقت. راقبتها وهي ترفع نظارتها وتفرك عينيها وعندما كانت تزيل الرباط المطاطي عن شعرها وترجع رأسها للخلف لتطلق التجاعيد اللامعة المظلمة وتحررها. راقبتها وهي تجلس وتسند ذقنها إلى ركبتها وتحدق في الساحة وهي تدخن سيجارتها بأنفاس بطيئة. أو عندما كانت تشابك

سيقانها واحدة فوق الأخرى وتهز قدمها للأعلى والأسفل، وهي الحركة التي رأيت بها الدليل على سأمها وقلقها.

رافقها السيد وحداتي بعضاً من الأحيان لكنه غالباً ما كان يمضي أيامه كالسابق، وحيداً. أمضى معظم أيامه كما قبل، يقرأ في الأعلى أو يرسم، بشكل روتيني دون أي تعديل بعد الزواج. وكتبت نيلا في أوراقها معظم الأيام في غرفة الجلوس أو على الشرفة، وقلم الرصاص في يدها ومجموعة من الأوراق في حضنها وسجائرها معها. كنت أقدم لهم العشاء مساءً وهما صامتين وأنظارهما موجهة كلٌ في طبق أرزّه. لم يتخلل ذاك الهدوء سوى طرقات الملاعق والشوك على صحون الخزف.

كان لا بد لي أن أقود السيارة لآخذ نيلا كلما احتاجت لسجائر أو لمجموعة جديدة من أقلام الرصاص، أو دفتر ملاحظات أو أدوات تجميل، مرة أو مرتين في الأسبوع. كنت أتأكد من تسريح شعري وتنظيف أسناني في تلك المناسبات. وكنت أغسل وجهي وأفرك أصابعي بالليمون لأخلصها من رائحة البصل. وكنت أنفض بذلتي من الغبار وألمع حذائي. بذلتي الزيتونية كانت إحدى بذلات السيد وحداتي المستعملة وكنت أتمنى أن لا يقول هذه المعلومة لنيلا مع أني شككت بأنه أخبرها بهذا فعلاً. ولا أحقد عليه بسبب ذلك، بل أحزن لأن الناس الأغنياء كالسيد وحداتي لا يعرفون كيف تسبب الأشياء الصغيرة والبديهية كهذه العار والخجل لرجل مثلي. وكنت أحياناً أرتدي قبعة المرحوم أبي المصنوعة من جلد الخروف. كنت أقف أمام المرآة وأميل القبعة بذاك الاتجاه ثم أغير وضعيتها وأغرق في محاولة جعل نفسي مقبولاً في عيون نيلا لدرجة أني لم أكن لأشعر بوقوف دبّور على وجهي إلا إن لسعني.

كنا ننطلق، وكنت ابحث عن أي انعطافات غير ضرورية لأطيل الرحلة دقيقة أو دقيقتين، لا أكثر كي لا أثير شكوكها، وبهذا أمدد وقتي معها. قدت السيارة بكلتا يدي وعيني مثبتة على الطريق أمامي ومارست على نفسي أقسى أنواع مراقبة الذات ولم أنظر لها أبداً في المرآة إلا إن خاطبتني. أسعدت نفسي بالحقيقة المجردة لحضورها في المقعد الخلفي ورائي، بتنشق رائحة صابونها المعطر الغالي والمستحضرات والعطور والعلكة ودخان سجائرها. كانت هذه الأشياء كافية لمنح روحي جناحين للطيران عشقاً.

في السيارة تحادثنا لأول مرة، محادثة حقيقية، إذا خصمنا عدداً كبيراً من الأوقات التي كانت تطلب بها مني أن أجلب ذاك وأحمل هذا. كنا في طريقنا للصيدلية عندما سألتني «كيف هي قريتك يا نبي؟ ما اسمها؟ لقد نسيت».

«شادباغ، يا بيبي ساهيب».

«نعم، شادباغ، صفها لي».

«لا يوجد الكثير ليقال عنها، بيبي ساهيب، إنها قرية، مثل أي قرية أخرى».

«آه، من المؤكد أن هناك شيئاً مميزاً بها» التزمتُ الهدوء، لكنني كنت مسعوراً من الداخل، مستميتاً لاسترجاع أي ذكرى مميزة من قريتي قد تثير اهتمامها وتسليها. وباءت كل محاولاتي بالفشل. ما الذي قد يقوله رجل قروي تافه مثلي، يعيش حياة محدودة مثلي، ليأسر به فكر امرأة مثلها؟

«العنب ممتاز هناك» وما أن تفوهت بهذه الكلمة (العنب) حتى تمنيت صفع نفسي.. العنب؟؟

«حقاً ؟؟» قاطعتني. «هذا شيء جميل حقاً».

متُّ ألف مرة من الداخل وشعرت برطوبة تحت ذراعي. «هناك نوع معين من العنب» نطقت بفمي الجاف «يقولون أنه لا ينبت سوى في شادباغ، هو نوع هش جداً، وإذا حاولت زرعه في أي مكان آخر سيموت، حتى لو زرعناه في القرية المجاورة. سيضمحل من الحزن كما يقول أهل شادباغ، لكن ذلك غير صحيح. الأمر يتعلق بنوع التربة والماء. لكن ذلك ما يعتقدون يا بيبي ساهيب، الحزن».

«ذلك أمر رائع حقاً يا نبي».

سرقت لمحة ونظرت في المرآة لأراها ترنو إلى نافذتها، لكني وجدت شبح ابتسامة حول شفتيها، وفيها كانت راحتي الكبرى. وهكذا تشجعت وسألتها «هل لي أن أخبرك قصة أخرى، بيبي ساهيب؟»

«أرجوك، تابع» قدحت الولاعة وهبَّ الدخان نحوي من المقعد الخلفي.

«حسناً، عندنا في شادباغ شيخ، كما أن لكل قرية شيخها، واسمه الشيخ شكيب. وهو شخص مترع بالحكايات، لا أستطيع إخبارك عن مدى سعة اطلاعه على وجه التحديد، لكنه كان يخبرنا دوماً: لو نظرت في كفي أي مسلم حول العالم فسترى شيئاً مدهشاً جداً، كلهم لديهم نفس الخطوط. وأعني بهذا أن تعاريج الخطوط على كف المسلم الأيسر ترسم الرقم العربي واحد وثمانين، وترسم اليمنى الرقم ثمانية عشر. وإذا طرحت ثمانية عشر من واحد وثمانين تحصل على ثلاثة وستين، وهو عمر النبي عندما توفي عليه السلام». سمعت ضحكة خافتة من المقعد الخلفي، تابعت «وفي أحد الأيام مر مسافر من القرية وجلس بالطبع مع الشيخ شكيب لتناول طعام العشاء ذاك اليوم كما جرت العادة. وسمع المسافر تلك القصة من الشيخ وفكر بها ثم قال «ولكن، مع كل الاحترام يا أيها الشيخ الجليل، لقد قابلت مرة يهودياً وأقسم لك

أن كفّاه حملا نفس الخطوط. كيف تفسر هذا؟». وأجابه الشيخ «إذاً لا بد أن ذاك اليهودي مسلم بقلبه».

سحرني ضحكها المفاجئ لباقي النهار وشعرت أن الله ـ وأرجو أن يغفر لي كفري هذا ـ أنزل علي من السماوات الجنة نفسها، جنة عدن التي تجري من تحتها الأنهار، دائمة الثمار والظلال.

أرجو أن تفهم أن الأمر كان أبعد من جمالها يا سيد ماركوس، لم يكن جمالها وحده من سحرني مع أنه كان كافياً. لم أقابل في حياتي امرأة مثل نيلا، كل ما كانت تقوم به، الطريقة التي تتكلم بها، مشيتها، ابتسامتها. أحرقت نيلا كل فكرة مسبقة موجودة عندي عن كيفية تصرف المرأة، والصفة التي كنت أراها كميّزة فيها كانت مرفوضة من كل الناس مثل زهيد وسابور بالتأكيد وكل رجل في قريتي وكل النساء.. لكنها زادتها إغراءً وغموضاً بالنسبة لي.

وهكذا ظلت ضحكتها ترن في أذني طوال النهار وأنا أعمل ومساءً والعمال يشربون عندي الشاي. ابتسمت لهم ابتسامة عريضة وصممت آذاني عن ثرثرتهم بضحكتها الحلوة الرنانة، وافتخرت بنفسي لأن قصتي الذكية نفسّتْ لها القليل من سخطها من زواجها. كانت امرأة استثنائية جعلتني آوي إلى سريري تلك الليلة وأنا أشعر أنني أكثر من نفسي، مختلف عن ذاتي العادية. لهذه الدرجة كان تأثيرها كبيراً علي.

لم يمض كثير من الزمن حتى أصبحنا نناقش أخبار جريدة الصباح سوياً عندما كانت تجلس لارتشاف القهوة على الشرفة. كنت أتسكع وأنا أدعي القيام بعمل ما هنا أو هناك، أستند لمجرفة أو أحضر لها فنجان الشاي الأخضر لأتكلم معها. وشعرت أنها اختارتني لأني

مميز. لم أكن الخادم الوحيد في النهاية. وقد ذكرت لك زهيد البستاني من قبل وكان لدينا أيضاً المرأة الهزارية ذات الفك العريض التي كانت تهتم بالغسيل مرتين في الأسبوع. لكنها اختارتني أنا من بين الجميع ـ بما فيهم زوجها ـ لأنقذها من وحدتها. كانت تتكلم أغلب الوقت وهذا ناسبني جداً، كنت مسروراً بكوني الإناء الذي سكبت به قصصها. حكت لي على سبيل المثال عن رحلة صيد قامت بها إلى جلال آباد مع والدها وكيف طاردتها الكوابيس لأسابيع حيث كانت ترى الأيل الميت الذي اصطاده والدها بعينيه الزجاجيتين. وأخبرتني عن زيارتها لفرنسا مع والدتها أثناء طفولتها قبل الحرب العالمية الثانية. وكي تصلا إلى هناك، كان عليهما السفر في قطار وباخرة. وصفت لي إحساسها بحركة القطار في أضلعها، وحكت لي عن الستائر المعلقة بخطافات والمقصورات المنفصلة، والاندفاعات الإيقاعية للمحرك البخاري. أخبرتني عن الأسابيع الستة التي قضتها في الهند مع أبيها وعن مرضها الشديد هناك.

وبين الفينة والأخرى، كلما كانت تنحني لنفض الرماد عن لفافتها، كنت أسرق نظرة خاطفة للطلاء الأحمر على أظافر قدميها، لساقيها الذهبيتين وتقوس قدمها، ودائماً لصدرها الكامل. تعجبت دوماً من تفكيري بالرجال الأحياء في هذا العالم والذين لمسوا ذاك الصدر وقبلوه عندما كانوا يطارحونها الغرام. ما الذي بقي لفعله في الحياة بعد أن قاموا بهذا؟ أين يمكن لرجل أن يذهب بعد أن يكون قد تربع على عرش العالم؟ لم أكن أستطيع إبعاد نظري لاتجاه آمن وهي تستدير لتواجهني إلا بالكثير من الإرادة.

ومع ازدياد ارتياحها لي، أسرّتْ لي أثناء دردشة أحد الصباحات بأنها وجدت السيد وحداتي انعزالياً ومتغطرساً.

«إنه كريم جداً معي» أجبتها. رفضت كلماتي بإشارة نبذ من يدها

وقالت «رجاء نبي، أنت لست مضطراً لقول ذلك».

خفضت عيناي للأسفل بأدب. لم يكن كل ما قالته غير صحيح كلياً. فعلى سبيل المثال كان السيد وحداتي يصحح أسلوبي في الحديث متكلماً بنفحة من التفوق التي يمكن تفسيرها على أنها تكبر من قبله. وأحياناً كنت أدخل عليه الغرفة لأضع أمامه صحناً كبيراً من الحلويات وأجدد فنجان شايه وأمسح الفتات التي سقطت منه على الطاولة دون أن يأتي بأيّ بادرة منه على الإحساس بوجودي وكأنني ذبابة زاحفة على زجاج الباب، ويقلصني بعدم رفعه لعينيه إلى منتهى درجات التفاهة. وفي النهاية، بالنسبة لي كانت تلك أمور بسيطة جداً أمام سلوك بعض الجيران الذين عملت لديهم من قبل، والذين كانوا يضربون خدمهم بالعصي والأحزمة.

«لا يمتلك حس المرح أو المغامرة» قالت وهي تحرك قهوتها «إن سليمان رجل عجوز احتجز في جسد رجل شاب صغير السن».

ذهلتُ قليلاً من صدقها المباشر وأردفت بدبلوماسية حذرة «إن السيد وحداتي مرتاح حقاً في انعزاله الفريد هذا».

«لربما يجب أن يعيش مع أمه، ما رأيك يا نبي؟ سيكونان مرتاحين للغاية، صدقني».

كانت أم السيد وحداتي امرأة مغرورة ثقيلة تعيش في القسم الآخر من المدينة مع فريق خدم وكلبيها المحبوبين المدللين. كانت كلابها أهم من البشر الذين يخدمونها بعدة مراتب، تلك المخلوقات الصغيرة القبيحة الصلعاء المندهشة دوماً والمتوترة النابحة دوماً بنبرة عالية دون أسباب. احتقرتُ تلك الكلاب التي تتسلق ساقي كلما دخلت ذاك المنزل.

كنت أشعر بثقل وتوتر في الجو ورائي في المقعد الخلفي كلما قدت السيارة وأخذتهم لمنزل أم السيد وحداتي، وأعرف من الأخدود الذي

يحفره الحزن فوق حاجب نيلا أنهما تشاجرا. أذكر من طفولتي أن شجار والديّ لم يتوقف إلا عندما ينتصر أحدهما على الآخر، وكان ذاك الانتصار طريقتهم المجدية في إنهاء حالة الكآبة، إنهاءها بقرار لمنعها من التسرب لليوم التالي. بعكس حالة السيد وحداتي وزوجته.. فشجاراتهم لم تنتهي مع افتراقهم، كما قطرة الحبر التي تسقط في كأس من الماء، وتترك أثرها طويل المدى ليغطي بلونه الداكن بقية الأيام.

لم تكن القصة بحاجة لعمليات حسابية لفهم أن المرأة العجوز غير موافقة على زواجهما، وأن نيلا كانت تعرف ذلك.

ومع استمرارنا بأحاديثنا الصباحية تلك، نيلا وأنا، بقي سؤال وحيد يدور في رأسي مراراً وتكراراً.. لماذا تزوجت السيد وحداتي؟ ولم أمتلك الشجاعة يوماً لسؤالها. كان تجاوز حدودي أكبر من قدرتي. وكنت قادراً فقط على الاستنتاج أن الزواج، حتى لو كان زواجاً تعيساً كهذا، هو هروب من تعاسة أكبر بالنسبة لبعض الناس، وبخاصة النساء منهم.

وفي أحد أيام خريف عام 1950، استدعتني نيلا.

«أريدك أن تأخذني إلى شادباغ» وقالت بأنها تريد مقابلة عائلتي، ولترى الأرض التي جئت منها. قالت أنني أقدم لها الطعام وأقودها في المدينة لعام الآن وهي بالكاد تعرف عني أي شيء. أربكني طلبها، وهذه أقل كلمة تقال، لأنه لم يكن من الطبيعي أن يتكبد شخص ما عناء السفر ليقابل عائلة خادم. وبنفس الدرجة، كنت مأخوذاً باهتمامها الشديد بي وتملكني التردد، وكي أكون واقعياً، نعم، انكمشت من خزيي عندما سترى الفاقة التي ولدت غارقاً بها.

انطلقنا في صباح غائم. لبست نيلا فستاناً دراقياً بلا أكمام وحذاء ذي كعب عالي. ولم تكن مكانتي تسمح لي بنصحها بارتداء شيء آخر. وفي الطريق، سألتني عن القرية ومعارفي وأختي وزوجها سابور وعن أطفالهم.

«ما هي أسماؤهم؟».

«حسناً، أولاً هناك عبد الله، سيبلغ التاسعة قريباً. ماتت أمه العام الماضي ولهذا يكون ابن زوج أختي بروانة. وهناك أخته باري، عمرها عامان تقريباً. أختي بروانة ولدت الشتاء الماضي بكرها عمر، لكنه مات بعد أسبوعين من ولادته.

«ما الذي جرى وقتها؟».

«الشتاء، يا بيبي ساهيب. يحل الشتاء على هذه القرى ويخطف الأطفال بشكل عشوائي. لا يمكن للإنسان هناك سوى أن يتمنى أن يتجاوز البرد بيتك دون أن يخطف منه أحداً».

«يا إلهي» تمتمت.

«وهناك شيء جيد سيسعدك» أردفتُ «أختي حامل من جديد».

استقبلنا في القرية الموكب المعهود من الأطفال الحفاة الذين يركضون مع السيارة بضجيجهم، ومع ذلك، عندما ترجلت نيلا من المقعد الخلفي صمت الأطفال وتراجعوا للخلف، ربما من خوفهم من التوبيخ. لكن نيلا فاجأتهم بصبرها العظيم وشفقتها الكبيرة. نزلت على ركبتيها وتحدثت مع كل واحد منهم، صافحتهم، مسدت خدودهم القذرة وحاولت ترتيب شعرهم الأشعث الوسخ. تجمع الناس حولنا لإلقاء نظرة عليها وأصبتُ بالإحراج. وفوق أحد الأسطح رأيت صديق طفولتي دارالله يقرفص مع آخرين مثله ويمضغون التبغ، ويبدون من بعيد كصف من الغربان. ومن ثم رأيت الشيخ شكيب مع ثلاثة رجال ملتحين يجلسون جميعاً في ظل حائط يقلبون حبات مسابحهم بتردد، وقد ثبتوا عيونهم المعمَّرة على نيلا وذراعيها العاريين باستياء.

عرّفتُ نيلا على سابور واتجهنا سويةً لبيته الطيني الصغير، ومشى خلفنا العديد من المتفرجين. وعلى الباب، أصرّتْ على خلع حذائها مع

أن سابور أخبرها أن ذلك ليس ضرورياً. عندما دخلنا الغرفة رأيت بروانة تجلس في إحدى الزوايا بصمت، ذاوية منكمشة إلى جثة كروية متصلبة. حيّتْ نيلا بصوت مسموع بالكاد.

أشار سابور لولده عبد الله أن يحضر الشاي. فقالت نيلا:

«لا، رجاءً» وهي تجلس على الأرضية بجانب بروانة «ليس ضرورياً» ومع لك، ذهب عبد الله للغرفة المجاورة التي كانت تُستخدم كمطبخ وغرفة نوم له ولأخته باري، ولم يفصلها عن مكان اجتماعنا سوى صفيحة بلاستيكية غائمة. جلستُ هناك، ألعب بمفاتيح السيارة، أتمنى لو منحت الفرصة لإخبار أختي عن الزيارة، لأعطيها وقتاً للتنظيف قليلاً. كانت الجدران الطينية مسودة بفعل السخام، والمفرش الممزق تحت نيلا مغطى بطبقات من الغبار، والنافذة الوحيدة في الغرفة مغطاة بشبكة ملطخة بجثث الذباب.

«هذه سجادة رائعة» قالت نيلا بمرح. ومرّرت أصابعها فوق البساط الأحمر الموشى بأنماط قدم الفيل. كانت هذه السجادة الشيء الوحيد القيّم الذي تمتلكه أختي وزوجها، وهو الشيء الوحيد الذي يمكنهما بيعه، كما اتضح في الشتاء التالي.

«كانت ملكاً لأبي» أوضح سابور.

«هل هو بساط تركماني؟».

«نعم».

«أنا أحب صوف الخراف الذي يستعملونه، كما أن مهارتهم في النسيج مذهلة».

أومأ سابور برأسه موافقاً دون أن ينظر باتجاهها وهي تتكلم ولو لمرة واحدة. اهتزت الرقاقة البلاستيكية لدى عودة عبد الله مع صينية الشاي التي وضعها أمام نيلا على الأرض. صبّ لها كأساً وجلس

مقابلها متربعاً. حاولت نيلا التكلم معه لكنه كان يجيبها بإيماءات من رأسه الحليق كلما سألته أي سؤال متمتماً بكلمة أو كلمتين، وهو يحدق إليها بحذر. فما كان مني إلا أن وبخت الولد بلطف على أسلوبه، وكنت أعامله بود لأنني أحببت ذاك الولد، الجاد والواعد بطبيعته.

«كم بقي لولادتكِ؟» سألتْ نيلا أختي. أجابتها برأس منحن أنها تنتظر الطفل في الشتاء.

«أنت في نعمة من الله، لأنك تنتظرين مولوداً وعندك مثل هذا الابن الشاب المهذب» وابتسمت لعبد الله الذي حافظ على جمود وجهه. تمتمت بروانة بكلمات تشبه الشكر.

«ولديكم بنت صغيرة أيضاً كما أذكر؟» قالت نيلا «الصغيرة باري».

«إنها نائمة» قال عبد الله باقتضاب.

«سمعت أنها طفلة رائعة».

«اذهب لإحضار أختك» قال سابور لابنه.

تباطأت حركة عبد الله وهو ينقل عينيه بين نيلا وبين أبيه، ثم نهض بتردد واضح وذهب لإحضار الصغيرة.

لو كنت أقول كلماتي هذه لأبرأ نفسي، لكنت قلت أن الرباط بين عبد الله وأخته الصغرى كان عادياً. لكنه لم يكن كذلك. وحده الله من يعلم سبب اختيارهما لبعضهما. كان الأمر لغزاً كبيراً. لم أشهد في حياتي مثل هذه الصلة بين كائنين. في الحقيقة، كان عبد الله بالنسبة لباري أباً بنفس الدرجة التي كان بها شقيقاً. هو من كان ينهض ليلاً من مهده وهي رضيعة ليحملها ويمشي بها إلى أن تنام. هو من أخذ على عاتقه تنظيف حفاظاتها الملوثة وحزمها فوق ظهره وربت على ظهرها لتنام. لم يكن لصبره معها حدود. كان يجول بها أنحاء القرية ليتباهى بها كما لو كانت جائزة، كما لو كانت أهم كأس يناله الإنسان في العالم.

وعندما وصل عبد الله وهو يحمل باري المترنحة من النعاس، طلبت نيلا حملها. أعطاها لنيلا وفي عينيه نظرة جارحة تفيض بالشك، كما لو أن جرس الإنذار الفطري داخله كان قد انطلق.

«آه كم هي لطيفة» صاحت نيلا. وحركاتها تخونها لانعدام خبرتها بالأطفال الصغار. حدقت باري بتشوش إلى نيلا ومن ثم نظرت إلى عبد الله وبدأت بالبكاء. بسرعة، استرجعها الصبي من يدي نيلا.

«انظر إلى تلك العيون» أردفت نيلا «وتلك الخدود، أليست لطيفة للغاية يا نبي؟».

«إنها كذلك.. بيبي ساهيب».

«وهي بالفعل تستحق اسمها، لأنها جميلة في الحقيقة كالجنيّة تماماً».

راقب عبد الله نيلا بوجه غائم وهو يهز الصغيرة بين ذراعيه.

في طريق العودة إلى كابول تهاوت نيلا في المقعد الخلفي وأسندت رأسها للزجاج. لم تتفوه بكلمة لوقت طويل، وفجأة، بدأت تبكي. أوقفت السيارة بجانب الطريق.

لم تتكلم، اهتزت أكتافها وهي تنشج وتدفن وجهها بين كفيها. وأخيراً نظفت أنفها بمنديل وقالت لي «شكراً لك يا نبي».

«على ماذا؟ بيبي ساهيب؟».

«على أخذي إلى هناك، لقد تشرفت بلقاء عائلتك».

«هم من تشرفوا بزيارتك، وأنا أيضاً. إن هذا امتياز لنا نحن».

«أطفال أختك رائعي الجمال» أزاحت نظارتها الشمسية ومسحت عينيها.

فكرتُ بعض الوقت فيما يجب علي فعله ورأيت أن أبقى صامتاً، لكنها بكت أمامي، ودعتني حميمية اللحظة لمواساتها. فقلت بهدوء

«سيكون لديك أطفال قريباً أنت أيضاً إنشاء الله يا بيبي ساهيب. سيستجيب الله قريباً لرغباتك، انتظري فقط».

«لا أعتقد أنه سيستجيب، لا أعتقد أن ذلك سيحدث».

«بالطبع سيستجيب الله لك يا بيبي ساهيب، أنت صغيرة جداً، وإذا ما أراد الله لك أن تنجبي فسيحصل ذلك».

«أنت لا تفهم الأمر» قالتها بتعب. لم يسبق لي أن رأيت نظرتها متعبة كهذه، مسحوقة كحالها هذا.

«لقد خسرته، أخرجوه من جسدي عندما كنت في الهند. أنا امرأة بلا رحم».

وهنا، توقف عقلي عن التفكير، أردت أن أصعد السيارة وأجلس إلى جانبها في المقعد الخلفي وأن أضمها بين ذراعي، وأن أواسيها بقبلات شفقة. وقبل أن أعرف ما أفعل.. وجدت يدي تمتد لتمسك يدها، اعتقدت أنها ستسحبها، لكن أصابعها عصرت يدي بامتنان. جلسنا هناك في السيارة نحدق في السهول حولنا دون أن ننظر لبعضنا، نرنو للآفاق الصفراء المغبرة أمامنا، المثلّمة بخنادق الري الجافة، والمنقطّة بالشجيرات والصخور وبعض من علائم الحياة هنا وهناك. ويد نيلا بين يدي، نظرتُ إلى التلال وأعمدة الكهرباء الممدودة عبرها. تتبعتْ عيوني تثاقل شاحنة بضائع على طول المسافات وسحابة الغبار التي تتبعها، وكنت على استعداد للجلوس بسعادة هكذا بلا حركة حتى لوحل علينا الظلام.

«خذني للبيت» قالت أخيراً، وتركتْ يدي. «يجب أن لا أتأخر الليلة».

«حاضر بيبي ساهيب» قلت وأنا أحاول توضيح كلماتي وعشقت تروس غيار السيارة بيد مرتجفة.

دخلتْ غرفة نومها ولم تتركها لأيام، وهذه لم تكن المرة الأولى.

في بعض الأحيان، كانت تسحب كرسياً وتضعه أمام نافذة غرفة نومها العلوية وتزرع نفسها فيه وتدخن سجائرها وهي تهز قدمها، وتحدق عبر النافذة دون أي تعبير على وجهها. لا تتكلم ولا تغير ثوب نومها، لا تغتسل ولا تنظف أسنانها ولا شعرها. وهذه المرة، توقفت عن الأكل أيضاً. كان هذا التطور السلبي في حالتها سبباً في انطلاق جرس الإنذار غير المعهود عند السيد وحداتي.

في اليوم الرابع، دق أحدهم على البوابة الأمامية، فتحت لأجد رجلاً مسناً طويلاً يرتدي بذلة مكوية بعناية وحذاءً لامعاً. كان هناك شيء مهيب فيه منعني من معاملته كما كان يبدو، في الطريقة التي نظر بها إلي باحتقار، أوفي كيفية إمساكه بالعصا اللامعة بكلتا يديه وكأنها صولجان. شعرت في قرارة نفسي أنه كان رجلاً معتاداً على أن يُطاع دون أن يقول أية كلمة. ومن ثم قال:

«لقد فهمت أن ابنتي ليس بصحة جيدة» وهكذا عرفت أنه الأب الذي لم أقابله من قبل.

«نعم يا سهيب، أخشى أن هذا الخبر صحيح» أجبته.

«إذا ابتعد عن طريقي أيها الشاب» واندفع إلى الداخل.

شغلت نفسي في الحديقة بتقطيع الخشب لنار موقد الطهي، حيث كنت قادراً من هناك على رؤية غرفة نوم نيلا بوضوح. ومن نافذتها، رأيت الأب محني الظهر أمام نيلا ويده على كتفها. على وجه نيلا وجدت تعبير الأشخاص الذين باغتتهم ضوضاء عالية غير متوقعة، كالألعاب النارية أو صفقة باب بسبب ريح عاتية مفاجئة.

وفي تلك الليلة، أكلت طعامها.

استدعتني نيلا بعض مضي بضعة أيام وقالت أنها ستقيم حفلة. نادراً ما أقمنا حفلات، أثناء عزوبية السيد وحداتي، هذا إن أقمنا أية حفلة بالفعل. وبعد زواجهما، كانت نيلا تقيم حفلتان أو ثلاثة في الشهر. في اليوم السابق على الحفلة، أعطتني تعليمات مفصلة عن المقبلات والوجبات التي يجب تحضيرها، وعن المواد الضرورية التي يجب أن أشتريها من السوق، وأهم تلك المواد كان الكحول الذي لم أحضره من قبل، لأن السيد وحداتي لم يكن يشرب المشروبات الروحية مع أن الأسباب التي منعته لم تكن دينية، كان يكره آثار الشرب بكل بساطة. أما نيلا، فقد كانت تعرف الأماكن الخاصة ببيعها ودعتها على سبيل المزاح بالصيدليات، حيث كانت تقول أنني أحتاج لضعف راتبي حتى أشتري زجاجة دواء واحدة من هناك. تباينت مشاعري حول تنفيذ هذه المهمة وأنا أشعر أني أشترك في ارتكاب الخطيئة، لكنني كما جرت العادة، رأيت أن إسعاد نيلا أهم من أي اعتبار آخر.

يجب أن تفهم يا سيد ماركوس أننا عندما كنا نقيم الاحتفالات في شادباغ، الأعراس مثلاً أو للاحتفال بالختان، كانت مراسيم الاحتفال تحصل في بيتين منفصلين، أحدهما للنساء والآخر لنا نحن الرجال. أما في حفلات نيلا، فقد اختلط الرجال بالنساء. وارتدت النساء كما كانت نيلا ترتدي، أثواباً تكشف عن كامل أذرعتهن وأقساماً لا بأس بها من سيقانهن. وكن يدخنَّ ويشربن أيضاً، كانت كؤوسهن نصف مملوءة بكحوليات شفافة أو حمراء، وكن يسردن النكات ويضحكن ويلمسن سواعد رجال المتزوجين من أخريات في الصالة. أما أنا، فكنت أحمل الصينيات المترعة بكباب لولا والبولاني بين أرجاء الصالة الغائمة بالدخان، من مجموعة ضيوف إلى آخرين، مرة بعد أخرى، كما لو كنتُ

تسجيلاً على شريط سينمائي. وكانوا يستمعون لموسيقى دعتها نيلا بموسيقي الجاز بدلاً عن الموسيقى الأفغانية، وهو نوع تعلمت بعد عقود تقديره حق قدره. أنت تفضله أيضاً يا سيد ماركوس. كان صوت أنغام البيانو العشوائية ونواح الأبواق الغريب يبدو لي كفوضى أنغام متنافرة، لكن نيلا أحبته، وكنت أسمعها وهي تقول لضيوفها أنهم يجب أن يستمعوا لهذا التسجيل أو ذاك. وطوال الليل، كانت تحمل كأسها وتعيد ملأها كلما فرغت إلى أن شربت كمية تفوق كل الطعام الذي كنت أقدمه.

قام السيد وحداتي بجهود محدودة جداً للترفيه عن ضيوفه. وكان يقوم بجولة رمزية بينهم ومن ثم يحتل زاوية ما ويرسم على وجهه تعبيراً بالبعد عن كل هذا.. ويحمل في يده كأساً من الصودا ويبتسم للناس الذين يخاطبونه ابتسامة مهذبة صغيرة دون أي رد فعل آخر. واعتاد الانسحاب من الحفلة عندما يطلب الضيوف من نيلا أن تقرأ عليهم بعضاً من شِعرها.

كان هذا جزئي المفضل من الأماسي إلى حد بعيد. وعندما كانت تبدأ، كنت أجد مهمةً تبقيني قريباً منها. هناك كنت أقف... متجمداً كطبق، ومنشفة في يدي، أجاهد لأسمع كل حرف. لم تشابه قصائد نيلا أي من تلك التي تعلمتها في صغري. وكما تعرف، نحن الأفغان نحب شعرنا جداً، حتى أكثرنا جهلاً يستطيع أن يلقي غيباً قصائد حافظ أو خاي. هل تذكر يا سيد ماركوس عندما أخبرتني العام الماضي كم أحببت الأفغان؟ وسألتك عن السبب.. فضحكت وأجبتني أن حتى فناني الرسم على جدران الشوارع لدينا ينثرون أشعار الرومي على الحيطان.

لكن قصائد نيلا كانت تتحدى الشعر التقليدي، لم تكن تتبع أي قافية أو إيقاع. ولم تتحدث عن المواضيع المعهودة، كالأشجار وأزهار الربيع والبلابل. كتبت نيلا عن الحب، ولا أعني هنا العشق الإلهي

الصوفي المعتاد من قبل الرومي أو حافظ، بل عن الحب الفيزيائي. كتبت عن عشاق يهمسون لبعضهم بين الوسائد ويتلامسون، عن المتعة. وهي لغة لم أسمع امرأة تتفوه بها من قبل. كنت أقف هناك منصتاً لصوت نيلا الدخاني المتهادي في الصالة وعيناي مغمضتين وأذناي حمراوين من الخجل، متخيلاً أنها تقرأ لي وحدي، أننا العاشقين في تلك القصيدة، إلى أن ينادي أحدهم ويطلب شاياً أو بيضاً مقلياً ويبطل السحر الذي يلفني، وعندها قد تناديني نيلا وأجد نفسي أهرب عنها بعيداً.

وفي تلك الليلة، اختارت قصيدة أذهلتني. كانت عن زوجين قرويين قتلهما الحزن على موت طفلهما الرضيع بسبب برد الشتاء. بدا الضيوف وكأنهم أحبوا القصيدة من إيماءاتهم برؤوسهم وتمتمات موافقتهم على قصة القصيدة وتصفيقهم القلبي عند انتهاء نيلا من قراءتها. ومع ذلك، شعرت ببعض المفاجأة والإحباط لأنني شعرت أنها استعملت تعاسة أختي للترفيه عن ضيوفها، ولم أستطع مقاومة الشعور المبهم بخيانة ما قد تم ارتكابها.

وبعد يومين، قالت نيلا أنها بحاجة لشراء حقيبة جديدة، بينما كان السيد وحداتي يقرأ الصحيفة أمام المنضدة، حيث كنت أقدم له حساء العدس مع الخبز.

سألته نيلا «هل تحتاج لأي شيء يا سليمان؟».

«لا عزيزتي. شكراً لك». نادراً ما سمعته يخاطبها بأي كلمة غير هذه (عزيزتي) والتي تعني (حبيبتي أو أي شيء آخر) ومع ذلك لم يبدوا في حياتهما أكثر بعداً عن بعضهما كما بدوا لي وقتها، ولم يكن صوت السيد وحداتي جافاً أبداً كما كان في ذاك اليوم.

في طريقنا للمخزن قالت نيلا أنها تريد أخذ صديق معها وأعطتني عنوانه. أوقفت السيارة بجانب الطريق وراقبتها وهي تدخل بيتاً وردي

اللون مؤلفاً من طابقين. تركت المحرك دائراً لبعض الوقت ثم أطفأته بعد مضي خمس دقائق دون عودة نيلا. ويبدو أنني تصرفت بشكل صحيح لأنني لم ألح قامتها النحيلة إلا بعد ساعتين. فتحت لها الباب لتدخل السيارة وعندما مرت بقربي استطعت أن أشم رائحة غريبة عنها بجانب عطرها المعتاد، رائحة عطر آخر يشبه خشب الأرز وربما بعض من أثر الزنجبيل، وهو عطر عرفت أني شممته قبل ليلتين في الحفلة.

«لم تعجبني أي واحدة» قالت نيلا من المقعد الخلفي وهي تضع طبقة جديدة من أحمر الشفاه. وأمسكتْ بوجهي المشوش في المرآة. أنزلتْ أحمر الشفاه وحدقت بي في المرآة.. وتابعت:

«لقد اصطحبتني لمخزنين مختلفين لكنني لم أجد ما يناسبني».

نظرت عيناها في عيناي في المرآة لفترة قصيرة، مرت فترة انتظار، ومن ثم فهمت أنها ائتمنتني على سرها. وكانت تضع ولائي محل اختبار. وكانت تطلب مني الاختيار.

«أعتقدُ أنك زرتِ ثلاثة متاجر» قلتُ بنبرة ضعيفة. فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

« *Nabi..Parfois je pense que tu es mon seul ami*»

رمشت عيناي بضياع.

«أعني أني أحياناً أعتقد أنك صديقي الوحيد يا نبي». وابتسمت لي بتألق، لكنها لم تستطع بابتسامتها هذه أن تنتشل معنوياتي المنهارة.

قمت بأعمالي الرتيبة ذلك اليوم بنصف سرعتي المعتادة وأنا لا أستطيع متابعتها سوى بجزء صغير من حماسي المألوف. وفشلت زيارة الرجال للشاي تلك الليلة وغناء أحدهم لنا في التخفيف عني وإبهاجي. شعرت أنني أنا الرجل الذي تمت خيانته، وتأكدت بذلك أني تحررت من قبضتها أخيراً.

لكني وجدت الطعنة كما هي في الصباح، نهضت لأراها تمسكني مرةً أخرى، تملأ جدراني وسقفي وتتسرب إلى داخل الحيطان وتشبع الهواء الذي أتنفسه كالبخار. كان كل ذاك الغضب بلا فائدة يا سيد ماركوس.

لا أستطيع الجزم بالوقت الذي سيطرت علي فيه تلك الفكرة. ربما كان في الصباح الخريفي العاصف الذي كنت أقدم فيه الشاي لنيلا.. عندما انحنيت ورحت أقطع لها شريحة من الكعك وكانت تستمع للراديو وهو يتنبأ بأن شتاء العام القادم (1952) سيكون أقسى من الشتاء السابق. ولربما حصل هذا في وقت سابق، عندما اصطحبتها للبيت الوردي، أو حتى عندما ضممت يدها في السيارة لدى عودتنا من قريتي.

مهما كان التوقيت.. لم تبرح الفكرة ذهني أبداً.

دعني أخبرك أني تابعت حياتي بضمير مرتاح تقريباً، وبإحساس نابع من النية الحسنة والشريفة. وهو شيء قد يفضي على المدى البعيد لخيرنا جميعاً، مع أنه كان مؤلماً بالنسبة لي بما فيه الكفاية. ولا أنكر أنني كنت أمتلك دوافعاً أقل شرفاً وأكثر أنانية أيضاً. وأهمها أني قادر على منح نيلا شيئاً لا يستطيع أي رجل آخر منحها إياه، حتى لو كان زوجها، ولا حتى الرجل الذي يعيش في البيت الوردي الكبير.

«تكلمت مع سابور أولا». وفي دفاعي عن خطأي سأقول أنني لو اعتقدت أن سابور سيقبل مني مالاً، لكنت أعطيته كل ما يطلب. وكنت أعرف أنه يحتاج للمال وسط كفاحه لإيجاد عمل. كنت سأطلب قرضاً على راتبي من السيد وحداتي كي يكفي سابور عائلته شتاءً. لكنه مثل كل الرجال الريفيين، يمتلك مأساة الكرامة، الكرامة العنيدة غير المجدية. كنت أعرف أنه لن يرضى أبداً بأخذ المال مني. عندما تزوج بروانة وضع حداً حتى للحوالات المالية الصغيرة التي كنت أرسلها.

كان رجلاً، وكان عليه وحده أن يصرف على عائلته. وقد مات وهو يفعل ذلك قبل أن يبلغ الأربعين، حيث انهار في أحد الأيام وهو يحصد محصول شمندر سكري قرب باغ ـ لان. سمعت بأنه مات وخطاف جني محصول الشمندر عالق بيديه المشققتين الداميتين.

لم أصبح أباً في حياتي، ولهذا لن أبذل جهداً بلا طائل لأفهم الدوافع الحزينة وراء قرار سابور. كما لا أعلم أي شيء عن المناقشات التي دارت بين السيد وحداتي وزوجته. وعندما ذكرت الفكرة لنيلا لأول مرة، طلبتُ فقط أن تذكرَ لزوجها أن الفكرة فكرتها هي دون أن تذكرني. وعرفت أن السيد وحداتي سيرفض. لم ألمح لديه ولا مرة شظية من غريزة الأبوة. في الحقيقة، شككت في أن عدم قدرة نيلا على الإنجاب كانت سبباً في زواجه منها. وهكذا.. تجنبت الجو المتوتر بينهما. وعندما كنت أضّجع للنوم ليلاً، لم أكن أرى سوى دموع نيلا المفاجئة لدى اقتراحي عليها ذاك الأمر، وكيف تناولت يدي الاثنتين ونظرت لي بامتنان وشيء ـ أكاد أجزم ـ يشبه الحب في عينيها. لم أكن أفكر سوى بحقيقة أني أمنحها شيئاً لا يستطيع أغنى الرجال منحها إياه. لم أفكر سوى بمقدار تكريسي ذاتي لها بكل سعادة. وفكرت، بكل حماقة بالطبع، بأنها ستبدأ ترى فيَّ ما هو أكثر من مجرد خادم لها.

عندما قبل السيد وحداتي أخيراً، وهو شيء لم يفاجئني لأنني أعرف أن نيلا امرأة بعزيمة لا تني، قمت بإخبار سابور وعرضت عليه إيصاله إلى كابول مع ابنته باري. ولم أفهم سبب اختياره الحضور مشياً على الأقدام من شادباغ. كما لم أفهم سبب إحضاره لولده عبد الله معه. لربما كان يريد إطالة وقته مع ابنته، ولربما كان يكفر عن ذنبه في تكبده عناء الرحلة على الأقدام. ولربما كان اعتزازه بنفسه.. وانعدام رغبته في ركوب سيارة الرجل الذي كان يشتري ابنته. وفي النهاية

وصلوا، هم الثلاثة، يغطيهم الغبار، وقفوا بجوار المسجد ينتظرونني كما كان الاتفاق. فعلت ما بوسعي لأبدو مبتهجاً أمام الأطفال، الغافلين عن مصيرهم وعن المشهد الفظيع الذي سيحدث قريباً.

لا جدوى من ذكري للموقف بالتفصيل يا سيد ماركوس، وهو الموقف الذي حصل تماماً كما كنت أخشى. وبعد كل تلك السنوات، ما زلت أشعر بجمود قلبي كلما طفت تلك الذكرى على السطح. وكيف لا؟ أخذت أولئك الطفلين العاجزين، اللذين كانا يكنان لبعضهما أنقى وأبسط أنواع المحبة، ومزقت أحدهما عن الآخر.. لن أنسى أبداً الفوضى العاطفية المفاجئة. باري على كتفي، والرعب، الذعر، وقدميها الصغيرتان ترفسان ظهري، الصراخ..عبد الله، عبد الله! وأنا أبتعد بها. وعبد الله ينادي شقيقته، يحاول جاهداً التملص من أبيه. ومن ثمّ.. نيلا بعينيها المفتوحتين وفمها الفاغر المغطى بيديها، ربما لتخرس صرختها هي أيضاً. تلك الذكرى أثقلت على أنفاسي كل تلك الأعوام يا سيد بروكس، وما زالت.

كانت باري في الرابعة من العمر تقريباً، وعلى الرغم من عمرها الصغير، كان هناك ما يحتاج للتغيير في حياتها. فعلى سبيل المثال، أمروها أن تتوقف عن مناداتي (كاكا نبي) واستبداله باسمي دون تكاليف (نبي). تم تصحيح أخطائها بلطف، وساعدتهم أنا في ذلك، مراراً وتكراراً حتى توقفت عن الاعتقاد بوجود أي علاقة تربطنا. تحولتُ في نظرها إلى نبي الخادم والطاهي والسائق. تحولت نيلا إلى ـ ماما ـ والسيد وحداتي أصبح ـ بابا ـ وبدأت نيلا مباشرة في تعليمها اللغة الفرنسية، لغة والدتها الأصلية.

لم تستمر حالة البرود التي استقبل بها السيد وحداتي الصغيرة سوى وقت قصير، ولربما فوجئ هو أيضاً بالسرعة التي نزع بها أسلحته أمام بكاء باري وحنينها لبيتها. ولم يطل الوقت حتى بدأتْ باري بمرافقتنا في جولاتنا الصباحية. وبدأ السيد وحداتي بوضعها في عربة وراح يجرها في الحي. أو أنه كان يضعها في حضنه ويدعها تمسك مقود السيارة ويبتسم لها بصبر بينما تطلق هي النفير. ومن ثم، أحضر نجاراً وأمره بصنع سرير مدولب لباري، وصندوقاً لألعابها وخزانة صغيرة. وهكذا وجد كل ما يحتاجه في غرفة باري المدهونة بالأصفر بعدما اكتشف أن ذاك كان لونها المفضل. وفي أحد الأيام، فاجأته وهو يجلس القرفصاء أمام خزانة باري وهي جالسة بجانبه، وكانت تراقبه بينما راح يرسم لها بمهارة عالية، الزرافات والقرود ذات الذيول الطويلة على الأبواب. يستطيع المرء كتابة مؤلفات ضخمة عن طبيعة السيد وحداتي الخاصة يا سيد ماركوس.. فطوال كل تلك السنين التي خدمته بها ورأيته يرسم في دفاتره، كانت هذه المرة الأولى التي تبصر عيوني شيئاً من أعماله الفنية.

وتحت تأثير دخول باري إلى حياتهم، بدأوا يشبهون عائلة صحيحة البنية لأول مرة، وراحوا يتناولون جميع وجبات طعامهم سوياً بعد أن ربطتهم مودتهم لباري. وكانوا يخرجون بها في نزهات على الأقدام إلى المتنزه القريب ويجلسون بقناعة بجانب بعضهم البعض على المقاعد الخشبية لمراقبة لعبها. وعندما كنت أقدم لهم الشاي بعد العشاء، كنت غالباً ما أجد واحداً منهما يقرأ قصة لباري وهي تتكئ على حضنهما. وهي، كانت تنسى مع كل يوم يمر، ماضيها في شادباغ وأهلها هناك.

والنتيجة الأخرى لدخول باري إلى العائلة كانت الشيء الذي لم أتوقعه، كانت النتيجة هي انحسار حضوري، تراجعي إلى الخلفية. كن رفيقاً بي يا سيد ماركوس.. وتذكر بأني كنت شاباً جداً ومفعماً بالآمال

الحمقاء. كنت الأداة التي استعملتها نيلا لتصبح أماً رغم كل شيء. لقد اكتشفتُ سبب تعاستها وأهديتها الترياق. وهل كنت أعتقد أننا سنصبح عشيقين بعد ما حصل؟ أريد أن أقول أنني لم أكن بذاك الغباء يا سيد ماركوس، لكن ذلك لن يكون صادقاً كلياً. وأشك أن الحقيقة كانت أننا كنا جميعاً ننتظر، ننتظر رغم ضآلة الاحتمالات، ننتظر حدوث شيء استثنائي يقلب حياتنا.

كنت أتلاشى من حياة نيلا، وهو شيء لم أتوقعه. كان وقتها مكرّساً لباري الآن بالكامل.. الدروس، اللعب، الغفوات، النزهات، المزيد من اللعب. وتوقفت نقاشاتنا اليومية. كانت تلاحظ بالكاد أني جلبت قهوتها إذا كانت تلعب بمكعبات البناء مع باري أو تعملان على لغز مثلاً، أو أنني ما زلت في الغرفة أراقبهما واقفاً على كعبي. وعندما كنا نتكلم، كانت تبدو مشوشة ومتلهفة لاختصار الحديث.وفي السيارة، كان وجهها غريباً. ولأجل هذا، ومع أنه قد يجلب لي العار، إلا أني سأعترف أني بدأت بالشعور بالاستياء تجاه ابنة أختي.

أحد بنود الاتفاق بين عائلة وحداتي وعائلة باري هو منع الزيارات. لم يكن يسمح لهم بأي اتصال بها مهما كان. وقد ذهبت بالسيارة إلى شادباغ بعد أيام قليلة من انتقال باري لعائلة وحداتي وحملت للولدين ـ عبد الله وابن أختي الصغير إقبال ـ هدايا صغيرة. فقال سابور لي بوضوح:

«لقد سلّمتَ هداياك للولدين، حان وقت رحيلك».

أخبرته أني لا أفهم سبب استقباله البارد وأسلوبه الفظ. فأجاب:

«أنت تفهم السبب جيداً، وأرجو أن لا تشعر بالحاجة للسفر لرؤيتنا بعد الآن».

لقد كان محقاً بالطبع، كنت أعرف السبب. وهكذا تعاظم بيننا البرود وشعرت بالغرابة أثناء زيارتي لهم، والبعد والتعقيد. لم يكن

جلوسنا مع بعضنا طبيعياً بعد الآن، لشرب الشاي والدردشة عن أحوال الطقس أو أوضاع محصول العنب لذاك العام. كنا نحاول التظاهر بأن علاقتنا ما زالت طبيعية، كلانا، سابور وأنا، أنا الذي لم أعد أوجد في عيونهم، في حياتهم.

مهما كان.. كنت في النهاية السكين التي ذبحت عائلته. لم يعد سابور قادراً على النظر إلي وكنت أتفهم هذا جيداً. ولهذا، توقفت عن زياراتي الشهرية لهم، ولم أقابل أحداً منهم بعد ذلك اليوم.

في أوائل ربيع عام 1955 تغيرت حياتنا إلى الأبد، أذكر أنها كانت تمطر، ولم يكن مطراً غزيراً كالذي كان يسبب نقيق الضفادع، بل كان أشبه بالرذاذ المتردد، وظل يهطل ويتوقف طوال الصباح. أذكر هذا بوضوح لأن زهيداً البستاني كان يتكئ على رفشه ويتذمر بشأن الطقس السيئ. كنت على وشك الانسحاب إلى كوخي للابتعاد عن سماع هرائه عندما سمعت نيلا تنادي اسمي بصراخ من البيت.

هرعت عبر الساحة للبيت وأدركت أن صوتها يأتي من الأعلى، من الغرفة الرئيسية.

وجدت نيلا في زاوية، وظهرها ملتصق بالحائط وكفاها يغطيان فمها وقالت لي: «حصل له شيء..» دون أن تزيل يديها عن فمها.

كان السيد وحداتي جالساً في السرير مرتدياً قميصاً داخلياً أبيضاً، وكان يصدر أصواتاً غريبة من حلقه... شاحب الوجه وأشعث الشعر، يحاول مراراً وتكراراً، أن يفعل أي شيء بيده اليمنى، ويفشل. لاحظت برعب، خط اللعاب السائل من زاوية فمه.

«نبي، افعل شيئاً..!».

دخلت باري الغرفة، وكانت قد بلغت السادسة من عمرها في ذاك الوقت. أسرعتْ إلى جانب السرير وشدَّتْ قميصه.. ونادته «بابا.. بابا»، نظر إليها بعينين جاحظتين وفتح فمه وأغلقه أكثر من مرة..صرخت باري.

حملتها بسرعة وأعطيتها إلى نيلا وقلت لها أن تأخذ الصغيرة للغرفة الأخرى، إذ لا يجب أن ترى أباها بذاك الشكل. رمشت نيلا بعينيها كما لو كانت تستفيق من غيبوبة، ونقلتْ عينيها بيني وبين الصغيرة قبل أن تمسكها. وظلت تسألني عن ما حل بزوجها. وظلت تردد أنني يجب أن افعل شيئاً ما.

ناديتُ زهيد من النافذة، وهي المرة الوحيدة التي أثبت بها ذاك الأحمق أنه ينفع في شيء ما. ساعدني في إلباس السيد وحداتي بنطال منامته ورفعناه من السرير وحملناه على الدرج نزولاً وأوصلناه إلى مقعد السيارة الخلفي. أسرعتْ نيلا بالجلوس بجانبه. وأمرتْ زهيد بالبقاء في المنزل للعناية بباري. احتجَّ الأحمق فلكمته على وجهه بكامل قوتي. نعتُّه بالحمار وقلت له أن يفعل ما يؤمر به.

وهكذا أسرعنا عبر المر وخرجنا بالسيارة. مر أسبوعان قبل أن نُعيد السيد وحداتي لمنزله. وعمَّت الفوضى. توافدت العائلة إلى منزل المريض حشوداً. كنت أخمِّرُ الشاي وأطبخ طوال الوقت تقريباً للقيام بواجب الضيافة تجاه هذا العم، أو ابنهُ أو تلك العمة العجوز. كان جرس الباب لا يهدأ طوال النهار، وأصوات نقر الكعوب العالية على رخام أرضية غرفة الجلوس وتمتمة الناس في المدخل لا تتوقف. لم أكن أشاهد منهم أحداً إلا نادراً، وفهمت أنهم كانوا يقومون بواجب المجاملة تجاه والدة السيد وحداتي الرزينة فقط، وليس للاطمئنان عن الرجل المريض المنعزل الذي لم يكونوا يروه إلا فيما ندر. وصلتْ الأم بالطبع، دون كلابها،

وشكراً لله على ذلك. اندفعت إلى داخل المنزل ومحرمة مُخرّمة في يدها لتشير بها لعينيها المحمرتين ولتمسح سيلان أنفها. زرعت نفسها بجانب المريض وراحت تبكي. كما أنها كانت ترتدي اللون الأسود، الذي روّعني، كما لو أن ابنها مات وانقضى الأمر.

وبطريقة ما، كان قد مات بالفعل.. النسخة القديمة منه على الأقل. فنصف وجهه كان جامداً الآن كالقناع. وسيقانه كانت بلا فائدة تقريباً، لم يكن يستطيع تحريك ذراعه اليسرى، وكانت اليمنى عظاماً ولحماً مترهلاً. كان يصدر الهمهمات الأجشّة من فمه بدل الكلمات ويشتكي من عدم فهم الناس حوله له.

وضّحَ لنا الطبيب أن شعور السيد وحداتي كما هو، لم يتغير، وفهمه للأمور ما زال كما ما قبل الأزمة، لكن جسده لم يعد يستطيع الاستجابة لمشاعره ورغباته. على الأقل في الوقت الحاضر.

لم يكن كلام الطبيب صحيحاً بالكامل على أية حال. بعد الأسبوع الأول من عودته للمنزل، قام بتوضيح مشاعره لزواره، بما فيهم أمه. وضح لهم أنه مخلوق انعزالي حتى في خضم مرضه الشديد ولا يحتاج لشفقتهم ونظراتهم الكئيبة وهزّهم لرؤوسهم بيأس من منظره التعيس الجديد. وهكذا، لوّح بيده اليسرى بحركة طردٍ غاضبة، وعندما حاولوا الحديث معه أدار لهم خده. وإذا جلسوا بجانبه، كان يمسك بالملاءات بقبضته ويشخر من بين أسنانه ويضرب بيده على وركه حتى يرحلوا. ولم يكن طرده لباري من جانبه أقل إلحاحاً، لكنه كان ألطف معها. جاءت بدماها لتلعب بجوار سريره أول الأمر، فنظر لي بعيون دامية والدموع تترقرق فيها بغزارة.. وارتجفت ذقنه، ففهمت وحملتها إلى خارج الغرفة. لم يحاول حتى الحديث معها لأنه عرف أن كلماته كانت ستحزنها.

أما نيلا.. فقد كانت تلك الزيارات الجماعية بمثابة إنقاذ لها. فعندما كان الناس يملأون البيت من الحائط للحائط، كانت تنسحب لغرفة باري في الطابق العلوي، مدفوعة باشمئزاز الأم المتوقّع منها، وبالطبع، من يستطيع لومها؟ كانت تبقى بجانب طفلتها على الأقل ظاهرياً أمام عيون الناس. ولم تهتم أبداً بما سيقوله الناس عنها، والذي كان كثيراً في واقع الأمر.

«أي نوع من الزوجات هي هذه؟» سمعت الحماة تصيح أكثر من مرة. وراحت تشتكي لأي شخص قد يستمع إليها عن قسوة كنتها عديمة الحس. أين هي الآن عندما يحتاجها زوجها.. أي نوع من الزوجات تترك زوجها الوفي والمحب في مثل تلك الظروف؟

بالطبع، كان بعض ما قالته المرأة العجوز دقيقاً. في الحقيقة، أنا من كنت أقف بجوار سرير السيد وحداتي، وأقدم له الدواء في وقته وأرحّب بالضيوف الزائرين. أنا الذي تكلمت مع الطبيب بخصوص مرضه في أغلب الأحيان. ولهذا، كنت أنا وليس نيلا من يسأله الناس عن صحة السيد وحداتي.

خفف طرد السيد وحداتي لضيوفه عن كاهل نيلا مضايقات الزوار، لكنه استبدله بوضع صعب آخر. لم يكن اختفاؤها وإغلاقها الباب على نفسها في غرفة باري يحميها من حماتها المرفوضة فقط، بل كان يبعدها عن زوجها الذي تحول لعبء كبير. وهكذا، رحل الجميع وبات البيت شاغراً، وكان عليها الصمود أمام واجباتها الزوجية التي لم تكن ملائمة لها. لم تكن تستطيع القيام بواجباتها. ولم تقم بها أبداً.

لا أقول أنها كانت قاسية عليه. لقد عشت طويلاً يا سيد ماركوس، وأحد الأمور التي تعلمتها من الزمن أن يحتفظ الإنسان بقدر من التواضع والإحسان عندما يَحكُمُ على تلاطم مشاعر قلب شخص آخر. ما أريد

قوله هو أنني دخلت أحد الأيام لغرفة السيد وحداتي ووجدت نيلا تنشج بالبكاء على بطنه. والملعقة ما تزال في يدها وحساء العدس المطحون يسيل على ذقنه فوق الصدرية المربوطة إلى عنقه.

«دعيني أقوم بهذا، بيب ساهيب». قلت بلطف. وأخذت الملعقة منها ومسحت فمه وجلست أطعمه، لكنه أنّ... عصر عينيه وأغلقها بأسى، وأدار وجهه.

وبعد فترة وجيزة، حملتُ حقائبهما وسلمتُها إلى سائق آخر وساعدتُ باري التي كانت ترتدي معطفها الأصفر المفضل لتصعد لمقعد السيارة الخلفي.

«نبي، هل ستحضر بابا وستأتي لزيارتنا في باريس كما قالت ماما». سألتني بابتسامة تنقصها عدة أسنان.

أكدتُ لها الأمر وأخبرتُها أننا سنأتي عندما سيتحسن والدها. قبْلتُ ظاهر يديها الصغيرتين. وقلت:

«بيبي باري. أتمنى لك الحظ والسعادة».

التقيت بنيلا وهي تنزل درجات السلم الأمامي بعيون منتفخة والكحل الملطخ من البكاء. فقد كانت تودع السيد وحداتي. سألتها عن حالته..

«مرتاح، كما أعتقد. مع أنَ شعوري هذا قد يكون نابعاً من أمنياتي الخاصة بذلك».

أغلقتْ حقيبتها وعلقتها إلى كتفها.

«لا تخبر أحداً عن وجهتنا. سيكون هذا أفضل»، وعدتها أن افعل كما قالت.

قالت أنها ستكتب لي قريباً ونظرت إلى عيني طويلاً وفي تلك النظرة، أعتقد أني رأيت مودة أصيلة واضحة. ومن ثم ربتت بيدها على وجهي.

«أنا سعيدة لأنك باق معه يا نبي».

ثم اقتربت مني وعانقتني ولامس خدها خدي. وتضوع أنفي بعبير شعرها وعطرها.

«لقد كنت أنت، أنت وحدك يا نبي..» همست في أذني *«ألم تكن تعرف ذلك؟»*.

لم أفهم. وفارقتني دون أن تفسح لي المجال لاستيضاح قصدها. حنت رأسها ومشت، وصوت كعبها العالي على الإسفلت يسرع باتجاه الممر. انسلتْ داخل سيارة الأجرة بجانب باري والتفتت إليّ مرة وهي تضع كفها على زجاج النافذة. كفها هذا كان آخر ما رأيته منها والسيارة تسرع للخارج.

شاهدتها تغادر ولحقت السيارة بعيني، وانتظرت إلى أن استدارت في نهاية الشارع واختفت، أغلقت ورائهما البوابة، ثم اتكأت على الأبواب وانتحبت كطفل صغير.

استمر بعض زوار السيد وحداتي بالحضور رغم علمهم برفضه

برفضه للزيارات، ومن ثم توقفوا عن المجيء. وفي النهاية، لم يعد يحضر أحد سوى أمه مرة في الأسبوع أو مرتين. كانت تشير لي بأصبعها لأحضر لها كرسياً إلى جانب سرير ابنها وتبدأ على الفور في إطلاق الاتهامات والإهانات لشخص زوجته الغائبة. كانت تقول أنها عاهرة وكاذبة سكيرة. وتقول أنها الجبانة التي هربت عندما احتاجها زوجها بشدة. كان السيد وحداتي يحتمل كل كلماتها بصمت، وينظر دون أي انفعال على وجهه إلى النافذة. ثم تحكي له مطولاً كل الأخبار والمستجدات في العائلة، المؤلمة لشدة ابتذالها. مثل خلاف ابن العم

الفلاني مع شقيقتها بسبب شرائها نفس منضدة القهوة تلك التي لديه. وعن القريب الذي هرب الهواء من إطار سيارته في طريق عودته من باغ - مان الجمعة الماضية. والقريبة التي غيرت تسريحة شعرها. وهكذا بلا توقف. وأحياناً كان السيد وحداتي يشخر محاولاً قول شيء ما، فتلتفت هي إلي لتسألني عن حاجته.

«أنت.. ماذا قال؟» دائماً ما كانت تخاطبني بهذا الأسلوب، بكلمات حادة وقاسية.

كنت قادراً على فهم شيفرة تعابيره لأنني رافقته طوال النهار في مرضه. كنت أتواجد بقربه، وما كان يراه الناس على أنه آهات غير واضحة وغمغمات مشوشة كنت أفهم منها طلبه للماء أو رغبة منه بأن يُقلب على ظهره. وهكذا تحولتُ لمترجمه الدائم.

«ابنكِ يريدُ النوم».

تتنهد المرأة العجوز وتقول أنه لا بأس، وأنها كانت مغادرة على أي حال. تتكئ إلى السرير وتقبل جبينه وتعده بالعودة قريباً لزيارته. وما أن أوصلها للبوابة الأمامية حيث ينتظرها سائقها، حتى أعود لغرفة السيد وحداتي وأجلس على الكرسي بجانبه لنستمتع بترف الصمت سوية. كانت عيوننا تلتقي أحياناً، وأراه يهز رأسه لي ويبتسم ابتسامة عريضة عوجاء.

ولأن عملي بات محدوداً جداً بعد مرض السيد، فقد كنت أقود السيارة فقط للتبضع من البقالة مرة أو مرتين أسبوعياً، ولم أكن أطبخ سوى لشخصين الآن، فقد ارتأيت أن استخدام خدم آخرين من أجل مهام أستطيع القيام بها بسبب فراغي الآن أمر لا داع له. عرضت الفكرة على السيد وحداتي فأشار لي بيده بالموافقة.

«ستستهلك نفسك هكذا..».

«لا يا ساهيب. أنا سعيد هكذا».

سألني إن كنت متأكداً من قراري. فأكدت له إيجاباً.

امتلأتْ عيناه بالدموع وشد بأصابعه على رسغي. كان أكثر رجل رواقي متماسك عرفته، لكنه منذ مرضه، كانت أتفه الأشياء تهيج مشاعره وتبكيه بلهفة.

«نبي، استمع إلي».

«نعم، سهيب».

«خذ لنفسك أي راتب شهري تحب».

فأخبرته أننا لسنا بحاجة للتحدث عن هذا الأمر.

«أنت تعلم أين أحتفظ بالمال».

«أرجوك يا سهيب، اخلد للراحة الآن».

«أنا لا أهتم بالمبلغ، خذ ما شئت».

«أنا أفكر بطبخ مرق باللحم للغداء، ما رأيك؟ أنا عن نفسي أشتهيها بمجرد الحديث عنها».

وضعت حداً للاجتماعات المسائية مع بقية العمال. ولم أعد أهتم بآرائهم بي. لم أرغب في حضورهم لبيت السيد وحداتي وتسليتهم على حسابه. كانت لدي رغبة جامحة في أن أطلق النار على زهيد بكل امتنان، فتخلصت منه. كما تخلصت من المرأة الهزارية التي كانت تغسل وتكوي لنا. وهكذا، كنت أغسل وأنشر الغسيل على حبال التجفيف حتى تجف. اهتممت بالأشجار وشذبت الشجيرات والأجمات وجززت العشب، زرعت الأزهار والخضار الموسمية. كما حافظت على البيت، كنسته ولمعت الأرضيات ونفضت الغبار عن الستائر وغسلت النوافذ. كما أصلحت الحنفيات واستبدلت الأنابيب الصدئة.

في أحد الأيام، كنت أنزع شبكات العنكبوت عن أفاريز جدران غرفة السيد وحداتي وهو نائم. كان يوماً صيفياً حاراً وجافاً. نزعت عنه كل الأغطية والملاءات ونزعت عنه بنطال منامته. فتحت النوافذ والمروحة السقفية تتحرك فوقنا بصوتها المتكسر بلا طائل، لأن الحر كان يندفع من كل مكان.

في الحجرة، كانت توجد خزانة كبيرة اعتزمت طويلاً تنظيفها، وقررت فعل ذلك في هذا اليوم. فتحت أبوابها وبدأت بالبذلات، أنفض عنها الغبار واحدة فواحدة مع أنني عرفت أن السيد وحداتي لن يرتدي أياً منها بعد الآن. ووجدت فيها أيضاً أكواماً من الكتب المغبرة، مسحتها أيضاً. نظفت أحذيته بقطعة قماش وصففتهم بشكل أنيق. ثم وجدت صندوقاً كرتونياً كبيراً محجوباً عن الأنظار بمجموعة من معاطف الشتاء السميكة الطويلة. سحبتها للخارج وفتحتها. كانت مليئة بدفاتر رسومات السيد وحداتي القديمة، مكدسة واحداً فوق الآخر. وفي كل واحد منها، يقبع أثر حزين من حياة السيد وحداتي الماضية.

تناولت أقرب دفتر من يدي وقلبته بشكل عشوائي. خارت ركبتاي تقريباً. تصفحته بكامله. أغلقته وتناولت آخراً، وآخر وآخر. تلاحقت الصفحات أمام عيني وتهاوى وجهي مع كل واحدة منها بتنهيدة صغيرة، كان لها جميعاً نفس الموضوع. هنا، كنت أمسح الحاجز الأمامي للسيارة كما كان السيد يشاهدني من حجرة النوم العلوية. وهنا، كنت أتكئ على المجرفة بجانب الشرفة. وهنا كنت أربط شريط حذائي، أقطع الأخشاب، أسقي الأشجار، أصب الشاي من الإبريق، أصلي، أنام القيلولة، واقفاً أمام ضفة بحيرة غارغا بجانب السيارة، ذراعي معلقة بطرف الباب، وشبح شخص معتم يجلس داخلها، والطيور تحوم فوقنا.

«لقد كنت أنت، أنت وحدك يا نبي، ألم تكن تعرف ذلك؟».

نظرت للسيد وحداتي النائم بعمق على جانبه، وأعدت دفتر الرسومات إلى الصندوق، وأغلقته ودفعته للخلف كما كان تحت المعاطف الشتوية. ثم غادرت الغرفة بهدوء كي لا أوقظه. نزلت الدرج وتمشيت في الصالة. رأيت نفسي أمشي، وأخرج إلى حرارة ذاك اليوم الصيفي الحارق، وأشق طريقي عبر الممر وأفتح البوابة الأمامية، وأخرج للشارع وأمشي، وأمشي وأستمر بالمشي دون الالتفات للخلف.

كيف كنت سأبقى عنده بعد ما اكتشفت؟ تساءلت. لم أكن مصاباً بالقرف ولا بالفخر مما عرفت عن السيد وحداتي، لكنني كنت أشعر بالحرج. حاولت أن أتصور كيف يمكن لي البقاء بعدما عرفت عن السيد وحداتي. لقد ألقت محتويات ذاك الصندوق ظلالاً من الكآبة على كل شيء. لا يمكن التهرب من وجود أمر كهذا في حياة الإنسان، ورغم ذلك، كيف أتركه وهو بهذا الوضع العاجز؟ لا أستطيع. لن أتركه دون أن أجد له شخصاً مناسباً ليأخذ مكاني. أنا مدين للسيد وحداتي بهذا على الأقل لأنه كان دائماً رجلاً طيباً معي. بينما ناورت أنا من وراء ظهره لأتقرب من زوجته.

وعدت، وجلست إلى منضدة غرفة الطعام الزجاجية، وأغمضت عيناي. لا أستطيع إخبارك كم جلست دون حراك هناك لأن المدة كانت طويلة. إلى أن سمعت حركة من الطابق العلوي وفتحت عيناي لأرى أن نور النهار قد قارب على التلاشي. فنهضت، ووضعت إبريق الشاي على النار.

في أحد الأيام، صعدت لغرفته وأخبرته أن بحوزتي مفاجأة

له ، كان هذا في أواخر الخمسينيات ، قبل أن يشق التلفاز طريقه إلى كابول. كنا نمضي أيامنا في لعب الورق ، أوفي لعب الشطرنج مساءً. هو من علمني تلك اللعبة وكان لدي بعض الموهبة فيها. كما أمضينا وقتاً كبيراً في القراءة. لقد أثبت لي أنه معلم صبور. كان يغلق عينيه ويستمع لي وأنا أقرأ ، ويهز رأسه بلطف عندما أخطئ في القراءة. ويطلب مني أن أعيد. تحسن لفظه كثيراً في ذلك الوقت. كنت أستطيع القراءة والكتابة عندما بدأت العمل عند السيد عام 1947 ، بفضل تعليم الشيخ شكيب لنا في القرية ، ولكنني تحولت تحت إشرافه هو إلى قارئ متمرس ، كما تحسنت كتابتي بالنتيجة. كان يفعل ذلك لمساعدتي بالطبع ، لكنه كان يخدم نفسه أيضاً ، لأنني أصبحت قادراً أخيراً على قراءة كتبه المفضلة على مسمعه. كان بإمكانه قراءتها وحده بشكل طبيعي ، ولكنه لم يكن يستطيع متابعة القراءة طويلاً ، إذ كان يتعب بسهولة.

لم يكن لديه الكثير مما يشغل به وقته وأنا أقوم بمهامي اليومية. كان يستمع للتسجيلات الموسيقية. وفي أغلب الأحيان كان ينظر من النافذة ويراقب الطيور الجاثمة على الأشجار، والسماء وغيومها ، ويستمع للعب الأطفال في الشارع ، وباعة الفاكهة الذين يجرون حميرهم.. والهتاف.. «كرز، كرز ناضج».

سألني عن ماهية المفاجأة عندما أخبرته عنها. فدسست ذراعي وراء رقبته وأخبرته أننا ذاهبون للأسفل أولاً. لم أتكبد الكثير من العناء في حمله تلك الأيام لأنني كنت ما أزال شاباً قوياً. رفعته بسهولة وحملته إلى غرفة الجلوس ووضعته على الأريكة بهدوء.

«حسناً» قال بلهفة.

دفعت أمامه بكرسي مدولب من المدخل. كنت أرجوه لأجل الحصول على واحد منذ أكثر من عام، وكان يرفض بعناد. الآن، اشتريت واحداً وقمت بالخطوة من تلقاء نفسي.

هز رأسه وقال «هل هو للجيران؟».

«هل أنت محرج مما سيقوله الناس؟» أجبته.

طلب مني إعادته للطابق العلوي. فتابعت «حسناً، أنا لا أعير أي اهتمام لما سيقوله الجيران أو لما سيعتقدونه عنا، لذا، سنذهب اليوم في نزهة على الأقدام. إنه يوم رائع ونحن سنذهب لنمشي، أنا وأنت. وليكن ما يكون. لأنني سأفقد عقلي ما لم نخرج من هذا المنزل. وماذا سيحل بك إن فقدت عقلي؟ وبأمانة يا سليمان، توقف عن البكاء، أنت تبكي كامرأة عجوز».

وراح يبكي ويضحك في آن معاً، وبقي يقول «لا، لا» حتى وأنا أرفعه وأضعه في الكرسي المدولب وأغطيه بالبطانية وأدفع به خارج الباب الأمامي.

مما يستحق الذكر أني بحثت عن بديل لي في بادئ الأمر. ولم أخبر سليمان بذلك، اعتقدت أنه من الأفضل إيجاد الشخص المناسب قبل إخباره. جاءني عدة أشخاص للاستفسار عن طبيعة العمل. واجتمعت بهم خارج البيت كي لا أثير شكوك سليمان حول الموضوع. ومع البحث، عرفت أن الأمر كان أصعب بكثير مما كنت أتوقع. بعض المرشحين كانوا من نفس طينة زهيد، وهم أشخاص عرفتهم على الفور بسبب تعاملي الطويل مع نوعهم، فطردتهم دون تردد. وبعضهم الآخر كان يمتلك مهارات الطهي الضرورية، لأن سليمان كان ذواقاً صعباً فيما يخص الطعام كما ذكرت في السابق. وبعضهم الآخر لم يكن يستطيع

القيادة. العديد منهم كانوا يجيدون القراءة، لأن أمر القراءة كان عائقاً جدياً أمام الآخرين بما أنني اعتدت القراءة لسليمان عصر كل يوم. وبعضهم لم يكن يمتلك الصبر على الإطلاق، وهو أمر قاتل فيما يخص العناية بسليمان، والذي يمكن أن يكون كطفل أحياناً ومرات مثيراً للغضب. حكمت على آخرين باستخدام حدسي وحده بأنهم يفتقرون للمزاج الضروري للمهمة الصعبة المنوطة بهم.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام دون أن أبرح المنزل، وأنا أخبر نفسي أنني أنوي ترك البيت عندما أشعر أن سليمان في أيدٍ أمينة. مرت ثلاث سنين وأنا مازلت أغسل جسده كل يومين بقماشة مبللة وأحلق ذقنه وأقلم أظافره وأقص شعره. أطعمته بيدي وساعدته في قضاء حاجته على صفيحة خاصة بالعاجزين في سريرهم ومسحت جسده بعدها لأنظفه، كما يمسح الإنسان مقعدة الرضيع. غسلت حفاظاته الملوثة التي كنت أشدها لجسده بدبوس كبير. كنا قد طورنا في تلك المرحلة لغة خاصة ما بيننا، لغة صامتة ولدت من الألفة والروتين، وحتماً، تسربت إلى علاقتنا درجة من التعود الذي لم يكن بالإمكان تصوره سابقاً.

عندما نجحت في إقناعه بالجلوس في الكرسي المدولب، ذهبت به إلى خارج المنزل ومشينا في شارعنا وسلمنا على الجيران الذين مررنا من أمامهم. كان السيد بشيري أحدهم، وهو جار شاب حديث التخرج من جامعة كابول، وكان يعمل لدى وزارة الخارجية. وقد انتقل هو وزوجته وأخوه وزوجة أخوه للعيش في منزل من طابقين يبعد عنا ثلاث بيوت. كنا نصادفه أحياناً وهو يسخن سيارته قبل الانطلاق للعمل صباحاً، ودائماً ما توقفت لمجاملته. كما كنت أجر سليمان إلى متنزه شاري ـ ناو. حيث كنا نجلس في ظلال أشجار الدردار ونراقب حركة المرور.. سائقي سيارات الأجرة الذين يضغطون بكل قوتهم لإطلاق نفير

سياراتهم، وأجراس الدراجات الهوائية المارة، والحمير التي تقتحم الطرقات، والمشاة الانتحاريين الذين يندفعون في طريق الحافلات دون خشية. أصبح منظرنا مألوفاً في المنتزه والشوارع المحيطة به، سليمان وأنا. وفي طريقنا للعودة للبيت، غالباً ما توقفنا لتبادل الملاطفات مع باعة المجلات والجزارين، ورجال الشرطة الشبان الذين يفسحون لنا حركة المرور لنعبر. كما دردشنا مع السائقين الذين ينتظرون الزبائن وهم متكئين على حواجز سياراتهم.

كنت أضعه أحياناً في كرسي سيارتنا الشفروليه المسنّة وأطوي الكرسي المدولب وأضعه في صندوق السيارة وأنطلق بنا إلى باغ - مان، حيث يمكننا دوماً أن نجد حقلاً أخضر بجانب جدول صغير طافح بالمياه تحت ظلال الأشجار. حاول عدة مرات الرسم باستخدام يده اليمنى بعد الغداء، لكن كفاحه كان بلا طائل، لأن مرضه أثّرَ عليها بشكل مميت. وهكذا، تدبر أمره لاستخدام يده اليسرى في خلق الأشجار والتلال وحزم الأزهار البرية بمهارة فنية أعظم من تلك التي أستطيعها بيدي السليمة. وبعد قليل، ينتابه التعب ويغفو، وينزلق قلم الرصاص من يده. كنت أغطي ساقيه ببطانية وأستلقي على العشب بجانب الكرسي، لأنصت للنسيم الهائم بين الأشجار، وأحدق في السماء، وفي انزلاق الغيوم فوق رؤوسنا.

وعاجلاً أم آجلاً، كانت أفكاري تنجرف إلى نيلا، التي تفصلني عنها قارة كاملة الآن. وأبدأ بتصور لمعان شعرها الناعم، ووثب قدميها على الطريق، وصندلها الذي يطفئ سيجارتها المحترقة. فكرت بانحناءات ظهرها وانتفاخ صدرها، تمنيت أن أكون بقربها من جديد، أن تلفني رائحتها، وتمنيت أن أشعر من جديد بارتجاف قلبي عندما لمست يدي. لقد وعدت أن تراسلني، ومرت السنين لتثبت أنها

نسيتني. لن أكذب الآن وأقول أنني لم أكن أنتظر أخباراً منها كلما استلمنا بريداً جديداً.

وفي أحد الأيام، كنت أجلس على العشب في باغ ـ مان، أفكر في لعبة الشطرنج أمامي. كان هذا بعد سنوات طويلة، في عام 1968، وهو العام التالي لوفاة أم سليمان، وهو ذات العام الذي أصبح فيه للسيد بشيري وأخيه أطفال، ولد عندهم صبيان، إدريس وتيمور. كنت دائماً ما أرى الرضيعين في عربات تجرها أمهاتهم لنزهة مترفة حول الحي. في ذلك اليوم، بدأت أنا وسليمان لعبة شطرنج، وكان يغفو بهدوء بعد مناورته الافتتاحية العنيفة وأنا أحاول إيجاد حل لوضعي. وعندها.. قال: «أخبرني يا نبي، كم عمرك الآن؟».

«لقد تجاوزت الأربعين، أنا متأكد من هذا».

«كنت أفكر، يجب أن تتزوج يا نبي، قبل أن تفقد شبابك، انظر، لقد بدأ شعرك يشيب بالفعل».

ابتسمنا لبعضنا البعض. أخبرته أن أختي معصومة اعتادت أن تقول لي نفس الأمر.

سألني إذا كنت أذكر أول يوم عمل لي عنده، عام 1947، قبل واحد وعشرين عاماً من اليوم.

وبالطبع كنت أذكر. كنت أعمل كمساعد تعيس لطاهٍ في منزل يبعد بضع شوارع عن منزل السيد وحداتي. عندما سمعت أنه يحتاج لطاه جديد بعد أن تركه طباخه بسبب الزواج. أخذت طريقي لمقابلته فوراً عصر ذاك اليوم وقرعت جرس الباب الأمامي.

«كنتَ طباخاً سيئاً بشكل مدهش» قال سليمان «أنت تجترح العجائب الآن يا نبي، ولكن الوجبة الأولى التي قدمتها لي؟؟ يا إلهي، وأول مرة قدت بي السيارة اعتقدت أني سأصاب بجلطة قلبية». توقف

عن الكلام وضحك بشدة مندهشاً من النكتة التي ألقاها دون قصد.

فاجأني كلامه بشدة يا سيد ماركوس، بل أصابني بصدمة، حقاً، لأن سليمان لم يوجه لي عبر كل تلك السنين ملاحظة واحدة، ولم يتذمر من طبخي أو قيادتي للسيارة ولا مرة.

«لمَ وظفتني إذاً؟» سألته.

أدار وجهه نحوي وقال «لأنك حين دخلت يومها، فكرت بأني لم أشاهد في حياتي مخلوقاً أجمل منك».

أخفضتُ بصري لرقعة الشطرنج.

«عرفتُ حين تقابلنا أننا لسنا من نفس النوع، أنت وأنا، وأن ما أردتُه كان مستحيلاً. ومع ذلك، كنا نقضي الصباح سوياً ونذهب برحلات طويلة في السيارة، لن أقول أن ذلك كان كافياً بالنسبة لي، لكنه كان أفضل من عدم البقاء معك. تعلمت أن أتدبر أموري والاكتفاء بقربك مني». توقف قليلاً عن الكلام ثم تابع «وأعتقد أنك تفهم شيئاً مما أصفه يا نبي. أعرف أنك تفهمني».

لم أستطع رفع بصري للنظر إليه.

«أحتاج أن أخبرك، لمرة واحدة يتيمة، أني أحببتك يا نبي، أحببتك طويلاً جداً، أرجوك لا تغضب مني».

هززت رأسي بالنفي. وصمتنا لدقائق. تغلغلت الحقيقة في الهواء ما بيننا، ألمُ حياةٍ كاملةٍ من القمع، ألمُ الحرمانِ من سعادةٍ مستحيلة لن تتحقق أبداً.

«وأنا أخبرك هذا الآن، لتفهم لماذا أريدك أن تجد لنفسك زوجة، اذهب وأسّس عائلتك الخاصة يا نبي كالآخرين، مازلت تمتلك الوقت الكافي لذلك».

قلت بعد فترة وجيزة آملاً في تخفيف حدة التوتر السائد ببعض من الذكاء:

«سأفعلها في أحد الأيام، وبعدها ستتحسر على أيامي، كما سيفعل اللقيط البائس الذي سيتوجب عليه غسل حفاظك».

«تمزح دائماً كعادتك».

راقبت خنفساء تزحف بخفة فوق ورقة خضراء رمادية.

«لا تبقى لأجلي، أنا آمرك بذلك يا نبي، لا تبق لأجلي».

«أنت تمدح نفسك».

«ما زلت تمزح» قال مجدداً بتعب.

لم أقل شيئاً بعد ذلك مع أنه فهم كلامي بشكل خاطئ. أنا لم أكن أسخر وأمزح طوال الوقت. لم يعد بقائي بجانبه بسببه كما كان الأمر في البداية... عندما بقيت بجانبه بسبب حاجته لي واعتماده الكلي عليّ. لقد هربت من قبل من شخص احتاجني، والندم على فعلتي تلك سيرافقني إلى القبر. لا أستطيع تكرار ما اقترفته من قبل. لكن أسبابي للمكوث تغيرت ببطء. لا أعرف متى أو كيف حصل ذاك التحول يا سيد ماركوس، إلا أن بقائي هناك أصبح لأجلي أنا. قال سليمان أني يجب أن أتزوج. لكن الحقيقة أني نظرت إلى حياتي وأدركت أني أمتلك في حياتي ما كان الناس يتزوجون لأجله. كنت، مرتاحاً وكانت لدي رفقة، وبيت مُرحّبٌ بي فيه دوماً، بيت فيه من يحبني ويحتاجني. أما بالنسبة لحاجاتي الجسدية كرجل ـ التي ما زلت أشعر بها، ولكن أقل تكراراً وأضعف إلحاحاً من ذي قبل ـ فقد كنت أتدبر أمرها كما أوضحت لك سابقاً. أما بالنسبة لموضوع الأطفال، ومع أني أحببتهم دوماً، إلا أنني لم أشعر أبداً بتحرك دافع الأبوة في نفسي.

«إذاً تريد أن تبقى بغلاً دون زواج؟» قال سليمان «إذاً لدي طلب، سأقوله بشرط أن تقبل طلبي قبل أن تعرفه».

أخبرته أنه لا يستطيع طلب ذلك مني.

«ومع ذلك سأقول».

رفعت عيني إليه.

«تستطيع أن ترفض» أردف.

كان يعرفني جيداً، ابتسم ابتسامته العوجاء وأخبرني بطلبه.

ماذا أخبرك يا سيد ماركوس عن السنوات التالية؟ فأنت تعرف

تعرف جيداً التاريخ الحديث لهذه البلاد المحاصرة. لا داع لسرد تلك الأيام المظلمة، إذ ينتابني التعب بمجرد التفكير في الكتابة عنها. وإلى جانب ذلك، فقد تم تأريخ وتدوين معاناة هذا البلد بما فيه الكفاية، وبأقلام أكثر بلاغة وعلماً مني.

أستطيع تلخيص تلك السنين بكلمة واحدة: الحرب. أو لأكون أكثر دقة: الحروب. ليست واحدة ولا اثنتين، بل الكثير منها، جميعها كانت كبيرة وصغيرة، عادلة وظالمة، حروب تتالى فيها الأبطال والطغاة. كان كل بطل جديد يشعرنا بالحنين للطاغية السابق. تغيرت الأسماء كما تغيرت الوجوه، وأنا أبصق عليهم جميعاً بشكل متساو من أجل كل العداءات التافهة، والقناصين، والألغام الأرضية والتراشق العشوائي بالقنابل، والصواريخ، بسبب كل النهب والاغتصاب والقتل الذي حصل. آه، هذا يكفي. مهمتي عظيمة لكنها محزنة جداً أيضاً. عشت تلك الأيام، وأنوي عيشها من جديد على هذه الصفحات سريعاً بقدر الإمكان. كانت ثقتي حول بُعد باري الصغيرة عن كل هذا القتل، التي لا بد أنها أصبحت شابة بعد كل ذاك الوقت، هي الأمر الوحيد الذي خفف من عذاب ضميري.

لم تكن حقبة الثمانينات في كابول فظيعة جداً باعتبار أن أغلب القتال

حصل في الريف. إلا أنها كانت حقبة النزوح الجماعي، وقت رحيل العديد من العائلات المقيمة في حيّنا ومغادرتهم البلاد، إما إلى باكستان أو إلى إيران، مع الأمل بالاستقرار في مكان ما في الغرب. أذكر بوضوح السيد بشيري عندما جاء لوداعنا. صافحته وتمنيت له الخير وودعت ابنه الطويل النحيل إدريس ذي الشعر الطويل والزغب الخفيف فوق شفته العليا أيضاً، كان يبلغ من العمر وقتها أربعة عشر عاماً. قلت لإدريس أني سأفتقد رؤيته وابن عمه تيمور وهما يُطيّران الطائرات الورقية ويلعبان كرة القدم في الشارع. لا بد أنك تذكر لقاءنا بابني العم منذ عدة سنوات بعد أن أصبحا رجلين، في حفلة أقمتها في البيت ربيع عام 2003.

اندلع القتال داخل حدود العاصمة في التسعينيات، سقطت كابول فريسة لرجال بدوا كأنهم خرجوا من أرحام أمهاتهم وهم يحملون الكلاشينكوف. كلهم يا سيد ماركوس كانوا مخربين وقطاع سبيل ولصوصاً منحوا أنفسهم ألقاباً ذاتية فخمة. وعندما بدأت الصورايخ بالطيران فوقنا، رفض سليمان الخروج من المنزل وأنكر بقوة كل المعلومات عمّا يجري خارج جدران منزله. فصل التلفاز ورفض الاستماع للمذياع ولم يكن يقرأ الصحف، وطلب مني أن لا أنقل له أي أخبار عن القتال. بالكاد كان يعرف من يقاتل من، ومن ربح ومن خسر. وكأنه كان يتمنى أن تهمله الحرب كما كان يهملها.

وبالطبع لم تهملنا الحرب. تحول الشارع الهادئ والنظيف اللامع الذي كنا نعيش فيه إلى ساحة قتال. اخترق الرصاص كل بيت، وصفرت الصواريخ مارة من فوق رؤوسنا. حطت قذائف الآر بي جي على طول الشارع وانفجرت مخلفة حفراً دائرية في الإسفلت. وفي الليل، كانت خطوط التعقب الحمراء والبيضاء تجول الشارع إلى أن يحل الفجر. كنا نحظى ببضع ساعات من الهدوء في بعض الأحيان، يقطعها

صوت الرصاص المفاجئ والقادم من كل مكان، وصراخ الناس في الشارع.

غرق البيت في تلك السنوات في الأضرار التي وجدته عليها يا سيد ماركوس عندما رأيته لأول مرة عام 2002. بعض من الأضرار وقع بسبب الإهمال ومرور الزمن لأني كبرت وتحولت لرجل عجوز ولم أعد أستطيع الاهتمام بالبيت كما كنت أفعل من قبل. ماتت الأشجار في تلك الفترة بعد سنين من عدم حمل الثمار، واصفرّ العشب واندثرت الأزهار. لم ترحم الحرب البيت الجميل. تحطمت النوافذ من سقوط القذائف القريبة وسحق صاروخ الحائط الشرقي للحديقة مع نصف الشرفة حيث اعتدت ونيلا الحديث. أما السقف، فقد أتلفته قنبلة يدوية، وثلّم الرصاص كل الجدران.

ومن ثم جاء النهب. كان رجال الميليشيات يدخلون فجأة ويخرجون محملين بما يحلولهم. وهكذا سلبونا غالبية المفروشات واللوحات والسجاد التركماني والمنحوتات والشمعدانات الفضية والزهريات البلورية. اقتلعوا بلاط الخزف من الحمام، وفي أحد الأيام، استيقظت على صوت رجال غُربٍ في الاستراحة، نهضت لأجدهم يقتلعون البساط عن الدرج بسكاكين مقوسة كالسواطير. وقفت هناك وراقبتهم، فما الذي أستطيع فعله؟ ما الذي تعنيه رصاصة في رأس رجل عجوز مثلي بالنسبة لهم؟

وكنا نتداعى، تماماً كالبيت، سليمان وأنا. تراجع بصري وآلمتني ركبتاي معظم الأيام. واغفر لي سوقيتي يا سيد ماركوس، أصبح التبول وحده اختباراً لقوة التحمل عندي. وكما كان متوقعاً، ضربت الشيخوخة سليمان بقسوة أكثر مني. تقلص جسده ونحل وتحول لجسد هش بطريقة مذهلة. مات تقريباً مرتين، مرة أثناء أسوأ أيام القتال بين رجال أحمد شاه مسعود وميليشيات غالب الدين حكمتيار، عندما انتشرت

الجثث في الشوارع لأيام دون أن يطالب بها أحد. كان مصاباً بذات الرئة في تلك الفترة التي قال الطبيب أنه أصيب بها بسبب لعابه الخاص. وبما أن الدواء الذي وصفه الطبيب كان شحيحاً في الأسواق وغير موجود أحياناً، فقد اعتنيت بسليمان وطببته بما أملك واسترجعته بالتأكيد من على حافة الموت.

كنا نتجادل يومياً أنا وسليمان في تلك الفترة كما يفعل الأزواج والزوجات، ربما بسبب الاحتجاز الإجباري في المنزل، وربما بسبب التصاقنا الخانق ببعضنا، تشاجرنا بعناد وحماسة على أشياء بديهية يومية.

«طبختَ لنا الفاصولياء هذا الأسبوع».

«لا لم أفعل».

«لكنك فعلت، الاثنين الماضي..».

اختلفنا على عدد أدوار الشطرنج التي لعبناها في اليوم السابق، وعلى سبب وضعي لكوب الماء على حاجز النافذة وأنا أعرف أن حرارة الشمس ستدفئه.

«لماذا لم تنادني لأضع لك النونية يا سليمان؟».

«لقد ناديتك ألف مرة، ناديتك».

«أي أنك تنعتني بالأطرش أم بالكسول؟».

«لا حاجة للاختيار بينهما، أنت أطرش وكسول».

«أنت تمتلك الجرأة والصلف لمناداتي بالكسول بينما تكمن في السرير طوال الوقت؟».

وهكذا، وهكذا.

كان يدير وجهه عني كلما حاولت إطعامه. فأتركه وأصفق الباب خلفي بشدة. وفي بعض الأحيان، وأعترف، كنت أدعه يقلق علي. كنت

أترك البيت وأدعه يبكي وينادي: «أين ستذهب؟»، دون أن أجيبه. ادعيت أني راحلٌ نهائياً عدة مرات. وبالطبع، كنت أتمشى إلى آخر الشارع وأدخن، وهي عادة جديدة اكتسبتها متأخراً، ولم أكن أفعلها إلا عند الغضب. كنت أغيب لساعات أحياناً. وإذا كان قد عكرني حقاً كنت أبقى في الخارج حتى حلول الظلام، لكني كنت أعود دوماً وأدخل غرفته دون قول كلمة، وأحمله لأديره من جانب لجانب وأضبط له الوسادة. كلانا كان يدير عينيه عن الآخر، والشفاه مغلقة بإحكام، بانتظار معاهدة سلام يعرضها أحدنا على الآخر.

انتهى الصراع أخيراً بوصول طالبان إلى كابول. أولئك الشبان قساة الوجوه ذوي اللحى المظلمة والعيون المكحلة والسياط لقد تم توثيق الأخبار عن وحشيتهم وأعدادهم بشكل جيد، لهذا لا أرى سبباً لإخبارك المزيد عنهم يا سيد ماركوس. لا بد لي أن أقول أن سنواتهم في كابول كانت، ولسخرية القدر، كانت وقتاً للتنفيس عني. فقد وفروا معظم احتقارهم وحماستهم للنساء الشابات الفقيرات. أما أنا فقد كنت رجلاً عجوزاً في ذلك الوقت، وكان تنازلي الرئيسي والأهم لنظامهم يكمن في إطلاق لحيتي، والتي أنقذتني بصراحة من تكبد مشقة الحلاقة اليومية.

«لقد أصبح الأمر رسمياً يا نبي» لفظها سليمان من سريره وكأنه يلفظ أنفاسه معها. ثم تابع «لقد فقدت شبابك، ومع هذه اللحية، أنت تبدو كنبيّ حقيقي».

تجاوزني الطالبان في الشوارع ولم يأبهوا لأمري وكأنني كنت بقرة هائمة. وساعدتهم على هذا بادعائي نظرة بليدة لتفادي أي انتباه لا داع له. أرتجف لمجرد التفكير بما كانوا ليفعلوه بنيلا لو وجدوها هنا. وأحياناً كنت أستدعي ذكراها بفكري وأراها تضحك في حفلة وهي تحمل كأس الشمبانيا وأتذكر شكل ذراعيها وساقيها العاريتين، كان

الأمر يبدو وكأنني اخترعتها بكل بساطة من خيالي كما لو أنها لم توجد قط في الواقع. كما لو أن لا شيء مما عشناه مسبقاً كان حقيقياً، ليس هي فقط، بل أنا أيضاً وباري وسليمان المعافى جسمانياً، والبيت الخالي من الأضرار الذي كنا نعيش فيه جميعاً.

ومن ثم، في صباح أحد أيام العام 2000، دخلت لغرفة سليمان بالخبز الطازج وصينية الشاي. وعرفت على الفور أن أمراً سيئاً قد حدث. كان تنفسه متقطعاً ووجهه متدلّ بشكل واضح وعندما حاول الكلام خرج من حلقه نعيق أعلى بقليل من الهمس. وضعت الصينية من يدي وأسرعت إليه.

«سأجلب الطبيب، يا سليمان» قلت «انتظرني فقط، سنساعدك لتتحسن، سترى، مثل كل مرة».

استدرت للذهاب لكنه راح يهز برأسه بعنف شديد. أشار لي بأصابع يده اليسرى أن أقترب. اتكأت بجانبه وقربت أذني من فمه. قام بعدة محاولات لقول شيء ما لكنني لم افهم شيئاً مما حاول قوله.

«أنا آسف يا سليمان، يجب أن تتركني أذهب لأجد لك طبيباً، لن أغيب طويلاً».

هز رأسه ببطء هذه المرة وتسربت الدموع من عيونه المصابة بالزرقاء. فتح فمه وأغلقه. أشار لي برأسه نحو طاولة السرير المجاورة له. سألته إن كان يوجد شيء ما هناك فأغلق عينيه وأومأ لي. فتحت الدرج الأول ولم أجد سوى حبوب الدواء ونظارات القراءة ودفتر ملاحظات وأقلام الرسم الفحمية التي توقف عن استعمالها قبل سنوات. كنت على وشك سؤاله عما يجب علي إيجاده هناك عندما لمحت ما كان يقصده تحت دفتر الملاحظات. وجدت مظروفاً عليه اسمي مخربشاً بخط يد سليمان الأخرق. وفي داخله وجدت ورقة كتب عليها فقرة وحيدة. وقرأتها.

نظرت إليه، لخديه الغائرين وعينيه المجوفتين. أشار لي ثانية واتكأت مجدداً لأقترب من فمه. شعرت ببرودة أنفاسه الخشنة غير المنتظمة على خدي وسمعت لسانه يكافح في فمه الجاف وهو يتمالك قوته المتبقية. وبطريقة ما، بواسطة القوة الصرفة من الإرادة الجبارة، استطاع أن يهمس في أذني.

غاب الهواء عني وحاولت نطق الكلمات عبر الكتلة التي سدت حنجرتي..

«لا، أرجوك يا سليمان».

لقد وعدتني.

«لا، سوف أحاول أن أجد لك طبيباً يساعدك. سترى، سنتجاوز هذه المحنة كما اعتدنا دائماً».

لقد وعدت.

لا أستطيع تحديد الوقت الذي جلسته هناك وأنا أناقشه وأحاول التفاوض معه يا سيد ماركوس. أذكر أني نهضت أخيراً وتجولت بجانب السرير، ثم اضجعت بجانبه وقلبته إلى أن واجهنا بعضنا. كان خفيفاً رقيقاً كحلم. طبعت قبلة على شفتيه الجافتين المتشققتين. ومن ثم وضعت وسادة بين وجهه وصدري ومددت يدي خلف عنقه. ضممته إليَّ في عناق طويل وشديد.

كل ما أذكره بعدها هو اتساع حدقتي عينيه.

جلست بعدها بجوار النافذة وكأس شاي سليمان ما يزال أمامي. كان صباحاً مشمساً على ما أذكر. كانت المخازن على وشك فتح أبوابها والصغار يتوجهون لمدارسهم والغبار يرتفع هنا وهناك. خطى كلب متكاسل أمامي في الشارع تحيط برأسه غيمة من البراغيث. راقبت مرور شابين يركبان دراجة نارية، وأحد المارة يحمل شاشة حاسوب بيد

وبطيخة كبيرة بيد أخرى وهو يباعد بين ساقيه. أرخيت جبيني وأسندته إلى الزجاج الدافئ.

كانت الملاحظة الموجودة في درج سليمان عبارة عن وصيةٍ يترك لي فيها كل أملاكه. البيت والحاجات الشخصية والمال. حتى السيارة المهملة منذ أمد بعيد والتي ما تزال جثتها ترقد على إطاراتها الفارغة في الفناء الخلفي، وتبدو مجرد هيكل معدني صدئ.

يقيت فترة من الزمن حائراً في ما أفعل بنفسي. فقد اهتممت بسليمان لأكثر من نصف قرن وكانت حاجاته هو من شكّلت إيقاعي اليومي، رفقته هو. والآن، بتُّ حراً لفعل ما أشاء، لكنني اكتشفت أن الحرية مجرد خدعة. لأن أكثر ما رغبت به وتمنيته سُلب مني. يقولون لك.. جد لنفسك هدفاً.. وعش لأجله. لكن، أحياناً، لا تعرف أنك كنت تمتلك هدفاً وتعيش لأجله إلا بعد انقضاءه، ومن المحتمل أن يكون هدفاً لا ولم تخطط له بنفسك. والآن، بعد أن أنجزت مهمتي، شعرت بالضياع وبأن حياتي باتت بلا معنى.

اكتشفت أني لا أستطيع النوم في البيت بعد الآن، وأني بالكاد أستطيع البقاء فيه برحيل سليمان الذي ترك فراغاً كبيراً جداً جداً. كانت كل زاوية وجزء من المكان تثير في ذكريات مفعمة بالحياة. لذا، رجعت للعيش في كوخي القديم في نهاية الساحة. دفعت بعض المال لتركيب الكهرباء فيه ليكون لدي ضوء للقراءة ومروحة أدفع بها حر الصيف. أما بالنسبة للمساحة، فلم أكن بحاجة للكثير. كان السرير وبعض الثياب وصندوق رسومات سليمان هي كل ممتلكاتي. قد يصدمك قولي هذا يا سيد ماركوس، أعلم. نعم، كان كل البيت لي بكل

موجوداته، لكني لم أشعر حقاً بأنه يعود لي، وعرفت أني لن أشعر بذلك يوماً.

كنت أقرأ قليلاً في كتب سليمان الموجودة على مكتبه، وأعيدها حال انتهائي منها. زرعت بعض الطماطم وبضع أغصان من النعناع. وكنت أمشي حول الحي، لكن ركبي كانت تؤلمني بشدة وتجبرني على العودة قبل اجتيازي لشارعين بعد المنزل. كنت أحياناً أسحب كرسياً لأجلس عليه في الحديقة بكسل. لم أكن مثل سليمان.. الوحدة لم تناسبني.

ومن ثم، في أحد أيام عام 2002، قرعتَ جرس الباب الأمامي. كان الطالبان قد طردوا خارج كابول في تلك الفترة من قبل تحالف الشمال ووصل الأمريكان لأفغانستان. وكان الآلاف من عمال الإغاثة يتوجهون لكابول من جميع أنحاء العالم لبناء العيادات والمدارس، لإصلاح قنوات الري وشبكات الطرق، لإيصال الغذاء وتأمين المأوى والوظائف للأفغان.

رافقك يومها مترجمك الأفغاني ذي السترة الأرجوانية الناصعة والنظارات الشمسية. سألني عن مالك البيت. وتبادلتما النظرات عندما أخبرتُه أنه يتكلم مع المالك. ابتسم لي بتكلف وقال «لا، كاكا، أريد مالك المنزل» فدعوتكما كلاكما لتناول الشاي في الداخل.

تحدثنا بالفارسية يومها يا سيد ماركوس على القسم الباقي على قيد الحياة من الشرفة، وتناولنا الشاي الأخضر، وكما تعلم، لم أتعلم الانكليزية إلا في السبع سنوات التي تلت هذا اللقاء، وأشكرك كثيراً على توجيهاتك وكرمك. ومن خلال مترجمك.. قلت لي أنك من جزيرة تينوس اليونانية، وأنك طبيب جراح، وجزء من مجموعة طبية وصلتْ كابول لمساعدة الأطفال المصابين بجروح في وجوههم.قلت أنك وزملاؤك بحاجة لمسكن، لدار ضيافة، كما يدعى اليوم.

سألتني كم أريد إيجاراً للمنزل. فقلت «لا شيء». ما زلت أذكر نظرة

الدهشة في عينيك بعد أن أخبرك المترجم بكلماتي. فكررتَ سؤالك معتقداً أني أسأت الفهم.

انحنى المترجم للأمام باتجاهي وتكلم بنغمة من يخبر سراً وسألني إن كان مخي قد تعفن، وإن كان لدي أي فكرة عن المبلغ الذي تستعد مجموعة كهذه لدفعه، وهل كانت لدي أي فكرة عن مقدار ارتفاع الآجارات في كابول هذه الأيام؟ وقال بأنني أتربع فوق منجم ذهب.

طلبت منه أن يخلع نظارته الشمسية أولاً حين يتكلم مع شخص أكبر منه سناً. ثم أمرته أن يقوم بعمله، أن يترجم ما قلته، لا أن يسدي لي النصيحة، ومن ثم تحولتُ إليك وعرضتُ عليك السبب الذي لم يكن يخصني أنا:

«لقد تركتَ بلادك، وأصدقاءك وعائلتك وجئتَ إلى مدينة متروكة مهملة لتساعد بني وطني، كيف تطلب مني أن أتربّح منك؟».

رفع المترجم الشاب الذي لم أره معك مرة ثانية يديه للأعلى وضحك برهبة. لقد تغيرت هذه البلاد. لم تكن دائماً هكذا يا سيد ماركوس.

أكمن أحياناً في ظلام كوخي وأراقب لمعان أنوار البيت الكبير. أراقبك وأصدقاؤك وعلى الخصوص الآنسة آمرا أديموفيك، التي أقدر قلبها الكبير بلا حدود، على الشرفة أوفي الساحة. تتناولون الطعام وتدخنون وتشربون الخمر. كما أسمع الموسيقى أيضاً، وفي بعض الأحيان أميز الجاز بينها، مما يذكرني بنيلا.

لقد ماتت الآن، أنا أعرف هذا. وقد عرفت النبأ من الآنسة آمرا. فقد حكيت لها عن عائلة وحداتي وأخبرتها أن نيلا كانت شاعرة. فوجدت لها منشورات فرنسية على حاسوبها. كانوا قد نشروا على الانترنت مختارات أدبية من أفضل ما قد كُتب خلال الأربعين سنة الماضية. وهناك، وجدنا أشعاراً لنيلا. قالت النشرة أنها توفيت عام 1974.

فكرت بانتظاري طيلة كل تلك السنوات لرسالة منها وكيف أن كل ذاك الانتظار كان بلا طائل لأنني كنت أنتظر رسالة من امرأة ميتة. ولم تصبني أي مفاجأة عندما قرأت أنها انتحرت. أعرف الآن أن بعض الناس يخبؤون التعاسة بنفس الطريقة التي يخبئ الآخرون بها الحب، بخصوصية وحدّة، ودون الاستعانة بأي أحد على ما يعصف بهم.

دعني أنتهي من هذا الأمر يا سيد ماركوس. فقد اقتربت نهايتي، أنا أضعف يومياً، ولن يطول الأمر بي، والحمد لله على ذلك. شكراً لكم أيضاً يا سيد ماركوس، ليس فقط على صداقتك، ولا لإيجادك الوقت كل يوم لزيارتي والجلوس لشرب الشاي والتكلم معي عن أحوال أمك في جزيرة تينوس وصديقة طفولتك (تاليا)، بل لمرافقتك لشعبي وخدماتك لأطفالنا التي لا تقدر بثمن.

كما أشكرك على الإصلاحات التي تقوم بها في المنزل، فقد أمضيتُ فيه معظم أيام حياتي، إنه موطني، وأنا أكيد أنني سألفظ أنفاسي الأخيرة تحت سقفه. لقد شهدت انحداره من القمة بأسى بالغٍ وقلبٍ مكسور. ولهذا، أشعر بالكثير من البهجة لرؤيته يصطبغ من جديد بالألوان ولرؤية حائط الحديقة وهو يبنى من جديد، واستبدال النوافذ، والشرفة، حيث أمضيت ساعات سعيدة لا تعدّ. شكراً لك يا صديقي على الأشجار الجديدة التي زرعتَ، وعلى الزهور المتفتحة من جديد في الحديقة. إذا ما كنتَ قد ساعدتَ في تقديم الخدمات لسكان هذه المدينة، فإن ما فعلتَهُ بكل لطف لهذا البيت هو مبلغ أكثر من كافٍ بالنسبة لي.

أرجو أن لا ترى طمعاً وراء طلبي منك الآن. سأطلب منك أمرين، أحدهما لي والثاني لشخص آخر. أولاً: أريد منك دفني في مقبرة عشوقان ـ عرفان، هنا في كابول. أنا متأكد من أنك تعرفها. وهناك،

تدخل من المدخل الرئيسي وتتجه شمالاً وبعد بحث قليل ستجد قبر سليمان وحداتي. أرجو أن تجد لي بجانبه قبراً شاغراً. هذا كل ما أطلبه منك لنفسي.

الطلب الثاني هو أن تحاول إيجاد ابنة أختي باري بعد وفاتي. لن يكون هذا أمراً صعباً باستخدام الانترنت إذا كانت ما تزال حية. كما ترى، أرفقت في هذا الظرف مع رسالتي إليك ورقة كتبت عليها وصيتي، أترك فيها البيت والمال وبعض الممتلكات لها. أرجو منك أن تعطيها رسالتي هذه والوصية على حد سواء. وأخبرها أرجوك، أرجو أن تخبرها أنني لم أكن أستطيع الإحاطة بالعواقب الجمّة لما بدأته بنفسي، لتسلسل الأحداث الذي تسببت به. أخبرها أن عزائي الوحيد كان في الأمل، الأمل بأنها ربما وجدت السلام والنعمة والمحبة والسعادة التي يسمح بها هذا العالم حيثما تعيش الآن.

أشكرك مجدداً يا سيد ماركوس. حماك الله.

صديقك المخلص دوماً

نبي

الفصل الخامس

ربيع عام 2003

حذّرت الممرضة آمرا أديموفيك كلاً من إدريس وتيمور، أخذتهما جانباً وقالت:

«إذا ما كان لديكما أي ردة فعل، مهما كانت بسيطة، فسأغضب منكما وسأطردكما خارجاً».

كانا يقفان في نهاية ممر طويل وضعيف الإنارة في جناح الرجال في مشفى وزير أكبر خان. قالت آمرا أن القريب الوحيد للبنت هو خالها وهو الوحيد الذي زارها، وإذا ما وُضعت في قسم النساء فلن يُسمح له بزيارتها، ولهذا وضعها الموظفون في جناح الرجال، ولم يضعوها في غرفة مشتركة مع رجال غرب عنها بالطبع لأن ذلك سيكون غير لائق لها، بل هنا.. في نهاية الممر، في أرض محايدة، ليست للرجال ولا للنساء.

«وقد اعتقدتُ أن الطالبان تركوا البلد!» قال تيمور.

«هذا جنون، أليس كذلك؟» قالت آمرا، وضحكت بحيرة بصوت خافت. وجد إدريس خلال الأسبوع الذي قضاه في كابول نغمة الغضب الحنونة هذه الشائعة بين عمال الإغاثة الأجانب، وهم يحاولون الالتفاف حول خواص الثقافة الأفغانية المزعجة دون التسبب بالمشاكل. وقد شعر بإهانة مُبهمة من هذا الميل للسخرية، من هذا الشعور بالاستعلاء، مع أن السكان المحليين لا يشعرون به ولا يبدون أنهم يلاحظونه، ولذلك ربما، فكّر أن لا داعٍ لانزعاجه منها.

«لكنهم تركوك لتعملي هنا، أنت تحضرين وتغادرين بشكل عادي» قال تيمور.

رفعت آمرا حاجبها «أنا لستُ مهمة، لستُ أفغانية، ولهذا لستُ امرأة حقيقية بالنسبة لهم. ألا تعرف هذا؟».

«آمرا، هل هذا الشخص بولندي؟» قال تيمور.

«إنه بوسني، تذكّر.. لا ردود أفعال، هذا مشفى وليست حديقة حيوانات. لقد وعدتما».

نظر إدريس إلى المرضة وقلق من هذا الاستفزاز المتهور وغير الضروري والذي أهانها ربما. إلا أن تيمور أفلت به دون عقاب على ما يبدو. لطالما حسد إدريس ابن عمه واستاء منه على هذه المقدرة التي يمتلكها. كان يعتقد أن تيمور شخص خشن دوماً، يفتقر للمخيلة والحسّ السليم. كان يعرف أنه يخون زوجتيه الاثنتين ويتهرب من الضرائب في الولايات المتحدة، فهو يمتلك هناك شركة رهن عقارات، وإدريس متأكد تماماً من أنه غارق حتى ركبتيه في لعبة احتيال على الحكومة. لكنه اجتماعي جداً وقادر دوماً على التنصل من مشاكله بحسّ فكاهته والمودّة المدروسة الموجّهة، ونفحة من البراءة الخادعة التي صنعت له شعبيّة بين الناس. كما أنه وسيمٌ بعض الشيء ومفتول

العضلات، له عينان خضراوان وأخاديد واضحة حفرها العبوس على وجهه. كان إدريس يرى أن تيمور رجل راشد يتمتع بكل امتيازات الطفولة.

«هذا جيد» قالت آمرا، وفتحت لهم الستارة المثبتة في السقف وسمحت لهم بالدخول.

كانت الفتاة (روشي) كما تدعوها آمرا، وهو لقب مختصر عن اسمها الحقيقي (روشانا)، في التاسعة أو العاشرة من العمر، جالسة على سرير معدني ومستندة للحائط وركبتاها مطويتان إلى صدرها. نظر إدريس للأرض فوراً وابتلع شهقة عميقة قبل أن تهرب منه أنفاسه. وبشكل متوقع، لم يستطع تيمور ضبط نفسه وراح يقول دون توقف «آه، آه، آه..» مراراً وتكراراً بهمس مؤلم عال، نظر إدريس إليه ولم تفاجئه ارتعاشات الدمع المتساقط بطريقة مسرحية من عينيه. ارتجفت الفتاة وصدر عنها صوت غاضب.

«حسناً، انتهينا، سنذهب الآن» قالت آمرا بصرامة.

وفي الخارج، على الدرجات الأمامية المتكسرة للمبنى، أخرجت المرضة علبة سجائر سارلبور وحمراء من جيب صدر ردائها الأزرق الشاحب. وقام تيمور بإشعال سيجارتيهما بعد أن اختفت دموعه بنفس سرعة ظهورها. شعر إدريس بالغثيان والدوار وجف فمه، قلق من أن يتقيأ ويخزي نفسه ويؤكد نظرة آمرا فيه، في أولئك الأغنياء العائدين للديار والمصابين بالدهشة من التحديق بمناظر المجازر، الآن بعد أن رحل كل المجرمين.

توقع إدريس التوبيخ من آمرا، على الأقل توبيخ تيمور، لكنها حدثته وكأنها تغازله، لا كأنها توبخه. إنه تأثير تيمور على النساء.

«إذاً.. يا صغيري، ماذا قلت يا تيمور؟».

سمّى تيمور نفسه في الولايات المتحدة (تيم) بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، وادعى أمام الناس أنه اضطر مرتين لتغيير عمله أيضاً. قال مرّة لإدريس أن حذف هذين الحرفين قدّم له ولمهنته ما هو أهم مما قد تقدمه له الشهادة الجامعية، والتي لم يحاول تحصيلها وترك المهمة لإدريس، فهو الخريج الأكاديمي في عائلة بشيري. ومنذ أن عادا لكابول راح تيم يقدم نفسه للآخرين باسمه الحقيقي (تيمور). إنها ازدواجية غير مؤذية، وضرورية أيضاً. لكنها ملتهبة كجرح في الصميم.

«آسف على كل ما حصل هنا» قال تيمور.

«لربما سأعاقبك».

«على مهلك يا قطة».

حوّلت آمرا نظرها لإدريس وقالت «إنه راعي البقر الأميركي، وأنت؟ أنت هادئ وحسّاس، هل أنت من يدعونه الانطوائي في العائلة؟».

«هو؟ إنه طبيب» قال تيمور.

«آه، إذاً لا بد وأن هذا المشفى صدمك بما فيه الكفاية».

«ماذا حدث لها؟ لوروشي، من فعل بها هذا؟».

أظلم وجهها عندما بدأت الكلام بنبرة التصميم الأمومي على الثأر «أنا أكافح من أجلها، أحارب الحكومة وبيروقراطية المشفى وجرّاح الأعصاب النذل الموجود هنا. أقاتل لأجلها في كل خطوة، لن أتوقف.. ليس لديها أحد غيري».

«اعتقدت أن لديها خال» قال إدريس.

«إنه نذل أيضاً» نفضت رماد سيجارتها «إذاً، ما الذي جاء بكم يا أولاد؟».

استهل تيمور الحديث، وكان صادقاً في ما يقوله بشكل أو بآخر. بأنهما أبناء عمّ هربت بهم عائلتهم عند دخول السوفييت للبلاد وأنهم

قضوا عاماً في باكستان قبل الاستقرار في كاليفورنيا أوائل الثمانينات. وأن هذه هي زيارتهم الأولى لبلادهم منذ عشرين عاماً. ومن ثم أضاف أنهم جاءا لإعادة الرابط بينهم وبين بلدهم، ليتعرفا على ماضيهما ويشاهدا أثر سنين طويلة من الحرب والدمار. يريدان العودة للولايات المتحدة لِلفتِ النظر وزيادة الوعي بما يجري هنا وجمع التبرعات لمساعدة المتأذيين من أهوال الحرب.

«نريد أن نفي بالتزاماتنا تجاه هذه البلاد» قال العبارة الأخيرة بصدق أحرج إدريس.

لم يقل لها تيمور السبب الحقيقي وراء عودتهم لكابول بالطبع، أنهما عادا لاسترجاع ملكية آباءهم، البيت الذي عاشا فيه أول أربعة عشر سنة من حياتهم. وأن ملكيتهم التي ظل سعرها يرتفع كالصاروخ بسبب آلاف عمال الإغاثة الأجانب المتقاطرين على كابول وحاجتهم للمساكن. ذهبا إلى بيتهم القديم باكراً هذا الصباح، ووجداه وقد أصبح مسكناً لمجموعة متهالكة من جنود تحالف الشمال المرهقين. وقد التقيا وهما يهمّان بالمغادرة برجل متوسط العمر يعيش بعد بيت والديهما بثلاث بيوت، وهو جراح تجميل يوناني يُدعى ماركوس فارفاريس، وقد دعاهما للغداء وعرض عليهما أن يأخذهما في جولة إلى مشفى وزير أكبر خان. حيث يوجد مكتب المنظمة غير الحكومية التي يعمل فيها. كما دعاهما لحضور حفلة تلك الليلة. في تلك الزيارة، تعرفا على الفتاة في المشفى بعد أن سمعا صدفة اثنين من ممرضي المشفى وهما يتحدثان عنها على درجات مدخل المشفى. قال تيمور لإدريس.. هيا لنلقي عليها نظرة.

بدت آمرا ضجرة من حكاية تيمور فرمت سيجارتها بعيداً وشدّت الرباط المطاطي الذي يربط شعرها الأشقر المجعد في كعكة وقالت:

«حسناً، أراكما في الحفلة الليلة يا شباب».

كان أبو تيمور، عمّ إدريس من أرسلهم إلى كابول. بعد تعاقب العديد على سكن منزلهم خلال عقدين من زمن الحرب. ولهذا، فإنه كان يعرف أن إعادة الملكية لأيديهم سيحتاج للوقت والمال. كانت آلاف حالات النزاع على الملكيات تكبّل محاكم البلاد. طلب منهما أبو تيمور أن يلتفا حول البيروقراطية الأفغانية البطيئة وسيئة السمعة وقال لهما: أن «يبحثا عن أصحاب الأيادي الصحيحة المناسبة ويدهناها بالكريمات».

«سيكون ذاك عملي» قال تيمور دون أي حاجة لقول ذلك.

مات أبو إدريس قبل تسع سنوات بعد صراع طويل مع السرطان. مات في بيته، وزوجته وابنتيه وإدريس بجانب سريره. في يوم وفاته، بدأ سيل الأقرباء الجارف بالقدوم.. الأعمام والعمات وأبناؤهم والأصدقاء والمعارف، جلسوا على الأرائك وكراسي غرفة السفرة، وعندما لم يبق مكان للجلوس افترشوا الأرض والدرج. تجمعت النساء في المطبخ وفي غرفة الطعام، خمّرن ترامس الشاي دون توقف. ومثل أي ابن وحيد، كان على إدريس أن يوقع على كل الأوراق الخاصة بالطبيب الشرعي الذي أعلن وفاة والده، وأوراق مكتب دفن الموتى لشابٍّ مؤدب جاء لأخذ جثة أبيه على نقّالة.

لم يتركه تيمور أبداً، ساعده بالرّد على المكالمات الهاتفية وصافح موجات البشر المتوافدين على المنزل للتعبير عن أسفهم على وفاة الفقيد. أوصى على أرزٍ بلحم الغنم من مطعم (كباب آبي)، وهو مطعم أفغاني محلي يديره صديق تيمور (عبدالله)، والذي كان تيمور يناديه بالعم آبي ليثير جنونه. أوقف تيمور السيارات للأقارب المسنين عندما بدأت السماء تمطر، ودعا أحد أصدقاءه من إحدى محطات التلفزيون الأفغانية

المحلية للإعلان عن الوفاة. كان تيمور واسع العلاقات في الجالية الأفغانية بعكس إدريس، وقد أخبره مرة بأن لديه أكثر من ثلاثمائة اسم اتصال ورقم على هاتفه الخلوي. وقد أجرى ترتيباته لإدراج إعلان الوفاة على التلفاز الأفغاني تلك الليلة.

قاد تيمور السيارة بإدريس ذاك العصر لإيصاله إلى بيت الجنائز في هايورد. كانت الأمطار غزيرة والمرور بطيء في تلك الساعة على الطرق المتجهة شمالاً من الطريق 680.

«كان أبوك فريداً من نوعه، إنه رجل من المدرسة القديمة». صاح تيمور وهو يمسح دموعه بكف يده.

أومأ له إدريس بوجه متجهم. لم يستطع في حياته البكاء في حضرة شخص آخر، أوفي مناسبات خاصة كالجنازات. وكان يعتقد أن حالته نوع من الإعاقة البسيطة، مثل عمى الألوان. ومع ذلك، فقد شعر بشكل مبهم بالاستياء من تيمور، لأنه قلل من أهميته في البيت وهو يركض حول المكان وينشج بأسى على العم المتوفى كما لو كان أباه هو من مات، وليس عمه.

رافقهم المسؤول إلى غرفة هادئة خفيفة الإضاءة مفروشة بأثاث داكن ثقيل على النفس. وهناك، رحّب بهم رجل يرتدي سترة سوداء وشعره مفروق من المنتصف وتفوح منه رائحة قهوة غالية الثمن. وقد قدّم لإدريس تعازيه بنبرة احترافية وطلب منه توقيع أوراق الدفن. وسأله عن عدد نسخ شهادات الوفاة اللازمة. ومن ثم وضع بلباقةٍ أمام إدريس كتيّباً معنوناً بـ (قائمة الأسعار العامة).

تنحنح مدير مكتب الدفن وقال: «لن نحاسبكم بهذه الأسعار إذا كان والدك مشتركاً بعضوية المسجد الأفغاني بالطبع. فهم شركاؤنا،

سيدفعون لقاء القبر وكافة الخدمات، لن تتكلف أنت بأي شيء».

«ليست لدي أي فكرة عن ذاك الموضوع، إن كان أبي أحد الأعضاء أم لا». قال إدريس وهو يتصفح الكتيب، كان أبوه رجلاً متديناً، كان متأكداً من هذا، لكنه لم يكن يذهب لصلاة الجمعة في المسجد.

«سأعطيك بعض الوقت، يمكنك الاتصال بالمسجد».

«لا يا رجل، لا حاجة لهذا». قال تيمور «لم يكن عمّي عضواً في المسجد».

«هل أنت متأكد؟».

«نعم، أنا أذكر محادثة جرت أمامي».

«فهمت، حسناً» قال المدير.

في الخارج، أشعلا سيجارة وتشاركاها. توقف المطر.

«سرقة مكشوفة» قال إدريس .

بصق تيمور في بركة ماء وسخ متجمع بسبب المطر وقال «إنها مهنة مربحة، مع أنهم يتاجرون بالموت، يجب أن نعترف بذلك. الناس دوماً بحاجتهم، اللعنة، إنها مربحة أكثر من تجارة السيارات».

كان تيمور شريكاً في وكالة بيع سيارات مستعملة تتراجع وتخسر مع الوقت إلى أن شاركه أحد أصدقاءه، وحوّلها في أقل من سنتين إلى مشروع رابح. اعتاد أبو إدريس أن يصف ابن أخيه تيمور بالرجل العصامي الذي صنع نفسه بنفسه. بينما كان إدريس يكسب أجراً ضئيلاً كالعبيد في سنة اختصاصه الثانية كطبيب باطني مقيم في مشفى UC Davis، وتكافح زوجته ثلاثين ساعة أسبوعياً كسكرتيرة في شركة محاماة وهي تدرس في نفس الوقت وتُحضّر لشهادة مزاولة المحاماة .

«هذا دَيْن، يجب أن تفهم هذا يا تيمور، سأرد المال لك».

«لا تقلق يا أخي، أمرك».

لم تكن تلك المرة الأولى التي يساعد فيها تيمور إدريساً. لقد أهداه سيارة فورد جديدة عندما تزوج من زوجته نهيل كهدية زواج. وكفلهم عندما وقع معهم على قرض شراء شقتهم الصغيرة في ديفيس. وكان العم المحبوب من قبل كل الأطفال في العائلة وإذا ما وقع إدريس في مشكلة، لم يكن سيتصل بأي شخص غير تيمور، بكل تأكيد.

ومع ذلك.

فقد اكتشف إدريس على سبيل المثال أن كل شخص في العائلة كان على علم بموضوع القرض.أخبرهم تيمور بنفسه. وفي العرس، قام تيمور بإيقاف المطرب عن الغناء وأخذ منه مكبر الصوت ليقوم بإعلان هام، وقدم لإدريس ونهيل مفتاح السيارة بمراسم عظيمة على طبق أمام الجميع وكاميرات تصويرهم. هذا ما كان إدريس يتخوف منه، الاستعراض، التكبر، عرض الرجولة دون خجل والشجاعة الفارغة. لم يكن إدريس يحب هذه الخصال في ابن عمه الذي كان أقرب ما يكون إلى أخ له. وهكذا بدأ يعتقد أن لدى تيمور أجندته الإعلانية، وشكّ بأن كرمه هذا هو حركة محسوبة من شخصيته المعقدة.

وفي إحدى الليالي، تبادلا الحديث حوله وهما يضعان شراشفاً نظيفة على سريرهم..

«يرغب كل شخص بأن يكون محبوباً، أليس كذلك؟» قالت نهيل «لكنه لا يدفع للآخرين لقاء محبتهم» ثم قالت له أنه ظالم وجاحد أيضاً بعد كل ما قدمه لهم تيمور.

«أنت تتجاهلين النقطة المهمة يا نهيل.. كل ما أقوله هو أن نشر أعمالك الجيدة على لوحة الإعلانات أمرٌ خاطئ. إنها أمور يقوم بها الإنسان بصمت، بكرامة. الإحسان لا يعني توقيع الشيكات للناس على الملأ».

«حسناً يا عزيزي، إنه أمر مفيد بالنسبة للبعض على المدى البعيد».

«أنا أذكر هذا المكان يا رجل، ما كان اسم صاحبه؟» قال تيمور.

«شيء ما وحداتي على ما أعتقد، نسيت اسمه الأول». قال إدريس وهو يفكر بالمرات التي لا تحصى التي لعبا بها أمام هذه البوابة الرئيسية أثناء طفولتهم، وها هما الآن.. يقفان في نفس المكان للمرة الأولى بعد عقود.

«تلك إرادة الله» تمتم تيمور. كان البيت مكاناً عادياً مؤلفاً من طابقين لا يحوز على اهتمام أي أحد في سان خوسيه حيث يعيشان في أميركا، لكنه ملكية باذخة بمقاييس كابول، بجدرانه العالية وبواباته المعدنية وممر السيارات العريض التابع له. وبينما قادهم أحد الحراس المسلحين داخل المنزل، لاحظ إدريس أن البيت ككل الأشياء التي شاهدها في كابول منذ عودته، ما يزال يحتفظ بنفحة من عظمة الأيام الخوالي تحت الخراب الذي طاله. رأى ثقوباً متعرجة حفرها الرصاص في الجدران المسودّة، وحجارة البناء المكشوفة في بعض الأماكن والأجمات الميتة على جانبي ممر السيارات، تأمل الأشجار المتيبسة في الحديقة والمرج الأصفر، كما لاحظ أن أكثر من نصف الشرفة الخلفية مفقود. لكنه أيضاً ككل الأشياء الأخرى في كابول، يبدو عليه دليل الانبعاث البطيء المتردد. لقد بدأ شخص ما بإعادة طلاء البيت وزرع وروداً في الحديقة، كما استبدل جزءاً ناقصاً من حائط الحديقة الشرقي، مع أنه بناه بشكل أخرق. وقد شاهدا سلماً مركوناً إلى حائط المنزل المواجه للشارع، مما جعل إدريس يعتقد أنهم يصلحون السقف، كما كانوا يعيدون بناء نصف الشرفة المهدم على ما يبدو.

قابلوا ماركوس في الاستراحة، وهو رجل ذو شعر رمادي خفيف وعيون زرقاء شاحبة، يرتدي ملابس أفغانية رمادية ويلفّ كوفية بيضاء وسوداء حول عنقه بشكل رائع. أدخلهم إلى غرفة صاخبة أثقلها دخان السجائر.

«لدي شاي، نبيذ وبيرة. أو لربما تفضلان شيئاً أقوى».

«أرني ما لديك وأنا سأختار» قال تيمور.

«آه، أنت تعجبني. المشروب هناك بجانب الستيريو، والثلج نظيف، صنعناه من الماء المعبأ بالقوارير البلاستيكية».

«بارك الله بك».

كان تيمور في مكانه الطبيعي بين الحشود الغريبة كهذه. لا يستطيع إدريس أن يتجاهل سهولة تعامله مع الناس، وأن لا يقدر الأسلوب البسيط الذي يكسر به الجليد بينه وبين الأغراب بكل هذه السهولة، وقوة تأثير سحره على الناس. تبعه إلى البار حيث سكب لهما المشروبات من زجاجة ياقوتية.

جلس الضيوف الذين لا يتجاوزون العشرين على مساند حول الجدران على أرضية الغرفة، المغطاة ببساط أفغاني أحمر داكن. وتفحصوا الديكور الراقي الذي قال إدريس أنه «أناقة غريبة» كما هو عنوان أسطوانة نينا سايمون المدمجة الهادئة.

كان الجميع تقريباً يشربون ويدخنون ويتحدثون عن الحرب الجديدة في العراق وما ستعنيه بالنسبة لأفغانستان، وهم يشاهدون التلفاز في الزاوية، المفتوح على قناة الـ (CNN) الدولية دون أي صوت، وهي تعرض ليل بغداد الذي أسكتته الرهبة والصدمة، والوميض المتقطع الأخضر ينتثر في سماءها الحزينة.

انضم إليهم ماركوس ومجموعة من أصدقاءه الألمان الشبان الجادّين

العاملين في برنامج الأغذية العالمي وهم يحملون كؤوس الفودكا في أيديهم. وقد وجدهم إدريس ككل العاملين في الإغاثة الدولية الموجودين في كابول.. مخيفين قليلاً، عالميين بمعنى الكلمة بسبب كثرة تنقلهم في أصقاع الدنيا ومن المستحيل إثارة إعجابهم بأي شيء أو أي أحد بعد ما شاهدوه.

«هذا بيت لطيف» قال إدريس.

«أخبر صاحبه بهذا» وذهب ماركوس إلى نهاية الغرفة وعاد مع رجل مسنّ أشيب له لحية حليقة وفم غائر بلا أسنان تقريباً، يرتدي بذلة زيتونية رثة كبيرة جداً عليه من مخلفات موضة الأربعينات. ابتسم ماركوس للرجل العجوز بمودّة كبيرة.

«السيد نبي؟» صاح تيمور.

«أنا تيمور بشيري» قال تيمور بالفارسية «كانت عائلتي تعيش بالقرب منكم».

«يا إلهي العظيم، السيد تيمور؟» قال الرجل العجوز وهو يتنهد «وأنت، لا بد أنك إدريس» عانقهم نبي وقبّل خدودهم وابتسم ابتسامة عريضة ونظر إليهم دون تصديق. تذكره إدريس وهو يدفع رب عمله في كرسي مدولب عبر الشارع، وهو يوقف كهذا ياحياناً على الرصيف لمراقبتهم وأولاد الجيران وهم يلعبون كرة القدم.

«عاش السيد نبي في هذا البيت منذ عام 1947» قال ماركوس وذراعه ملفوفة حول كتف نبي.

«أنت صاحب البيت الآن؟» قال تيمور.

ابتسم نبي من نظرة الدهشة على وجه تيمور وقال:

«لقد خدمت السيد وحداتي حتى عام 2000 عندما توفي. وقد كان كريماً بما فيه الكفاية معي ليترك لي وصية يمنحني فيها ملكية البيت، نعم».

«أعطاك إياه..!!» قال تيمور بشك واضح. فأومأ له نبي بالإيجاب.

«لا بد أنك كنت طباخاً عظيماً!».

«وأنت، اسمح لي أن أقول أنك كنت مثيراً للشغب، كما أذكر».

«لا أهتم أبداً بآراء الناس، تركت ذلك لابن عمي إدريس».

قال ماركوس لإدريس وهو يلوح بكأس نبيذه «كانت نيلا وحداتي زوجة صاحب المنزل الأصلي شاعرة. ذاع لها بعض الصيت على ما يبدو. هل سمعت بها؟».

نفى إدريس بهزة من رأسه وقال «كل ما أعرفه عنها أنها غادرت البلاد في حوالي الوقت الذي ولدتُ به».

«لقد عاشت في باريس مع ابنتها» قال أحد الألمان واسمه توماس «لقد ماتت عام 1974، انتحرت. أعتقد أنها كانت مدمنة على الكحول، أو على الأقل.. هذا ما قرأته عنها. أعطاني شخص ما ترجمة ألمانية لأحد دواوينها المبكرة منذ عام أو عامين وقد كان جيد جداً في الحقيقة، ومفعماً بالجنس على نحو مذهل كما أذكر».

أومأ إدريس برأسه، وهو يشعر من جديد بأنه ضحل المعرفة لأن ألمانياً أعطاه معلومات عن فنانة أفغانية. وعلى بعد خطوتين، وقف تيمور يتحدث مع نبي عن أسعار الإيجارات بالفارسية بالطبع.

«هل لديك أي فكرة عن مقدار الربح الذي يمكن أن تجنيه من إيجار مسكن كهذا يا سيد نبي؟».

«نعم» قال نبي. وهو يومأ برأسه ويضحك. «أنا أعرف الأسعار في المدينة».

«يمكن لك أن تفلس هؤلاء الناس».

«يمكن».

«ومع ذلك.. تركتهم يقيمون هنا مجاناً!!».

«لقد جاؤوا لمساعدة بلادنا يـا سـيد تيمـور. تركـوا بلـدانهم وبيـوتهم وحضروا. لا يبدو لي من المناسب أن أتقاضى منهم أجراً أو كما تقـول.. أفلسهم».

تنهد تيمور وهو يتجرع بقية مشروبه «إما أنك تكره المال، يا صديقي القديم، أو أنك رجل أفضل منّي بكثير».

دخلت آمرا الغرفة وهي ترتدي سترة أفغانية حمـراء بلـون اليـاقوت فوق بنطالها الجينز الباهت وصاحت:

«سيد نبي». بدا نبي وكأنه بوغت لدى تقبيلها إيـاه ولفّهـا ذراعهـا حوله.

«أحبّ هذا الرجل» قالت للمجموعة «وأحبّ إحراجه» ثم قالت نفس الكلمات بالفارسية لنبي فضحك بشدة وخجل قليلاً.

«هل لك أن تحرجيني أيضاً؟» قال تيمور لها.

ضربته آمرا على صدره بمزاح «سيتسـبب إحراجـك بمشـكلة كـبيرة» قبلت ماركوس على الطريقة الأفغانية، ثلاث مرات على الخدين، كمـا فعلت مع الألمان.

لف مـاركوس ذراعـه حـول خصـرها وقـال «آمـرا أديموفيـك، المـرأة الحديدية في كابول. لا تقترب من هذه المرأة. لأنها ستتناولك كمقـبلات بجـانب العشاء».

«هيا لنختبر ما قلته» قال تيمور وهو يمد يده لكأس على البار خلفه.

استأذن الرجل العجوز نبي وغادر.

حـاول إدريـس في السـاعة التاليـة الاخـتلاط بالنـاس بينمـا قاربـت الزجاجات على الانتهـاء وارتفعت نبرات الأصوات بالألمانيـة والفرنسـية واليونانية. شرب الفودكـا وأتبعهـا بـالبيرة الفـاترة. اسـتجمع شـجاعته للانخراط في مجموعة وأخبرهم بنكتة عن الملا عمر سمعها في كاليفورنيا

بالفارسية. لكن معناها لم يصل للآخرين بالانكليزية فلم يفهمها الناس حوله، فأخفق في مسعاه. أنصت لمحادثة حول العزم على افتتاح حانة آيرلندية في كابول. وتعليقات الناس أن هذه الاتفاقية العامة لن تدوم.

مشى حول الغرفة وهو يحمل البيرة الدافئة في يده. لم يشعر بالراحة بين الحشود الغريبة في حياته. حاول أن يشغل نفسه بتفحص الديكور. وجد ملصقات بوذا باميشاطئ والجدران، ولعبة بوزكاشي، ومن ثم رأى صورة لميناء في جزيرة يونانية اسمها تينوس. لم يسمع عن هذه الجزيرة قبل الآن. اكتشف صورة داخل إطار في الردهة بالأسود والأبيض، كانت مشوشة وكأنها التقطت بكاميرا مصنوعة في المنزل. تظهر فيها شابة ذات شعر أسود طويل تعطي ظهرها للكاميرا. أخذت لها الصورة على شاطئ وهي جالسة على صخرة مواجهة للمحيط. وكان أسفل الصورة الأيسر محترقاً.

تألف العشاء من فخذ حمل مشوي مع إكليل الجبل والثوم وتناولوا إلى جانبه الباستا وجبن الماعز المُتوّج بصلصة البيستو. سكب إدريس لنفسه بعض السلطة وظل يتجول حول الغرفة. راقب جلوس تيمور مع امرأتين هولنديتين صغيرتين جذابتين. انفجروا بالضحك جميعاً فوضعت إحداهما يدها على ركبة تيمور.

حمل إدريس كأسه وخرج للشرفة وجلس على مقعد خشبي. كان الوقت متأخراً ولا نور هناك سوى ذاك الآتي من زوج من المصابيح المتدلية من السقف مباشرة. استطاع من مكانه أن يتبيّن الشكل العام لكوخ في النهاية البعيدة للحديقة، أما إلى يمينه، فقد ميّز في الظلمة شكل سيارة مبهمة، أميركية قديمة على ما يبدو بسبب انحناءاتها. يبدو أنها من حقبة الأربعينيات، ولربما أوائل الخمسينيات، لأنه لا يستطيع رؤيتها جيداً، بالإضافة لأن السيارات لم تكن يوماً محل

اهتمامه. كان متأكداً من أن تيمور سيعرف نوعها لو رآها. سيعرف موديلها وسنة صنعها وقياس محركها وكل امتيازاتها. بدت له جاثمة فوق أربع دواليب فارغة من الهواء. نبح كلب شارد بصوت متقطع في الحي. وفي الداخل قام أحدهم بوضع اسطوانة لـ (ليونارد كوهين).

«الهادئ الحسّاس هنا».

جلست آمرا بجانبه والثلج يتلاطم في كأسها وقدماها حافيتين.

«ابن عمك راعي بقر حقيقي. إنه يُضفي الحياة على الحفلة بكل تأكيد».

«هذا لا يفاجئني».

«إنه وسيم جداً، هل هو متزوج؟».

«وعنده ثلاثة أطفال».

«هذا سيء جداً. يجب عليّ أن أحسن التصرف إذاً».

«أنا متأكد من خيبة أمله إذا سمع ذلك».

«عندي مبادئ» قالت.. «إنه لا يعجبك كثيراً».

أخبرها إدريس بصدق شديد أن تيمور أكثر من أخ بالنسبة له.

«لكنه يحرجك..».

كان هذا صحيحاً، لقد أحرجه تيمور. لقد تصرف كما يفعل الأفغان - الأمريكيون بقبح مثالي، كما يعتقد إدريس. كانت عيناه تدمع وهو يتجول في المدينة التي مزقتها الحروب وكأنه ينتمي لها، وأضجر السكان المحليين بحسن خلقه العظيم وهو يناديهم بأخي وأختي وعمي.. ولا، من تبرعه ببعض المال للشحاذين استعراضاً، ومزح مع النساء العجائز وناداهم (أمي) ودعاهم لرواية قصصهم إلى آلة تصويره النقالة ورسم على وجهه تعابير الاكتئاب، مدعياً أنه واحد منهم، وكأنه كان دوماً هنا، وكأنه لم يكن يسبح في الرخاء في سان خوسيه، وكأنه لم

يكن يعمل على صفقاته طول تلك السنين بينما كانوا يُقصفون ويُقتلون ويُغتصبون. لم يتعدى كل ما يقوم به حدود النفاق المقيت.. وكان عجز الناس عن رؤية حقيقته من الأمور المدهشة بالنسبة لإدريس.

«لم يخبركِ تيمور بالسبب الحقيقي لحضورنا لكابول، لقد جئنا لنستعيد بيت آبائنا، ذاك هو كل ما في الأمر، لا شيء آخر».

ضحكت آمرا بصوت خافت. «بالطبع أعرف، أتظنّ أني امرأة حمقاء؟ لقد تعاملتُ مع أمراء الحرب والطالبان في هذه البلاد. رأيتُ كل شيء. لا يمكن أن أصدم بأحد. لا شيء، لا أحد يستطيع خداعي».

«أعتقد أن تلك حقيقة لا ريب فيها».

«أنت صادق، أنت على الأقل إنسان صادق».

«أنا أعتقد أن واجبنا إزاء هؤلاء الناس أن نحترمهم. وأعني بكلامي الناس مثلنا، أنا وتيمور. المحظوظون الذين لم يكونوا هنا عندما أمطرت القنابل المدينة وحولتها لجحيم. لسنا كهؤلاء الناس، ولا يجب أن ندعي أننا مثلهم. ولا نمتلك الحق في رواية قصصهم.. أنا أهذي».

«تهذي؟».

«كلامي غير مفهوم».

«لا، أنا أفهمك، أنت تعتقد أن قصصهم التي حكوها لكم هي كالهدايا بالنسبة لكم».

«هدايا، نعم».

ارتشفوا المزيد من نبيذهم. تكلموا لبعض الوقت، وقد كانت هذه المحادثة بالنسبة لإدريس أول محادثة حقيقية يجريها منذ وصوله لكابول. فقد خلت من الخداع واللوم المبهم الذي استشعره من المحليين والمسؤولين الحكوميين والعاملين في وكالات الإغاثة. سألها عن عملها. فأخبرته أنها عملت مع الأمم المتحدة في كوسوفو، ثم رواندا بعد الإبادة

الجماعيــة. وكولومبيــا وبورونــدي. عملــت مــع الموسـات الطفـلات في كمبوديا. وقد مضى عليها عام الآن في كابول. وهي مهمتها الثالثة هنـا. تعمل الآن مع منظمة غير حكومية صغيرة، في المشفى وفي عيـادة نقالـة أيام الاثنين. تزوجت مرتين من قبل وطلقت. لا يوجد لديها أطفـال. لم يستطع إدريس تحديد عمرها، ومن المحتمل أن تكون أصغر ممـا تبـدو عليه. على وجهها، ووراء الأسنان الصفراء، ورغـم انتفاخـات الإعيـاء تحت العينين ، يظهر وميض جمال باهت وميول جنسية متوحشة وهو ما رأى إدريس أنه سيتلاشى بعد أربع أو خمس سنوات أخرى.

ثم قالت «أتريد أن تعرف ما جرى لروشي؟».

«لا يجب أن تخبريني بالأمر» قال.

«أتعتقد أنني مخمورة؟».

«هل أنت كذلك فعلاً؟».

«بعض الشيء. لكنك رجل شريف» ربتت على كتفه بحنان وعبث، ثم قالت «لقد طلبتَ أن تعرفَ قصتها لأسباب صحيحة. أمـا الأفغـان الآخـرين القـادمين مـن الغـرب فـالأمر لا يبـدو لهـم أكثـر مـن مجـرد استعراض».

«نعم.. لكنك ربما تكون رجلاً جيداً».

«إذا أخبرتني، سأعتبرها هدية منك».

وهكذا أخبرته.

عاشت روشي مع أبويها، وأختيها وأخوهـا الرضيع في قريـة علـى الطريق بين كابول وباغرام. جاء عمها لزيارتهـا الشـهر الماضـي في يـوم جمعة. لقد كان عمها وأبوها على خـلاف لأكثـر مـن عـام الآن بسـبب ملكية البيت الذي عاشت فيه روشـي مـع عائلتهـا، حيـث كـان العـم يعتقد أنها ملكية تعود له بشكل شرعي باعتبار أنه أكبر سناً من الأب،

وهي ملكية قام الجد بالتوصية بها لابنه الأصغر الأحب إلى قلبه. وقد كان كل شيء على ما يرام إلى أن جاء العم..

«قال إنه يريد إنهاء الخلاف بينهم».

ذبحتْ أم روشي ذاك اليوم دجاجتين وطبخت قدراً كبيراً من الأرز بالزبيب واشترت رماناً طازجاً من السوق. وعندما وصل العم، سلم على أخيه وعانقه وقبله. عانق أبو روشي أخاه الأكبر بشدة إلى أن ارتفعت قدماه عن السجادة. جلست العائلة إلى مائدة الطعام. وسكبوا جميعاً مرتين أو ثلاث من الطعام اللذيذ وتناولوا الرمانات. ومن ثم شربوا الشاي الأخضر وتلذذوا بحلوى التوفي الصغيرة. ثم اعتذر العم وذهب لاستعمال المرحاض الخارجي.

وعندما عاد، كان يحمل فأساً في يده، تلك التي يقطعون بها الأشجار. أول من قتله بتلك الفأس كان أبو روشي، أخبرتني الفتاة أن أبوها لم يعرف ما جرى له لأنه لم يشاهد أي شيء. ضربه ضربة وحيدة على رقبته من الخلف وقطع رأسه تقريباً. تلته الأم. شاهدت روشي محاولة أمها لمقاومته لكن عدة ضربات على وجهها وصدرها قضت عليها. راح الأولاد يركضون ويصرخون. لاحقهم العم. رأت روشي إحدى أختيها تركض نحو المدخل لكن العم جرها من شعرها وأرداها قتيلة على الأرض. نجحت الأخت الأخرى بالهروب للردهة لكن العم لحقها وكسر باب غرفة النوم وسمعت الصراخ. ومن ثم ساد الصمت. وهكذا قررت روشي الهروب مع أخيها الرضيع وخرجت بالفعل من المنزل. وصلت للباب الخارجي لكنها وجدته موصداً، وكان هذا من فعل العمّ بالطبع.

ركضتْ باتجاه الساحة والرعب واليأس يتملكها ونسيت من الفزع أن الباحة لا تحتوي على مخرج. والجدران عالية جداً للتسلق. عندما

لحقهم العمّ رأت روشي أخاها ابن الخامس أرضاً. نفسه في فرن التندوري حيث خبزت أمه هناك قبل ساعة فقط. سمعت صراخه وهو يحترق بالنار فتعثرت وسقطت أرضاً. دارت على ظهرها في الوقت المناسب لترى السماء الزرقاء فوقها مع نصل فأس لامع يصفر في الريح باتجاهها. ولا شيء بعد ذلك».

صمتت آمرا بعد ذلك. وصوت ليونارد كوهين يصدح في الداخل بأغنية (who by fire). لم يكن إدريس يعرف ماذا يقول بعد هذه القصة، حتى لو استطاع أن يتكلم. كان يمكن أن يقول شيئاً ما، أن يستعرض غضب العاجز عن تغيير أي شيء في ذاك الواقع لو كان هذا من فعل الطالبان أو القاعدة أو بعض المجاهدين المجانين. لكنه لا يستطيع الإلقاء باللائمة على حكمتيار أو الملا عمر أو بن لادن أو بوش وحربه على الإرهاب. كان السبب الدنيوي وراء المذبحة يجعلها أكثر فظاعة بدرجات كثيرة. كان الناس يقولون عنهم دائماً أنهم بلا أحاسيس. وقد شعر إدريس بهذا الآن بالفعل. فهذه جريمة ارتكبت بدم بارد، قتل بلا شعور. مع أنه لا يمكن للقتل أن يُرتكب بشعور.

فكر بالفتاة (روشي) الموجودة في المشفى والمتكورة أمام الحائط. وأصابعها المعقودة والنظرة الطفولية البريئة على وجهها. فكر بالشق المحفور على رأسها الحليق والفتحة التي تقارب حجم اليد التي يظهر منها نسيج دماغها الدامي، والذي يبدو كعمامة على رأسها كما يضعها المنتمون لديانة السيخ.

«هل أخبرتكِ هذه القصة بنفسها؟» سألها أخيراً.

أومأت آمرا برأسها بشدة. «إنها تتذكر كل شيء بوضوح.. كل تفصيلة.. يمكنها أن تخبرك بنفسها بكل التفاصيل. أتمنى أن تنسى تلك الفتاة ما جرى معها لأنها تعاني من الكوابيس كل ليلة».

«ماذا حلّ بأخيها؟».

«حروقه سيئة».

«والعمّ؟».

هزت كتفيها.

«يقولون لك أن تحذر. في عملي يحذروننا، وينصحوننا أن نتعامل مع الأمور باحتراف، لأن التعلق بهؤلاء المساكين ليس أمراً جيداً، لكن روشي وأنا أصبحنا..».

صمتت الموسيقى فجأة.. فقد انقطعت الكهرباء من جديد. عمَّ الظلام كل شيء حولهم لدقائق. سمع إدريس شكاوى الناس في الداخل. ومن ثمّ تحركت مصابيح الهالوجين.

«سأقاتل من أجلها» قالت آمرا دون أن تنظر للأعلى «لن أتوقف عن فعل ذلك أبداً».

ذهب تيمور مع الألمان في اليوم التالي إلى بلدة (استاليف) المشهورة بفخّارها. قال لإدريس:

«يجب أن تأتي معنا».

«سأبقى هنا وأقرأ».

«يمكنك أن تقرأ في سان خوسيه يا أخي».

«أنا بحاجة للراحة. لربما شربتُ أكثر من اللازم البارحة».

استلقى إدريس في السرير لبعض الوقت بعد حضور الألمان لاصطحاب تيمور بسيارتهم. ظلّ يحدق في ملصق إعلاني باهت يعود لفترة الستينات معلق على الحائط المقابل له، تظهر في الصورة جماعة من أربعة سائحين أجانب شقراً ومبتسمين وهم يتجولون حول بحيرة

أمير، وهي أثر من طفولته الخاصة قبل عهد الحروب في كابول، قبل التفكك والدمار. خرج للمشي عصراً وتناول غداءه في مطعم صغير حيث قدموا له الكباب. لم يكن من السهل عليه الاستمتاع بالوجبة وكل تلك الوجوه الصغيرة الوسخة تحدق إليه خلال الزجاج وتراقبه وهو يأكل. إنه أمر ساحق للإنسان. اعترف إدريس لنفسه أن تيمور أفضل منه في كل هذا. تيمور يتمتع بالرحلة. إنه يقف كعريف حفل وينظم الأطفال المتسولين في صف وهو يصفر سعيداً ويتبرع لهم ببعض الأوراق النقدية، وبينما يوزعها عليهم، واحداً واحداً، يضرب بكعب حذائه الأرض ويحييهم. يحب الأطفال اللعبة ويردون له التحية بنفس الطريقة. يحترمونه ويدعونه (كاكا). وأحياناً يتمسكون بسيقانه.

أوقف إدريس سيارة أجرة بعد الغداء وطلب من السائق إيصاله للمشفى.

«لكن توقف في السوق قبل الذهاب للمشفى» قال للسائق.

مشى عبر الردهة وهو يحمل علبة. شاهد على الجدران اللماعة

آثار رسومات قديمة، وقطعاً من البلاستيك بدلاً من الأبواب على واجهة كل غرفة. رأى رجلاً عجوزاً حافي القدمين يضع ضماداً على عينه، شاهد مرضى قابعين في غرف شديدة الحرارة دون أي مصابيح أو أضواء. تنشق رائحة عرق الناس الحامضة الموجودة حوله في كل مكان. توقف عند الستارة في آخر الممر قبل أن يسحبها. ترنح قلبه عندما رأى البنت جالسة على طرف السرير وآمرا منحنية أمامها لتنظف لها أسنانها الصغيرة.

جلس رجل نحيف لوحته الشمس وله لحية مشعثة وشعر أسود طليق على الجانب الآخر للسرير. نهض الرجل بسرعة عندما دخل

إدريس ومد يده باتجاهه ليمنعه من الدخول. فوجئ إدريس مرة أخرى بالسرعة التي يدرك بها المحليون أنه أفغاني مغترب، وأن النعمة الظاهرة عليه بسبب المال والقوة تمنحه امتيازات لا محدودة في هذه المدينة. قال الرجل لإدريس أنه خال روشي، أخو أمها.

«لقد عدت» قالت آمرا وهي تغطس الفرشاة في طاسة ماء.

«أرجو أن لا يزعجكم ذلك».

«لِمَ؟».

ابتلع لعابه وقال «سلام يا روشي».

نظرت الفتاة لآمرا لتستأذنها بالرد عليه. وجاءه صوتها متردداً بهمس عالي النبرة «سلام».

«أحضرتُ لكِ هدية». وضع إدريس العلبة وفتحها. تألقت عينا الصغيرة بالحياة عندما رأت التلفاز الصغير وجهاز الفيديو، وأربعة أفلام سينمائية معه. معظم الأفلام في المتجر هندية، أو أفلام عنف وحروب فيها نجوم مثل فاندام وجت لي وستيفن سيغال. لكنه استطاع أن يجد لها فيلم الأطفال الرائع (E.T) و(Toy Story) وفيلم (The Iron Giant). لقد شاهدها جميعاً مع أطفاله في بيته في الولايات المتحدة.

سألتها آمرا بالفارسية عن الفيلم الذي تريد مشاهدته، فاختارت روشي فيلم (العملاق الحديدي).

«ستحبين هذا الفيلم» قال إدريس. كان يجد صعوبة في النظر إليها مباشرة لأن أنظاره كانت تنزلق بشكل لا شعوري إلى الفوضى الموجودة فوق رأسها، إلى نسيج الدماغ اللحمي اللامع وشبكات الأوعية الدموية الشعرية المتشابكة.

لا يوجد مقبس كهربائي في الغرفة، ولهذا خرجت آمرا للبحث عن نهاية شريط كهربائي ممدود في الخارج. أخذ منها ذلك بعض الوقت،

ولكن، عندما وصل إدريس الجهازين بالكهرباء وشغلهما وعُرضت اللقطة الأولى انفرج فم الصغيرة روشي عن ابتسامة رائعة. ما أقلَّ ما يعرفه عن العالم! شعر بذلك بعدما رأى ابتسامتها. بعد خمسة وثلاثين عاماً من الحياة لم يكن يعرف أي شيء عن مقدار وحشية العالم وقسوته اللامحدودة.

تناول كرسياً وجلس بجانب الصغيرة عندما خرجت آمرا لتفقد مرضى آخرين وراح يشاهد الفيلم معها. وشعر بحضور الخال كشبح غامض صامت في الغرفة معهما. انطفأت الكهرباء في منتصف الفيلم فبدأت روشي بالبكاء، فانحنى خالها باتجاهها وأمسك يدها بخشونة وهمس بضعة كلمات بلغة الباشتون في إذنها. جفلت روشي وحاولت التملص منه. نظر إدريس إلى يدها الصغيرة، سوياً إذاي قبضة الخال القوية البيضاء.

ارتدى إدريس معطفه وقال «سأعود غداً لنشاهد فيلماً آخراً سوياً إذا أردتِ، ما رأيكِ؟».

انكمشت الفتاة تحت الأغطية وتكومت كالكرة. نظر إدريس للخال وحاول تصور ما قد يفعله تيمور به، تيمور الذي لا يملك القدرة على مقاومة العاطفة التي قد تعتريه في مثل هذا الموقف، وقد يقول له «اتركني معه عشر دقائق فقط لأبرحه ضرباً».

لحق به خالها للخارج. وصعقه على الدرج الخارجي قائلاً «أنا الضحية الحقيقية هنا يا ساهيب». ولا بد أنه فهم التعابير على وجه إدريس فصحح نفسه «بالطبع هي ضحية، لكنني، أنا أعني، أنا ضحية أيضاً. هل تفهمني، بالطبع. أنت أفغاني مثلي. لكن هؤلاء الأجانب لا يفهموننا».

«يجب أن أذهب». ردّ عليه إدريس.

«أنا عامل بسيط. أكسب دولاراً أو اثنين في النهار إذا كان العمل جيداً يا ساهيب. لدي خمسة أطفال أحدهم أعمى وها أنا عالق هنا مع هذه الطفلة أيضاً» تنهد ثم تابع «أفكر أحياناً وليغفر الله لي، أفكر أنه لربما كان يجب أن يترك الله روشي.. حسناً، أنت تفهمني. كان من الممكن أن يكون ذلك أفضل لها. لأنني أفكر.. كيف يمكن لها أن تتزوج بعدما حصل معها؟ لن تجد زوجاً يقبل بها. وهكذا.. من سيعتني بها؟ يجب أن أقوم أنا بهذا للأبد».

أدرك إدريس أنه قد حُوصر. مدّ يده لمحفظته.

«لا تكترث بكمية المال، أياً يكن المبلغ الذي تستطيع التخلي عنه، ليس لي بالطبع، لكن لروشي».

أعطاه إدريس ورقتين نقديتين فرمش الخال بعينيه غير مصدق ونظر للأعلى في عيني إدريس وقال «اثنتين» ثم استدرك نفسه وخاف أن يتراجع إدريس عن صدقته.

«اشترِ لها حذاءً جيداً» قال إدريس وهو ينزل الدرج.

«بارك الله فيك يا ساهيب، أنت رجل صالح، أنت رجل رحيم» صاح الخال وراءه.

زارها إدريس في اليوم التالي، واليوم الذي تلاه. وتحولت زيارته لطقس يومي بعد فترة قصيرة، جلس إلى جانب روشي كل يوم. تعرف على أسماء الممرضات والممرضين الذكور الذين يعملون في الطابق الأرضي والبواب والحراس المرهقين الهزيلين على بوابة المشفى. أبقى زياراته لها سرية قدر المستطاع ولم يخبر نهيل زوجته أي شيء عن الفتاة في مكالماتهما الهاتفية. لم يخبر تيمور أيضاً عن مكان ذهابه

اليومي. وتعلص أيضاً من الذهاب إلى باغ - مان لمقابلة مسؤول في وزارة الداخلية. لكن تيمور اكتشف في نهاية الأمر.

«أحسنت» قال له «ما تقوم به أمر محترم» وتوقف، قبل أن يضيف «ولكن مع ذلك.. كن حذراً».

«أنت تعني أن أتوقف عن الزيارة؟».

«سنغادر خلال أسبوع يا أخي. لا يجب أن تتركها تتعلق بك أكثر من اللازم».

أومأ إدريس برأسه. وفكر أن تيمور ربما يشعر بالغيرة منه بسبب علاقته مع روشي، ولربما فكر بأنه سرق منه فرصة لا مثيل لها للعب دور البطل. تيمور المناضل يظهر حاملاً الطفلة خارج المبنى بحركات بطيئة والحشود تهتف من حوله. قرر إدريس أن يدعه يستعرض على حساب روشي بتلك الطريقة.

ومع ذلك، كان تيمور على حق، سيسافرون بعد أسبوع وقد بدأت روشي بالفعل بمناداته كاكا إدريس. كان يجدها تجلس بفراغ صبر إذا تأخر عن وقت زيارتها، وكانت تلف ذراعيها وله وتبدو على وجهها تعابير الارتياح. أخبرته في أحد الأيام أن زياراته هي أكثر ما تتطلع له كل صباح. كانت تمسك يده أحياناً بكلتا يديها بينما يشاهدون فيلماً ما. وعندما يكون بعيداً عنها، يفكر غالباً بالشعيرات الشقراء الناعمة على ذراعيها وعينيها البندقيتين وقدماها الصغيرتين وخدّاها المدوّرين والطريقة التي تضع بها يديها تحت ذقنها وهو يقرأ لها في أحد كتب الأطفال التي يشتريها لها من مكتبة قرب المدرسة الفرنسية. سمح لنفسه أن يفكر عدة مرات باحتمالات أخذها معه للولايات المتحدة وكيف ستتأقلم مع أبنائه، زابي وليمار في البيت. لقد كان يفكر مع زوجته نهيل في إنجاب طفل ثالث خلال العام الفائت.

«ماذا سنفعل الآن؟» قالت آمرا قبل يوم من مغادرتهم.

كانت روشي قد أعطته في وقت سابق من ذلك النهار: ورقة من ورقات تخطيط المشفى وقد رسمت عليها بقلم رصاص شخصين يجلسان وهما يشاهدان التلفاز. أشار لها للشخص ذي الشعر الطويل في الرسم وقال: هذا أنتِ، أليس كذلك؟ فأجابته مشيرة للشخص الآخر وقالت: هذا أنتَ. كاكا إدريس.

«كان شعركِ طويلاً من قبل، أليس كذلك؟».

«كانت أختي تسرحه لي وتنظفه كل ليلة ليبقى جيداً».

«لا بد أنها كانت أختاً محبة وصالحة، ستستطيعين تسريحه عندما ينمو من جديد».

«أعتقد أني سأحب ذلك، لا تذهب يا كاكا. لا تتركني».

«إنها فتاة لطيفة» قال لآمرا «وهي حسنة السلوك ومتواضعة». فكر بطفليه زابي وليمار الذين تركهم في سان خوسيه ببعض الذنب، والذين اشتكيا طويلاً من أسمائهما الأفغانية وراحا يتحولان لطفلين مستبدين متجبرين، إلى نسخة من الأطفال الأمريكيين الذين أقسم هو ونهيل أنهما لن يُربيا أطفالاً مثلهم أبداً.

«إنها بطلة.. نجتْ وبقتْ على قيد الحياة» قال آمرا:

«نعم».

استندت آمرا للحائط وراقبت زوجاً من الممرضين يدفعان نقالة بسرعة أمامهم، عليها طفل صغير مضمد الرأس بخرقة مضمخةٍ بالدماء ولديه جرح مفتوح في فخذه.

«يأتي أفغان آخرين، من أميركا وأوروبا ويلتقطون لها الصور وتسجيلات الفيديو، يطلقون الوعود ومن ثم يعودون لبلدانهم ويدعون عائلاتهم تشاهدها وكأنها حيوان في حديقة الحيوان. أسمح لهم بهذا

لأنني آمل أن يساعدها أحد منهم. لكنهم ينسونها دوماً.. ولا أسمع خبراً من أحد منهم بعد ذلك. ولهذا.. أسألك مرة ثانية.. ماذا سنفعل الآن؟».

«أريد أن تجرى لها العملية التي تحتاجها». قال إدريس، فنظرت له آمرا بتردد، فتابع:

«لدينا جراح أعصاب مختص في عيادتنا. سأكلم رئيسي، سنقوم بالترتيبات لنحملها لكاليفورنيا ونجري الجراحة».

«نعم، ولكن، ماذا عن المال».

«لا تقلقي، سنحصل على تمويل من مكان ما. وإذا ساءت الأمور كثيراً، سأدفع أنا لأجلها».

«من مالك الخاص».

ضحك وأجابها: «نعم، من مالي».

«يجب أن نحصل على موافقة خالها».

«هذا إذا ظهر للعيان مرة أخرى»، لقد اختفى منذ أن أعطاه إدريس المائتي دولار.

ابتسمت له آمرا. لم يفعل شيئاً كهذا من قبل. شعر بتسلل شيء مُبهجٍ، مُنظفٍ ومزيلٍ للسموم ومتهور إلى أفكاره. شعر بطاقة عجيبة تذهب بأنفاسه تقريباً بعد اتخاذه قرار رمي نفسه في التزام مهول كهذا وانهمرت الدموع من عينيه وسط دهشته الخاصة.

«Hvala» قالت آمرا: «شكراً لك»، وقفت على رؤوس أصابعها وقبلت خديه.

«أمضيتُ الليلة مع إحدى الفتيات الهولنديات اللواتي تعرفنا عليهن في الحفلة» قال تيمور.

رفع إدريس وجهه عن النافذة، كان يراقب قمم الجبال الداكنة الناعمة البعيدة، التفت لينظر إلى تيمور الجالس بجانب الممر.

«السمراء، تناولتُ جرعة فيتامينات وبقيت معها طوال الليل.. إلى أن نادوا لصلاة الفجر».

«يا إلهي. هل ستكبر يوماً ما؟». قال إدريس مرهقاً من العبء الذي حمله إياه تيمور ثانية بإخباره عن سوء تصرفه وخيانته لزوجتيه وألاعيبه الصبيانية المملة. ابتسم تيمور وقال:

«تذكر يا أخي.. ما يحدث في كابول..».

«أرجوك لا تكمل هذه الجملة».

ضحك تيمور.

في مكان ما في مؤخرة الطائرة، كان بعضهم يحتفل، راحوا يغنون بالباشتية ونقروا على أحد الصحون بدلاً عن التامبورا.

«لا أصدق أننا وقعنا على حفلة أخرى..» قال تيمور.

«يا إلهي».

وضع إدريس الحبة المنومة التي كان يحتفظ بها في جيبة قميصه في فمه وابتلعها دون ماء.

«أنا عائد إلى هنا الشهر القادم» قال تيمور وهو يقاطع ذراعيه على صدره ويغلق عينيه «ولربما احتجت سفرتين أخريين إلى هنا. لكن وضعنا جيد هكذا».

«هل تثق بهذا الرجل؟ فاروق؟».

«بالطبع لا، ولهذا سأعود».

فاروق هو المحامي الذي عينه تيمور، وهو محام مختص بمساعدة الأفغان الذين تركوا البلاد لاسترداد ملكياتهم المسلوبة في كابول. تابع تيمور الحديث عن الأوراق التي يجب أن ينجزها المحامي، وحكى له عن القاضي الذي سيرأس الجلسات وكيف أنه ابن عم زوجة المحامي. أسند إدريس جبينه مرة أخرى على النافذة وانتظر أن تأخذ الحبة المنومة مفعولها.

«إدريس؟» ناداه تيمور بصوت هادئ.

«نعم».

«كل ما رأيناه هناك محزن جداً، أليس كذلك؟».

«أنت تتمتع ببصيرة مذهلة يا أخي» قال إدريس: «نعم، نعم».

«ألف مأساة في كل ميل مربع يا رجل».

بدأ رأس إدريس بالدوار بسبب القرص، وتلبد نظره، فكر بوداع روشي بينما راح ينجرف للنوم، عندما أمسك يديها وتحسس أصابعها وقال لها بأنهم سيلتقيان مرة ثانية. وتذكر نشيجها بهدوء، تقريباً بصمت حزين ورأسها ملتصق بصدره.

تذكر إدريس بولع شديد جنون شوارع كابول وفوضاها أثناء طريق عودتهم من المطار للبيت. تبدو قيادة سيارة اللكزس غريبة عليه الآن في هذه الشوارع المنتظمة، الخالية من الحفر على الطريق 101 السريع المتجه جنوباً واللافتات التي تساعد الجميع على طول الطريق، مع كل أولئك الناس المهذبين واللطفاء والمتفاهمين بإشارات من رؤوسهم أثناء قيادتهم لسياراتهم. ابتسم وهو يتذكر سائقي سيارات الأجرة

المراهقين المخاطرين بحياتهم في كابول والذين ائتمنهم تيمور وإدريس بالتالي على حياتهما.

سألته نهيل الجالسة بجانبه ألف سؤال. هل كانت كابول آمنة، كيف كان الطعام؟ هل أصيب بمرض ما هناك؟ هل التقط صوراً وتسجيلات فيديو لكل شيء؟ وقد فعل ما بوسعه ليجيبها. وصف لها المدارس المتفجرة والناس الذين يعيشون في بيوت بلا سقف والشحاذين والطين والكهرباء المتقطعة، لكنه كان يصفها وكأنه يتحدث عن موسيقى جميلة دون أن يستطيع عزفها. كابول مدينة حية، تفاصيلها تدعو الإنسان للتوقف والنظر بإمعان لما يرى.. وجود نادي رياضي وسط ركام مبني ما على سبيل المثال، صورة شوارتز يطعم، ملصقة على النوافذ في كل الشوارع.. ومع ذلك، فقد هربت منه التفاصيل، وكانت أوصافه تبدو له دون أي طعم، عادية مثل القصص التي يقرأها الناس في الجريدة.

استمع الأطفال الجالسون في المقعد الخلفي لحكاياته ومازحوه. لكنه شعر بسأمهم بعد فترة. ثم سأل زابي ابن الثامنة أمه نهيل أن تشغل له فيلماً، حاول ليمار، الذي يكبره بعامين أن ينصت لوالده لفترة أطول، ومع ذلك، سرعان ما سمع إدريس من وراءه صوت لعبة سباق السيارات من جهاز النينتندو من خلفه.

«ماذا جرى لكم يا أولاد؟»، وبختهم نهيل «لقد عاد والدكم للتو من كابول، ألا تشعرون بالفضول لمعرفة أخبار بلدكم؟ ألا تريدون سؤاله أي شيء؟».

«لا بأس يا نهيل» قال إدريس: «دعيهم» لكنه انزعج من قلة اهتمامهم وجهلهم الأخرق بحظهم الكبير في وصولهم لهذه الحياة الحافلة بالامتيازات بسبب هجرة أجدادهم. شعر بهوّة مفاجئة تفصله

عن عائلته، حتى عن زوجته، والتي تركزت معظم أسئلتها حول المطاعم وانعدام المراحيض داخل المنازل في كابول. راح ينظر لهم نظرة اتهام ولوم كما كان الأفغان ينظرون إليه عندما بدأ زيارته لكابول.

«أنا جائع وكأنني كنت في مجاعة» قال إدريس.

«ماذا تشتهي» قالت نهيل: ««السوشي؟ أم الطعام الإيطالي؟ هناك واحد جديد قرب أوكريدج »»

«هيا لنشتري بعض الطعام الأفغاني» قال إدريس.

ذهبوا لمطعم كباب آبي في شرق سان خوسيه قرب سوق باريسا القديم. يملكه رجل أفغاني اسمه عبد الله في أوائل الستينيات من عمره، أشيب الشعر وله شارب كثّ ويدين قويتين وهو وزوجته يزوران إدريس للاستشارات الطبية. لوّح لهم عبدالله من وراء النضد عندما دخلوا المطعم الصغير العائلي، الذي لا يتجاوز عدد طاولاته الثمانية تغطيها مشمعات من الفينيل ولوائح الطعام وتزين جدرانه ملصقات أفغانية، وفي زاويته آلة صودا قديمة وآلة موسيقية. سلّم عبدالله على الضيوف، كان يدير النضد والسجل وينظف المكان. أما زوجته سلطانة، فهي المسؤولة عن الأطايب السحرية التي تخرج من المطبخ. يمكن لإدريس رؤيتها الآن منحنية أمام شيء في المطبخ وشعرها محشي داخل قبعة خاصة وعيونها متضيقة بفعل البخار. لقد تزوجت من عبدالله في أواخر السبعينيات في باكستان. كانا قد أخبرا إدريس بقصتهم التي وقعت بعد احتلال السوفييت لبلادهم. وكيف منحتهم الولايات المتحدة اللجوء عام 1982. وفي تلك السنة، رزقا بابنتهم باري.

وهي الفتاة التي تأخذ طلباتهم الآن. باري ودودة ومهذبة، لها بشرة صافية ولمعان عاطفي في عينيها مثل أمها تماماً، لكنها تتمتع بجسد غير متناسق بغرابة شديدة. كان جسدها نحيفاً من الأعلى وسميناً تحت

خصرها، كان لها وركين عريضين وأفخاذ سميكة وكواحل كبيرة. وها هي اليوم ترتدي إحدى تنانيرها الواسعة المألوفة.

طلب إدريس ونهيل لحم الحمل مع الأرز الأسمر والبولاني. واستقر الأولاد على طلب كباب تشابلي وهو أقرب شيء يمكن الحصول عليه للحم الهامبرغر على القائمة. أخبر زابي أباه بينما جلسوا في انتظار الطعام أن فريقه لكرة القدم قد وصل للنهائيات في البطولة. كان يشغل يمين الفريق. والمباراة ستجري يوم الأحد. وقال ليمار أن لديه حفلاً للعزف على غيتاره يوم السبت.

«ماذا ستعزف؟» سأله أبوه ببطء. وهو يشعر بإرهاق السفر في داخله.

«Paint It Black».

«إنها قطعة موسيقية جيدة».

«لا أعتقد أنك تدربت عليها بما فيه الكفاية» قالت نهيل بلهجة توبيخ حذرة. فرمى ليمار المنديل الورقي الذي كان يطويه وقال:

«حقاً يا أمي؟ هل تعرفين ما أعانيه كل يوم؟ لدي الكثير من الأمور لأنجزها».

وبينما جلسوا يتناولون طعامهم، حضر عبدالله لتحيتهم وهو يمسح يديه بالمئزر المربوط حول خصره. وسألهم إن كان الأكل يعجبهم وإن كانوا يريدون أي شيء آخر.

أخبره إدريس أنه عاد وتيمور للتو من كابول.

«ماذا يخطط السيد تيمور؟».

«لشيء لا فائدة منه كالعادة».

هز عبدالله رأسه. كان الجميع يعرف كم كان عبد الله مولعاً بتيمور.

«وكيف هي حركة العمل عندك، في الكباب؟».

تنهد عبدالله وقال: «إذا أردت في أي يوم أن ألعن أحدهم فسأقول

له.. أرجو أن يمنحك الله مطعماً، يا دكتور بشيري».

ضحكوا جميعاً مع عبد الله. وبينما كانوا يركبون سيارتهم بعد الانتهاء من الطعام، قال ليمار:

«أبي؟ هل يقدم الطعام مجاناً لكل الناس؟».

«بالطبع لا».

«إذاً لماذا يرفض دوماً أخذ مالك؟».

«لأننا أفغان. ولأنني طبيبه» وهو كلام صادق جزئياً. إنه يشكّ بأن السبب الأكبر يعود لأن تيمور يكون ابن عمه، الذي أقرض المال لعبد الله قبل سنين لافتتاح المطعم.

فوجئ إدريس لدى وصولهم للبيت بالسجاد الممزّق عن الأرضيات في غرفة الجلوس والردهة وبوجود مسامير وألواح خشبية على الدرج، ثم تذكر أنهم كانوا يعيدون إكساء الأرضية قبل أن يغادر. تذكر أنهم قرروا استبدال السجاد بألواح خشب الكرز التي دعا المتعهد لونها بـ (الغلاية النحاسية). وفي المطبخ، وجد أبواب الخزائن جميعها على الأرض، وفجوة كبيرة في مكان المايكروويف. أخبرته زوجته أنها تعمل نصف نهار يوم الاثنين لتستطيع الاجتماع مع المسؤولين عن الأرضيات الجديدة وجايسون.

«من هو جايسون؟» ثم تذكر، جايسون سبير، متعهد المسرح المنزلي.

«إنه يأتي لأخذ القياسات. لقد حصل لنا على طلباتنا مع التخفيض. وسيرسل ثلاث رجال للبدء بالعمل يوم الأربعاء».

أومأ إدريس، كان المسرح المنزلي فكرته، كان شيئاً أراده دوماً، لكن الفكرة تحرجه اليوم. بدأ يشعر بأنه انفصل عن كل هذه الحياة، عن جايسون سبير والخزائن الجديدة والأرضيات الخشبية بلون الغلاية النحاسية وبلوزات أطفاله التي كلفته 160 دولاراً وأغطية سريره الشانيل وكل الاندفاع الذي كان يشعر به مع زوجته لفعل كل تلك

الأمور. ضربته ثمار طموحه كالرصاصات الطائشة، وذكرته بعدم التكافؤ القاسي بين حياته وما وجده في كابول.

«ما بك يا حبيبي؟».

«أنا مرهق من السفر. أحتاج للنوم».

حضر يوم السبت حفلة غيتار ليمار، ومعظم مباراة كرة قدم زابي. خرج في الشوط الثاني واسترق غفوة في سيارته ولم يلاحظ ابنه غيابه لحسن الحظ. حضر الجيران للعشاء يوم الأحد وتفرجوا على الصور التي التقطها إدريس في رحلته وشاهدوا الفيديو عن كابول وهم يجلسون بأدب شديد، بعد أن أصرّت نهيل رغم رفض إدريس أن يشاهدوه.

سألوه عن الرحلة أثناء العشاء وعن آراءه بالوضع الحالي في أفغانستان. كانت أجوبته مقتضبة وقصيرة.

«لا، ستطيع تخيّل ما يجري هناك» قالت جارتهم سينثيا مدربة الباليه في النادي الذي تتدرب فيه نهيل.

«كابول..» بحث إدريس عن الكلمات المناسبة «في كابول.. تجدون ألف مأساة في الميل المربع الواحد».

«لا بد أنك عانيت من صدمة ثقافية لدى وصولك إلى هناك».

«نعم، هذا صحيح». لم يقل إدريس أن الصدمة الثقافية الحقيقية كانت تنتظره في الولايات المتحدة عندما عاد.

ومن ثمّ، تحوّل الحديث إلى التكلم عن سرقات البريد التي تحصل في الحيّ.

وفي تلك الليلة، قال إدريس لزوجته وهو مستلق في السرير «هل تعتقدين أننا يجب أن نحصل لأنفسنا على كل هذا؟».

«كل هذا؟» استطاع أن يرى انعكاس صورتها في المرآة وهي تنظف أسنانها.

«أعني كل هذه الأمور».

«لا، نحن لا نحتاجها، إذا كان ذلك ما تعنيه». قالت وبصقت في المغسلة وتغرغرت.

«ألا تعتقدين بأنه أكثر من اللازم، كل هذا؟».

«لقد عملنا بجدّ يا إدريس، هل تذكر جهدنا في الدراسة وسنوات الإقامة والاختصاص ومدرسة المحاماة؟ لم يمنحنا أحد شيئاً. ليس لدينا ما نعتذر لأحد من أجله».

«نستطيع أن نبني مدرسة في أفغانستان بالمال الذي سندفعه لقاء المسرح المنزلي وحده».

دخلتْ الغرفة وجلست على السرير بأجمل وجه وجد على الأرض يوماً.. فكر إدريس بعشقه لانحدار جبهتها باتجاه أنفها وعظام خديها القوية ورقبتها النحيلة.

«لماذا لا تقوم بالأمرين؟» قالت وهي تضع قطرة عينية في عينها. «أنا لا أفهم لماذا لا تقوم بالأمرين معاً».

اكتشف إدريس منذ عدة سنوات أن نهيل كانت تكفل طفلاً كولومبياً اسمه ميغيل، دون أن تذكر له الأمر أبداً. وبما أنها كانت المسؤولة عن الآن، الحسابات والأرصدة، لم يعرف هو بالأمر الذي استمر سنوات إلى أن رآها في أحد الأيام تقرأ رسالة من ميغيل. كانت قد ترجمت الرسالة من الإسبانية لدى راهبة. وقد وجد مع الرسالة صورة له أيضاً. بدا في الطفل فيها طويلاً نحيلاً واقفاً أمام كوخ مصنوع من القش. وتحت قدمه كرة قدم وفي خلفية الصورة تبدو أبقار نحيلة وتلال خضراء. لقد تكفلت به وهي ما تزال في مدرسة الحقوق. مضى على ذلك أحد عشر عاماً وقد استطاعت أن تمر على رسائله غير الترجمة وصوره دوماً دون أن يشعر بها أحد.

خلعت خواتمها وقالت:

«ماذا جرى لك؟ هل انتقلت لك عدوى الشعور بالذنب بعد الرحلة؟».

«أنا أرى الأمور بمنظار مختلف الآن، هذا كل ما في الأمر».

«جيد، استعمل نظرتك الجديدة في أمور مفيدة إذاً. لكن توقف عن الشرود والحزن».

سرق إرهاق السفر النوم من عينيه تلك الليلة. قرأ لبعض الوقت ومن ثم شاهد التلفاز قليلاً في الطابق السفلي، ومن ثم انتهى به الأمر جالساً إلى كمبيوتر وضعته نهيل في غرفة الضيوف التي تستعملها كمكتب. وجد في صندوق بريده الالكتروني رسالة من آمرا، تتمنى له فيها السلامة وأن يجد عائلته بخير. كتبت له عن الأمطار الشديدة المنهمرة في كابول والشوارع الغارقة بالوحل حتى الركب. وأن الأمطار قد سببت السيول ولهذا اضطرت السلطات لإجلاء حوالي مائتي عائلة عن طريق الطيران المروحي في شومالي شمال كابول. وحكت له عن إجراءات الأمن المشددة بعد مغادرته بسبب حرب بوش على العراق والأعمال الإنتقامية المتوقعة من القاعدة. وفي السطر الأخير، وجد سؤالاً: هل كلمت رئيسك؟

في أسفل رسالة آمرا، كتبت له روشي مقطعاً صغيراً، على الشكل التالي:

سلامي إليك يا كاكا إدريس، أرجو أن تكون قد وصلت بالسلامة إنشاء الله إلى أميركا. أنا متأكدة أن عائلتك مسرورة لرؤيتك. أفكر بك كل يوم، وأشاهد الأفلام التي أحضرتها لي كل يوم. أنا أحبها كلها. وأنا حزينة لأنك لا تشاهدها معي. أنا بخير والسيدة آمرا تعتني بي جيداً. سلّم لي على عائلتك، إنشاء الله سنلتقي قريباً في كاليفورنيا. أرسل لك احتراماتي. روشانا.

كتب رداً على رسالة آمرا وشكرها معبراً عن أسفه لسماع خبر الفيضان وتمنى أن تهدأ الأمطار. أخبرها أنه سيطلع رئيس قسمه على موضوع روشي هذا الأسبوع. وكتب في أسفل الرسالة:

سلاماتي لك يا روشي. شكراً لرسالتك اللطيفة. سررت كثيراً لسماع أخبارك. أنا أفكر بك كثيراً أيضاً. أخبرت أفراد عائلتي عنك وهم متشوقون كثيراً للقائك، وعلى الأخص ابناي زابي وليمار، اللذان يسألان كثيراً من الأسئلة عنك. نحن جميعاً بانتظارك. لك محبتي. كاكا إدريس.

سجّل خروجه عن الانترنت وخلد للنوم.

لدى دخوله لمكتبه صباح يوم الاثنين، وجد طناً من رسائل التحية الهاتفية، والكثير من طلبات الوصفات الطبية الجديدة مكومة في سلة. كما وجد أكثر من مئة وستين بريداً إلكترونياً في صندوقه الالكتروني ورسائل لا تحصى في بريده الصوتي. اطلع على برنامج نهاره على حاسوبه وفزع من عدد حجوزات المرضى، لأن بقية الأطباء كانوا يتخلصون من الضغط لديهم بتكديس المرضى في جدوله هو طوال الأسبوع الماضي. كما وجد الأسوأ على الإطلاق، كان لديه موعد مع السيدة راسموسين عصراً، وهي سيدة منفرة وهجومية تعاني منذ سنوات من أعراض غامضة لا يجد لها أحد علاجاً ناجعاً. كدّه العرق لمجرد التفكير بلقائها ومواجهة شكاويها العدوانية. ومن ثم وجد أن إحدى الرسائل من رئيس قسمه جون شيفر، يخبره بها أن أحد مرضاه الذين شخص مرضه بذات الرئة قبل سفره إلى كابول مباشرة، قد تبين أن لديه قصوراً قلبياً. وأن هذه القضية ستناقش الأسبوع المقبل من خلال

عرضها على الفيديو أمام كل الهيئات لمناقشة التشخيصات الخاطئة من قبل الأطباء لتلافيها في المستقبل. عادةً.. لا تكون الأمور المشابهة سرية تماماً، إدريس يعرف أن نصف الموجودين في الغرفة سيكونون على دراية باسم المذنب، الطبيب الذي أخطأ التشخيص.

تفجر الصداع في رأسه.

تهاوى بحزن أمام جدول عمله ذاك الصباح. حضر للعيادة مريض ربو دون موعد وكان بحاجة لمعالجة تنفسية ومراقبة دقيقة لتدفق الهواء إلى رئتيه وإشباع دمه بالأوكسجين. كما قابل أيضاً مديراً عاماً في منتصف العمر كان قد عاينه قبل ثلاث سنين يعاني من بداية ذبحة صدرية. لم يستطع تناول غدائه قبل اقتراب ساعة الغذاء على نهايتها. وفي غرفة التجمع، حيث يأكل الأطباء، جلس يتناول شطيرة دجاج رومي باردة وهو يراجع الملاحظات المسجلة على برنامجه. أجاب على أسئلة زملاءه المكررة... هل كان يشعر بالأمان في كابول؟ ما هو رأي الأفغان بالوجود الأميركي في بلادهم؟ أعطاهم أجوبة مختصرة وذهنه مشغول بالسيدة راسموسن وبريده الصوتي الذي يجب أن يجيب عليه والوصفات التي لم يتسنى له الوقت للأها وثلاث مواعيد محشورة حشراً في جدول هذا النهار، ومناقشة خطأه الطبي والمقاولين الذين يطرقون المسامير في بيته بلا توقف. بدا له التحدث عن أفغانستان فجأة كمناقشة فيلم شاهده مؤخراً، فيلم مفعم بالعاطفة يتلاشى تأثيره مع الوقت، وقد أدهشته السرعة واللاعقلانية التي حصل فيها كل ذاك التحول في مشاعره.

كان هذا أصعب أسبوع يمر عليه في حياته المهنية. لم يجد الوقت ـ عمداً ـ للحديث مع رئيسه عن موضوع روشي. وأمضى أسبوعه بمزاج عكر، دون صبر مع الأولاد ومتكدراً من ضجيج العمال المتواصل

وحضورهم ومغادرتهم المتكررة. لم يسترجع نمط نومه الطبيعي، واستلم بريدين الكترونيين جديدين من آمرا، حدثته فيهما على المستجدات في كابول. حيث أعيد افتتاح مشفى النساء في كابول تحت اسم (ربيع بلخي) وسمحت وزارة كرزاي لشبكات التلفاز السلكية بإذاعة البرامج، متحدية بقرارها هذا المتشددين الإسلاميين الذين عارضوا هذه الخطوة. وقالت في نهاية الرسالة من ملاحظة: روشي أصبحت أكثر انعزالاً بعد رحيله، وسألته من جديد عن إطلاعه رئيسه عن الأمر. ابتعد عن لوحة المفاتيح. ومن ثم عاد لها خجلاً من ملاحظة آمرا والغضب الذي انتابه منها ومن الرغبة الرعناء التي انتابته في لحظة لأن يجيبها بحروف كبيرة (سوف أطلعه في الوقت المناسب).

«أتمنى لك التوفيق».

تفضل، رئيسته جون شيفر وراء مكتبها ويداها مرتاحتان على حضنها. إنها امرأة مفعمة بالطاقة الإيجابية، لها وجه ممتلئ وشعر خشن أشيب. نظرت إليه من فوق نظارات القراءة الضيقة الجاثمة على أنفها وقالت:

«لا بد من أنك تفهم أن الهدف ليس تفنيدك أنت».

«نعم بالطبع أفهم هذا».

«ولا تشعر بالاستياء. يمكن لهذا أن يحدث لأيٍّ منا، ذات الرئة وذبحة صدرية يختلطان على الإنسان عادة في صورة الأشعة السينية، من الصعب الجزم أحياناً».

«شكراً لك جون» وقف واستعد للمغادرة ومن ثم توقف عند الباب وقال: «هناك شيء أود مناقشته معك».

«بالطبع. تفضل، اجلس».

جلس من جديد، وأخبرها كل شيء عن روشي، وصف الجرح وقلة الإمكانيات في المشفى هناك. وحكى لها عن الالتزام الذي قطعه على نفسه لها ولآمرا. وقال أنه يشعر بثقل وطأة الوعد، وندمٍ شبيه بالذي يشعر به من يشتري شيئاً ويندم على شراءه.

«يا إلهي، إدريس..»، هزت جون رأسها وتابعت: «أنا أحترمك لما فعلته، ولكنني لا أستطيع تخيل ما جرى لتلك الصغيرة المسكينة».

«أعرف». ومن ثم سألها إن كانت المجموعة قادرة على تحمل نفقات المداخلات الجراحية لتلك الصغيرة.

«أو لنقل العديد من العمليات، أشعر أنها ستحتاج للكثير منها».

تنهدت جون، وقالت: «أتمنى، لكنني بصراحة، أشك يا إدريس أن المجلس سيوافق عليها، أشك بذلك كثيراً. أنت تعرف بالتأكيد أننا كنا نقف على الخط الأحمر طوال السنوات الخمس الماضية، كما سيكون هناك بعض المسائل القانونية المعقدة».

انتظرت منه أن يقول أنه مستعد ربما لهذا التحدي، لكنه لم يتفوه بكلمة.

«أنا أفهم» قال بعد فترة.

«يجب أن تجد مؤسسة إنسانية تقبل القيام بهذا النوع من الأمور، أليس كذلك؟ وسيتطلب منك ذلك بعض العمل والجهد..».

«سأنظر في الأمر. شكراً لوقتك جون».

نهض ثانية، لكنه فوجئ بأنه يشعر بالخفة، وكأنه رمى عن كاهله ثقلاً أضناه، كما أن جوابها قدم له الراحة التي ينشدها على طبق من فضة.

اكتمل المسرح المنزلي بعد شهر، وكان أعجوبة حقيقية. كان يعرض الصور بدقة رهيبة وانسيابية منقطعة النظير من عارض مثبت في السقف على شاشة من القياس 102 إنش. ويطلق الأصوات من مضخمات صوت ذات العيار 1.7، لقد جعلتهم معادلات الصوت والمضخمات التي وضعوها في زوايا الغرفة الأربعة من المؤمنين بعجائب علم الصوتيات. شاهدوا أولاً فيلم قراصنة الكاريبي، جلس ابناه على جانبيه وراحوا يأكلون من دلو مليء بالذرة الصفراء وضعه في حضنه. وقد غرقوا في النوم قبل مشهد المعركة الأخيرة المنتظر.

«سأحملهم للسرير» قال إدريس لزوجته.

حمل واحداً ومن ثم عاد لأخذ الآخر. إن الأولاد يكبرون بسرعة، تطول أجسامهم بسرعة مخيفة. حل عليه الأسى بينما كان يضعهم في السرير واحداً تلو الآخر، الأسى مما يخبئه لهم المستقبل. بعد عام أو اثنين سيستبدله أبناؤه بأشياء أخرى، سيفتنان بأشياء أخرى، بناس آخرين، سيصيبهما الإحراج من أبويهم. فكر إدريس طويلاً بطفولتهما البعيدة، عندما كانا صغارا جداً وعاجزين جداً، معتمدين عليه كلياً. تذكر فزع زابي من فتحات المجاري، وكيف كان يلتف من حولها عندما كان صغيراً جداً بمشيته الخرقاء. تذكر اليوم الذي سأله فيه ليمار إن كان على قيد الحياة عندما كان العالم ما يزال أبيضاً وأسود. ابتسم لتلك الذكريات، وقبل خدود ولديه.

جلس في العتمة وحيداً وراقب نوم ليمار. لقد حكم على أولاده بتعجل، وعلى نفسه بقسوة، بشكل غير منصف لهم جميعاً، إنه يرى ذلك الآن. فهو ليس مجرماً. لقد تعب ودفع لقاء كل ما يمتلكه. لقد

دفن نفسه في الدراسة في التسعينيات وجاب أروقة المشافي في الثانية فجراً متخلياً عن الراحة والمتعة والنوم، بينما كان نصف الشبان الذين يعرفهم يطاردون النساء. لقد منح عشرينيات عمره للطب. دفع كل مستحقاته. لماذا يشعر بالسوء إذاً؟ هذه هي حياته.

بات موضوع روشي أمراً مجرداً بالنسبة إليه في الشهر الماضي، كشخصية في مسرحية. تلاشت الرابطة الخفية التي وجدت بينهما، تآكلت الألفة الجياشة بالعاطفة غير المتوقعة التي تعثر بها في ذاك المشفى، تحولت لمجرد ذكرى كئيبة. فقدت تجربته قوتها. وشعر بأن التصميم العنيف الذي استولى عليه وقتها كان مجرد وهم، سراب. لقد وقع تحت تأثير شيء كالمخدرات. بدت له المسافة بينهما الآن طويلة جداً، لا نهائية، منيعة، ويبدو له وعده أمراً متهوراً وخاطئاً، لا أكثر من إساءة قراءة فظيعة من جانبه لما يستطيع تحقيقه بالفعل، لقوته وشخصيته. بقي شيء واحد ومهم جداً.. وهو غير قادر على تحقيقه بكل بساطة. لقد تلقى في الأسبوع الماضي وحده ثلاث رسائل من آمرا. قرأ الأولى ولم يجبها. وحذف الأخريين دون أن يقرأهما.

وقف حوالي اثنا عشر أو ثلاثة عشر شخص في صفّ في المكتبة، امتد الصفّ من نضد المكتبة إلى واجهتها. ووقفت امرأة طويلة عريضة الوجه توزع عليهم وريقات صفراء ليكتبوا عليها أسمائهم وأي رسالة شخصية يريدون كتابتها على أولى صفحات الكتاب. ساعدتهم بائعة في مقدمة الصف على فتح الكتب والتقليب لصفحة العنوان.

وصل إدريس تقريباً لأول الصف، ونسخته في يده. التفتت له المرأة الخمسينية ذات الشعر الأشقر القصير التي تقف أمامه وسألته:

«هل قرأته؟».

«لا».

«سنقرؤه في نادي الكتاب لدينا الشهر القادم. إنه دوري لأختار كتاباً».

«آه».

عبست ورفعت يدها لصدرها وقالت:

«أتمنى أن يقرأه الناس، إنها قصة مؤثرة وملهمة للغاية. أراهن أنهم سيحولونها لفيلم».

لم يقرأ إدريس الكتاب كما أخبرها ويشك أنه سيفعل ذلك يوماً ما. إنه لا يملك الجرأة لخوض صفحاته. لكن الآخرين سيفعلون. وعندها سيصبح مكشوفاً لهم. سيعرف الناس. ستعرف نهيل وأولاده وزملاؤه. كان مجرد التفكير في الأمر يصيبه بالغثيان.

فتحه مجدداً، قلب صفحات السيرة الذاتية للمؤلفة والمراجع. والسيرة الذاتية للكاتب المشارك، الذي كتب الكتاب بالفعل. نظر ثانية إلى الصورة على غلاف الكتاب. لا يوجد أي جرح. وإذا ما كان لديها ندبة، وهي ندبة كبيرة، ففي الصورة يغطيها شعر أسود طويل متموج. ترتدي روشي بلوزة مطرزة بالخرز الذهبي الصغير وعقداً يحمل كلمة (الله) في رقبتها وتضع على أذنيها قرطين فيروزيين، وتستند في الصورة إلى جذع شجرة وتنظر مباشرة باتجاه الكاميرا وتبتسم. فكر بالشخصين الذين رسمتهما يوماً له، وكلماتها... *لا ترحل، لا تتركني كاكا إدريس.* لا يرى أي أثر في صورة هذه الشابة لتلك النفاية التي عرفها يوماً، تلك المخلوقة الصغيرة المرتجفة وراء ستارة، قبل ست سنوات من الآن.

قرأ إدريس صفحة الإهداء.

إلى الملاكين في حياتي

أمي آمرا

وكاكا تيمور، منقذي. أنا مدينة لك بكل شيء.

تحرك الصفّ. وقّعت المرأة الشقراء أمامه كتابها وتنحت جانباً فاضطرب قلب إدريس وتقدم. أمامه على بعد خطوات، جلست روشي تنظر للأعلى وترتدي شالاً أفغانياً فوق بلوزة برتقالية ذات أكمام طويلة بلون القرع، وأقراط فضية بيضاوية الشكل. عيونها داكنة أكثر مما يتذكر وجسمها ناضج. نظرت له دون أن ترمش بعينيها ولم يصدر عنها أي إشارة علنية بالتعرف عليه، ومع ذلك.. فقد أخبره التعبير الماكر واللعوب غير المتردد على وجهها أنها عرفته رغم الابتسامة المؤدبة التي رسمتها. انقلب كيانه، وتبخرت كل الكلمات التي حضرها شفوياً وكتابةً في الطريق إلى هنا من دماغه. لم يستطع النطق بأي كلمة. وقف هناك فقط ونظرة مبهمة حمقاء ترتسم على وجهه.

تنحنحت موظفة المبيعات وبادرته:

«سيدي، أعطني الكتاب لو سمحت لأقلب لك على صفحة الإهداء لتوقعه لك روشي».

وجد إدريس نفسه ممسكاً بالكتاب بإحكام بين يديه، لم يأت هنا لتوقيعه بالطبع. سيكون هذا فظيعاً بشدة بعد كل ما جرى بينهما في الماضي. ومع ذلك، رأى نفسه يسلم الكتاب للموظفة وراحت هي تقلبه باحترافية شديدة إلى الصفحة الصحيحة، وخربشت روشي بعض الكلمات تحت العنوان. لديه الآن ثوان معدودة ليقول أي شيء، لا ليدافع عن نفسه، بل لأنه يعتقد أنها تستحق كلمات منه. لكنه لم يستطع استدعاء الكلمات من عقله عندما أرجعت له الموظفة الكتاب. تمنى في تلك اللحظة أن يمتلك ذرات من شجاعة تيمور. نظر ثانية إلى

روشي ووجد أنها تحدق في الشخص الذي يليه في الصف.

بدأ يقول «أنا..».

«علينا أن نحافظ على تحرّك الصف يا سيدي» قالت الموظفة.

ترك الطابور ورأسه منحن للأسفل. ركن سيارته في الفسحة الفارغة وراء المكتبة. وشعر أن المسافةً التي تفصله عن سيارته هي أطول مسافة تعيّن عليه قطعها في حياته. فتح باب السيارة، تردد قبل الدخول إليها، وقلب صفحات الكتاب بيديه اللتين لم تتوقفا عن الارتجاف، فتح الكتاب مرة أخرى. وجد أن روشي لم توقع له على الكتاب. بل كتبت له جملة تقول: أغلق الكتاب، وعينيه أيضاً، وافترض أن عليه الشعور بالراحة بعدما قرأ ما كتبته. إلا أن جزءاً منه تمنى شيئاً آخر. تمنى لو أنها كشرّت في وجهه وألقت على مسامعه كلمات بغيضة وحاقدة تعبر عن كرهها له. تمنى لو تفجّر حقدها في وجهه، ربما كان ذلك أفضل له. بدلاً من ذلك، وجد جملة دبلوماسية لطيفة وملاحظة تقول:

لا تقلق، لا يرد ذكرك في الكتاب

كان تلك طيبةً من جانبها، ولربما كانت الكلمة الصحيحة أنه كان إحساناً منها وشفقة عليه. يجب أن يشعر بالراحة، لكن ذلك آلمه. شعر بكلماتها كفأس ينقض عليه ويشطر رأسه.

وجد مقعداً قريباً تحت شجرة دردار، فذهب إليه ووضع الكتاب هناك. عاد للسيارة وجلس وراء المقود. احتاج لبعض الوقت لتمالك نفسه وإدارة محرك السيارة والقيادة للبيت.

الفصل السادس

شباط عام 1974

ملاحظة المحرر، دار بارالاكس(شتاء عام 1974)

أعزائي القراء، عندما بدأنا إصداراتنا الفصلية التي تتحدث عن الشعراء غير المشهورين قبل خمسة أعوام، لم نكن نتوقع مقدار الشهرة التي سيصبحون عليها. وقد طالب العديد منكم بالمزيد. وبالطبع، مهدت رسالكم المتحمسة الطريق لهذه الأعداد الخاصة لتصبح تقليداً سنوياً هنا في دار بارالاكس، كما أصبحت ملفات الشعراء الشخصية كتب موظفينا المفضلة الآن أيضاً. أدى كل هذا لاكتشاف وإعادة اكتشاف بعض الشعراء الموهوبين، ولتقدير كبير لأعمالهم، حتى لو كان متأخراً. من المحزن أن أقول أن ظلاً يحوم حول هذا العدد. إن فنانتنا في هذا العدد هي نيلا وحداتي، وهي شاعرة أفغانية قابلها إتيين بوستولر في الشتاء الماضي في بلدة كوريوي، قرب باريس. أعطت السيدة وحداتي، كما أعتقد أن الكثير منكم يوافقونني، أحد أكثر المقابلات صدقاً

وكشفاً وإذهالاً التي نشرناها بقلم السيد بوستولر. ومن المحزن أننا علمنا بوفاتها المبكرة بعد تلك المقابلة بوقت قصير. لا شك في أنها ستترك فراغاً كبيراً في مجتمع الشعراء. وهي باقية بيننا من خلال ابنتها.

في تزامن غريب، رن جرس الهاتف بنفس اللحظة التي قرع بها جرس المصعد وفتح بابه. استطاعت باري أن تسمع رنين الهاتف من شقة جوليان المجاورة التي تقع في أول الرواق الضيق المعتم والأقرب للمصعد. عرفت بحدسها دون أن يقول جوليان أي شيء هوية المتصل، وكذلك عرف هو. قال جوليان بعد أن دخل المصعد «دعيه يرن».

وقفت خلفه المرأة المتوردة الوجه التي تعيش في الطابق العلوي والتي يدعوها جوليان بالعنزة بسبب الشعيرات النامية دوماً على ذقنها وحدقت بنفاذ صبر في باري.

«دعينا نذهب يا باري، لقد تأخرنا» قال لها.

لقد حجز طاولة من أجل العشاء في السابعة مساء في مطعم جديد افتتح في الدائرة السادسة عشرة، والذي أثار الاهتمام بسبب طبق الدجاج المشوي على الجمر، وكبد العجل المطهو بخلّ الشيري، وشرائح سمك موسى الفريدة. سيقابلون هناك كريستيان وأوريلي، وهم أصدقاء دراسة جوليان القدماء في الجامعة. كان من المفترض أن يلتقوا بهم في السادسة والنصف لتناول المقبلات قبل العشاء، وها هي الساعة قد دخلت على السادسة الربع. عليهم أن يمشوا لمحطة المترو ليستقلوه إلى مبيت، ثم قطع ست شوارع مشياً على الأقدام للوصول للمطعم.

استمر الهاتف بالرنين. سعلت المرأة العنزة. قال جوليان بحزم أشدّ: «باري؟».

«قد تكون ماما هي المتصلة» قالت باري.

«نعم، أنا أدرك ذلك».

فكرت باري بشكل لاعقلاني بأن أمها - المشهود لها بحبها للدراما - تتعمد الاتصال بهذه اللحظة تحديداً لتقحمها في فخ الاختيار: أن تخطو داخل المصعد أو أن ترد على هاتف أمها.

«قد يكون الأمر مهماً» قالت باري. فتنهد جوليان.

اتكئ إلى حائط الممر بعد أن خرج من المصعد وأدخل يديه عميقاً في جيوب معطفه، وهو يشعر أنه ضائع كشخصية من رواية بوليسية.

«دقيقة واحدة فقط» قالت باري. نظر إليها جوليان بشك.

كانت شقة جوليان صغيرة، وقد احتاجت لست خطوات فقط لتعبر غرفة الجلوس والمطبخ، جلست على حافة السرير لتتناول سماعة الهاتف عن طاولة السرير الوحيدة في غرفة نومهما. ومع أن الشقة صغيرة جداً، إلا أن المشهد من نافذتهما كان رائعاً، إنها تمطر الآن.. لكنها تستطيع رؤية معظم الدائرتين التاسعة عشرة والعشرون في أيام الصحو من النافذة المواجهة للشرق.

«نعم، ألو» قالت. فأجابها صوت رجل..

«صباح الخير، هل أنت الآنسة باري وحداتي؟».

«من أنت؟».

«هل أنت ابنة السيدة نيلا وحداتي؟».

«نعم».

«أنا الطبيب ديلاني، أتصل بشأن أمك».

أغمضت باري عينيها، اجتاحها وميض من الذنب قبل أن يتحول إلى الفزع المألوف بالنسبة لها. لقد تلقت مكالمات كهذه من قبل، الكثير منها، منذ أن أصبحت راشدة، وقبل ذلك أيضاً، كانت مرة في الصف الخامس في منتصف امتحان جغرافية وقد قاطعها المدرس ومشى معها

إلى ردهة المدرسة ليشرح لها ما جرى بصوت هامس. كانت هذه المكالمات مألوفة بالنسبة لباري، إلا أن تكرارها لم يخلق عندها حالة اللامبالاة. فقد كانت تعتقد مع كل اتصال أن هذه المرة هي المرة الأخيرة، المرة الأخيرة، وكانت تغلق السماعة كل مرة وتهرع إلى أمها. وقد قال لها جوليان متحدثاً بلغة الاقتصاد.. أنها إذا توقفت عن إيلاء أمها الانتباه، فإنه من المرجح أن تتوقف أمها عن طلبها بهذا الشكل.

«لقد تعرضتْ لحادث» قال الدكتور ديلاني.

وقفت باري بجانب النافذة واستمعت لشرح الطبيب، وهي تلفّ شريط الهاتف حول إصبعها، بينما يعيد هو على مسمعها تكلفة زيارة أمها للمشفى، حيث أجروا لها خياطة لجرح على الجبهة وحقنوها من باب الوقاية بمضاد للكزاز وأعطوها لاحقاً البيروكسيدات والمضادات الحيوية الموضعية والضمادات. تذكرت باري يوم عادت إلى البيت من المدرسة وهي في العاشرة من عمرها لتجد خمسة وعشرين فرنكاً وملاحظة متروكة لها على منضدة المطبخ. *«لقد سافرت إلى ألاسكا مع مارك، لا بد أنك تذكرينه، سأعود بعد يومين، كوني جيدة في غيابي يا فتاتي، لا تسهري ليلاً. أحبك. التوقيع: ماما».* ارتجفت باري في المطبخ في ذلك اليوم واغرورقت عيناها بالدموع وهي تطمئن نفسها بأن يومين ليسا فترة طويلة. ليسا أمراً سيئاً. ومن ثم سألها الطبيب شيئاً.

«عفواً، ماذا قلت؟».

«كنت أسألك يا آنسة إن كنت ستأتين لاصطحابها للبيت؟ الجرح ليس خطيراً كما قلت لك، لكني أفضل أن لا تذهب للبيت وحدها. أو سنضطر لطلب سيارة أجرة لها».

«لا. لا حاجة لهذا. سأكون عندكم بعد نصف ساعة».

جلست تفكر بانزعاج جوليان مما سيجري، ومن حرجه من

كريستيان وأوريلي، الذين يهتمّ بآرائهما كثيراً. لم تكن تريد الخروج للمدخل ومواجهته، كما أنها لا تريد الذهاب إلى كوربيفوا لمواجهة أمها. إن أكثر ما تحتاج إليه الآن هو أن تضجع وتستمع لهسيس الرياح وهي تقذف بقطيرات المطر إلى زجاج النافذة.. إلى أن تنام.

أشعلت سيجارة. وعندما دخل جوليان إلى الشقة وراءها وسألها: «ألستِ خارجة معي؟ ألن تذهبين؟». لم تجبه وبقيت صامتة.

مقطع من «اغنية طائر افغاني».

مقابلة مع نيلا وحداتي، قام بها الصحفي اتيين بوستولر لدار نشر بارالاكس. شتاء عام 1974.

الصحفي: لقد فهمت أنك نصف أفغانية ونصف فرنسية، هل هذا صحيح؟

نيلا: كانت أمي فرنسية، هذا صحيح، من باريس.

الصحفي: لكنها قابلت أباك في كابول للمرة الأولى. وقد ولدت أنت هناك.

نيلا: نعم. التقيا عام 1927 في عشاء رسمي في القصر الملكي. رافقت أمي أباها (جدي) الذي كانت فرنسا قد أرسلته للملك الأفغان كمستشار للإصلاحات في الدولة. هل سمعت بملك الأفغان؟ أمان الله؟

الصحفي: نحن نجلس في غرفة جلوس السيدة وحداتي في شقتها الصغيرة في الطابق الثالث عشر من بناية سكنية في بلدة كوربيفوا شمال باريس. الغرفة صغيرة، غير مضاءة كما يجب ومفروشة دون الكثير من الاهتمام: توجد هنا أريكة بلون الزعفران وطاولة قهوة صغيرة ورفان طويلان للكتب. تجلس السيدة وتعطي ظهرها للنافذة المفتوحة من أجل رائحة الدخان من سجائر السيدة التي لا تنطفئ. يذكر هنا أن السيدة وحداتي في الرابعة والأربعين من عمرها. وهي امرأة فاتنة جداً، ولربما تجاوزت السن الذي كانت فيه في قمة جمالها، لكن

جمالها ما زال أخاذاً. عظام خديها عاليين ملكيين، بشرتها متماسكة، خصرها نحيل، ولديها عينان ذكيتان مغازلتان ونظرة ثاقبة تجعل الإنسان يشعر بأنه تحت اختبار ما أو أنه مسحور وأنها قادرة على اللعب به. ما زالت عيناها، كما اعتقد، أداة إغراء رهيبة. لا تضع السيدة أياً من مساحيق التجميل ما عدا قليلاً من أحمر الشفاه. وتضع رباطاً على جبينها وترتدي بلوزة أرجوانية فوق بنطال جينز، بلا جوارب، بلا أحذية. ومع أن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة، إلا أنها سكبت لنفسها كأساً من زجاجة شاردونيه دافئة، وقد عرضت عليّ بلطف كأساً مثلها لكنني رفضت.

نيلا: لقد كان أفضل ملك مر عليهم في تلك البلاد.

الصحفي: «هم».. ألا تعتبرين نفسك أفغانية

نيلا: دعنا نقل أن فصلت نفسي عن نصفي الأكثر إزعاجاً.

الصحفي: أشعر بالفضول تجاه هذا الأمر. لماذا فعلت هذا؟

نيلا: هذا إذا كنت قد نجحت في ذلك. وأعني مسألة الملك أمان الله. لا بد أني أجبت على سؤالك بطريقة مختلفة.

طلبت منها التوضيح فقالت: حسناً، لقد استيقظ الملك ذات صباح وأعلن عن خطة جديدة لإعادة تشكيل البلاد، بالعنف والإكراه، لتحويل الأمة بكاملها إلى أمة عصرية ومتنورة. لقد قال: لا أريد رؤية الحجاب في بلدي بعد اليوم، تخيل يا سيد بوستولر أن امرأة في أفغانستان اعتقلت لارتدائها البرقع عندما ظهرت زوجته الملكة ثريا بوجه سافر.؟! أولا لا. في ذلك اليوم.. تنهدت صدور المشايخ بتنهيدات غاضبة كافية لرفع ألف بالون هندنبرغ. كما منع تعدد الزوجات وقال أن هذا الأمر يصلح عندما يكون لدى ملك البلاد جيشاً من المحظيات والجواري، ويكون أباً لعدد كبير من الأبناء منهن. من الآن فصاعداً، أعلن الملك، لا يمكن أن يجبر رجل امرأة على الزواج. كما منع الدفع لقاء الزواج بالنساء الأفغانيات الأصيلات، ومنع زواج الأطفال. وقال: على كل الإناث

الذهاب للمدرسة للتعلم.

الصحفي: لقد كان يتمتع برؤية مستقبلية رائعة.

نيلا: أو أنه كان أحمقاً. إن الفرق بين الحالتين لا يتجاوز سماكة الشعرة كما رأيت بنفسي في الحياة.

الصحفي: ماذا حدث له؟

نيلا: إن الإجابة على سؤالك متوقعة ومضجرة يا سيد بوستولر. الجهاد بالطبع. أعلنوا عليه الجهاد، كل الملالي والمشايخ وأمراء العشائر. تصور اجتماع هؤلاء جميعاً. لقد هزّ الملك الأرض تحت أقدامهم، وقد كان محاطاً ببحر من المتطرفين، وأنت تعرف جيداً ماذا يحصل عندما يرتعد قاع البحر يا سيد بوستولر. حصلت موجة تسونامي من تمرد الملتحين على الملك المسكين وخلعته عن العرش، أصابوه بالعجز ورموا به على شواطئ الهند، التي سافر منها إلى إيطاليا وأخيراً إلى سويسرا، حيث تمرغ بالطين ومات ميتة رجل عجوز مفجوع بالواقع الأليم في المنفى.

الصحفي: والبلاد التي ولدت من بعده؟ أعتقد أن العيش فيها لم يناسبك.

نيلا: العكس صحيح أيضاً.

الصحفي: ولهذا انتقلت لفرنسا عام 1955.

نيلا: لقد انتقلت لفرنسا لأنني أردت حماية ابنتي من طريقة الحياة هنالك.

الصحفي: أي نوع من أنواع الحياة تعنين؟

نيلا: لم أرد لها أن تعيش حياةً ضد رغباتها وضد الطبيعة، لم أشأ لها أن تتحول لواحدة من أولئك النساء الحزينات المجتهدات اللواتي تفرض عليهن العبودية الصامتة، الخائفات دوماً من الظهور والتكلم أو فعل أمر خاطئ بنظر رجالهن. النساء المحترمات هنا في فرنسا من قبل البعض واللواتي يُعتبرن بطلات بسبب حياتهن القاسية، المحترمات من بعيد من قبل الذين لا يستطيعون العيش يوماً واحداً في مكانهن.. كواحدة من النساء اللواتي تداس

أحلامهن بالأرجل وتقتل رغباتهن، ومع كل هذا، إذا التقيت بهن يا سيد بوستولر ستجدهن مبتسمات، وسيتظاهرن أمامك بالراحة إزاء حياتهن. كما لو أنهن محسودات على نمط الحياة التي يعشنها. لكنك إن أمعنت النظر سترى نظرة العجز واليأس تقفز وتُكذّب كل تمثيليتهن عن المزاج الجيد الذي تدعينه. إنه أمر يدعو للشفقة جداً يا سيد بوستولر. لم أرد هذا لابنتي.

الصحفي: وهل تتفهم ابنتك كل هذا؟ أشعلت السيدة سيجارة أخرى.

نيلا: حسناً، إن الأطفال لا يكبرون ليصبحوا كما كنت ترغب منهم يا سيد بوستولر.

أخبرت ممرضة نافذة الصبر باري في غرفة الطوارئ أن تنتظر بجانب نضد التسجيل، بقرب طاولة متحركة مترعة بالألواح والمخططات. اندهشت باري من الناس الذين يهدرون شبابهم طواعية للتدرب على مهنة تفضي بهم للبقاء في مكان كهذا. لا تفهم هذا الأمر. إنها تحتقر المشافي وتكره رؤية الناس في أسوأ حالاتهم والروائح العفنة تنبعث منهم. تكره الممرات المطلية بهذه الطريقة والأرقام الملصقة فوق الأبواب. يبدو لها الدكتور ديلاني أصغر سناً مما كانت تعتقد. لديه أنف مستدق وفم رقيق ضيق وشعر أشقر مجعد. قادها إلى خارج غرفة الطوارئ من خلال بوابة مزدوجة دوارة إلى المدخل الرئيسي وقال بلهجة من يخبرها سراً:

«عندما وصلت أمك، كانت سكرانة تماماً، لا تبدو عليك المفاجأة».

«لست متفاجأة».

«ولم يُفاجئ عدد من طاقم المرضين كذلك. يقولون أنها من المداومين على الحضور لهذا المشفى. أنا جديد هنا، ولهذا بالطبع، لم أتشرف بمعرفتك من قبل».

«هل كانت بحال سيئة؟».

«لقد كانت متزينة بطريقة مسرحية» عبسا سوياً لبرهة.

«هل ستكون على ما يرام؟».

«نعم، بعد فترة قصيرة. لكنني أنصح بشدة أن تخفف من الشرب. كانت محظوظة هذا المرة، ولا أحد يضمن ما سيحصل المرة القادمة».

أومأت باري وسألته:

«أين هي؟».

قادها إلى غرفة الطوارئ من جديد وقال «إنها في السرير رقم ثلاثة. سأقوم بإجراءات تخريجها من المشفى».

شكرته باري وتوجهت لسرير أمها.

«مرحبا ماما».

ابتسمت الأم بتعب واضح، كان شعرها مشعثاً وترتدي جوربين غير متماثلين. وقد قام الطبيب بوضع ضمادة على جبهتها ووضع لها سائلاً شفافاً في كيس معلق بجانب السرير ووصله لوريد في يدها اليسرى. كانت ترتدي رداء المشفى بطريقة معكوسة. واستطاعت باري أن تلمح من خلال فتحته قليلاً من الخط العمودي المظلم للندبة القيصرية على بطن أمها. سألت أمها منذ سنين عن سبب جرحها العمودي بدلاً من الجرح الأفقي المألوف، وقد وضحت لها أمها أن الأطباء فعلوا ذلك لسبب تقني ما في ذلك الوقت، وأنها لا تذكره. قالت لها أن الشيء المهم الذي فعلوه أنهم أخرجوك من بطني.

«لقد خرّبتُ عليكِ أمسيتكِ» تمتمت الأم.

«الحوادث تحدث للجميع. هيا لآخذك للبيت».

«يمكنني أن أنام لأسبوع كامل».

أغمضت عيناها وبقيت تتكلم ببطء وبشكل متقطع «كنت جالسة أراقب التلفاز ومن ثم شعرت بالجوع، ذهبت للمطبخ لأحضر بعض

الخبز ومربى البرتقال، انزلقت قدمي. لست متأكدة، لكن رأسي اصطدم بباب الفرن. أظن أني غبت عن الوعي عدة دقائق. اجلسي يا باري. أنت تتحركين فوق رأسي».

جلست باري وقالت: «قال الطبيب أنك كنت سكرانة تماماً».

فتحت الأم عيناً واحدة، وبان كرهها للأطباء رغم كل ترددها عليهم وقالت: «ذاك الولد؟ هل قال لك هذا؟ ماذا يعرف؟ مازالت رائحة حليب أمه تفوح منه».

«كالعادة.. تسخرين كلما ذكرت لك هذا الموضوع».

«أنا متعبة يا باري، بإمكانك توبيخي في وقت آخر، لن أذهب إلى أي مكان».

غرقت الأم بالنوم، وشخرت، بشكل منفر، كما تفعل بعد الحفلات.

جلست باري بجانب السرير وانتظرت الدكتور ديلاني. وهي تتخيل جوليان جالساً إلى أحد الطاولات مع إضاءة خفيفة، وقائمة الطعام في يده وهو يحكي عن أزمتها لكريستيان وأوربلي أمام كؤوس نبيذ البوردو الطويلة. لقد عرض أن يرافقها للمشفى، ولكن بلهجة شكلية مملة. إن الحضور إلى هنا فكرة سيئة على أي حال. وإذا اعتقد الدكتور ديلاني أنه رأى تنكراً مسرحياً على وجه أمها فمن الخير أن جوليان لم يحضر معها للمشفى، مع أنها تتمنى أن لا يكون قد ذهب للعشاء دونها. كان باستطاعته تبرير تغيبهما لأصدقائه، كان بإمكانهما تأجيل الحجز لليلة أخرى. لكن جوليان ذهب بالفعل. لم يكن تصرفه طائشاً فقط. لا... هناك شيء شرير في حركته هذه، شيء متعمد ومدروس. عرفت باري منذ فترة أنه قادر على هذا. وتساءلت متأخرة إن كان سيتركها بطريقة تدل على ذوقه الرفيع أيضاً.

قابلتْ باري جوليان لأول مرة في غرفة طوارئ مشابهة لهذه قبل عشر

سنوات عام 1963، عندما كانت في الرابعة عشرة. كان قد أحضر صديقاً له مصاباً بنوبة شقيقة للمشفى. وأحضرتها أمها للمشفى، حيث كانت هي المريضة، بعد أن لوت كاحلها أثناء التدريب على الجمباز في المدرسة. كانت مستلقية على سريرها عندما دفع جوليان بكرسي وجلس بجانب أمها لتبادل الأحاديث. لا تستطيع تذكر الحوار الذي دار بينهما، لكنها تتذكر قول جوليان: «اسمها باري، كمدينة باريس؟» وأجابته الأم الإجابة المعهودة «لا، إن اسمها فارسي، ويعني بالفارسية (الجنية)».

قابلوه في وقت لاحق ذاك الأسبوع للعشاء في حانة صغيرة تقع في شارع سان جرمان. وقد ترددت الأم في البيت طويلاً حول ما ستلبسه تلك الليلة، واستقرت في النهاية على ثوب أزرق ذي خصر ضيق، وقفازات مسائية وحذاء حاد مدبب كالخنجر. ورغم كل ذلك، قالت وهما في المصعد لباري: «أنا لا أبدو امرأة رخيصة بهذا اللباس.. أليس كذلك؟ ما رأيك؟».

دخنوا، ثلاثتهم، قبل وجبة الطعام. وشربت ماما وجوليان البيرة في كأسين عملاقين مثلجين. وبعد أن أنهوهما، طلب جوليان تعبئتهما من جديد، ومن ثم أعادا الكرّة. ارتدى جوليان قميصاً أبيضاً وربطة عنق وسترة مسائية لامعة، وكان يمتلك أساليب سيد مهذب عالي التربية، قادر على السيطرة على نفسه. كان يبتسم بسهولة ويضحك من كل شيء. وكان لديه بعض الشيب على صدغيه الذي لم تلاحظه باري في عتمة غرفة الطوارئ. خمنت أن عمره قريب من عمر أمها. كان مثقفاً جداً حول الأحداث المعاصرة وكان يقضي الكثير من الوقت في الحديث عن رفض ديغول دخول إنكلترا للسوق المشتركة، ومما فاجئ باري، أنه استطاع جذبها للاهتمام بحديثه، بعد أن سألته أمها عن مادة الاقتصاد التي يدرّسها في جامعة السوربون.

«أي أنك أستاذ الآن؟ هذا فاتن جداً».

«بالكاد، يجب أن تحضري يوماً إلى هناك، سيشفيك هذا من الإعجاب بهذه العبارة بسرعة شديدة».

«لربما أحضر بالفعل».

استطاعت باري أن ترى ثمل أمها الواضح.

«سوف أتسلل إلى هناك في يوم ما، وأراقبك وأنت تعمل».

«وأنا أعمل؟ هل تذكرين أني أدرّس النظريات الاقتصادية، يا نيلا. إذا ما حضرت ستجدين أن طلابي يعتقدون أنني أحمق».

«أشك في ذلك».

لقد خمنت باري بأن عدداً لا يستهان به من طالبات الأستاذ يرغبن بمشاركته السرير. وحاولت طوال فترة العشاء أن لا يراها أحد وهي تسترق النظر إليه. كان وجهه يبدو كوجوه ممثلي أفلام السينما الصامتة، وجه يليق بالأبيض والأسود، وقد ألقت عليه الستائر الفينيسية ظلين متوازيين وأغشاه دخان السجائر المتصاعد بجانبه. كما انسدلت خصلة شعر من مقدمة رأسه فوق حاجبه بشكل رشيق جداً. وقد لاحظت باري أنه لا يقوم بأي جهد لرفعها عن عينه، أو لتثبيتها.

سأل أمها عن المكتبة الصغيرة التي تمتلكها وتديرها بنفسها بجانب نهر السين، على الطرف الآخر من بونت داركول.

«هل لديك كتب عن موسيقى الجاز؟».

«بالتأكيد» قالت ماما.

هطل المطر في الخارج بتواتر منتظم وازدحمت الحانة بالناس. وقدم النادل لهم الجبن ولحم الخنزير المقدد بينما كان الأستاذ وماما يتكلمون عن باد باول، سوني ستيت، ديزي جيليسبس، وأكثر ما يفضله جوليان: تشارلي باركر. قالت ماما أنها أحبت أساليب الساحل الغربي أكثر، مثل

شيت بيكر ومايلز ديفيس، سألته إن كان قد استمع لموسيقى البلوز من قبل. فوجئت باري بولع أمها بموسيقى الجاز وبسعة اطلاعها عن ذاك الكم الهائل من الموسيقيين المختلفين. لقد صعقها الأمر، ولم تكن تلك صدمتها الأولى بأمها، امتزج لديها الإعجاب الطفولي بوالدتها والإحساس بأنها لا تعرف أمها جيداً في الحقيقة. ما لم يفاجئها كان محاولة الأم إغواء جوليان.. والتي كانت مهمة سهلة. لقد تربعت أمها في مكانها الطبيعي هناك. لم تتكبد في أي يوم من الأيام العناء في جذب الرجال إليها. كانت تحيط بحواسهم وتلتهم أعصابهم كما يحيط البحر بالجزر.

راقبت باري أمها وهي تتمتم لجوليان بشكل لعوب، وتضحك لنكاته وترجع رأسها للخلف لترفع شعرها بلامبالاة. تعجبت من جديد لشباب أمها، كم كانت شابة وجميلة، والتي لا تكبرها سوى بعشرين عاماً. تأملت شعرها الأسود الطويل وصدرها الممتلئ ومقلتيها المذهلتين ووجهها الناضح بنور الجمال الملكي الكلاسيكي. وتعجبت من عدم وجود أي شبه بينها وبين أمها، فكرت في عينيها الداكنتين الجادتين وأنفها الطويل وأسنانها الأمامية البعيدة عن بعضها وصدرها الضامر. كان جمالها ـ إن وجد ـ أقرب للصفات الأرضية العادية من جمال أمها السماوي. وقد ذكّرتها مراقبتها الدائمة لأمها أن نظراتها منسوجة من ذات القماش الذي تشتهر به أمها. كانت الأم أحياناً من تلفت نظرها لتلك الخصلة في مديحها المبطن لها.

كانت تقول: أنت محظوظة يا باري. لن يتعين عليك بذل أي جهد ليأخذك الرجال على محمل الجدّ. سينتبهون إليك. إن الكثير من الجمال يفسد الأمور. ومن ثم تضحك. آه.. صدقيني... لا أقول أني أتحدث عن تجربة. بالطبع لا. إن مصدر كلامي هذا هو ملاحظاتي للآخرين. وعندها، تجيبها باري: أتقولين أني لست جميلة؟ فترد عليها الأم:

أقول أنه لا يجب عليك أن تكوني كذلك. بالإضافة لأنك ناعمة وهذا جيد بما فيه الكفاية. أنا أؤكد لك يا عزيزتي. هذا أفضل لك.

كما أنها تعتقد أنها لا تشبه أباها كثيراً. كان رجلاً طويلاً ذا وجهٍ صارمٍ وجبهة عالية وذقن ضيقة وشفاه رقيقة. احتفظت باري ببعض الصور له في غرفتها من أيام طفولتها في كابول. لقد وقع صريع المرض عام 1955 في نفس العام الذي قررت فيه ماما الانتقال معها إلى باريس. وقد مات بعد فترة وجيزة. كانت تجد نفسها تحدق في إحدى صوره القديمة، وبالتحديد في صورة جمعتهما بالأبيض والأسود، وهما يقفان أمام سيارة أميركية قديمة، وهو يتكئ إلى الحاجز الأمامي وهي بين ذراعيه وكلاهما يبتسمان للكاميرا. تذكر باري يوم جلسا كلاهما على أرض غرفتها وهو يرسم لها زرافات وقرود ذات ذيول طويلة على أبواب خزانتها، وقد سمح لها بتلوين أحد القرود، وهو يمسك يدها ويوجه فرشاتها بصبر شديد.

لقد أيقظت رؤية هذه الصور إحساساً قديماً في باري، وهو شعور لطالما امتلكته، بأن هناك شيء ناقص من حياتها، أو أحد ناقص وأساسي بالنسبة لوجودها. وكان هذا الشعور يباغتها بغموض، كرسالة ضعيفة أرسلت عبر موجات إذاعية غامضة لمسافات طويلة. وكان هذا النقص يبدو لها في أحيان أخرى واضحاً، وحميماً لدرجة أن قلبها يكاد يتوقف عن الخفقان. على سبيل المثال، رأت باري قبل سنتين شجرة بلوط هائلة الحجم خارج بيت ريفي في بروفانس. وباغتها نفس الشعور الغامض في حدائق التويلري عندما رأت مرة أماً شابة تدفع عربة حمراء تضع فيها ابنها. لم تفهم باري لماذا. قرأت مرة قصة رجل تركي في منتصف العمر أصابته حالة شديدة من الكآبة عندما أصيب أخاه التوأم - الذي لا يعرف بوجوده أصلاً - بذبحة قلبية مميتة وهو في غابات

الأمازون الاستوائية المطيرة. كانت هذه القصة أقرب تعبير لما تشعر به.

حدّثت ماما عن هذا الأمر. قالت لها أمها:

«لا يوجد في الأمر أي سرّ يا حبيبتي، أنت تفتقدين أباك. لقد خرج من حياتك ومن الطبيعي أن تنتابك مثل هذه الشاعر. بالطبع هذا كل ما في الأمر. تعالي إلى هنا. أعط ماما قبلة».

كان جواب الأم معقولاً جداً، لكنه لم يرضها أبداً. اعتقدت باري أنها ستشعر بالاكتمال أكثر لو كان أبوها على قيد الحياة، إذا ما كان يعيش معها. لكنها تذكر أنها كانت تشعر بنفس الشعور عندما كانت تعيش مع أبويها في بيت كابول، وهو على قيد الحياة. بعد أن أنهوا عشاءهم استأذنت الأم لتذهب للحمام وبقيت باري وحدها مع جوليان بضع دقائق. تحدثا عن فيلم شاهدته باري الأسبوع الفائت، حيث لعب فيه جان مورودور مقامر. كما تحدثا عن المدرسة والموسيقى أيضاً. عندما تكلمت باري.. وضع مرفقه على الطاولة وأماله قليلاً نحوها واستمع لها باهتمام عظيم، وهو يعبس ويبتسم في نفس الوقت دون أن يرفع عينيه عنها. إنه يتظاهر، قالت باري لنفسها. إنه استعراض ممتاز من قبله، شيء كان يقوم به مع النساء، وهو شيء أحب القيام به في هذه اللحظة، أحب أن يتسلى قليلاً على حسابها. ومع ذلك، لم تستطع أن تمنع تسارع خفقات قلبها تحت وطأة نظراته وتشنج بطنها. وجدت نفسها تتكلم بطريقة مصطنعة متكلفة وساخرة لا تشبه طريقتها بالكلام عادةً. عرفت أنها تتصنع ولم تستطع التوقف عن فعل ذلك. أخبرها باختصار أنه كان متزوجاً من قبل.

«حقاً؟».

«نعم، منذ بضعة سنين. عندما كنت في الثلاثين من عمري. كنت أعيش في ليون في ذلك الوقت».

لقد تزوج بامرأة تكبره سناً، ولم يدم زواجهما بسبب غيرتها الشديدة. لم يتحدث جوليان عن هذا الأمر أثناء وجود أمها على الطاولة.

«كانت علاقة جسدية في الحقيقة، كانت تريد امتلاكي. C'était complètement sexuelle ».

كان ينظر لها وهو يتفوه بتلك الجملة وابتسم لها ابتسامة صغيرة قاتلة. وقاس ردة فعلها بطريقة حذرة. أشعلت باري سيجارة وظلت هادئة وكأن الرجال كانوا يخبرونها بمثل هذه الأمور كل يوم. لكنها كانت ترتعد من الداخل.. لأنها أدركت أن فعل خيانة صغير قد ارتكب للتو على هذه الطاولة. شيء محظور إلى حد ما، مؤذٍ إلى درجة ما، لكنه مثير بشكل لا يمكن إنكاره. عندما عادت الأم وقد سرحت شعرها من جديد وجددت أحمر الشفاه على ثغرها، عاد الزمن للتحرك بعد أن توقف لحظة عندهما. وقد استاءت باري من تطفل أمها في تلك اللحظة، وندمت على شعورها هذا بعد لحظة واحدة أيضاً.

قابلته ثانية بعد أسبوع أو أكثر بقليل. كانت ذاهبة لغرفة أمها وهي تحمل دورق القهوة صباحاً. ووجدته جالساً على طرف سرير أمها ليتقلد ساعة يده. لم تكن تعرف أنه أمضى ليلته هنا. لمحته وهي في الردهة من شق الباب. وقفت هناك مسمّرة في الأرض والدورق في يدها وفمها جاف كأنه مُلئ بالتراب.. وراقبته، راقبت بشرة ظهره الخالية من أي شوائب، استدارة بطنه الصغير، والشراشف المجعدة التي غطت أسفل بطنه. نظر لساعته ومن ثم تناول سيجارة عن المنضدة، وأشعلها ثم حوّل نظره إليها تماماً وكأنه كان يعرف أنها تقف هناك منذ زمن طويل.

ابتسم لها ابتسامة صغيرة ثم قالت أمها شيئاً ما من الحمام فاستدارت باري عائدة من حيث أتت. وتعجبت من أنها لم تسكب القهوة على نفسها في ذاك اليوم.

بقيت ماما وجوليان على علاقة لستة أشهر، ذهبا خلالها لزيارة المتاحف ودور السينما ولحضور معارض فنية صغيرة تعرض أعمال فنانين غامضين مكافحين يحملون أسماء أجنبية. في أحد العطل الأسبوعية قادا السيارة إلى شاطئ في أركاشون قرب بوردو وعادا بوجوه مسمرّة وحقيبة كاملة من النبيذ الأحمر. اصطحبها جوليان لمناسبات الكلية في الجامعة ودعته ماما ليقرأ على الزوار في مكتبتها. رافقتهم باري في البداية - كما كان جوليان يطلب وكان ذلك يسعد والدتها - ثم بدأت تختلق الأعذار لتبقى في البيت. لم تكن تذهب معهم، لم تكن قادرة على ذلك. لم تكن تستطيع احتمال ما يجري بينهما. كانت تقول أنها متعبة جداً أو أنها تشعر بالمرض أو أنها ستذهب لبيت صديقتها كوليت للدراسة. صديقتها منذ الصف الثاني الابتدائي، وهي فتاة نحيلة حسنة المظهر ذات شعر خفيف طويل وأنف يشبه منقار الغراب. كانت تحب صدم الناس بكلامها والتفوه بأشياء مخزية وشنيعة.

«أراهن أنه خائب الأمل» قالت كوليت: «لأنك لست الفتاة التي يخرج معها».

«حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فهو لا يظهر لي أياً منه».

«لن يفعل، ماذا ستعتقد أمك؟».

«حول ماذا؟» قالت باري: مع أنها تعرف بالطبع وكانت تريد أن تسمع ما يمكن أن تقوله والدتها.

«حول ماذا؟» قالت كوليت بنغمة ماكرة ومثيرة: «حول أنه يرافقها ليصل إليك، أنت من يريد وليست هي».

«إنه أمر مقرف» قالت باري بصوت مرتجف.

«أو أنه يريدكما معاً، لربما يحب حشداً من النساء معه في السرير. وفي هذه الحالة، أنا أطلب منك أن تذكريني أمامه بالخير».

«أنت بغيضة يا كوليت».

كانت باري تخلع ثيابها أحياناً عندما تكون ماما وجوليان خارج المنزل وتنظر لجسدها في مرآة الردهة الطويلة. وتحدد العيوب فيه. كان جسدها طويلاً جداً وغير متناسق بالمرّة.. صالح للاستعمال للإنجاب فقط. لم ترث أياً من انحناءات جسد أمها الساحرة. وكانت تمشي أحياناً هكذا بلا ثياب إلى غرفة أمها وتستلقي على السرير حيث تعرف أنهما تطارحا الغرام من قبل. استلقت باري هناك عارية تماماً وأغلقت عينيها وقلبها يضج بضربات تنتشر في كامل صدرها وتنحدر إلى بطنها وتتابع إلى الأسفل.

انتهت قصتهما بالطبع، قصة ماما وجوليان. لم تُفاجئ باري لكنها ارتاحت أخيراً. كان كل الرجال يخذلون الأم في السرير، لأنهم كانوا دوماً يسقطون بشكل كارثي عن عرش المثالية التي تقنعهم الأم أنهم يتربعون عليه. وما كان يبدأ عادة بالعاطفة الجارفة كان ينتهي دوماً بالاتهامات المقتضبة والكلمات البغيضة، بالغضب ونوبات البكاء والتراشق بأدوات المطبخ والانهيار. كان ينتهي دوماً بكثير من الدراما المأساوية والعاصفة. كانت الأم عاجزة عن بدء أو إنهاء أية علاقة دون مبالغات.

وتلي كل تلك الأحداث فترة متوقعة تقضيها الأم بالوحدة والانعزال. حيث تبقى في السرير وترتدي معطفاً شتوياً قديماً فوق منامتها وتتحول لمجرد كيان متجهم كئيب مرهَق في البيت. تركتها باري لشأنها في تلك الفترات لأن محاولاتها السابقة لمواساة أمها والبقاء برفقتها لم تكن تنفع، لأن الأم كانت ترفضها. ويدوم الحال هكذا أسابيعاً، إلا أن مزاجها السيئ استمر بعد فراق جوليان لفترة أطول إلى حد كبير.

«آه، اللعنة» قالت الأم.

جلست الأم في السرير وهي ما تزال في رداء المشفى. استلمت باري أوراق الخروج وراحت الممرضة تنزع الإبر عن وريد الأم المفتوح.

«ما الأمر؟».

«لقد تذكرت الآن أن لدي مقابلة بعد يومين».

«مقابلة؟».

«حديث لمجلة شعرية».

«هذا رائع يا ماما».

«سوف يرفقون صورة مع الحديث» وأشارت للخياطة على جبهتها.

«ستجدين طريقة أنيقة لتغطيتها، أنا متأكدة من هذا». قالت باري.

تنهدت الأم ونظرت بعيداً. وعندما سحبت الممرضة الإبرة من ذراعها جفلت ماما وصاحت بشيء قاس وظالم على المرأة المسكينة.

القسم الثاني من اللقاء الصحفي مع الشاعرة نيلا وحداتي

نظرتُ في أنحاء الشقة مرة أخرى فلفتت انتباهي صورة فوتوغرافية على أحد الرفوف. قرفصت فيها فتاة صغيرة في حقل مليء بالأجمات البرية، وهي منهمكة تماماً بقطف نوع ما من التوت عن الأرض، وهي ترتدي معطفاً أصفراً ناصعاً مزرراً عند العنق مغايراً تماماً للون السماء الداكنة فوق رأسها. في خلفية الصورة، يظهر بيت حجري ريفي مغلق النوافذ وبعض من ألوح سقفه محطمة. سألتها عن الصورة فقالت:

نيلا: تلك ابنتي باري، ولا يعني اسمها اسم المدينة (باريس). بل يعني (جنية) باللغة الفارسية. وقد التقطت تلك الصورة من رحلة قمنا بها معاً عام 1957 إلى النورماندي. أعتقد أنها كانت في الثامنة من عمرها.

الصحفي: هل تعيش ابنتك في باريس؟

نيلا: إنها تدرس الرياضيات في السوربون.

الصحفي: لا بد وأنك فخورة بها. ابتسمت نيلا واستهجنت تعليقي.

الصحفي: أنا أستغرب اختيارها لذلك المجال بعض الشيء، خصوصاً وأنك كرست نفسك للفنون.

نيلا: أنا لا أعرف من أين ورثت ذلك الميل لتدرس كل تلك المعادلات التي لا تطاق والصيغ والنظريات الغامضة. لكني أعتقد أنها ليست غامضة بالنسبة لباري. مع العلم أني أضرب الأرقام بصعوبة، هذا عن نفسي.

الصحفي: لربما كانت هذه هي الطريقة التي يبدو فيها تمردها. وأنت خبيرة بمجال التمرد كما أعتقد.

نيلا: هذا صحيح، لكنني تمردت بالطريقة المألوفة. سكرت ودخنت واتخذت لنفسي عشاقاً. من يتمرد بالرياضيات؟ وضحكت. بالإضافة لأن ليس لديها ما تتمرد عليه. لقد منحتها كل الحرية التي يمكن لك أن تتخيلها. لا يوجد ما ترغب به ولا تنفذه. ابنتي تفعل كل ما ترغب به على هواها. إنها تعيش مع رجل أكبر منها سناً، رجل ساحر إلى حد ما، مثقف واسع الاطلاع وقادر على تسليتها. وهو نرجسي جداً بالطبع، لديه أنانية تقارب حجم بولندا.

الصحفي: الا توافقين على علاقتهما؟

نيلا: موافقتي غير مهمة يا سيد بوستولر إننا نعيش في فرنسا وليس في افغانستان. لا يعيش الشباب هنا حسب رغبات آباءهم.

الصحفي: الا توجد لدى ابنتك اي روابط مع افغانستان؟

نيلا: لقد تركنا تلك البلاد عندما كانت هي في السادسة ولهذا فإن ذكرياتها عنها محدودة.

الصحفي: لكن الأمر ليس كذلك معك انت. طلبتُ منها أن تخبرني عن حياتها المبكرة. فاعتذرت وغادرت الغرفة لوهلة قصيرة. أعطتني لدى عودتها صورة قديمة مجعدة جداً بالأسود والأبيض. يظهر فيها رجل صارم المظهر،

يرتدي نظارات ثقيلة وداكنة جداً، شعره لامع ومفروق من الوسط بطريقة دقيقة للغاية. وهو يجلس وراء منضدة ويقرأ كتاباً ويرتدي بذلة لها تلابيب بارزة وصدرية من طبقتين وقميص أبيض ناصع تعلوه ربطة عنق فراشية الشكل.

نيلا: هذا والدي. التقطت هذه الصورة له عام 1929، عام ولادتي.

الصحفي: يبدو أنه كان رجلاً بارزاً جداً.

نيلا: إنه من عائلات البشتون الأرستقراطية في كابول، وقد كان رفيع التعليم والتربية، واجتماعياً بشكل ممتاز. كما أنه كان راوياً عظيماً أيضاً، علناً على الأقل.

الصحفي: وفي الحياة الخاصة؟

نيلا: حاول ان تخمّن وحدك يا سيد بوستولر. امسكتُ الصورة ونظرت إليها مجدداً. فقلت لها: يبدو لي بعيداً، حزيناً، عنيداً وغامضاً.

نيلا: أنا أصر على ان تتناول كأساً معي. انا اكره الشرب وحدي. سكبت لي من زجاجة الشاردونيه، وتناولت رشفة بدافع اللباقة.

نيلا: كانت يدي أبي باردة دوماً، مهما كان حال الطقس.. كانت يديه باردتين دوماً. وكان يرتدي بذلة دائماً، مهما كانت درجة الحرارة أيضاً. بذلات محاكة بعناية شديدة وكسراتها مكوية كالسكاكين. كان وسيماً على ما أعتقد ولكن بشكل جدّي. كما أنني فهمت فيما بعد... بعد زمن طويل.. أن كل ما كان عليه.. من تصنع وتقليد للأوروبيين في لعب البولنج الأسبوعي والبولو والزوجة الفرنسية، كل هذا.. كان لإرضاء الملك التقدمي الشاب. صمتت لفترة وهي تتحسس أظافر يديها. قلبت الشريط على مسجلتي.

نيلا: كان ابي ينام في غرفته الخاصة، وتنام امي معي في غرفتنا المشتركة. كان يقضي معظم أيامه خارجاً في تناول الطعام مع الوزراء ومستشاري الملك. أو كان يركب الخيول أو يلعب البولو او يخرج في رحلات الصيد. كان يحب الصيد.

الصحفي: أي انك لم تريه كثيراً، كان شخصاً غائباً بالنسبة لك.

نيلا: ليس تماماً. كان يخصص لي بضع دقائق كل يومين. كان يأتي إلى غرفتي ويجلس على سريري لكي اتسلق إلى حضنه واجلس على ركبته لوهلة دون أن يقول احد منا شيئاً للآخر. ومن ثم يقول: ماذا سنفعل الآن يا نيلا؟ كان يسمح لي في بعض الأحيان أن آخذ محرمته من جيب صدر سترته لأطويها له. كنت اكورها بالطبع دون عناية واحشوها في جيبه فكان يصطنع تعبيراً بالمفاجأة الوهمية والذي كنت أراه مضحكاً جداً. كنا نستمر بعمل هذا إلى أن يصيبه الملل، وكان يمل بسرعة عادة. فيمسد شعري بيده الباردة ويقول: «يجب أن يذهب البابا الآن، هيا يا غزالة، اركضي الآن» أخذت السيدة نيلا الصورة وأعادتها للغرفة الأخرى ومن ثم عادت مع علبة جديدة من السجائر من الدرج وأشعلت واحدة. وتابعت الكلام: كان هذا هو الاسم الذي يدللني به. كنت احبه. كنت اقفز في انحاء حديقتنا الكبيرة جداً واهتف: أنا غزالة البابا، أنا غزالة البابا. لم الحظ الشر الكامن في اسم الدلال ذاك إلا بعد فترة طويلة.

الصحفي: اعذريني.. لم أفهم. فابتسمت وقالت:

نيلا: كان أبي يصطاد الغزلان يا سيد بوستولر.

كانتا تستطيعان المشي للوصول لشقة ماما، لكن المطر اشتد إلى إلى حد كبير. تكورت الأم في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة وهي ملفوفة بمعطف باري المطري وراحت تحدق من النافذة بصمت. بدت لباري مسنّة أكثر بكثير من سنواتها الأربعة والأربعين، بدت عجوزاً نحيلة وهشّة.

لم تذهب باري لشقة أمها منذ فترة. عندما فتحت باب الشقة ودخلتا وجدت نضد المطبخ مزدحماً بكؤوس النبيذ القذرة وأكياس

البطاطا المفتوحة والباستا النيئة. كما رأت أطباق طعام متحجر لا يمكن تمييزه. وكيساً ورقياً محشياً بزجاجات النبيذ الفارغة يكاد يقع عن المنضدة. شاهدت باري الصحف مرمية على الأرض وقد امتصت إحداها الدماء التي سالت من رأس أمها سابقاً في هذا المساء.. وعليها، يوجد جورب وردي وحيد. خافت باري على أمها من العيش وحيدة بهذه الحالة المزرية. وشعرت بالذنب، وهي تدرك تماماً أنه من المحتمل جداً أن تكون نية أمها من البداية. ومن ثم كرهت تلك الفكرة الأخيرة، باعتبار أنها إحدى أفكار جوليان. كان يقول أنها تحاول أن تُشعرك بالذنب، وقد ردد هذه العبارة على مسامعها عدة مرات خلال السنة الفائتة. وعندما قالها لأول مرة شعرت باري بالارتياح، شعرت بأنه فهمها. شكرت له قدرته على التفوه بما لا تستطيع هي أن تقوله، أولن تقوله. اعتقدت أنها وجدت لنفسها حليفاً. لكنها تتساءل هذه الأيام عن هذه النقطة بالذات. إنها تشعر ببعض الحقارة المبطنة في كلماته. وغياب تام لأيّ شفقة أو مودّة.

وجدت قطع الملابس متناثرة على أرضية غرفة النوم، تحف بها الدفاتر والكتب والصحف. وكأساً زجاجية مليئة بماء أصفر اللون من أعقاب السجائر المرمية فيه. كنست المجلات القديمة والكتب عن السرير بيديها وساعدت أمها للانزلاق تحت البطانيات. نظرت أمها إليها وهي تضع ظاهر إحدى يديها على الجرح المضمد فوق حاجبها. وقد بدت كممثلة تكاد تغيب عن الوعي في فلم صامت.

«هل ستكونين على ما يرام يا ماما؟».

«لا أعتقد هذا». قالت الأم دون أن تبدو كلماتها كالتماس للانتباه، بل قالت كلماتها بصوت متعب وصادق.

«أنت تخيفينني بهذه الطريقة يا أمي».

«هل ستغادرين الآن؟».

«هل تريدينني أن أبقى؟».

«نعم».

«حسناً، سأبقى».

«أطفئي النور».

«ماما؟».

«نعم».

«أما زلت تتناولين حبوبك تلك؟ هل توقفت عن تناولها؟ اعتقدت أنك توقفت».

«لا تبدئي بتوبيخي الآن. أطفئي النور».

جلست باري على طرف السرير وراقبت أمها وهي تغرق في النوم، ثم توجهت للمطبخ لتبدأ مهمة التنظيف المهولة التي تنتظرها. ارتدت زوجاً من القفازات المطاطية وبدأت بجلي الصحون وأكواب الحليب التي تفوح منها رائحة الحموضة، وسلطانيات الحبوب التي التصقت عليها بقايا الطعام، وأطباقاً وجدت عليها رقعاً ضبابية خضراء من التعفن. تذكرت المرة الأولى التي غسلت بها الأطباق في شقة جوليان صباح أول ليلة تقضيها معه. وقد طهى لها جوليان في ذاك الصباح الأومليت (العجة). كم استمتعت بتلك المهمة المنزلية البسيطة بعد تلك الوجبة أمام حوض مطبخه وهو يعزف لها أغنية لجين بيركين على الترومبيت.

التقت به مجدداً قبل عام، عام 1973، للمرة الأولى بعد عقد من افتراقه عن أمها. التقت به مصادفة في وقفة احتجاجية للطلاب من أجل منع صيد الفقمة أمام السفارة الكندية. لم تكن باري تريد الذهاب في ذلك اليوم فقد كان لديها وظائف تحليل بحاجة للإنهاء، لكن

كوليت أصرّت. كانتا تعيشان سوية في ذلك الوقت، وهو أمر كان يزعجهما باطراد متزايد ويثير استيائهما مع الوقت. فقد كانت كوليت تدخن الحشيش الآن. ارتدت كوليت لذاك اليوم رباطاً حول رأسها وسترة قرمزية واسعة مطرزة بالأقحوان والطيور. وقد جلبت للبيت معها شباناً فوضويين طويلي الشعر أكلوا طعام باري وعزفوا على الغيتار بشكل سيء جداً. كانت كوليت دائماً في الشوارع، تصيح وتشجب معاملة الحيوانات بوحشية، والتمييز العنصري والعبودية والاختبارات النووية الفرنسية في المحيط الهادئ. كانت الشقة تعج دوماً بالناس ولم تكن باري تعرف من يدخل ومن يخرج. وهكذا بدأت تشعر بتوتر خفيّ ما بينهما لدى وجودهما وحدهما في الشقة، بدأت تحسّ بغطرسة من ناحية كوليت ورفض صامتٍ لوجودهما معاً.

«إنهم يكذبون» قالت كوليت وهي تلوح بيديها: «يقولون أنهم يتعاملون مع الحيوانات بإنسانية.. إنسانية!! هل رأيت ما يستعملون لضرب تلك الحيوانات على رأسها؟ أولئك المتوحشين؟ وفي نصف الحالات لا تكون الحيوانات المسكينة قد ماتت بعد، ومع ذلك، يغرزون خطافاتهم فيها ويسحبونها إلى مراكبهم. يسلخون جلودها وهي حية... يا باري، حية!!». قالت كوليت هذه الكلمة الأخيرة بطريقة جعلت باري تشعر بالحاجة للاعتذار. لا تعرف لماذا، لكنها تعرف أن البقاء برفقة كوليت وغضبها ولومها هذه الأيام يضيق نفسها ويخنقها.

لم يحضر للوقفة الاحتجاجية سوى حوالي ثلاثين شخصاً. وانتشرت إشاعة عن حضور بريجيت باردو، وتبيّن مع الوقت أن كل ذلك كان مجرد إشاعة. خاب أمل كوليت بسبب الإقبال الخفيف وتجادلت بحدّة مع شاب شاحب نحيل يضع نظارات طبية اسمه إريك، والذي فهمت باري أنه المسؤول عن تنظيم الاحتجاج. أشفقت باري على إريك

المسكين. استلمت كوليت القيادة وهي تغلي. واختلطت باري بالصف الخلفي بجانب فتاة مستوية الصدر كانت تصيح بالشعارات بنبرة عصبية. أبقت باري عيناها مثبتتين على الرصيف وحاولت ألا تظهر للعيان.

نقرها رجل على كتفها عند زاوية الشارع وقال: «يبدو أنك بحاجة للإنقاذ من هذا المكان».

كان يرتدي سترة تويد فوق بلوزة وبنطال جينز ووشاحاً صوفياً. كان شعره أطول مما تذكر وقد كبر قليلاً، ولكن بشكل رائع، بطريقة تجعل بعض النساء يمتن من الغيظ والشعور بالإجحاف.. وما زال رشيقاً ومرناً كما تذكر، مع بعض الشعر الأبيض أكثر مما كان على الصدغين ولمسة من التعب الخفيف على وجهه.

«أنا كذلك بالفعل».

قبلا بعضهما على الخدين وقبلت على الفور دعوته لتناول القهوة.

«تبدو صديقتك غاضبة وكأنها ستقدم على الانتحار».

التفتت إليها باري ورأتها واقفة مع إيريك تصيح وتلوح بقبضتها بعنفٍ لا يخلو من السخافة وهي تحدق فيهما.

ابتلعت باري ضحكة قد تسبب ضرراً لا يمكن إصلاحه بينها وبين صديقتها. وبدلاً عن الضحكة استهجنت بإشارات من عينيها هجوم جوليان الباغت واعتذرت من بعيد ورحلت على الفور.

جلسا إلى منضدة بجانب النافذة في مقهى صغير. وطلب جوليان لكلاهما قهوة ومعجنات بالكاسترد. راقبته باري وهو يحدث النادل بنغمة التسلط الخفيفة التي تذكرها جيداً وأحست بنفس الارتجاف في الحلق الذي باغتها وهي فتاة عندما كان يحضر لأخذ ماما. انتبهت فجأة لأظافرها المقضومة ووجهها غير المزين وشعرها المجعد الذي تمنت

لو أنها جففته بمجفف الشعر بعد الحمام. لكنهـا كانـت متـأخرة علـى كوليت التي كانت تذرع المكان كحيوان سجين في قفص.

«لم أكتشف فيكِ المرأة الاحتجاجية من قبلُ» قال جوليان وهو يشعل لها سيجارتها.

«أنا لست كذلك. كان وقوفي هناك بسبب الشعور بالذنب أكثر منـه احتجاجاً».

«شعور بالذنب؟ من صيد الفقمات؟».

«من كوليت».

«آه، نعم. هل تعرفين أنها أخافتني بعض الشيء؟».

«كلنا نخاف منها».

ضحكا. اقترب لوسط المنضدة ولمس وشاحها. ثم أسقط يـده وقـال: «سيكون من التفاهة من قبلي أن أقول أنك نضجت، لذا لن أقول هـذا. لكنك تبدين فاتنة يا باري».

قرصت معطفها المطري وقالت: «ماذا؟ في هـذا الشكل الـذي يشبه المحققين البوليسيين؟» كانت كوليت تخبرهـا بـأن عادتهـا هـذه عـادة غبية، هذا النقد الساخر من الذات الذي تخفـي بـه بـاري توتزهـا مـن الرجال الذي تنجذب لهم. وخصوصاً عندما يمدحونها. حسـدت أمهـا للمرة الألف على ثقتها الطبيعية بنفسها.

«ومن ثم ستقول لي أنني أشبه اسمي».

«آه، لا، رجاء. سيكون هذا واضحاً جداً. إن مغازلة المرأة فنٌ أتقنه كما تعرفين».

«أنا متأكدة من أنك تتقنه».

أحضر النادل المعجنات والقهوة وركزّت باري نظرها على يديه وهما تضعان الكؤوس والصحون على الطاولة ويديها تنضحان عرقاً. لم يتجاوز

عدد عشاقها إلى الآن الأربعة، وهو عدد بسيط مقارنة بما حظيت به أمها في مثل سنها، وحتى بالنسبة لكوليت. كانت هي يقظة جداً وعاقلة ومرنة، أكثر ثباتاً وأقل استنزافاً للمشاعر من أمها أومن كوليت. إلا أن صفاتها هذه لم تكن تجذب الكثير من الرجال. لم تقع في حبّ أيٍ من الرجال الذين عاشرتهم، وتنام معهم وهي تفكر بوجه جوليان الوضّاء.

تحدث جوليان عن عمله وهما يأكلان. وقال أنه ترك التعليم من فترة وعمل على ثبات مستوى الديون لدى شركة IMF لبضع سنين. وقد كان السفر أفضل ما في عمله الجديد كما قال.

«أين سافرت؟».

«إلى الأردن، والعراق، ثم احتجت لسنتين لكتابة بحث عن الاقتصاديات الشكلية».

«هل نشرت بحثك؟».

«تلك إشاعة» ابتسم لها. وقال: «أنا أعمل لصالح مؤسسة استشارية خاصة الآن هنا في باريس».

«أريد أن أسافر أيضاً» قالت باري: «دائماً ما تردد كوليت أننا يجب أن نذهب لأفغانستان».

«أشك بأني أعرف السبب وراء قولها هذا».

«أنا أفكر في الموضوع منذ فترة. أفكر بالعودة إلى هناك. أعني، أنا لا أهتم بتدخين الحشيش، لكنني أريد أن أجول في تلك البلاد، أريد أن أرى أين ولدت، ولربما وجدت بيت والديّ القديم حيث عشت طفولتي».

«لم أدرك أنك تشعرين بالحنين لوطنك!».

«أنا أشعر بالفضول لأنني لا أذكر أشياء كثيرة».

«أذكر أنك ذكرت مرة شيئاً عن طبّاخ ما».

شعرت باري بالإطراء لأنه تذكر شيئاً كانت قد أخبرته به قبل العديد من السنوات. لا بد أنه فكر بها طوال كل ذلك الوقت. لا بد أنها بقيت في باله رغم مرور السنين.

«نعم. اسمه نبي. كان سائق أبي أيضاً، الذي يقود له سيارته الأميركية الزرقاء ذات السطح الرمادي. أذكر وجود رأس نسر على مقدمة غطاء محركها».

تبادلا الحديث بعد ذلك عن دراساتها حول التغيرات المعقدة. وقد أنصت لها بطريقة لم تقم بها الأم يوماً، لأن الملل كان يصيبها من الموضوع وتتملكها الحيرة من شغف باري به. لم تحاول الأم التصنع حتى بالاهتمام باختصاص باري في يوم من الأيام. وكانت تسخر ظاهرياً من جهلها (الأم) بتلك المواضيع. كانت تقول: أوه لا لا وهي تكشّر بحاجبيها، رأسي، رأسي! ! يدور مثل الدوامة. سأعقد معك اتفاقاً يا باري، سأصنع لنا بعض الشاي مقابل أن تعودي إلى كوكب الأرض. وتضحك من جديد. وقد تشاركها باري المزاح في بعض الأحيان، لكنها كانت تشعر بالتوبيخ المبطن داخل هذا النوع من النكات، كانت تفهم أن معرفتها ودراستها مجرد أشياء غيبية باطنية وأن سعيها لمتابعة الدراسة أمر طائش من وجهة نظر أمها. وقد صرفت باري النظر عن الاهتمام برأي أمها لأنها كانت شاعرة لا تجد في العلم مجرد طيش.

سألها جوليان عمّا وجدته في الرياضيات، فقالت أنها وجدت الرياضيات مريحة. فقال:

«أعتقد أني كنت سأقول أنها مثيرة للرهبة بدلاً من الراحة».

«إنها كذلك أيضاً».

قالت أنها وجدت الراحة في ثبات الحقائق الرياضية وديمومتها، في

قلة الكلام وغياب الغموض، في معرفة أن الأجوبة قد تكون خادعة ووهمية، إلا أنها ممكنة مهما كانت. كل الإجابات موجودة هناك، مجرد رسومات طباشير تنتظرها للحل على سبورة.

«لا شيء يماثل الحياة. بكلمات أخرى.. يُمضي الإنسان حياته وهو يسأل الأسئلة دون أن يجد لها إجابات.. حتى لو كانت إجابات فوضوية أو معقدة».

«هل أنا شفافة لهذا الدرجة؟» ضحكت باري وخبأت وجهها وراء منديل «أنا أبدو بلهاء».

«على العكس» وأبعد المنديل عن وجهها «على العكس تماماً».

«أنا بلهاء كتلاميذك، أنا أذكّرك بتلاميذك».

سألها مزيداً من الأسئلة، وقد أدركت باري سعة اطلاعه في مجال نظرية الأعداد التحليلية، ولو بشكل عابر مع نظرية كارل غاس وبرنارد ريمان. تكلما إلى أن حلّ المساء. شربا القهوة وبعدها البيرة التي أدت إلى النبيذ. وبعد كل ذلك.. عندما لم يكن بإمكانه تأجيل السؤال أكثر من هذا.. سألها بنغمة مهذبة «وأخبريني.. كيف هي نيلا؟».

نفخت باري خديها وتركت الهواء يخرج من فمها ببطء. فأومأ جوليان بتفهم.

«قد تفقد المكتبة» قالت باري.

«أنا آسف لسماع هذا».

«الأعمال تتراجع منذ سنوات، قد تغلقها. وهي لا تريد الاعتراف بالأمر، سيكون الأمر ضربة قاصمة بالنسبة لها».

«هل تكتب؟».

«لم تكتب منذ زمن بعيد».

غيّر جوليان الموضوع، مما أراح باري لأنها لم تكن ترغب بالحديث

عن إدمان أمها على الكحول وكفاحها لإرغام أمها على تناول أدويتها. تذكرت باري تبادلهما النظرات الغريبة عندما كانا يبقيان وحدهما كلما تركتهما ماما لترتدي ملابسها في الغرفة المجاورة، تذكرت نظرته لها ومحاولتها التفكير في أي شيء لقوله. لا بد أن أمها شعرت بشيء ما. هل يمكن أن يكون ذاك سبب انفصالها عن جوليان؟ وإذا كان الأمر كذلك فإن غيرتها كانت أقوى بكثير من خوف الأم الغريزي على ابنتها من الوقوع في شباك الرجل.

طلب منها جوليان بعد عدة أسابيع الانتقال للعيش معه في شقته. وهي شقة صغيرة تقع على الجانب الأيسر من الدائرة السابعة. قبلت باري على الفور بعد أن حوّلت كوليت الشقة لمكان لا يمكن العيش فيه.

تتذكر باري يوم أحدها الأول في شقته. كانا مسترخيين على أريكته بجانب بعضهما البعض وكانت هي نصف مستيقظة بسرور شديد. أما هو فقد كان يشرب الشاي ويضع ساقيه على الطاولة التي أمامه ويقرأ مقالة نقدية على الصفحة الختامية للصحيفة. بين الحين والآخر، كانت باري تحرك رأسها المستلقي على صدره، ويقوم هو بطبع قبلة ناعمة على جفنها أو أذنها أو أنفها.

«يجب أن نخبر أمي عن علاقتنا».

أحست بتوتر أعصابه، طوى الصحيفة وأزال نظارات القراءة ووضعها على ذراع الأريكة.

«يجب أن تعرف».

«أفترض ذلك» قال.

«تفترض؟».

«لا، بالطبع أنت على حق. اتصلي بها وأخبريها. ولكن كوني حذرة.. لا تطلبي منها إذناً أو موافقة من أي نوع لأنها لن تمنحك منها

شـيئاً. أخبريهـا فقـط. وكـوني صـارمة لـتفهم أنـك لا تفاوضـينها أو تساومينها على أي شيء».

«قول هذا سهل».

«حسناً، ربما. ومع ذلك، تذكري أن نيلا امـرأة حقـودة. أنـا آسـف لأني أقول هذا، لكـن هـذا كـان سـبب انفصـالنا. إنهـا حقـودة بشـكل مدهش. ولذا فأنا أعرف. لن يكون إخبارها سهلاً بالنسبة لك».

تنهدت باري وأغلقت عينيها. تشنجت معدتها من مجرد التفكير في الأمر. مسّد جوليان ظهرها براحة يده وقال:

«لا تكوني حساسة جداً».

اتصلت باري بأمها في اليـوم التـالي وفوجئـت بأنهـا كانـت تعـرف بالأمر.

«من أخبرك؟».

«كوليت» بالطبع، فكرت باري بصمت.

«كنت سأخبرك».

«أعرف أنك كنت ستخبرينني، وها أنت تفعلين ذلك. لا يمكن لمثل هذا الأمر أن يبقى سراً، شيء كهذا..».

«هل أنت غاضبة مني؟».

«وهل يهمك غضبي؟».

وقفـت بجانـب النافـذة ونظـرت لمنفضـدة سـجائر جوليـان القديمـة المحطّمة. أغلقت عينيها وقالت:

«لا ماما، رأيك غير مهم».

«أتمنى لو كنت أستطيع أن أقول لك أن الأمر لم يؤلمني».

«أنا لم أتعمد إيذائك».

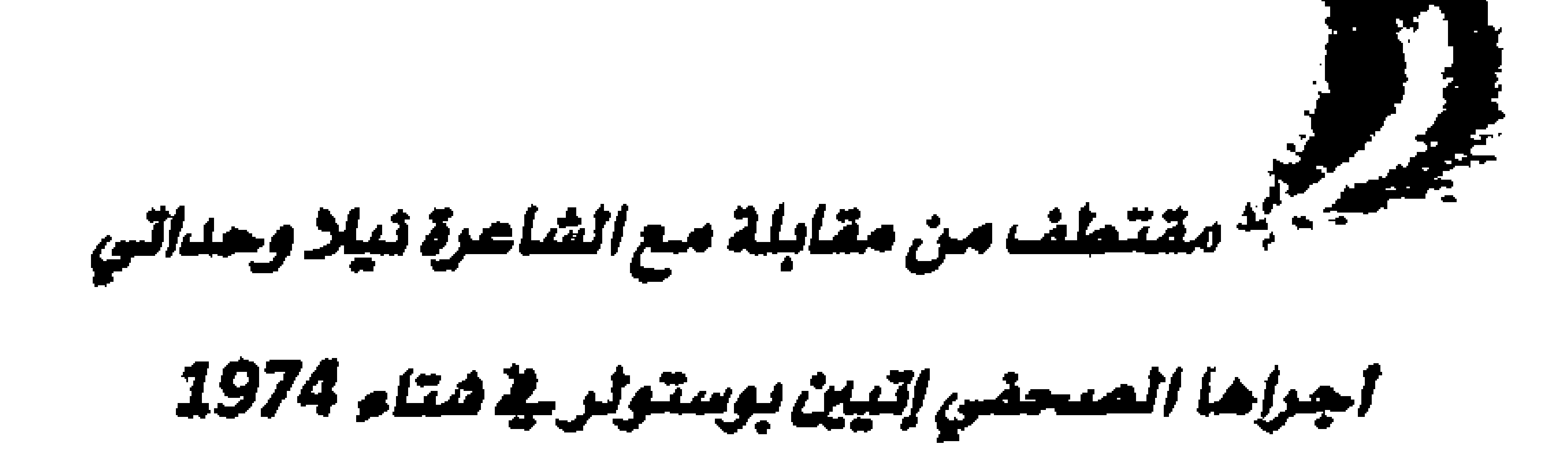
«إن ذلك أمر قابل للنقاش جداً».

«لماذا قد أريد إيذائك؟ يا ماما؟».

ضحكت الأم بصوت أجوف بشع.

«أنظر إليك أحياناً ولا أرى فيك أي شيء يشبهني، بالطبع لا تشبهينني. أعتقد أن هذا أمر متوقع. أنا لا أعرف أي نوع من الأشخاص أنت يا باري. أنا لا أعرفك، ولا أعرف ما أنت قادرة على فعله، بقدراتك الجينية الخاصة. أنت غريبة كلياً عني».

«أنا لا أفهم ما تعنين؟» قالت باري، لكن أمها أغلقت السماعة.



مقتطف من مقابلة مع الشاعرة نيلا وحداتي

أجراها الصحفي إتيين بوستولر في شتاء 1974

الصحفي: هل تعلمت الفرنسية هنا؟

نيلا: لقد علمتني أمي الفرنسية في كابول عندما كنت طفلة صغيرة. كانت تتحدث معي بالفرنسية فقط. وكنا ندرسها كل يوم. لقد عذبني فراقنا عندما تركتُ كابول.

الصحفي: هل عادت إلى فرنسا؟

نيلا: طلّق ابواي عام 1939 عندما كنت في العاشرة من العمر. ولم يكن ذهابي معها امراً قابلاً للنقاش. لذا بقيتُ، وغادرت هي إلى باريس لتعيش مع شقيقتها آجنيس. حاول أبي إلهائي عن خسارتي لأمي بشغل وقتي مع معلم خاص وفي دروس ركوب الخيل والفنون. لكن غياب الأم امرٌ لا يمكن تعويضه.

الصحفي: ماذا حدث معها؟

نيلا: آه، لقد ماتت عندما دخل النازيون فرنسا. لم يقتلوها هي.. قتلوا خالتي آجنيس. ماتت أمي بمرض ذات الرئة. لم يطلعني أبي على ذلك إلى أن

حرر الحلفاء باريس. لكنني كنت قد عرفت بالأمر قبل ذلك.

الصحفي: لا بد وأن ذلك كان صعباً عليك.

نيلا: كان مدمراً. كنت احب امي كثيراً وكنت قد وضعت الخطط للعيش معها في فرنسا بعد الحرب.

الصحفي: أفترض انك تعنين انك وأباك لم تتفقا.

نيلا: كان التوتر يسود بيننا. كنا نتجادل كثيراً وهذا كان أمراً جديداً عليه، لم يكن متعوداً على أن يُناقشه احد، وعلى الأخص امرأة. كنا نتشاجر بسبب ما ارتديه وما أقوله وكيف قلته ولمن قلته. تحولت لشخص عنيد ومغامر، بينما كان هو شخصاً زاهداً وصارماً عاطفياً. كنا قد أصبحنا ندين طبيعيين لبعضنا. ضحكت وشدت عقدة المنديل خلف رأسها. وتابعت : وبعد ذلك.. بدأت اقع في الحب مع الأشخاص الخطأ من وجهة نظر ابي اليائس والمرعوب. احببت ابن مدبرة المنزل مرة، وموظفاً متدني المستوى يعمل لدى والدي مرة أخرى. وكلها كانت علاقات محكومة بالفشل منذ بدايتها مع كل العواطف المتهورة والمسعورة التي كنت أشعر بها. كنت أرتب اللقاءات السرية وأهرب من البيت وكان أحدهم يخبر والدي بالطبع عن رؤيتي في مكان ما في الشوارع. كانوا يخبرونه دوماً بأنني استعرض نفسي أو أعرضها، دائماً ما استعملوا هذه الكلمة. وكان أبي يرسل فرقة بحث لإعادتي للمنزل. ويقفل عليّ الأبواب لأيام ويقول لي من الجانب الآخر للباب: انت تُذلينني، لماذا تريدين إذلالي؟ ماذا افعل بك؟ وأحياناً كان يجيب على سؤاله بواسطة حزامه، او بقبضته. كان يركض ورائي في أنحاء الغرفة. اعتقد انه كان يحاول إخافتي لأستسلم. كنت اكتب كثيراً في تلك الفترة. اكتب قصائد مخزية تنضح بالعواطف الفتية، واخشى أنها كانت ميلودرامية مسرحية بالأحرى ايضاً...عن العصافير الحبيسة في اقفاص والعشاق المقيدين بالأصفاد...ذاك النوع من الأشياء. لست فخورة بها. أعتقد أن التواضع المزيف ليس ما هي عليه في الحقيقة ومن أجل ذلك أظن ان

تقييمها هذا لأعمالها المبكرة صادق للغاية. وإذا كان ذلك صحيحاً فإنها قاسية عديمة الرحمة مع نفسها. إن قصائدها التي تعود لتلك البدايات المبكرة مذهلة وصادمة، حتى بعد ترجمتها باعتبار عمرها الصغير لدى تأليفها. إنها مؤثرة، غنية بالصور التشبيهية والعاطفة والبصيرة والصدق، تخبرنا فيها بشكل جميل عن الوحدة والحزن الذي لا يسعه العالم. دونت في تلك القصائد إحباطاتها، نجاح وإخفاق حبها الصغير المتالق والواعد والخادع. كما تتمتع تلك القصائد غالباً إحساس شفاف بالخوف من اقتراب النهايات. وصراع دائم ضد استبداد الظروف التي يمثلها شخص شرير دون اسم. وهو تلميح واضح لوالدها. أخبرتها بأفكاري هذه وقلت:

الصحفي: كما أنك لا تستعملين في قصائدك أي إيقاع أو قافية كما هو حال الشعر الفارسي الكلاسيكي. أنت تستعملين بدلاً عنها سيلاً متدفقاً من الصور البيانية والتفاصيل الغنية العشوائية. كانت قصائدك هذه رائدة جداً في هذا المجال في ذلك الوقت. هل من المنصف أن نقول أنك لو ولدت في بلد أغنى وأكثر تحضراً، لنقل إيران مثلاً ، هل كان من الممكن أن تكوني شاعرة معروفة ورائدة أدبية مجددة؟ ابتسمت الشاعرة لي ابتسامة جانبية وقالت:

نيلا : تخيل هذا!

الصحفي: أنا مازلت مصدوماً بما قلته قبل قليل. أنك لا تشعرين بالفخر بتلك القصائد. هل يعجبك أي من أعمالك؟

نيلا : سؤالك يخصك وحدك. أعتقد أني سأجيب بنعم. إذا استطعت فصل أعمالي عن عملية الإبداع ذاتها.

الصحفي: تعنين أنك تريدين فصل النتيجة عن الوسيلة أو الأداة؟

نيلا: أرى أن العملية المبدعة هي لصوصية بالضرورة. إبحث بين سطور قطعة شعرية جميلة يا سيد بوستولر وستجد أموراً مخزية. إن الخلق والإبداع يخرب حياة الناس الآخرين ويحولهم إلى مشاركين في ما تكتبه دون أي رغبة أو رضا

من قبلهم. أنت تسرق أحلامهم ورغباتهم وتعرض عيوبهم وتستبيح لنفسك سرد معاناتهم. تأخذ منهم ما لا تملكه، وتفعل كل ذلك بنية وبمعرفة مسبقة من طرفك.

الصحفي: وقد كنت ماهرة جداً في فعل هذا.

نيلا: لم أكن اقوم بهذا من أجل الفن لأجل الفن، بل لأنني لم أمتلك خياراً آخر. كان تياره اقوى مني بكثير. كنت سأفقد صوابي ما لم استسلم له. وتسألني إذا ما كنت فخورة. أجد الافتخار بشيء حصلت عليه من خلال اساليب مشكوك بأمرها شيئاً صعباً. أترك القرار في هذا للآخرين. «» أفرغت كأسها في جوفها وملأته من جديد بما بقي في الزجاجة. ومن ثم تابعت كلامها.

نيلا: ما استطيع إخبارك به هو أن لا أحد في كابول كان يأخذني على محمل الجد. لم يعتبرني أحد هناك رائدة في أي شيء إلا في الذوق المتردي و الفسق وقلة الأخلاق، ناهيك عن الجميع، كان أكبر معارض لي هو أبي. قال أن كتاباتي هي حكايات عاهرة. استعمل تلك الكلمة بعينها. قال أني اسيء لاسم عائلته وأن الضرر المترتب عن هذا لا يمكن إصلاحه. قال أني خنته وسألني لماذا اجد صعوبة في أن اكون محترمة.

الصحفي: كيف كنت تردين عليه؟

نيلا : كنت اقول له أني لا اهتم بفكرته عن الاحترام. وأخبرته اني لا انوي أن اكون مربوطة بحبل كبقية النساء.

الصحفي: افترض انك اغضبته أكثر بهذا الكلام.

نيلا: هذا أمر طبيعي. ترددت في أن اقول هذا لك.

الصحفي: لكني افهم سبب غضبه. رفعت حاجبها ونظرت إلي بطريقة مختلفة. فتابعت : كان اباك، اليس كذلك؟ وقد كنت تتحدين بشكل مباشر كل شيء يعرفه ويحترمه ويقدره ويقدسه، بطريقة حياتك وكتاباتك

على حد سواء، للحصول على مكاسب جديدة للمرأة، لكي يكون للنساء رأي بخصوص أنفسهن، لكي تصلن لدرجة جيدة من التحكم بحياتهن الخاصة. لقد كنت تتحدين احتكار أمثاله من الرجال للمجتمع الذي دام عصوراً. لقد قلت ما لم يمكن قوله. قمتِ وحدك بثورة نسائية صغيرة إذا ما كنا نستطيع قول هذا.

نيلا: وأنا التي كنت أعتقد اني كنت أكتب عن الجنس.

الصحفي: ذلك جزء منها، من الثورة. قلبت بين أوراقي وذكرت لها بعض عناوين القصائد الجنسية العلنية: أشواك، في انتظارك، الوسادة. كما اعترفت لها أنها ليست قصائدها المفضلة بالنسبة لي. شرحت لها أن هذه القصائد تفتقد للغموض والأفكار، وكأنها كُتبت لتشعر القارئ بالصدمة. صدمتني تلك القصائد بغضبها وانفعاليتها كما هي تماماً الأدوار الاجتماعية الذكورية الأفغانية.

نيلا: لقد كنت غاضبة من الفكرة السائدة هنالك بأن عليهم أن يحموني من الجنس. بأن عليّ أن أحذر من جسدي. لأنني كنت امرأة. والنساء هنالك.. إذا لم تكن تعرف.. كيانات غير ناضجة عاطفياً أو أخلاقياً أو عقلياً، يفتقرن لضبط النفس، أي أنهن معرضات للإغواء الجسدي أكثر من الرجال. هن كائنات هائجة جنسياً يجب المحافظة عليهن كي لا يقفزن إلى السرير مع أي أحمد أو محمود يمر من أمامهن.

الصحفي: اعذريني لقولي هذا.. لكنك قمت بتلك الأمور بنفسك. أليس كذلك؟

نيلا : قمت بذلك كفعل احتجاج على تلك الفكرة بالذات. ضحكت الشاعرة بحيوية عالية عابقة بالذكاء المراوغ. سألتني إذا ما كنت أحب تناول الغداء معها وقالت أن ابنتها ملأت لها الثلاجة مؤخراً وقامت بالفعل بعمل شطيرة جامبون مدخن ممتازة لي وفتحت لنفسها زجاجة نبيذ جديدة وأشعلت

سيجارة أخرى، ومن ثم جلست.

نيلا: هل توافقني أن نبقى على اتفاقنا من أجل خير هذا الحوار يا سيد بوستولر؟ أخبرتها أني موافق. فتابعت: إذاً اصنع معي معروفين.. كل شطيرتك وتوقف عن التحديق في كأسي. وقد قمعت ملاحظتها هذه أي ميل كان عندي لسؤالها عن وضعها مع الشراب.

الصحفي: ماذا حدث بعد هذا؟

نيلا: مرضتُ عام1948 عندما كنت في التاسعة عشرة تقريباً. وقد كان مرضي خطيراً. أخذني أبي للعلاج في دلهي وبقي معي ستة أسابيع بينما اهتم بي الأطباء. أخبروني بأني أوشكت على الموت. لربما كان يجب أن أموت وقتها. فالموت وظيفة جيدة لشاعرة شابة. عندما رجعنا انسحبت من الحياة الاجتماعية وشعرت أني ضعيفة. لم أكتب. لم أكن أتناول الطعام أو أتحادث مع أي أحد. كنت مكروهة من قبل الزوار. كنت أريد أن أغلق الستائر وأنام طوال النهار كل يوم. وهو ما كنت أفعله غالباً. في النهاية نهضت من السرير واستأنفت روتين حياتي ببطء. وأعني بهذا الضروريات الأساسية التي يقوم بها الفرد ليبقى شخصاً متمدناً. لكني كنت محطمة. وكأني فارقت شيئاً أساسياً من ذاتي في الهند.

الصحفي: هل اهتم والدك بحالتك؟

نيلا: على العكس تماماً. لقد تشجع. اعتقد أبي أن لقائي بالموت انتزع مني تمردي وعدم نضجي وانفلاتي. لم يفهم أني شعرت بالضياع. لقد قرأت مرة يا سيد بوستولر أنه عندما يغمرك انهيار ثلجي وتستلقي تحت كل ذاك الثلج، فإنك لن تعرف الأعلى من الأسفل، ستفقد الإحساس بالاتجاه. سوف تحفر لنفسك طريقاً للخارج لكنك ستحفر بالاتجاه الخاطئ، وبدلاً من أن تنجو بنفسك ستقود نفسك لفنائك بيديك. هكذا كنت أشعر. كنت حائرة مشوشة دون بوصلة. ومحبطة بشكل لا يمكن وصفه أيضاً. ولهذا قبلت الزواج في

العام التالي ، عام 1949 ، عندما طلبني سليمان وحداتي من والدي.

الصحفي: كنت في العشرين من عمرك.

نيلا: لم يكن هو في عشرينياته. وقدمت لي شطيرة أخرى رفضتها وطلبت بدلاً عنها فنجان قهوة. سألتني إن كنت متزوجاً وهي تنتظر الماء ليغلي. أخبرتها اني لست كذلك وانني اشك في اني سأتزوج يوماً من الأيام. نظرت لي من فوق كتفها وحدقت بعبوس.

نيلا: أستطيع عادة ان أخمن

الصحفي: هل تفاجئك عزوبيتي؟

نيلا: ربما فشلت في التخمين هذه المرة بسبب الارتجاج. وأشارت للرباط على رأسها.

نيلا: هذا ليس شيئاً أرتديه بسبب الموضة.. لقد انزلقت ووقعت قبل يومين. جرحت جبهتي. ومع ذلك، كان يجب أن أعرف. أعني ، واقول هذا من خبرتي، إن الرجال الذين يفهمون المرأة كثيراً مثلك نادراً ما يفكرون بالارتباط . وناولتني القهوة، أشعلت سيجارة وجلست. ثم تابعت: لدي نظرية حول الزواج يا سيد بوستولر. وهي تقول إن أسبوعين من الزواج كافيين ليقولا لك إذا كان هذا الزواج سينجح أوسيفشل. ومن المدهش بالنسبة لي وجود الكثير من الناس الذين يرضون بالبقاء داخل سجن الزواج لسنوات، أو حتى عقود. وهم غارقين في حالة مطولة ومتبادلة من خداع الذات والأمل المزيف بينما يعرفون الإجابة من أول أسبوعين في حياتهم الزوجية. أنا لم أكن بحاجة لكل ذلك الوقت مع زوجي. لقد كان رجلاً محترماً، لكنه كان رجلاً جاداً أكثر من اللازم ومملاً للغاية. كما أنه كان عاشقاً لسائقه الخاص.

الصحفي: لا بد وأن ذلك قد شكل لك صدمة.

نيلا: لقد زادت مثليته من أموري تعقيداً. ابتسمت بحزن وتابعت: شعرت بالأسى عليه. لم يكن بإمكانه اختيار وقت أو مكان أسوأ من الوقت والمكان اللذين

ولد فيهما. لقد مات بالسكتة القلبية عندما كانت ابنتنا في السادسة. كنت أستطيع البقاء في كابول لأنني امتلك البيت وثروة زوجي، وكان لدي بستاني وسائق ذكرته من قبل. كنت استطيع البقاء لأعيش حياة مريحة. لكنني حزمت الحقائب وسافرت بابنتي باري. إلى فرنسا.

الصحفي: وقد فعلت هذا لمصلحتها هي كما ذكرت قبلاً.

نيلا: كل ما فعلته يا سيد بوستولر فعلته من أجل ابنتي. وهي لا تفهم ولا تقدر ما فعلته لأجلها. إنها طائشة بشكل مدهش. لأنها لو عرفت الحياة التي كان من الممكن أن تعيشها هناك..

الصحفي: هل خيّبت ابنتك آمالك بها؟

نيلا: يا سيد بوستولر، لقد استنتجت أنها عقابي في هذه الحياة.

وصلت باري إلى منزلها الجديد أحد أيام عام 1975 ووجدت رزمة صغيرة على السرير. حدث ذلك بعد عام من إحضارها لأمها من غرفة الطوارئ ذاك اليوم، وبعد تسعة أشهر على تركها لجوليان. إنها تعيش الآن مع طالبة في مدرسة التمريض اسمها زهية. امرأة جزائرية شابة ذات شعر أسود مجعد وعينين خضراوين. كانت فتاة واعدة مبتهجة على الدوام ومتجددة. وهما تعيشان سوية بسهولة. وللأسف، فإن زهية مخطوبة لصديقها سامي وستنتقل للعيش معه في نهاية الفصل الدراسي.

وجدت ورقة مطوية بجانب الرزمة، فتحتها ووجدت أن زهية كتبت: وصل هذا الطرد لك، سوف أقضي الليلة في بيت سامي. أراك غداً. زهية.

فتحت باري الطرد. ووجدت فيه مجلة، وملاحظة مرفقة معها بخط

ناعم مألوف: لقد أرسل هذا الطرد إلى بيت نيلا وثم إلى البيت الذي كانت تسكنه كوليت والآن وصل إليّ. أرجو أن تجددي عنوانك. اقرئي هذا في وقت فراغك. لن يستطيع أي منا أن يحكم بعدل، كما أخشى. جوليان.

رمت باري المجلة على السرير وصنعت لنفسها سلطة سبانخ وبعض الكوسكوس. ارتدت منامتها وشاهدت التلفاز وهي تأكل. شاهدت دون انتباه عملية إنقاذ لاجئين من فييتنام الجنوبية وإجلائهم إلى غوام. فكرت بكوليت، التي تحتج على حرب أميركا ضد فييتنام في الشوارع. كوليت التي وضعت إكليلاً من أزهار الداليا والأقحوان على قبر أمها.. واحتضنت باري وقبلتها وأسمعت الحضور إلقاءً جميلاً منها لإحدى قصائد المتوفاة.

لم يحضر جوليان الجنازة معللاً ذلك بأنه يكره المناسبات التذكارية، لأنها يجدها محبطة. ومن لا يجدها كذلك؟

«كما تحب». قالت باري له في سماعة الهاتف. وفكرت.. عدم حضورك لن يبرئك. كما لن يبرئني حضور المراسم أيضاً. كم كنا متهورين وطائشين. يا إلهي. عاشت باري مع جوليان وهي مدركة تماماً بأنها ستكون الضربة القاضية على أمها. أغلقت السماعة وهي تعرف أن الذنب سيرافقها بقية حياتها، وأن الندم الفظيع سيخنقها وسيؤلمها حتى العظام. ستعيش مع الذنب والندم كل الأيام القادمة من حياتها، وستشعر بهما دوماً كصنبور الماء الذي تهدر ماؤه قطرة فقطرة في أعماق ذهنها، دوماً وإلى الأبد.

استحمت بعد العشاء وراجعت بعض الملاحظات لامتحانها القادم. ومن ثمّ شاهدت التلفاز مجدداً ونظفت الصحون وجففتها ومسحت أرضية المطبخ. لكن محاولاتها هذه بإلهاء نفسها عن المجلة باءت

بالفشل. جلست المجلة على السرير تدعوها بنغمة منخفضة هامسة.

ارتدت معطفها المطري فوق منامتها وخرجت لتمشي أسفل البوليفارد دي شابيل. كان الهواء بارداً وقطرات المطر تصفع الرصيف وواجهات المتاجر الزجاجية. لكن الشقة لا تستطيع احتواء تخبطها الآن. إنها تحتاج الهواء البارد والرطب والفضاء المفتوح.

تذكرت باري أنها كانت تسأل الكثير من الأسئلة عندما كانت صغيرة: هل لدي أقرباء في كابول؟ هل لدي عمات وأعمام؟ هل لدي جد وجدة؟ لماذا لا يزوروننا أبداً؟ هل نستطيع أن نرسل لهم رسالة؟ هل نستطيع زيارتهم من فضلك؟

دارت معظم أسئلتها حول أباها.. ما كان لونه المفضل يا ماما؟ هل كان سباحاً ماهراً؟ هل كان يروي النكات يا ماما؟ كانت تذكر أنه ركض وراءها مرة في الغرفة ودحرجها على السجادة ودغدغ بطن قدميها وبطنها. تذكر من ذلك اليوم رائحة صابون اللافندر الفواحة منه ولمعان جبهته العالية وأصابعه الرشيقة الطويلة. وأزرار كميه الفيروزيين البيضويين، وتكاد ترى أمامها الآن ذرات الغبار المتصاعدة من السجادة بعد لعبهما عليها.

كل ما كانت باري تريده من أمها هو أن تجمع شذرات ذكرياتها المفككة والمتباعدة وأن تساعدها لتحويل ما تذكره إلى نوع من التسلسل المتماسك للأحداث. لكن ماما لم تكن تقول الكثير. حجبت عنها الكثير عن طفولتها وحياتها الزوجية في كابول. أبقت باري بعيدة عن الماضي إلى أن توقفت الصغيرة عن السؤال.

ويظهر الآن أن ماما أفصحت بكل شيء لهذا الصحفي في المجلة؟ أخبرت إتيين بوستولر عن نفسها وعن حياتها في ذلك اللقاء كما لم تفعل مع ابنتها الوحيدة على مر السنين.

قرأت باري اللقاء الصحفي ثلاثة مرات ولم تعرف ما يجب أن يكون رأيها، أو ما يجب أن تصدقه من كل هذا. فقد بدا لها الكثير منه مزيفاً. بدا لها مقطع منه كمحاكاة ساخرة للواقع، ووجدت في مكان آخر ميلودراما بشعة تحكي عن جميلات مقيدات ورومانسيات منكوبة وظلم ما بعده ظلم، في إطار متفائل ومثير.

خرجت باري واتجهت إلى الشمال نحو شارع بيجال بسرعة ويداها محشورة في جيوب معطفها المطري. أظلمت الدنيا حولها بسرعة، واشتدت قطرات المطر المتساقطة على وجهها ثقلاً وثباتاً، لطخت المياه النوافذ وأضواء السيارات. لا تذكر باري أنها التقت بجدها والد أمها، لكنها شاهدته في تلك الصورة الوحيدة وهو يقرأ على مكتبه. وهي تشك في أن يكون ذات الوغد ذي الشارب الذي صورته أمها للصحفي. اعتقدت باري أنها تفهم ما وراء هذه القصة. إنها تفهم أمها جيداً. وترى في جدها رجلاً قلقاً بشكل مشروع على ابنته التي تدمر نفسها بنفسها وتخرب حياتها بيديها. رأت فيه رجلاً يعاني من الإذلال والإهانات المتكررة لكرامته ويقف بجانب ابنته رغم كل ما تفعله به. أخذها للهند عندما مرضت وأقام معها ستة أسابيع هناك. وفيما يتعلق بهذا الأمر... ما كانت حقيقة مرض الأم؟ ماذا فعلوا لها في الهند؟ تساءلت باري وفكرت في الجرح الشاقولي على بطن أمها. سألت زهية عن الأمر فأجابتها أن جرح العملية القيصرية هو جرح أفقي.

ومن ثم فكرت في قالته أمها للصحفي عن والدها.. هل كانت أقوال الأم افتراءات؟ هل كان يحب السائق نبي؟ وإن كان ذلك حقيقياً، فلماذا تكشفه الآن بعد كل هذا الوقت إن لم يكن لتشويه صورته؟ لتذله وتُثير شفقة الآخرين؟ وإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا؟

أما في ما يخصها، فلم يفاجئها أسلوب والدتها المنفر في الحديث

عنها، بعد قصتها مع جوليان، كما لم تفاجئها طريقتها في الحديث عن أمومتها العقلانية والراقية.

محض أكاذيب.

ورغم هذا..

كانت أمها كاتبة موهوبة. لقد قرأت باري كل كلمة كتبتها بالفرنسية في حياتها وكل القصائد التي ترجمتها عن الفارسية أيضاً. كان إنكار القوة والجمال في أسلوبها مستحيلاً. ولكن.. إذا كان ما روته الأم في المقابلة كذباً، فمن أين أتت بأفكار شعرها؟ من أين كانت الكلمات الصادقة الرائعة والمتوحشة الحزينة تنبع؟ هل كانت موهوبة في الخداع؟ هل كانت ساحرة بقلمها بدل العصا السحرية، ساحرة قادرة على تحريك العواطف التي لم تختبرها بنفسها؟ هل كان ذلك ممكناً حتى؟

باري لا تعرف أنها لا تعرف أي شيء. ولربما كان هذا هو قصد أمها الحقيقي منذ البداية، أن تهز عالم باري، أن تقلبه رأساً على عقبٍ عمداً، لتحولها إلى شخص غريب عن نفسه، لتزيد الشك في ذهنها حول كل ما كانت باري تعتقد أنها تعرفه عن حياتها، لتجعلها تشعر بالضياع كما لو كانت تهيم ليلاً في صحراء، محاطة بالظلمة والمجهول، وكي تشعر بالحقيقة غائمة، كنور صغير جداً يومض في البعيد على نحو متقطع، متحرك مراوغ ومنحسرٍ إلى الأبد.

اعتقدت باري أنه لربما كانت هذه عقوبة ماما لها على علاقتها بجوليان، وعلى الإحباط الذي كانته دائماً بالنسبة لأمها. باري، التي كان من المفترض أن تضع حداً لمعاناة أمها مع الشراب وعلاقاتها مع الرجال، والسنين المهدورة في محاولة إيجاد السعادة. انتهت كل تلك الأهداف كما كانت. وكانت كل جَلدة إحباط تترك الأم أكثر انكساراً وانحرافاً، وأكثر وهماً عن السعادة. ماذا كنت بالنسبة لك يا أمي؟

فكرت باري. ما الذي كان يفترض بـي أن أكـون عليـه بعـد أن ولـدت منك، من رحمك، هذا إذا افترضنا أنني ولدت من رحمـك؟ هـل كنـت بذرة الأمل في حياتك؟ هل كنت تذكرة اشتريتها لتتحرري مـن الظـلام؟ هل كنت ضماداً وضعتِه ليشفيك من تلك الندبة في قلبـك؟ وإذا مـا كـان ذلك صحيحاً، فأنا لم أكن كافية لكِ. لم أكن كافية لـكِ ولـو قـليلاً. لم أكن بلسم ألمك. كنت مجرد درب مسدود آخر في حياتك، مجـرد عبئ عليكِ، ولا بد من أنك اكتشفت هـذا مبكـراً جـداً. لا بـد أنـكِ أدركتـه. ولكن.. مـا الـذي كـان يمكـن أن تفعليـه؟ لا يمكنـك أن تـذهبي لمتجـر لتبيعيني بكل بساطة.

ربما مثّلت لك هذه المقابلة ضحكتك الأخيرة في الحياة.

احتمت باري بمظلة مصنع بيرة من المطر الشديد غرب المشفى الذي تتدرب فيه زهية. أشعلت سيجارة. يجب أن تطلب كوليت. تحادثتا مرة أو مرتين منذ حفل تأبين أمها. كانتا تمضغان كميـة كـبيرة مـن العلكـة عندما كانتا صغيرتين إلى أن يتعب فكاهما، وتجلسان أمـام مـرآة أمهـا وتسرح كل منهما شعر الأخرى وتربطه لها. رأت باري امرأة عجوزاً تعبر الشارع وترتدي معطفاً مطرياً من النايلون وتجر خلفها كلباً صغيراً أسمر. باغتتها هبّة صغيرة من ضباب ذكرياتهـا وأخـذت شـكل كلـب، وهـذه ليست المرة الأولى. كما أن الكلب في ذكرياتها لم يكن صغيراً كهذا، بل كان كلباً كبيراً وسخاً وطويل الفراء، كما أن ذيله وأذنيه كانت مقطوعة. لا تعرف باري إذا ما كانت هذه ذكرى حقيقية أو مجرد خيال. سـألت أمها مرة إذا ما كانوا قد اقتنوا كلباً في كابول، وقد قالت ماما *أنك تعرفين يا باري أني لا أحب الكلاب. إنها كائنات لا تحترم نفسـها. يرفسـها الإنسان ومع ذلك تستمر بحبه وطاعته. إنها تحبطني*. كما قالت شـيئاً آخر: *أنا لا أرى نفسي فيكِ. أنا لا أعرف من أنتِ*.

أطفأت باري سيجارتها وقررت الاتصال بكوليت وتحديد موعد معها لتشربا الشاي. ولترى كيف أمورها، ومن تقابل، ولتذهبا للتسوق معاً كما اعتادتا.

لترى إذا كانت صديقة طفولتها ما تزال جاهزة للسفر إلى أفغانستان.

التقت باري بكوليت في حانة شعبية ذات تصميم مغربي، مزينة بالستائر البنفسجية والوسادات البرتقالية، ويعزف فيها شاب أجعد الشعر على آلة العود. لم تأت كوليت وحدها بل أحضرت معها شاباً اسمه إيريك لا كومب. وهو مدرّس مسرح في مدرسة ثانوية في الدائرة الثامنة عشرة. أخبرها إيريك أنه قد التقاها من قبل في تظاهرة جرت قبل سنة للاحتجاج على صيد الفقمة. لم تتذكر باري في بداية الأمر، ثم تذكرت أنه كان الشاب الذي غضبت منه كوليت بسبب الإقبال الضعيف ذاك اليوم، الشاب الذي دفعته على صدره. جلسوا على الأرض على مساند بلون المانجا وطلبوا المشروبات. اعتقدت باري في البداية أنهما حبيبين، لكن كوليت راحت تمدحه باستمرار إلى أن فهمت باري أنها أحضرته من أجلها هي، من أجل باري. رأت في القلق البادي عليه نفس الانزعاج الذي يبدو عليها عادة في مثل هذه الحالات. وجدته مسلياً ومحبباً بسبب خجله والإحراج البادي عليه. اختلست إليه بعض النظرات وهم يتناولون الخبز المغطى بالزيتون الأسود. لا يمكن أن يُقال عنه أنه وسيم. شعره طويل مربوط عند الرقبة. يداه صغيرتان وبشرته شاحبة وأنفه ضيق جداً وجبهته بارزة. ولا ذقن له تقريباً. لكن الذكاء كان يبرق في عينيه وكان ينهي كل جملة بابتسامة رجاء وكأنها علامة استفهام سعيدة. ومع ذلك فإن وجهه لا

يسحرها كما سحرها جوليان، إن وجهه ألطف من وجه جوليان بكثير، وكما ستجد باري بعد فترة وجيزة، فأن وجهه سيكون عنوان الفطنة وقدرة التحمل الصامت والحشمة الدائمة التي يتمتع بها إيريك في داخله.

تزوجا في يوم بارد من ربيع عام 1977، بعد بضعة شهور من استلام جيمي كارتر لرئاسة الولايات المتحدة. وقد أصرّ إيريك على عدم إقامة حفل زواج، واكتفى بمراسم مدنية ضيقة جداً، لم يحضرها أحد سوى كوليت كشاهدة وحيدة. وقد قال أنهم لا يستطيعون الدفع لقاء حفل زفاف باذخ، لأن وضعهم المالي لا يسمح بهذا. عرض والد إيريك عليه أن يكون حفل الزواج هدية منه لإبنه الوحيد، لكن إيريك رفض أيضاً. ثم عرض عليهم أن تكون كلفته قرضاً فرفض مجدداً. ومع أن إيريك لم يقل أي شيء لباري، إلا أنها كانت واثقة من أنه كان يرفض ليوفر عليها الشعور بالإحراج في زفاف كبير مهيب لا يحضر فيه أحد من طرفها، ليس فيه من يرافقها ويسلمها لزوجها، ولا يحتوي من يذرف عليها دمعة فرح.

عندما أخبرته بخططها للسفر إلى أفغانستان، فهم الأمر بطريقة عميقة لم يكن جوليان قادراً يوماً عليها، وبطريقة لم تكن هي نفسها قادرة على الاعتراف بها لنفسها.

«هل تعتقدين أنك طفلة مُتبناة؟».

«هل تذهب معي؟».

قررا أن يسافرا في الصيف القادم، بعد أن تنتهي المدرسة وتستطيع باري الهروب قليلاً من التحضير للدكتوراه. سجّل إيريك أسميهما في صفوف لتعلم اللغة الفارسية من خلال معلم التقاه بواسطة أم أحد تلاميذه. كانت باري تجده دوماً جالساً على الأريكة وهو يضع سماعات

على أذنيه ومسجل الكاسيت على صدره وعيناه مغلقتين للتركيز على ما يسمعه، وتراه وهو يتمتم بلكنة مشددة كلمات الشكر والتحية الفارسية.

اكتشفت باري أنها حامل قبل عدة أسابيع من بداية الصيف، بينما كان إيريك يبحث في كلفة الطائرة والإقامة.

«ما زلنا نستطيع الذهاب» قال إيريك. «يجب علينا أن نذهب».

رفضت باري وقالت: «سيكون تصرفاً لا مسؤولاً من قبلنا».

كانا يعيشان في شقة صغيرة ضعيفة التدفئة وسيئة التمديدات الصحية بلا تكييف وبتشكيلة أثاث مهترئة.

«ليس هذا مكاناً مناسباً لطفل رضيع» قالت باري.

اتخذ إيريك لنفسه عملاً إضافياً في تدريس البيانو، وهي الهدف الذي كان يطمح له قبل أن ينقل اهتمامه للمسرح، وهكذا انتقلا للعيش في شقة تحتوي غرفتي نوم صغيرتين بقرب حدائق اللوكسمبورغ مع مساعدة أبو إيريك المادية لهم التي قبلاها بعد التأكد من أنه يعتبرها قرضاً لهما. ولدت ابنتهما ايزابيل ببشرة رقيقة ناعمة وعينين بلون السكر الذهبي.

أخذت باري إجازة من عملها لمدة ثلاثة شهور وأمضت أيامها مع إيزابيل. كانت تشعر أنها عديمة الوزن برفقتها، وبغلالة من نور تحيطها كلما نظرت الطفلة إليها. وكان أول شيء يفعله إيريك عندما يعود للبيت في المساء بعد أن يضع معطفه وحقيبته عند الباب هو أن يجلس على الأريكة ويمد يديه ويُلوّي أصابعه ويقول: «أعطها لي يا باري، هاتها» وكانت باري تحيطه علماً بكل ما حصل في غيابه وهو يلاعبها على صدره، كم مرة تناولت إيزابيل الحليب، كم مرة غفت، وكيف أنهما راقبتا التلفاز سوياً والألعاب التي لعبتاها سوياً، والأصوات الجديدة التي أصدرتها الصغيرة. لم يشعر إيريك أبداً بالملل من الاستماع لباري.

تأجلت رحلتهم إلى أفغانستان. وفي الحقيقة، لم تعد باري تشعر بالحاجة الملحة لإيجاد جذورها والأجوبة عن تساؤلاتها، بسبب إيريك ورفقته المريحة والمستقرة. وبسبب إيزابيل، التي زادت من ثقة باري بنفسها رغم كل الفجوات والمناطق المظلمة والألغاز التي لا تجد لها حلولاً وكل الأشياء التي لم توضحها الأم. بقوا هناك. لم تعد باري تحتاج للإجابات على تلك التساؤلات بعد الآن.

ذبل شعورها القديم بغياب شخص مهم أو شيء حيوي عن حياتها. ما زال يتردد عليها أحياناً، وأحياناً بقوة تفاجئها، ولكن بتكرار أقل بكثير مما اعتادت عليه. لم يسبق لباري أن كانت سعيدة بهذا القدر في حياتها.

وفي عام 1981، عندما كانت إيزابيل في الثالثة وكانت باري حاملاً بآلان، كان عليها الذهاب لحضور مؤتمر في ميونخ حيث ستقدم هناك بحثاً ألفته حول نظرية الأعداد في الهندسة اللاكمّية والفيزياء النظرية. لاقى بحثها بعض النجاح. خرجت باري بعده مع بعض الأكاديميين لشرب البيرة وتناول البسكويت. عادت قبل منتصف الليل للفندق ونامت دون أن تغير ملابسها أو أن تغسل وجهها. أيقظها رنين الهاتف في الساعة الثانية والنصف صباحاً؛ وكان إيريك هو المتصل.

«إيزابيل محمومة جداً، انتفخت لثتها واحمرت فجأة وهي تنزف عند أدنى احتكاك. لا أستطيع رؤية أسنانها إلا بصعوبة. لا أعرف ما العمل يا باري. قرأتُ في مكان ما أن هذا يمكن أن يكون..».

أرادته أن يتوقف قبل أن يكمل، لأنها لا تستطيع سماع الاسم، لكنها تأخرت جداً. سمعت كلمة لوكيميا الأطفال أو أنه قال ورم غدد لمفاوية، وما الفرق الآن على أية حال؟ جلست باري على حافة السرير كحجر. ورأسها يرتجف وجلدها يسيل بالعرق. لقد غضبت من إيريك

لأنه زرع مثل هذا الشيء الفظيع في ذهنها وهي بعيدة عن ابنتها سبعمائة كيلومتر في منتصف الليل وعاجزة عن فعل أي شيء. غضبت من نفسها لأنها غبية إلى هذا الحد. لأنها اختارت طواعية أن تضيع عمرها في القلق والألم. كان هذا جنوناً منها. جنوناً مطلقاً... إيمانها الأحمق بشكل مدهش والمعاكس للاحتمالات الهائلة الواردة في هذا العالم الذي لا يسيطر عليه أحد، والذي لن يأخذ منك إلا أكثر الأشياء التي لا تستطيع احتمال فقدانها. لعنت إيمانها الغبي بأن العالم لن يدمرها. ما عندي قلب لهذا.. لا أستطيع احتماله. قالت هذا لنفسها، لا أستطيع احتمال هذا الآن. لم تستطع تخيل شيء أكثر تهوراً ولاعقلانية من اختيار الإنسان أن يكون والداً بكامل إرادته ووعيه.

كما أنها أنبت نفسها على إنجابها لإيزابيل، لأنها ستعرضها لكل هذا العذاب وخاطبت السماء «ساعدني يا الله، سامحني يا ألله».

«اسمعني يا إيريك، سأعاود الاتصال بك، يجب أن أغلق السماعة الآن».

أفرغت حقيبة يدها على السرير بسرعة ووجدت دفتر هواتفها الكستنائي الصغير واتصلت بليون حيث تعيش كوليت الآن مع زوجها ديديه، وحيث افتتحت وكالة سفريات صغيرة. ديديه طالب في مدرسة الطب، وقد رد على الهاتف.

«أنت تعرفين أني أدرس الأمراض العقلية يا باري، أليس كذلك؟

«أعرف، لكني فكرت أنك..».

سألها بعض الأسئلة.. هل عانت إيزابيل من انخفاض في الوزن، هل كانت تتعرق في الليل، هل عانت من حرارة دورية، أو كدمات غير عادية أو إرهاق بلا مبرر؟ في النهاية قال لها أنه يجب على والدها اصطحابها لطبيب في الصباح، لكنه وكما يذكر من تدريبه الأولي في

مدرسة الطب فإن هذه الأعراض تبدو له التهاباً حاداً في اللثة والفم.

تعلقت باري بالسماعة بقوة إلى أن آلمها رسغها وقالت برجاء: «ديديه..».

«آسف، أعني أنها تعاني غالباً من نزلة برد حادة» وأضاف قائلاً أكثر الكلمات التي أسعدت باري في حياتها «أعتقد أنها ستكون على ما يرام، لا تقلقي».

قابلت باري ديديه مرتين فقط من قبل. مرة قبل زواجه من كوليت وأخرى بعد الزواج. ومع ذلك، فقد قالت له في الهاتف وهي تبكي أنها تحبه، تحبه حقاً عدة مرات بينما راح يضحك وتمنى لها ليلة سعيدة. اتصلت بزوجها وطلبت منه اصطحاب إيزابيل لمقابلة الطبيب في الصباح. استلقت باري على السرير وأذنيها تضج بالطنين. تأملت أضواء الشارع النابضة المتسللة من خلال درفات النافذة الخضراء الكئيبة. تذكرت يوم اضطرت لدخول المشفى لتتعالج من ذات الرئة عندما كانت في الثامنة من عمرها، تذكرت أمها التي رفضت تركها في المشفى وأصرّت على النوم بجانب سريرها على كرسي.. شعرت باري في تلك اللحظات بقرب مفاجئ جديد ومتأخر من أمها. لقد افتقدتها عدة مرات خلال السنوات الماضية.. في زفافها بالطبع وأثناء ولادة إيزابيل، وفي لحظات عشوائية مختلفة لا تعد ولا تحصى. لكنها لم تفتقدها يوماً لدرجة أكبر من هذه في مثل هذا الظرف الفظيع وهي بمفردها في هذا الليل المدلهم في غرفة هذا الفندق في ميونخ.

عندما عادت إلى باريس في اليوم التالي، اتفقت مع زوجها على عدم إنجاب المزيد من الأطفال بعد ولادة آلان. فقد بدأت ترى أن كثرة الأطفال سترفع احتمالات دخول الأسى لحياتهم وستزيد من فرص انكسار قلبيهما على أطفالهما.

قبلت باري عرضاً للتعليم في جامعة بارزة في باريس عندما كانت إيزابيل في السابعة وآلان في الرابعة وتيري في الثانية من أعمارهم. كانت موضوع الساعة لفترة من الوقت بالنسبة للأكاديميين الغيورين والتافهين، ولم يكن ذلك مفاجئاً لها لأنها كانت في السادسة والثلاثين من عمرها فقط، كانت أصغر أستاذة في القسم وواحدة من امرأتين فيه فقط. تجاوزت ذاك الوقت العصيب بطريقة ما كان يمكن لماما أن تتحملها أو تستطيعها. لم تسمح للغضب بأن يستولي عليها، لم تقدم أي شكاوى بحق أحد ولم تعبس في وجه أحد. وفهمت أنه سيكون لديها دوماً من يشكون بقدراتها ويقللون من شأنها. وفي الوقت الذي هُدم فيه حائط برلين، هُدمت أيضاً تلك الحواجز بينها وبين زملاءها الأكاديميين، لقد كسبت صداقتهم ببطء وتغلبت عليهم بسلوكها العاقل ومؤانستها الجذابة. أصبح لها أصدقاء في قسمها وفي أقسام أخرى أيضاً، وبدأت تحضر المناسبات الجامعية وحفلات جمع التبرعات وحفلات الكوكتيل والعشاء. وقد رافقها زوجها إلى تلك الأمسيات. وكان يُصّر على ارتداء ذات الشال الصوفي وسترة التويد ذات الرقع على المرافق على سبيل المزاح. وكان يتجول حول صالة الحفلة المزدحمة ويتذوق المقبلات ويرتشف النبيذ الأحمر ويبدو محتاراً ومشوشاً. وكان على باري أن تلحق به لتنقذه من مجموعات علماء الرياضيات، قبل أن يبدي آراءه حول المفاهيم الرياضية المعقدة ونظريات الارتياب.

وحتماً، كان شخص ما في مثل هذه الحفلات يقوم بسؤال باري عن وجهة نظرها حول التطورات في أفغانستان. في أحد الأمسيات، سألها بروفيسور زائر عن استقراءها لمستقبل أفغانستان بعد رحيل السوفييت وسألها «هل سيجد شعبك السلام يا سيدتي البروفيسورة؟».

«لا أعرف». أجابته وتابعت: «أنا أفغانية عملياً بالاسم فقط».

«ولكن، حتى لو كان هذا صحيحاً، لا بد وأنك تمتلكين رؤية خاصة».

ابتسمت وحاولت أن تُهمّش محاولته في جعلها تبدو بمظهر الجاهلة والمبطن في مثل هذه الأسئلة وقالت:

«كل ما أعرفه أقرأه من صحيفة اللوموند، مثلك تماماً».

«ألم تولدي هناك، ألم تعيشي هناك؟».

«لقد غادرت بلادي عندما كنت صغيرة جداً. هل رأيتَ زوجي؟ إنه الرجل ذو الرقع على المرفقين».

كانت تتفوه بالحقيقة. إنها تتابع أخبار الحرب الدائرة هناك في الصحف، وعلمت منها أن الغرب يُسلح المجاهدين، لكن أخبار أفغانستان لم تعد تهمها كثيراً. لديها الكثير مما يشغلها في بيتها الكبير الجميل الذي يحتوي أربع غرف نوم الآن والواقع في غويانكورت ويبعد عشرين كيلومتراً عن مركز باريس. كانوا يعيشون فوق تلة صغيرة قرب حديقة عامة مليئة ببرك الماء وممرات المشاة. وأصبح زوجها يكتب المسرحيات الآن بالإضافة لعمله في التعليم. وقد تم الاتفاق على إنتاج إحدى مسرحياته الهزلية السياسية ليجري تمثيلها على خشبة مسرح صغير قرب فندق دي فيل في باريس في الخريف، وقد كلفه المنتج بكتابة مسرحية أخرى.

كبرت إيزابيل لتصبح مراهقة هادئة لامعة وطيبة القلب. تكتب يومياتها وتقرأ رواية كل أسبوع. كما كانت معجبة بأوكونر. وقد كانت أصابعها طويلة ورشيقة، ولهذا كانت تأخذ دروساً على عزف التشيلو. وقد كانت ستؤدي مقطوعة لتشايكوفسكي بعد أسابيع في احتفال عام. لقد رفضت في بادئ الأمر موضوع التشيلو، فقامت باري بأخذ بضعة دروس معها كإشارة على التضامن مما سبب لها ألماً في الأصابع. وقد

اتضح فيما بعد أن ذلك العناء لم يكن ضرورياً لأن إيزابيل ارتبطت بالآلة بسرعة. مرّ عام على هذا، ومع ذلك ما زالت باري تستيقظ وهي مصابة بتصلب في الأصابع يمتد إلى الرسغين ويدوم حوالي النصف ساعة، وأحياناً يدوم لساعة كاملة. أصرّ إيريك على أن ترى طبيباً وقال لها: «أنت في الثالثة والأربعين من عمرك فقط يا باري، هذا ليس طبيعياً» ولهذا حجزت باري لنفسها موعداً مع الطبيب.

كانت تفكر دوماً في ماما ونوع الجدة الذي ستكون عليه مع أحفادها لو كانت حية. على الأخص مع تيري.. لا بد أنها كانت ستساعدها كثيراً في تربيته. لقد رأت بعضاً من ذاتها فيه، ولم يكن شبهه بها بيولوجياً، بل على مستوى الشخصية. كما أنها حكت لأطفالها عن أمها. وكانت إيزابيل أكثرهم حماساً بعد أن قرأت بعض قصائد جدتها.

«أتمنى لو تسنت لي مقابلتها» قالت الفتاة «إنها تبدو فاتنة، أعتقد أننا كنا سنصبح صديقتين حميمتين. هل تعتقدين ذلك يا أمي؟ كنا سنقرأ نفس الكتب. كنت سأعزف لها على التشيلو».

«أعتقد أنها كانت ستحب ذلك، أنا متأكدة» قالت باري.

لم تخبر باري أطفالها عن انتحار والدتها. لا بد أنهم سيعلمون يوماً ما، ولكن ليس منها. لن تزرع تلك الفكرة في أذهانهم، لن تزرع في عقولهم أن الأم تستطيع هجر أطفالها، وأنها قادرة على القول لهم أنهم ليسوا جيدين بما فيه الكفاية لها، أنهم لا يشعرونها بالرضى. لقد كان إيريك والأطفال يفوقون أكثر أحلامها جمالاً، إنها ترى أنهم رائعون، كما سيبقون دائماً بالنسبة لها.

سافرت باري وإيريك والأولاد إلى مايوركا في صيف عام 1994، بعد أن نظمت لهم كوليت الرحلة والتقت بهم مع زوجها ديديه وبقوا سوياً لأسبوعين في بيت استأجروه على الشاطئ. لم يكن لكوليت وزوجها

أطفال لأنهما لم يرغبا بإنجابهم، هكذا بكل بساطة. كان الوقت ممتازاً بالنسبة لباري. فقد سيطرت على الروماتيزم بعد أن بدأت بتناول جرعات أسبوعية من الميتوتريكسات، والذي تحتمله بشكل جيد. ولحسن الحظ، لم يتوجب عليها تناول أي من السيتروئيدات وتحمل آثارها الجانبية.

«أنا لا أريد أن يزداد وزني بعد أن عرفت أني سأرتدي ثوب سباحة في اسبانيا». ضحكت مع كوليت وتابعت: «يا لتفاهتي».

تجولوا في الجزيرة أياماً واستأجروا سيارة للتعرف على الشاطئ الشمالي الغربي بجانب جبال سييرا دي ترامونتانا. توقفوا بين الحين والآخر للتجول في بساتين الزيتون وغابات الصنوبر. أكلوا البورسيللا، وطبقاً بحرياً رائعاً اسمه لوبينا، ويخنة باذنجان مع الكوسى تدعى توميت. رفض تيري تناول لقمة واحدة منها، وكان عليها أن تطلب من طباخ كل مطعم دخلوه أن يُعدّ له السباغيتي مع صلصة الطماطم البسيطة، دون لحم أوجبن. وقد اكتشفت الأوبرا في أحد الليالي بعد إصرار إيزابيل على حضور إنتاج جديد لمسرحية أوبرا قديمة لبوتشيني توسكا. قررت باري وكوليت النجاة من محنة الأوبرا عبر اصطحاب زجاجة فودكا معهما بشكل سري، وراحتا تتشاركان تلك الفودكا الرخيصة كمراهقتين. سكرتا في منتصف الفصل الثاني وراحتا تضحكان كتلميذتي مدرسة على الممثل الذي يقوم بدور سكاربيا.

حزمت كوليت وباري وإيزابيل غدائهن وخرجن لتناوله على الشاطئ في أحد الأيام بعد ذهاب ديديه وآلان وإيريك في نزهة لرؤية الخليج. دخلن على الطريق إلى متجر لشراء ثوب سباحة لفت نظر إيزابيل. لفت نظر باري انعكاس صورتها على زجاج المتجر. بدأت تشعر مؤخراً بالحاجة لإلقاء التحية على نفسها القديمة كلما لمحت نفسها في المرآة.

كان ذلك يعيد لها ذكريات قديمة تصدمها. لكنها في زجاج ذاك المتجر، فاجأت نفسها على حقيقتها غير مشوهة بتصورها عن ذاتها. رأت امرأة في منتصف العمر ترتدي بلوزة فضفاضة قاتمة وتنورة شاطئ لا تخفي طيات جسدها المترهلة بما فيه الكفاية. رأت لمعان الشعر الشائب في رأسها، ومع أنها كانت تضع الكحل وأحمر الشفاه إلا أن وجهها لن يلفت نظر أي عابر في الشارع، كما لكانت مجرد إشارة طريق أصندوق بريد. كانت تلك اللحظة قصيرة جداً، أقل من مدة نبضة في دمها، لكنها كانت طويلة بما يكفي وكافية لتدرك صورتها الحقيقية بدل الصورة الخادعة التي كانت تمتلكها عن ذاتها. لقد دمرّها هذا الأمر. إنها الشيخوخة، فكرت وهي تتبع إيزابيل إلى داخل المتجر. إن هذه اللحظات القاسية والعشوائية تفاجئ الإنسان عندما لا يتوقعها أبداً.

عندما عدن للمنزل وجدن الرجال قد عادوا وقال آلان:

«لقد أصبح بابا عجوزاً».

رفع إيريك كتفيه بشكل لطيف من وراء البار الصغير وهو يسكب كأساً من دورق السانغريا.

«اعتقدت أنني سأضطر لحملك يا بابا».

«أعطني سنة واحدة وسأسابقك حول هذه الجزيرة عندما سنعود في المرة المقبلة».

لم يرجعوا أبداً إلى مايوركا. لأن إيريك تعرض لنوبة قلبية بعد أسبوع من عودتهم من تلك الإجازة أثناء عمله وهو يتكلم مع فني إضاءة في المسرح. نجا من تلك النوبة، لكنه عانى من اثنتين أخريين خلال السنوات الثلاث اللاحقة، ومن ثم قتلته نوبة أخيرة دون رحمة. وجدت باري نفسها أرملة، مثل أمها، في عمر الثامنة والأربعين.

في صباح أحد أيام ربيع العام 2010، استلمت باري مكالمة هاتفية بعيدة المدى. لم يكن الاتصال متوقعاً. وكانت باري تحضّر له منذ الصباح. تأكدت باري أنها وحدها في المنزل. وهذا يعني أنها طلبت من إيزابيل وزوجها ألبرت المغادرة أبكر من المعتاد. إيزابيل وزوجها ألبرت يعيشان على بعد عدة أبنية من الشقة الصغيرة التي تعيش فيها باري الآن. حيث كانت إيزابيل تحضر يومياً كل صباح للاطمئنان على أمها، بعد أن توصل أولادها للمدرسة. كانت تحضر لأمها الخبز والفواكه الطازجة. لم تتسمر بعد إلى الكرسي المدولب بسبب مرضها، وهي حالة كانت تحضّر نفسها لها. ومع ذلك، فإن مرضها أجبرها على التقاعد المبكر السنة الفائتة. ما زالت قادرة على التسوّق وحدها وعلى المشي يومياً. لكن أيديها، أيديها الملتوية القبيحة هي ما يخيب أملها أكثر من أي شيء آخر. كانت تشعر بقطع زجاجية تحفر رسغيها في الأيام السيئة، وترتدي القفازات كلما خرجت لتبقي كفيها دافئين، ولكنها كانت تشعر بالخجل من شكل يديها، من مفاصلها ذات العقد والأصابع البشعة المريضة بشيء اسماه الطبيب عاهة رقبة البجع، حيث كان خنصرها الأيسر ملتوياً على الدوام.

«يا للسخف يا كوليت، أي سخرية في هذا». كانت تقول لصديقتها.

أحضرت لها إيزابيل في هذا الصباح بعض التين وبعض ألواح الصابون ومعجون أسنان وقدراً كاملاً من شوربة الكستناء. كان ألبرت يفكر في اقتراحها كطبق جديد على لائحة أطباق المطعم الذي يعمل به كبير طهاة. وبينما أفرغت إيزابيل الأكياس، أخبرت أمها عن العمل الجديد الذي هبط عليها من السماء، فقد طلبوا منها أن تكتب

مقطوعات موسيقية لعروض التلفاز والإعلانات، وهي تأمل في كتابة نص موسيقي لفيلم في يوم ما. قالت أنها ستبدأ بتأليف موسيقى خاصة لمسلسل قصير يجري تصويره الآن في مدريد.

«هل ستسافرين إلى هناك؟ إلى مدريد؟» سألتها باري.

«لا، ميزانية المسلسل منخفضة جداً، لن يستطيعوا دفع ثمن تذكرة سفري».

«بإمكانك النزول عند آلان».

«آه، هل تتصورين يا ماما؟ آلان المسكين. بيته صغير جداً يا ماما».

أصبح آلان مستشاراً اقتصادياً يعيش في شقة مدريدية صغيرة جداً مع زوجته وأطفاله الأربعة. وكان يرسل لوالدته صوراً ولقطات فيديو لأطفاله بانتظام.

سألتها باري إذا ما كانت تعرف أي أخبار جديدة عن تيري فأجابتها ابنتها بالنفي. سافر تيري إلى أفريقيا، إلى شرقي تشاد، حيث يعمل في مخيم لمساعدة اللاجئين في دارفور. ولم تكن باري تعرف عن ابنها تيري أي شيء إلا ما كانت تخبره بها إيزابيل لأنه لم يكن يتكلم إلا مع أخته، وبشكل متقطع. وهكذا عرفت باري أن ابنها كان في فييتنام، حيث تزوج من امرأة فييتنامية لمدة قصيرة عندما كان في العشرين من عمره.

وضعت إيزابيل بعض الماء ليغلي على النار وجلبت كأسين من الخزانة.

«الوقت غير مناسب يا إيزابيل. في الحقيقة، سوف أطلب منك المغادرة».

جرحتها تلك الكلمات ووبخت باري نفسها لأنها لم تنتق كلمات أفضل. فقد كانت إيزابيل دوماً ذات طبيعة حسّاسة.

«ما أريد قوله هو أنني أنتظر مكالمة هاتفية وأريد أن أتلقاها وحدي».

«اتصالاً؟ مِن مَن؟».

«سأخبرك لاحقاً» قالت باري.

شبكت إيزابيل ذراعيها وعبست. ثم قالت «هل وجدت حبيباً لنفسك يا ماما؟».

«حبيب، هل أنت عمياء؟ هل نظرت إليّ مؤخراً».

«لا يوجد أي شيء خاطئ فيكِ».

«يجب أن تذهبي. سأشرح لكِ لاحقاً، أعدكِ».

«اتفقنا. اتفقنا» حملت إيزابيل حقيبتها على كتفها وتناولت معطفها ومفاتيحها «لكن يجب، أن تعرفي أني مخدوعة جداً بك».

اتصل شخص اسمه ماركوس فارفاريس في التاسعة والنصف صباحاً. وقد راسل باري عن طريق حسابها الشخصي على الفيس بوك بالانكليزية قائلاً في رسالته: هل أنت ابنة الشاعرة نيلا وحداتي؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أود أن أتكلم معك حول شيء يهمك كثيراً. بحثت باري عن اسمه على الانترنت فوجدت أنه كان جراحاً تجميلياً في منظمة لا ربحية في كابول. والآن، حياها على الهاتف بالفارسية واستمر بالحديث بالفارسية إلى أن قاطعته باري.

«سيد فارفاريس، أنا آسفة، هل يمكننا التحدث بالانكليزية؟».

«بالطبع. أعتذر، لقد افترضت... مع أن ذلك أمر طبيعي، لقد غادرتِ كابول وأنتِ صغيرة جداً. أليس هذا صحيحاً؟».

«نعم، هذا صحيح».

«لقد تعلمتُ الفارسية هنا، وقد أتقنتها نوعاً ما. أنا أعيش هنا منذ عام 2002 بعد أن غادر الطالبان بفترة وجيزة. لقد تفاءلت كثيراً في تلك الأيام. نعم، اعتقدت أن الجميع جاهز لإعادة إعمار البلاد وللديمقراطية وما شابه. أما ما حصل بعد ذلك، فهو قصة أخرى مختلفة. إنهم

يحضّرون لإجراء انتخابات رئاسية هنا، لكن هذه أيضاً قصة أخرى».

استمعت باري بصبر للسيد ماركوس وهو يشرح لها الطرق الملتوية المرسومة مسبقاً والتحدي اللوجستي لإجراء انتخابات في أفغانستان، والتي قال أن كرزاي سيربحها حتماً، وحديثه عن غزوات الطالبان المزعجة للشمال وانتهاك الإسلاميين المتشددين لوسائل الإعلام الإخبارية، كما حدثها عن تعداد السكان المتفجر في كابول وكلفة الإسكان المرتفعة، قبل أن يعود أخيراً ليقول: «لقد عشت في هذا البيت لعدة سنين. وقد فهمت أنك عشتِ فيهِ أيضاً».

«عفواً؟».

«أنا أتحدث عن منزل أبويكِ، كما أعتقد».

«هل أستطيع سؤالك عن الشخص الذي أخبرك بهذه المعلومات؟».

«مالك المنزل. اسمه نبي. ويجب أن أخبرك أنه توفي مؤخراً. هل تذكرينه؟».

«تجسد الاسم في مخيلة باري لتتذكر وجهاً وسيماً شاباً ذي سوالف طويلة وشعر أسود مُسرّح للخلف».

«نعم على الأغلب. أذكر اسمه. كان طاهياً عندنا في المنزل وسائقاً أيضاً».

«نعم. لقد عاش في هذا المنزل منذ عام 1947، أي أنه عاش هنا ثلاثة وستين سنة. وهو أمر غير قابل للتصديق إلى حدٍ ما، أليس كذلك؟ لكن، كما قلت لك. لقد مات الشهر الماضي. وقد كنت مولعاً به. كما كان الجميع».

«أفهمك».

«أعطاني نبي رسالة، وأوصاني ألا أقرأها إلا بعد وفاته. وهكذا.. أعطيتها لزميل أفغاني ليترجمها لي للانكليزية. وهي أكثر بكثير من

مجرد رسالة. إنها قصة إذا توخينا الدقة، وهي قصة رائعة. وقد أفصح فيها نبي عن بعض الأشياء. وقد فتشت عنك لأن بعض ما جاء فيها يخصك، ولأنه طلب مني أن أجدك وأعطيك الرسالة. لقد بحثت عنك لبعض الوقت، لكننا استطعنا إيجادك بفضل الانترنت». وضحك ضحكة قصيرة بسعادة.

أراد جزء من عقل باري أن يقفل الخط بوجه الرجل. لقد عرفت بحدسها وحده أنه مهما كان ما كتبه ذاك الرجل البازغ من ماضيها البعيد، عابراً بالرسالة نصف العالم، فإنه سيكون الحقيقة. عرفت بحدسها أن أمها كانت تكذب عليها طوال الوقت بشأن طفولتها. ولكن، حتى لو كانت أرضية حياتها مشروخة بكذبة، ما الذي زرعته باري على تلك الأرضية لتصحح به الخلل ويكون أرضية حقيقية قوية وثابتة كشجرة بلوط عملاقة؟ كان لديها إيريك والأطفال والأحفاد والمهنة الناجحة والصديقة الصدوقة كوليت؟ بعد كل هذا العمر الذي انقضى.. ما هي الفائدة؟ ربما كان من الأفضل أن تغلق السماعة.

لكنها لم تفعل. خفق نبض قلبها في أذنيها وتعرق كفاها وقالت:

«ماذا... ماذا يقول في الرسالة؟».

«حسناً، أولاً، إنه يدعي أنه خالك».

«خالي».

«كان أخاً لزوجة والدك كي أكون دقيقاً في كلامي. وهناك المزيد. إنه يقول الكثير من الأشياء أيضاً».

«سيد فارفاريس. هل تملك تلك الرسالة معك؟ أو ترجمتها.. هل هي معك؟».

«نعم».

«هل من الممكن أن تقرأها لي؟ هلا قرأتها لي؟».

«الآن؟».

«إذا كنت تمتلك الوقت. سأتصل أنا بك من أجل تكلفة الاتصال».

«لا حاجة لذلك. ولكن هل أنتِ متأكدة من أنكِ تريدين معرفة ما فيها؟».

«نعم، أنا متأكدة يا سيد فارفاريس».

قرأ كل الرسالة لها. كلها. وقد استغرق ذلك منه وقتاً. شكرته عندما انتهى وقالت أنها ستتصل به قريباً.

بعد أن أغلقت السماعة، نهضت إلى آلة تحضير القهوة لتصنع لنفسها كوباً ومشت باتجاه النافذة. ومن خلاله، قدم المشهد المألوف نفسه إليها..رأت ممر الحصى الضيق أسفلها والصيدلية في أول الشارع وكشك الفلافل على الزاوية ومتجر العائلة الباسكية.

ارتجفت يداها، أي شيء رائع ومذهل يحصل لها. يبدو لها ما حدث الآن كفأس ضربتَ الأرض وفوجئت بانفجار سائل زيتي أسود سميك في مكان الضربة. هذا هو ما يحدث لها. أشرقت الذكريات في سماء حياتها، وارتفعت من أعماق عقلها وكيانها. حدقت خارج النافذة باتجاه كشك الفلافل، لكنها لم ترَ الطاهي النحيل تحت المظلة بمئزره الأسود المربوط إلى خصره وخرقة القماش في يده، بل كانت ترى عربة حمراء صغيرة ذات عجلات تصدر صريراً تخب، تحت سماء ملأى بالغيوم، تسير فوق الجسور وتعبر المجاري الجافة والتلال التي تظهر وتختفي من جديد. رأت تشابك أشجار فواكه في بساتين يحرك أوراقها النسيم وصفوفاً من كرمات العنب تصل إلى بيوت صغيرة ذات سقوف مسطحة. شاهدت بعينيها طوابير الغسيل ونساءً مقرفصات أمام جدول. كما رأت حبال أرجوحة مهترئة تحت شجرة كبيرة، وكلباً كبيراً منكمشاً من تهكم أطفال القرية ورجلاً له أنف كمنقار صقر يحفر خندقاً

وقميصه ملتصق بظهره من شدة العرق وامرأة مغطاة الرأس بحجاب منحنية أمام النار تطبخ.

لكن شيئاً آخر أهم من كل تلك الذكريات، يتربع على عرش تلك الرؤى، وهو أكثر ما يشدها، ظلّ راوغ مخيلتها طوال عمرها... اتخذ هيئة شخص، ناعم وقاس في نفس الوقت. أحست بنعومة كفّه تلمس يديها. وقوة ركبتيه حيث وضعت يوماً خدها. فتشت عن وجهه لكنه تحاشاها، انزلق منها في كل مرة كان يقترب منها. شعرت باري بثغرة تنفتح فيها. لقد كان فعلاً هناك، كان هناك غياب، ظل شخص غائب عنها طوال حياتها. وقد عرفت وأحست به دوماً بطريقة ما.

«أخي» قالت دون أن تشعر أنها تتحدث، ودون أن تشعر أنها تبكي.

أطلق لسانها بيتاً من الشعر بالفارسية

اعرف جنية صغيرة حزينة

طيرتها الريح في الليل

هناك شيء ناقص من هذا الشعر، لربما كان بيتاً آخر يسبقه. شعر، لقد كانت متأكدة من هذا، لكن البيت تملص من ذاكرتها أيضاً.

جلست باري، كان عليها أن تجلس. لم تعتقد أنها قادرة على الوقوف أكثر من ذلك. انتظرت إلى أن انتهت القهوة وفكرت في أن تسكب لها فنجاناً، ولربما ستشعل سيجارة، ومن ثم ستذهب لغرفة الجلوس لتتصل بكوليت في ليون، لترى إذا ما كانت تستطيع ترتيب رحلة لها إلى كابول.

لكنها جلست الآن وأغلقت عينيها ورأت وراء جفنيها المسدلين تلالاً عالية ناعمة وسماء بعيدة زرقاء وغروب شمس وراء طاحونة هوائية، ودائماً... وفي كل الاتجاهات... خطوطاً خافتة الملامح ترسم جبالاً وجبالاً لا تنتهي في الأفق.

الفصل السابع

صيف العام 2009

«والدك رجل عظيم».

همس الملا المعلم في أذن عادل، فنظر عادل إلى الأعلى. ابتسمت له امرأة سمينة في منتصف العمر تضع شالاً بنفسجياً مطرزاً بالخرز حول أكتافها، وأغمضت عينيها.

«وأنت ولد محظوظ».

«أعرف» أجابه هامساً.

كانوا يقفون على الدرجات الأمامية لمدرسة الإناث الجديدة في البلدة، وقد كانت عبارة عن مبنى مستطيل أخضر اللون ذي سقف مستوي ونوافذ عريضة. بدأ والد عادل بتلاوة صلاة قصيرة تلاها بخطاب حماسي. وقد تجمع أمامهم رغم الحرّ الجهنمي جمعٌ غفيرٌ من الأطفال وآباءهم وشيوخ البلدة، حوالي مئة شخص من سكان البلدة المحليين،

سكان شادباغ الجديدة. قال أبو عادل وسبابته السميكة مرفوعة باتجاه السماء، والتمع حجر عقيق يزيّن خاتمه في أشعة الشمس:

«لكنها أمٌ عليلة عانت لوقت طويل. والآن، الأم تحتاج لمساعدة أبنائها كي تتعافى،وهي تحتاج أيضاً لمساعدة بناتها بشدة أكثر من حاجتها لأبنائها».

سببت كلمته هذه تصفيقاً شديداً ونداءات وهمهمات الموافقة. جال عادل ببصره بين وجوه الجمهور. كانوا مأخوذين بحديث أبيه. بابا جان بحاجبيه الأسودين الكثيفين ولحيته الكثيفة وهو يقف أمامهم بطوله وقوته وعرضه، كان كتفيه كافيين لسدّ مدخل المدرسة الواقع خلفه. وقف أبوه أمام الجمهور بكامل هيبته.

تابع الأب كلمته بينما تعلقت عينا عادل بأحد حارسي والده، (كبير)، اللذين يقفان بهدوء على الجانب الآخر من أبيه، وكل منهما يحمل الكلاشينكوف. استطاع عادل أن يرى انعكاس صورة الحشد على عدستي نظارات كبير السوداء. كبير كان رجلاً قصيراً ونحيلاً يرتدي بذلات مبهرجة الألون، تركواز وبنفسجي وبرتقالي، إلا أن بابا جان قال أنه صقر حقيقي، وأن التقليل من شأنه أو أهميته غلطة كبيرة تعود نتائجها عليك وحدك يا عادل.

«ولهذا أقول لكنّ يا بنات أفغانستان الشابات» ورفع الأب ذراعيه إلى الأعلى في إشارة ترحيب كبيرة «عندكن الآن واجب مهم، عليكن أن تتعلمن، أن تطورن أنفسكن، أن تتقدمن في دراستكن وتبرعن فيها، لا ليكون آباؤكن وأمهاتكن فخورين بكن فقط، بل لتكون أمنا جميعاً فخورة بكن وبإنجازاتكن. مستقبل بلدنا في أيديكن، ليس في يدي أنا. لا أريدكن أن تعتقدن أن هذه المدرسة هدية مني لكن، إنه مجرد بناء يحتوي الهدية الحقيقية في داخله، وأنتن تلك الهدية، أنتن الهدية

الحقيقية يا أخواتي الشابات، ليس لي ولمجتمع شادباغ فقط، بل لأفغانستان ذاتها، باركتكم الله».

اندلع تصفيق أكبر وصاح العديد من الناس «بارك الله بك أيها القائد ساهيب» رفع الأب قبضته للأعلى وابتسم ابتسامة عريضة سعيدة. امتلأت عيني عادل بالفخر بأبيه.

سلم الأستاذ الملالي أباه مقصاً ليقطع به الشريط الأحمر المربوط على باب غرفة الصف. اقترب الحشد ليرى الحدث بشكل أفضل وقام كبير بالإشارة لبعض الناس بالابتعاد للخلف، دفع اثنين منهم على صدرهم. ارتفعت أيدي الحشد بالهواتف الخلوية لتصوير الموقف. أخذ بابا جان المقص وتوقف ثم اتجه إلى عادل وقال:

«تفضل يا بني، تشرّف بقص الشريط» وسلّم المقص إلى عادل.

«أنا؟» رمش عادل بعينيه من المفاجأة.

«هيا يا ولدي» قال بابا جان وغمزه بعينه.

قص عادل الشريط فاندلع تصفيق شديد جديد. سمع عادل أصوات آلات التصوير وأصوات أشخاص يصيحون «الله أكبر».

وقف بابا جان عند المدخل بينما اصطفت التلميذات ودخلن قاعة الدرس واحدة واحدة. كن بنات صغيرات تراوحت أعمارهن بين الثامنة والخامسة عشرة. يرتدين أوشحة بيضاء على رؤوسهن وزياً رسمياً مخططة بالرمادي والأسود قرره عليهن الأب. راقب عادل الفتيات وهن يقدمن أنفسهن لأبيه على استحياء بينما يتقدمن للدخول للصف. ابتسم بابا جان ابتسامة دافئة وربت على رؤوسهن وهو يشجعهن بكلامه «أتمنى لكن النجاح، بيبي مريم، اجتهدي يا بيبي حميراء، دعينا نفخر بك يا بيبي إلهام».

وقف عادل بجانب السيارة اللاند كروزر لاحقاً وهو يتعرق بشدة وراقب أباه وهو يصافح السكان المحليين ويستمع لشكاويهم بصبر ويدعو لهم باليد الأخرى وهو يتعاطف مع كل شخص أتى لشكره أو ليدعو له أو ليقدم له احترامه. انتهز العديد منهم الفرصة لطلب خدمات منه. كالأم التي تحتاج لمقابلة جرّاح في كابول من أجل ولدها المريض ورجل بحاجة لقرض مالي ليفتتح دكان تصليح أحذية، وميكانيكي يطلب مالاً لشراء عدّة جديدة.

أيها القائد ساهيب، هل تستطيع مساعدتي

ليس عندي شخص آخر ألجأ له، أيها القائد ساهيب

لم يسمع عادل أي شخص خارج إطار العائلة المقربة جداً ينادي والده بأي لقب غير (القائد ساهيب) مع أن الروس غادروا البلاد منذ مدة طويلة ولم يطلق بابا جان طلقة واحدة من بندقية منذ أكثر من عقد. انتشرت صور أيام جهاد الأب على جدران غرفة الجلوس، وقد حفظ عادل تفاصيلها جميعاً: في أحدها يتكئ والده إلى سيارة جيب قديمة مغبرة، ويقرفص في أخرى فوق دبابة متفحمة، ويقف مع رجاله بفخر في صورة أخرى وحزام ذخيرته مربوط إلى صدره بجانب مروحية أسقطوها. وفي الصورة التي يذكرها عادل جيداً، كان أبوه يرتدي جعبة وحمّالة وجبينه ملتصق بأرض الصحراء وهو منغمس في صلاته لله عز وجل. كان أكثر نحولاً في تلك الأيام، ولم يظهر في خلفية كل الصور سوى الجبال والرمال.

كان الأب قد أصيب مرتين برصاص الروس خلال المعارك. وقد سمح لعادل بالنظر إلى ندباته، تقع إحداها يسار أسفل قفصه الصدري وقد أطاحت هذه الرصاصة بطحاله، والجرح الثاني يبعد مسافة إصبع واحد عن سرته. قال بأنه كان محظوظاً بعد أخذ الظروف في الاعتبار. لقد فقد

أصدقاؤه أذرعهم وسيقانهم وعيونهم، كما احترقت وجوه بعضهم الآخر. لقد انضموا للحرب من أجل بلدهم ومن أجل نصرة الله، كما قال له أبوه. التضحية، هذا هو ما كان عليه الجهاد، قال الأب. الجهاد هو أن تضحي بأطرافك، أو بنظرك، أو بحياتك بكل سرور. ولهذا منحك الجهاد بعض الحقوق والامتيازات. لأن الله يكرِّم أولئك الذين يُضحّون أكثر من غيرهم بحصد ثمار ما قدموا، بكل عدالة.

«وسينال المجاهد الجوائز في هذه الحياة وفي الحياة القادمة». قال بابا جان وهو يشير بإبهامه السميك أولاً للأسفل ثم للأعلى.

تمنى عادل وهو يتأمل الصور أن يكون قد عاش في تلك الأيام المثيرة ليتسنى له الانضمام للجهاد والمحاربة بجانب أبيه. أحب أن يتصور نفسه وهو يطلق النار على طوافة روسية مع أبيه، أو وهما يفجران دبابة ويطلقان النار هنا وهناك، ويعيشان في الجبال وينامان في الكهوف. الأب وابنه.. بطلي حرب.

كما كانت هناك صورة كبيرة مؤطرة لأبيه يبتسم فيها بجانب الرئيس قرضاي في (الأرج) وهو القصر الرئاسي في كابول. كانت هذه صورة حديثة أخذت خلال احتفال صغير تسلم فيه الأب جائزة لإنجازاته الإنسانية في شادباغ. وهي جائزة يستحقها الأب بجدارة.. فمدرسة الإناث هذه مشروعه الأخير فقط في شادباغ. لقد علم عادل أن النساء هناك كن يمتن أثناء الولادة بانتظام، ولذلك افتتح أبوه عيادة كبيرة يديرها طبيبان وثلاثة قابلات يدفع رواتبهم جميعاً من جيبه الخاص. وقد قدم المركز الطبي الصغير هذا العناية الطبية مجاناً لكل السكان. لقح المركز كل أطفال شادباغ. كما أرسل أبوه فرقاً مختصة بالبحث عن أمكنة تجمّع الماء والآبار لحفرها من جديد. كما أنه ساعد على وصل الكهرباء للبلدة. وبفضله هو تم افتتاح عشر أعمال تجارية

على الأقل بسبب القروض التي يقدمها للأهالي. وقد علم عادل من كبير أن تلك القروض نادراً ما كانت تُرد إليه.

عنى عادل ما قاله للمعلم قبل قليل، وكان متأكداً حقاً من أنه محظوظ لأنه ابن هذا الرجل.

عندما انتهى الأب من مصافحة الناس، لاحظ عادل رجلاً نحيلاً يقترب من أباه، كان يضع على عينيه نظارات طبية مستديرة وله لحية رمادية تحيط بفم تتخلله أسنان صغيرة مهترئة تشبه أعواد الثقاب المحترقة. مشى وراء الرجل فتى شاب بمثل عمر عادل تقريباً وانتبه عادل لأن أصابع إبهام قدميه الاثنتين خرجتا من فتحتين متماثلتين في حذاءه. وقد التصق شعره برأسه بفوضى وكان بنطاله الجينز متيبساً بسبب شدة القذارة التي تغطيه. كما أن كلاهما كانا قصيري القامة.. وعلى عكس قصر طول الفتى، كانت بلوزته القطنية طويلة جداً تصل حتى ركبتيه.

وقف كبير بينهما وبين رئيسه وقال للرجل «أن هذا ليس وقتاً مناسباً».

«أريد أن أقول له كلمتان فقط» قال الرجل العجوز.

أخذ بابا جان ذراع عادل ووجهه بلطف نحو السيارة وقال «هيا لنذهب يا ولدي، أمك تنتظرك». جلس بجانبه في المقعد الخلفي وأغلق الباب.

وبينما كان زجاج النافذة الأسود يرتفع، رأى عادل كبير وهو يقول شيئاً ما للرجل، لكنه لم يستطع سماع ما يقولون. ثم تركهم كبير واتجه للسيارة وجلس في مكان السائق، وضع بندقيته الكلاشينكوف في المقعد الأمامي المجاور له. قبل أن يشغل محرك السيارة.

«ماذا يريدون؟». سأله عادل.

«لا شيء مهم». قال كبير.

استداروا بالسيارة وطاردهم بعض الأولاد الواقفين بين الجمهور لفترة قصيرة قبل أن يبتعدوا. قاد كبير السيارة على الطريق الرئيسي المزدحم الذي يشطر شادباغ الجديدة لنصفين وأطلق النفير عدة مرات وهو يراوغ بالسيارة للمرور عبر زحمة السير الخانقة. كان الجميع يصرخون ويلوحون بأيديهم. راقب عادل الأرصفة الغاصة بالناس على كلا الجانبين، راقب اللحوم المعلقة بخطافات في دكاكين الجزارين، والحدادين الذين يُدورون عجلاتهم الخشبية وينفخون النار بمنفاخ الهواء، وتجار الفواكه وهم يهشون الذباب عن العنب والكرز، وحلاق الرصيف وهو يسّن شفرته وراء كرسي الحلاقة. مرّوا من أمام المقاهي ومحلات الكباب وورشات تصليح السيارات، كما شاهدوا مسجداً على الطريق قبل أن يُوقف كبير السيارة في ساحة البلدة العامة الكبيرة، التي تتوسطها نافورة زرقاء وتمثال حجري أسود لمجاهد يبلغ طوله تسع أقدام ينظر باتجاه الشرق وقد رُبطت حول رأسه عمامة وعُلقت على كتفه قاذفة صواريخ آر بي جيه. كان بابا جان شخصياً قد كلف نحاتاً في كابول لبناء هذا التمثال.

إلى الشمال بدت لهم منطقة سكنية تتألف من شوارع ضيقة بلا أرصفة، تحيط بها منازل صغيرة مستوية الأسطح مطلية بالأبيض أو الأصفر أو الأزرق. وعلى أسطح بعضها صحوناً لاقطة للبث التلفزيوني الفضائي، وقد تدلت الأعلام الأفغانية من بعض النوافذ. أخبره والده أن أغلب البيوت والمحلات التجارية قد تم بناؤها في حدود الخمس عشرة سنة الأخيرة، وقد ساعد بنفسه في بناء العديد منها. معظم الناس الذين يعيشون هنا يعتبرون بابا جان مؤسس وباني شادباغ الحديثة، وقد سمع عادل أن شيوخ البلدة عرضوا على والده تسمية البلدة على اسمه لكنه رفض هذا الشرف.

يمتد الطريق الرئيسي من هنا لمسافة ميلين إلى شادباغ القديمة. لم يكن عادل يعرف كيف كانت القرية القديمة تبدو قبل عقود. لأنهم عندما انتقلوا من كابول إلى شادباغ كانت القرية قد اختفت تقريباً. اختفت كل البيوت، والأثر الوحيد الباقي منها هو الطاحونة المتآكلة. انعطف كبير يساراً عن الطريق الرئيسي ليلج شارعاً عريضاً يمتد قرابة ربع ميل ويصل إلى المقرّ الذي يعيش فيه عادل مع أسرته، ذي الجدران التي يصل ارتفاعها إلى اثني عشر قدماً، وهو البناء الوحيد في شادباغ الذي يضاهي الطاحونة القديمة طولاً. بدا لهم مقرهم من نوافذ السيارة المسرعة واستطاع عادل تمييز الأسلاك الشائكة التي تعلو الجدران.

حيّاهم الحارس ذو اللباس الرسمي والواقف على مدار الساعة على البوابة، فتح لهم الباب. دخلت السيارة إلى الممر المفروش بالحصى داخل السور العالي واتجهت نحو المنزل.

يتألف المنزل المطلي باللونين الوردي اللامع والفيروزي من ثلاثة طوابق، له أعمدة عريضة ملفوفة وأفاريز مدببة وزجاج عاكس لأشعة الشمس، وشرفة رئيسية كبيرة تحيط بها الجدران المغطاة بالفسيفساء البراقة، وشرفات عريضة أخرى محاطة بأسوار حديدية مقوّسة. في الداخل، كان لديهم تسع غرف نوم وسبعة حمامات. وأحياناً، عندما كان عادل وأباه يلعبان لعبة الاختفاء أثناء الطفولة، كان عادل يحتاج لساعة أو أكثر لإيجاد أباه. كانت كل النضد الموجودة في المطبخ والحمامات مصنوعة من الغرانيت والرخام الأخضر. وقد بدأ بابا جان يتحدث عن بناء مسبح لإدخال البهجة على قلب عادل في القبو تحت المنزل.

اتجه كبير بالسيارة نحو الممر الدائري وأوقف السيارة أمام بوابة المنزل الطويلة.

«هل من الممكن أن تتركنا وحدنا؟». قال بابا جان.

أومأ كبير برأسه وغادر السيارة. شاهده عادل وهو يصعد الدرجات ويضغط على الجرس. فتح له أزمري، الحارس الشخصي الآخر، وهو قصير القامة أيضاً، خشن وسمين. تحدث الرجلان قليلاً وبقيا واقفين أمام الدرجات، وأشعل كل منهما سيجارة.

«هل أنت مضطر حقاً للذهاب يا بابا جان؟». قال عادل لأبيه. كان أبوه مغادراً في الصباح إلى الجنوب للاطمئنان على حقول قطنه في هلمند والاجتماع بالعاملين في مصنع القطن الذي بناه هناك. وقد يغيب هناك أسبوعين، وهذه تبدو لعادل فترة طويلة. نظر إليه أبوه ولاحظ أن ولده يبدو كالقزم بجانبه. «أتمنى لو لم أكن مضطراً للسفر يا بني».

أومأ عادل برأسه، فتابع والده: «كنت فخوراً اليوم، شعرت بالفخر بك».

ربت الأب بيده الثقيلة الكبيرة على ركبة ولده وقال «شكراً لك يا عادل، أنا أقدر ذلك لك. أنا أصطحبك معي لهذه المناسبات كي تتعلم، لتعرف أنه من المهم لمستقبل ناس مثلنا أن يلتزموا بمسؤولياتهم تجاه بلدهم والآخرين».

«أتمنى لو أنك لا تضطر للسفر على الدوام».

«وأنا أيضاً يا ولدي، وأنا أيضاً. لكني لن أسافر قبل الغد، سأعود مساءً، اتفقنا؟».

أومأ عادل برأسه موافقاً ونظر إلى يديه.

«انظر» قال أبوه بصوت ناعم «الناس في هذه البلدة يحتاجونني يا عادل. يحتاجون مساعدتي ليبنوا بيتاً ويجدوا عملاً ويباشروا حياتهم. كابول لديها مشاكلها الخاصة ولا يستطيع أحد منها مساعدتهم. ولهذا، إن لم أساعدهم أنا، فلن يقوم أحد بهذا. وعندها ستستمر معاناة

هؤلاء الناس».

«أعرف» تمتم عادل.

ربت بابا جان على ركبته بلطف وتابع: «أنت تفتقد كابول، أنا أعرف، وأصدقائك أيضاً. كان الانتقال إلى هنا صعباً عليك وعلى أمك. وأعرف أني أسافر باستمرار واذهب لحضور الاجتماعات ويشاركم الكثير من الناس في وقتي، لكن.. انظر إلي يا ولدي..».

رفع عادل عينيه لينظر لأبيه. رأى الحنان الذي يشع من عيني أبيه بلطف من تحت حاجبيه الكثيفين.

«لا يهمني أحد على هذه الأرض أكثر منك يا عادل. أنت ابني الوحيد. أنا مستعد للتخلي عن كل هذا العمل من أجلك. أنا مستعد لأن أقدم لك حياتي يا ولدي».

أومأ عادل مرة أخرى وامتلأت عيناه بالدموع. عندما كان أبوه يحدثه بهذه الطريقة كان عادل يشعر بقلبه يعتصر ويعتصر إلى أن يجد صعوبة في التنفس.

«هل تفهمني؟».

«نعم بابا جان».

«هل تصدقني؟».

«نعم».

«جيد. أعطني قبلة إذاً».

رمى عادل ذراعيه حول رقبة أبيه وعانقه أبوه بإحكام وصبر. تذكر عادل يوم كان صغيراً وأوقظ أباه في منتصف الليل وهو ما يزال يرتجف من الكابوس الذي رآه، تذكر كيف رفع أبوه البطانية وحمله ليرفعه للسرير، وبدأ يمسّد رأسه ويقبله حتى توقف عن الارتجاف وعاد للنوم.

_ «ربما جلبت لك من هلمند شيئاً جميلاً». قال بابا جان.

«لا تتكبد عناء ذلك يا والدي». قال عادل بصوت غائب. لديه الكثير من الألعاب التي لا يعرف ما يفعل بها. ولا توجد أي لعبة على الأرض تستطيع أن تعوضه عن غياب أبيه.

في وقت متأخر من ذاك المساء، نزل عادل إلى منتصف السلم وتجسس على الأحداث التي تجري في الأسفل. رن الجرس وفتح كبير الباب، وقف مصالباً ذراعيه على المدخل ليمنع الشخص الآخر من الدخول بينما يتكلم معه. لقد كان نفس الرجل العجوز الذي رآه عادل في افتتاح المدرسة في شادباغ، كما رافقه أيضاً الشاب ذي الحذاء المثقوب. قال الرجل العجوز:

«إلى أين ذهب؟».

«سافر لمتابعة أعماله في الجنوب». قال كبير باستهجان.

«كم سيغيب من الوقت؟».

«شهرين أو ثلاثة، من يدري».

«ليس هذا ما سمعت من الآخرين».

«صبري بدأ بالنفاذ أيها الرجل العجوز». قال كبير وأنزل يديه للأسفل.

«سوف أنتظره».

«ليس هنا، لن تنتظره هنا».

«سوف أنتظره على الطريق، هكذا عنيت».

حرك كبير قدميه بنفاذ صبر وقال: «أنت حرّ، لكن يجب أن تعرف أن القائد رجل مشغول للغاية. لا أحد يعلم متى يعود».

أومأ الرجل العجوز وغادر المكان مع ابنه. أغلق كبير الباب.

فتح عادل ستارة غرفة الجلوس وراقب الرجل العجوز والولد وهما يبتعدان على الطريق غير المعبدة الذي يوصل مقرهم بالطريق العام.

«كذبت عليه». قال عادل لكبير..

«هذا جزء من عملي، أن أحمي أباك من البلهاء».

«ماذا يريد على أية حال؟ هل يحتاج لعمل؟».

«شيء مثل هذا».

مشى كبير باتجاهه وأجلسه على الأريكة ونزع حذاءه وغمزه. عادل يحب كبير أكثر بكثير من أزمري الكئيب والصامت، غالباً. لعب الورق مع كبير ودعاه لمشاهدة فيلم سوياً. فكبير يعشق السينما وقد اشترى مجموعة من الأفلام المثيرة من السوق السوداء. كان يشاهد في الأسبوع عشر أو اثني عشر فلم إيراني أو فرنسي أو أميركي بكل تأكيد. لكنه لم يكن يحب الأفلام الهندية. وأحياناً، عندما تكون أم عادل في غرفة أخرى، ويعد عادل بعدم إخبار أبيه، كان كبير يسمح له بحمل الكلاشينكوف، مثل المجاهدين. الكلاشينكوف الآن تستند للحائط المجاور للباب الأمامي.

بدأ عادل بالصعود على الدرج. نادى كبير من على الأريكة:

«لورانس العرب، أنتوني كوين، إنهم بلهاء يا عادل. لا تصدق تمثيلهم. سيجردون أباك من كل شيء إذا أمكنهم ذلك».

2

بعد يومين من سفر أبيه إلى هلمند، ذهب عادل إلى غرفة أبويه صباحاً بعد أن سمع موسيقى عالية وصاخبة ترتفع من هناك. سمح لنفسه بالدخول ووجد أمه ترتدي بنطالاً قصيراً وبلوزة قطنية أمام شاشة التلفاز العملاقة، وهي تقوم بتقليد ثلاث نساء شقراوات متعرقات وهن

يقفزن ويقرفصن ويتلوين. رأته أمه في المرآة الكبيرة.

«هل تريد الانضمام لي؟». لهثت على أنغام الموسيقى العالية.

«سأجلس هنا». جلس على الأرضية المفروشة بالسجاد وراقب أمه وهي تقفز عبر الغرفة ذهاباً وإياباً. اسمها آرية.

كان لديها قدمين وكفين حساسين وصغيرين، وأنف مستدق صغير ووجه جميل يشبه وجوه الممثلات الهنديات. كانت شابة وناعمة. لم يتجاوز عمرها الأربعة عشر عندما تزوجت أباه. كان عنده أم أخرى، هي زوجة أبوه الأكبر سناً، وثلاثة أخوة غير أشقاء منها. لكنهم كانوا يسكنون في الشرق، في جلال آباد، ولم يكن عادل يلتقيهم سوى مرة كل شهر عندما يأخذه أبوه لزيارتهم. وعلى نقيض أمه وزوجة أبيه اللتين تكرهان بعضهما، كان يجمعه بأخوته حب شديد. كانوا يأخذونه معهم للمنتزهات في جلال آباد والأسواق والسينما ويحضرون سوياً بطولات البوزكاشي. كما أنهم كانوا يلعبون معه ألعاب الفيديو. ودائماً ما كانوا يختارونه للعب في فريقهم في مباريات كرة قدم الحي. تمنى عادل بشدة أن يعيش بجانبهم.

راقب عادل أمه وهي تستلقي على الأرض وترفع ساقيها للأعلى ثم تخفضها وقد دسّت بين كاحليها كرة بلاستيكية زرقاء.

الحقيقة، أن السأم هنا في شادباغ كان يسحق عادل، إذا أنه لم يتعرف على أي صديق بعد مرور عامين على وصولهم إلى هنا. لا يستطيع قيادة دراجته للوصول للبلدة بسبب وجود المختطفين في كل الأنحاء، مع أنه كان يركبها داخل حدود مقرّهم.

ليس عنده زملاء دراسة لأن والده منعه من الانضمام للمدرسة العامة {لأسباب أمنية} كما قال. لذلك أحضر له معلماً إلى المنزل ليعطيه دروسه كل صباح.غالباً ما كان عادل يمضي وقته في القراءة أو في الركض

وراء كرة قدمه أوفي مشاهدة فيلم مع كبير، الأفلام التي يكررونها نفسها مرة وراء مرة. كان يتجول حول الردهات ذات السقف العالي في منزلهم الهائل، ويمرّ على كل الغرف الفارغة الكبيرة، أو يجلس أمام نافذة غرفته في الطابق الثاني ليتأمل المشهد منها. كان يعيش في قصر، لكن عالمه كان صغيراً جداً. وكان يشعر بالضجر أحياناً لدرجة أنه كان يرغب في مضغ الخشب ليروح عن نفسه.

كما أنه يعرف أن أمه تشعر بالوحدة الشديدة هنا أيضاً، ولذلك حاولت ملأ وقتها بالنشاطات، كممارسة الرياضة في الصباح ثم الاغتسال، يليه الإفطار. ثم كانت تجلس لتقرأ أو تعتني بالأزهار في الحديقة، ثم تشاهد المسلسلات الهندية على التلفاز بعد الظهر. عندما كان بابا جان يسافر، وهو ما كان عليه الحال معظم الأوقات، كانت ترتدي ملابس رياضة قطنية رمادية وحذاء رياضياً مطاطياً، دون أن تضع أياً من مساحيق التجميل على وجهها وشعرها مجموع في كعكة خلف رقبتها. نادراً ما كانت تفتح علبة مجوهراتها في غياب أبيه، حيث كانت تحتفظ بكل الخواتم والعقود والأقراط التي أحضرها لها أبوه من دبي. كانت تمضي ساعات من وقتها في الحديث مع أهلها المقيمين في كابول على الهاتف. لم يكن عادل يرى شخصية أمه الحقيقية إلا عندما كان أبواها وأختها يزورانها مرة كل شهرين أو ثلاثة، كانت تعود للحياة من جديد. حيث ترتدي أمامهم العباءة الطويلة المزركشة وحذاء ذي كعب عال وتضع مساحيق التجميل على وجهها. وكانت عيناها تشعان وضحكها يملأ المنزل. عندها كان يمكن لعادل أن يرى لمحة عن الشخص الذي كانت عليه قبل أن تتزوج وتنجبه.

حاول وأمه التنفيس عن مللهما في غياب أبيه عن طريق تسلية كل منهما للآخر... فيلعبان بحل قطع الألغاز المصورة ويتشاركان لعب

التنس والغولف على حاسوب عادل. لكن تسليتهما المشتركة المفضلة بالنسبة لعادل كانت بناء البيوت من أعواد مسواك الأسنان. كانت أمه تسحب مخططاً ورقياً كاملاً للمنزل، بشرفته الأمامية وسقفه المائل وسلالمه داخل الجدران عن الحاسوب. ثم يبدأان ببناء الأساسات أولاً، ثم الدرجات الداخلية والجدران ويقتلان الساعات وهما يضعان الصمغ اللصق بكل حذر على أعواد تسويك الأسنان. قالت له أمه مرة، أنها كانت تحلم أن تكون مهندسة معمارية قبل أن تتزوج أباه.

أخبرته مرة وهما يبنيان ناطحة سحاب قصة لقاءها بأبيه وزواجها منه. قالت بأنه كان من المفترض به أن يتزوج أختها الكبيرة.

«خالتي نرجس؟».

«نعم، حدث هذا في كابول. رآها مرة في الشارع وأتى ليخطبها في اليوم التالي مباشرة. حضر إلى بيتنا مع خمسة من رجاله. سمحوا لأنفسهم بالدخول. كانوا جميعاً يرتدون الأحذية العسكرية». هزت رأسها وضحكت بسخرية من طريقة بابا جان في فعل هذا، لكنها لم تضحك كما اعتادت عندما كان شيء ما يُضحكها. «كان يجب أن ترى تعابير وجه جديك في تلك اللحظة، جلسوا جميعاً في غرفة الجلوس... بابا جان ووالديها ورجاله الخمسة وكانت هي في المطبخ تُعدُّ الشاي بينما تحدثوا معه في الأمر. وكانت هناك مشكلة، فقد كانت أختها نرجس مخطوبة بالفعل لإبن عمها الذي يعيش في أمستردام ويدرس الهندسة. كيف يُفترض بهم أن يفسخوا الخطوبة؟ سأله والديها!.

ثم دخلت أنا أحمل لهم صينية الشاي والحلويات. ملأت أكوابهم ووضعت الطعام أمامهم على الطاولة، ورآني أبوك، وعندما استدرت لأخرج من الصالة قال أبوك: نعم يا سيدي أنت على حق، لا ينبغي أن تفسخ الخطوبة. لكن أخبرني.. هل هذه الفتاة مخطوبة أيضاً؟ لأنها

إن كانت كـذلك فلـن يكـون هنـاك مـن منـاص للتفكير بأنـك لا تريـد مصاهرتي. وضحك. وهكذا تزوجنا».

حملت أنبوب الصمغ. قال لها عادل:

«هل أحببته؟» استهجنت سؤاله وأجابت:

«الحقيقة أني كنت خائفة منه أكثر من أي شعور آخر».

«لكنك تحبينه الآن.. أليس كذلك؟ أنت تحبينه».

«بالطبع أحبه، ما هذا السؤال؟».

«أنت لا تندمين على زواجك منه.. صحيح؟».

وضعت الصمغ من يدها وانتظرت عدة ثوان ثم قالت ببطء:

«انظر إلى حياتنا يا عادل. انظر حولك. على ماذا أنـدم؟». ابتسـمت بحزن ووضعت يدها على خده ولامست أذنه وقالت «بالإضافة لأنـي لم أكن لأحظى بك في حياتي إن لم أتزوجه».

أطفأت أمه التلفاز وجلست تلهث وتجفف عرق رقبتها بمنشفة.

«لماذا لا تقوم بشيء ما وحدك هذا الصباح؟» قالت وهي تشد ظهرهـا «أنا سأذهب للاغتسال وتناول الإفطار. كنت أفكر بالاتصال بجديك. لم نتكلم معهم منذ يومين».

تنهد عادل ونهض عن الأرض. ذهب إلى غرفتـه في الطـابق الأسـفل من طابق غرفة أمه وأخرج كرة قدمه التي أهداه إياها أبوه في عيد ميلاده الأخير مع بلوزة اللاعب زيدان، عندما بلغ الثانية عشرة. اتجه للأسفل فوجد كبير مستلقياً في إغفاءة على الأريكة وقد نشر صحيفة على صـدره كغطاء. أحضر لنفسه زجاجة عصير تفاح من الثلاجة وخرج من المنزل.

مشى عادل على طريق الحصى باتجاه البوابة الرئيسية حيـث وجـد مقصورة الحارس المسلح فارغة. كان عادل يعرف أوقات تغيير المناوبات على البوابة الخارجية. فتحها بهدوء وخرج. أغلق الباب خلفه وأحـس

فوراً أنه قادر على التنفس بحرية على هذا الجانب من السور.. لأن القصر بجدرانه العالية يبدو له في معظم الأوقات كالسجن.

مشى في ظل الجدار العريض إلى أن وصل إلى خلف قصرهم البعيد عن الطريق الرئيسي. وراء تلك الجدران الخلفية، كانت تقبع بساتين بابا جان التي يفخر بها كثيراً، تمتد صفوف متوازية طويلة من أشجار الكمثرى والمشمش والكرز والتفاح والتين لعدة هكتارات. عندما كان عادل يمشي مع أبيه في هذه البساتين، كان والده يرفعه للأعلى فوق كتفيه ليقطف لهما تفاحتين ناضجتين. تفصل بين القصر والبساتين فسحة فارغة مسقوفة يخزن فيها البستانيون عدتهم وأدواتهم. لم يوجد أي شيء أمامه سوى ما كان يبدو كبقايا شجرة عملاقة مقطوعة. حسب بابا جان عدد حلقاتها مرة مع عادل واستنتج أن تلك الشجرة شهدت مرور جيش جنكيز خان من هنا. قال أبوه وهو يهز رأسه حزناً عليها أنه لا بد وأن يكون من قام بقطعها أحمقاً كبيراً.

كان يوماً حاراً، سطعت فيه الشمس في سماء زرقاء كتلك التي اعتاد عادل أن يرسمها بالطباشير الملونة وهو صغير. وضع زجاجة عصير التفاح أمامه على قرمة الشجرة العملاقة وتمرّن على قذف كرته بقدمه دون أن تلمس الكرة الأرض. كان رقمه الشخصي ثمانية وستون ركلة. سجل ذلك الرقم القياسي في الربيع الماضي، وها هو الصيف قد انتصف وهو يحاول كسر ذاك الرقم، وصل إلى ثمانية وعشرين ركلة عندما شعر بأن أحدهم يراقبه. نظر حوله فرأى ذاك الولد، المرافق للرجل العجوز الذي حاول الاقتراب من بابا جان في مراسم افتتاح المدرسة. كان يجلس القرفصاء في ظل الجدار القرميدي.

«ماذا تفعل هنا؟». قال عادل وهو يحاول العواء كما يفعل كبير عندما يتحدث مع الغرباء.

«أتقي الحر في الظل، لا تبلغ الحارس عني».

«لا يجب أن تقترب من هنا».

«ولا أنت أيضاً».

«ماذا؟».

قهقه الولد وقال: «لا تبالي» شد ذراعيه العريضين ونهض على ساقيه. حاول عادل أن يرى إذا ما كانت جيوبه ممتلأة، فلربما حضر لسرقة بعض الفاكهة من بساتينهم. مشى الولد باتجاه عادل وقلب الكرة إلى الهواء بلمسة من قدمه وقذفها مرتين للأعلى بخفة شديدة، ثم قذفها بكعبه إلى عادل. تلقاها عادل ووضعها تحت ذراعه.

«لقد جعلنا أبوك ننتظره بجانب الطريق، أنا وأبي. لا يوجد أي شيء نستظل به، ولا حتى غيمة ملعونة في السماء».

شعر عادل أنه بحاجة للاحتماء بكبير.

«لقد جعل رجاله يخيفوننا ببنادق الكلاشينكوف كي نبتعد عنه». نظر إلى عادل بعبوس وبصق أمام قدميه. وتابع: «أرى أنك معجب برأس الزبدة».

احتاج عادل لهنيهة حتى يفهم من المقصود بتلك الكلمة فقال: «لا يجب الحكم على اللاعب سلباً بسبب خطأ واحد، إنه الأفضل، إنه ساحر خط الوسط».

«لقد شاهدتُ لاعبين أفضل منه».

«مثل من؟».

«مثل مارادونا».

«مارادونا؟». قال عادل بغضب، لقد ناقش نفس الموضوع من قبل مع أحد إخوته في جلال آباد فقال «مارادونا لاعب غشاش، أقسم، هل تذكر؟».

«كلهم كاذبون وكلهم غشاشون».

تثاءب الولد وقرر الذهاب. كان بمثل طول عادل تقريباً، لربما كان أطول منه بشعرة، ولربما كان بمثل سنه تقريباً. هكذا فكر عادل في نفسه. لكنه كان يمشي وكأنه أكبر من عادل بكثير، بتمهل وثقة، وكأنه يعرف كل شيء في العالم ولا يمكن أن يستوقفه شيء حوله لأنه شاهد كل شيء.

«اسمي عادل».

«غلام».

تصافحا، وشعر عادل بقبضة غلام القوية وكفه الجاف والسميك.

«كم عمرك بالمناسبة؟».

«ثلاثة عشر». قالها دون مبالاة وتابع: «أعتقد ذلك. يمكن أن يكون أربعة عشر».

«ألا تعرف موعد ميلادك».

عبس غلام وأجابه «أراهن بأنك تعرف يوم ميلادك. أراهن أنك أصغر مني بكثير».

«لا، ليس هذا صحيحاً». قال عادل بشكل دفاعي.

«يجب أن أذهب. أبي ينتظر هناك بجانب الطريق وحده».

«اعتقدت أنه جدك».

«اعتقادك خاطئ».

«هل ترغب بلعب ركلات جزاء معي؟». سأله عادل.

«مثل ركلات جزاء المباريات؟».

«خمس رميات لكل منّا».

بصق غلام مرة أخرى، حدق في الطريق ثم عاد إلى عادل. لاحظ عادل أن لديه ذقناً صغيرة بالنسبة لوجهه وأن لديه أنياباً إضافية في

فكيه، وكان أحدها متسوساً ومتعفناً. وقد قسم حاجبه الأيسر مناصفة بندبة ضيقة قصيرة. كما أن رائحة نفاذة كانت تبعث منه. لكن عادل لم يلعب أو يتحدث مع ولد من عمره منذ حوالي السنتين، إذا استثنينا الزيارات المتباعدة لأخوته في جلال آباد.

هيّأ عادل نفسه للإحباط، لكن غلام قال: «اللعنة، لم لا؟ لكنني سألعب أولاً».

حددوا مكان رمي الكرة بحجرتين تبعدان عن بعضهما ثمانية أقدام. رمى غلام خمس ركلات وأحرز هدفاً واحداً، وأطاح بالكرة خارجاً مرتين. أما عادل فقد سجل هدفين بلا عناء. كانت حراسة غلام للمرمى أسوأ من تسديداته. استطاع عادل أن يسجل أربع أهداف عبر إيهامه بالهجوم من الطرف المغاير والالتفاف عليه.

«أيها الملعون». صاح غلام وهو منحن للأمام ويداه مستندتان إلى ركبتيه.

«هل تريد أن نعيد الكرّة». حاول عادل أن لا يشمت بخسارة خصمه، لكنها كانت مهمة صعبة، فقد كان يحلق فرحاً في داخله.

وافق غلام على إعادة المباراة وكانت خسارته أثقل هذه المرة. اتفق مع عادل على تسديدة أخيرة، لكن عادل صدّ كل محاولاته لتسجيل الأهداف.

«لقد اكتفيت، أنا منحوس اليوم». قال غلام واخفض ذراعيه. مشى إلى قرمة الشجرة وجلس عليها وتنهد بتعب. رمى عادل الكرة أمامه وجلس بقربه.

«هذه لا تساعدني على الأغلب»، وأخرج من جيبه علبة سجائر. أشعل واحدة بضربة عود ثقاب واحدة واستنشقها ببهجة، ثم عرضها على عادل. أغرت السيجارة عادلاً وأراد أخذها لإثارة إعجاب غلام

فقط. لكنه امتنع كي لا تشمّ أمه أو كبير رائحتها عليه.

«أنت حكيم». قال غلام وهو يرجع رأسه للوراء.

تكلموا حول كرة القدم لفترة من الوقت، وقد تبيّن لعادل أنه محظوظ بهذه المحادثة لأن غلام كان خبيراً في اللعبة وكانت معلوماته غزيرة. تحدثا عن مبارياتهما المفضلة وقصص أهدافهم المفضلة. عدّد كل منهما للآخر لاعبيه الخمسة المفضلين بالترتيب. كانا يحبان نفس اللاعبين ما عدا أن عادل كان يفضل رونالدو البرازيلي بينما يفضل غلام رونالدو البرتغالي. وقادهما الحديث بلا مهرب إلى نهائيات عام 2006 والذكريات المؤلمة لعادل، حيث حدثت النطحة المشؤومة. قال غلام أنه شاهد كامل المباراة مع حشد من الناس أمام واجهة متجر زجاجية قريبة من المخيم.

«المخيم؟».

«حيث كنت أعيش، في باكستان».

أخبر عادل أن هذه أول زيارة له إلى أفغانستان، فقد ولد وعاش في مخيم اللاجئين في جالوزاي. حكى له عن المخيم الذي يشبه المدينة.. ويتألف من متاهة ضخمة من الأكواخ الطينية والخيام والبيوت المبنية من ألواح البلاستيك والألمنيوم على جانبي ممرات ضيقة موحلة بالأقذار والفضلات المنتنة. كانت مدينة داخل مدينة أكبر منها بكثير. قال أنه أكبر إخوته، وقد ولدوا جميعاً وعاشوا طوال عمرهم في ذاك المخيم، في بيت طيني مع والديهم. اسم أبيه هو إقبال، كما كانت جدته لأبيه بروانة تعيش معهم. تعلم هو وأخوته المشي والكلام في تلك الزواريب الضيقة. ذهبوا للمدرسة ولعبوا بدواليب الدراجات الصدئة في شوارعه الوسخة، وهم يتراكضون هناك برفقة أطفال المخيم الآخرين كل يوم حتى مغيب الشمس، إلى أن تناديهم الجدة بروانة.

«كنت أحب السكن هناك، لدي العديد من الأصدقاء هناك.. أنا أعرف الجميع. وكنا أصحاباً. لدي عمّ يعيش في أميركا أيضاً، إنه أخ والدي غير الشقيق. اسمه العم عبدالله. لم أقابله في «حياتي»، لكنه كان يرسل لنا المال كل بضعة أشهر ليساعدنا على مواصلة حياتنا. لقد ساعدنا ذلك كثيراً».

«لماذا تركتم المخيم؟».

«لقد اضطررنا للمغادرة. أغلق الباكستانيون المخيم وقالوا أن مكان الأفغان هو في أفغانستان. ثم توقف عمي عن إرسال المال لنا. لهذا قال أبي أن علينا العودة والبدء من جديد في بلادنا، بعد أن غادرت الطالبان إلى الجهة الأخرى من الحدود. قال أننا لم نعد ضيوفاً مرغوباً بهم في باكستان. أصابني الحزن والإحباط، هذا المكان..». ولوح بيديه مشيراً إلى الأمام «هذا المكان بلد أجنبي بالنسبة لي. كما أن الأولاد الذين عاشوا في أفغانستان من قبل لم يقولوا أي كلمة جيدة عنها».

أراد عادل أن يقول لغلام أنه يفهم شعوره تماماً. أراد أن يخبره كم يشتاق لكابول وأصدقاءه وأخوته في جلال آباد. لكنه شعر أن غلام قد يسخر منه. فقال بدلاً مما فكر به: «أوافقك، الوضع هنا ممل جداً».

ضحك غلام وقال:

«لا أظن أن ذلك ما كانوا يعنون بكلامهم عن البلاد».

شعر عادل أنه قد عُوقب بهذه الكلمات.

سحب غلام من السيجارة سحبة طويلة وأطلق من فمه حلقات دخانية متتالية. راقبا الحلقات وهي تتلاشى في الهواء.

«قال لنا أبي أنا وإخوتي: (انتظروا، انتظروا حتى تتنشقوا هواء شادباغ وتتذوقوا مياهها). لقد ولد وعاش هنا». تابع اقتباس كلمات أبيه: «(لن تتذوقوا أبرد ولا ألذ طعماً من هذه المياه يا أولاد) كان دائماً

ما يحكي لنا عن شادباغ، التي كانت قرية صغيرة مسحوقة عندما كان أبي يعيش هنا على ما أعتقد. قال لنا أن هناك عنباً لا ينمو في أي مكان من العالم إلا في شادباغ. كنا نعتقد أنه يصف لنا الجنة».

سأله عادل عن مكان سكنه الآن. رمى غلام عقب السيجارة ونظر إلى السماء وحدق في سطوع أشعة الشمس وقال:

«هل تعرف الحقل المفتوح المجاور للطاحونة القديمة؟».

«نعم».

انتظر عادل مزيداً من تفاصيل العنوان، لكن غلام لم يقل أي شيء آخر.

«هل تعيشون في حقل؟».

«في الوقت الحاضر» غمغم غلام «لدينا خيمة».

«أليس لديكم أقارب هنا؟».

«لا. إما أنهم موتى أو مهاجرون. لدى أبي خال يعيش في كابول، أو أنه كان يعيش هناك. من يعرف إن كان حياً أو ميتاً. إنه أخو جدتي، كان يعمل لدى عائلة ثرية هناك. لكني أعتقد أن الخال نبي وجدتي بروانة لم يتحدثا لبعضهما لعقود من الزمن، لما يزيد عن خمسين عاماً على ما أعتقد. إنهما كالغرباء. أعتقد أن والدي كان ليذهب إليه لو اضطر لذلك، لكنه يريد المحاولة بنفسه هنا أولاً. هنا في مسقط رأسه».

أمضيا بعضاً من الوقت جالسين دون كلام على قرمة الشجرة، راقبا ارتعاش أوراق البساتين الخضراء في انسياب الرياح الدافئة. فكر عادل في غلام والليالي التي يقضيها في خيمة عائلية، في خطر العقارب والأفاعي الزاحفة في الحقل من حولهم.

لم يعرف عادل لماذا أخبر غلام عن سبب انتقالهم من كابول إلى شادباغ، ولربما لم يكن لديه شيء آخر يقوله. لم يكن واثقاً حول سبب

إفصاحه عن هذه الأمور، هل قام بهذا لتبديد انطباع غلام عن حياته الهانئة لأنه يعيش في هذا البيت الكبير بكل بساطة. أو ليبدأ معه علاقة صداقة. لربما فعل ذلك التماساً للعطف. هل قام بهذا ليضيق الفجوة بينهما؟ لم يعرف السبب. ربما كانت كل تلك الاحتمالات مجتمعة. كما لم يعرف لماذا شعر بضرورة أن يحبه غلام، لكنه فهم تماماً أن السبب أعمق بكثير من حقيقة وحدته القاتلة ورغبته في إيجاد صديق.

«لقد انتقلنا إلى شادباغ لأن شخصاً ما حاول قتلنا في كابول، شخص يقود دراجة نارية، مرّ من أمام منزلنا ورشّ منزلنا بالرصاص. لم يمسكوا به. لكننا نشكر الله لأنه لم يصب أحداً منا».

لم يعرف ما ستكون عليه ردة فعل غلام، لكنه فوجئ بأن الصبي لم تكن عنده أي ردة فعل. بقي يحدق في السماء وقال دون اهتمام «نعم، أعرف ما جرى معكم».

«تعرف؟».

«يعرف الناس كل شيء عن أبيك، حتى عندما ينظف أنفه، إنهم يعرفون».

راقب عادل طريقته في سحق علبة السجائر الفارغة وتحويلها إلى كرة وتخزينها في جيب بنطاله الأمامي.

«لديه أعداء. أبوك» تنهد غلام

كان عادل يعرف هذا. وضح له بابا جان أن بعضاً من الناس الذين قاتلوا معه ضد الروس في الثمانينات تحولوا إلى شخصيات فاسدة ومتسلطة. ضلوا طريقهم كما قال. ولأنه كان يرفض الانضمام إلى خططهم الإجرامية، كانوا يحاولون دوماً التخلص منه، تلويث اسمه بإشاعات موجعة خاطئة. هذا ما كان بابا جان يحاول حماية عادل منه، لم يسمح للصحف بدخول بيتهم على سبيل المثال. ولم يسمح لعادل

بمشاهدة نشرات الأخبار على التلفاز أو بتركيب خط انترنت في المنزل.

اتكأ غلام على مرفقه وقال:

«سمعت أنه مزارع».

استهجن عادل وقال: «يمكنك أن ترى بأم عينك. فقط بضعة هكتارات من البساتين. وحقول القطن في هلمند، والمصنع».

راقب غلام وجه عادل وهو يعبس بالتدريج وفتح فمه ليظهر منه ذاك الناب المتعفن وقال: «القطن! ! أنت تحفة. لا أعرف ماذا أقول لك».

لم يفهم عادل أي شيء. نهض وركل الكرة وقال: «يمكنك أن تطلب إعادة المباراة».

«إعادة؟».

«هيا».

«أراهن أنك لن تسجل أي هدف».

عبس عادل هذه المرة وقال: «لنراهن».

«حسناً، إذا ربحتُ، أريد قميص زيدان هذا».

«وإذا ربحتُ أنا. لا، عندما سأربح أنا، ماذا ستعطيني؟».

«لن اقلق حيال هذا الأمر لو كنت مكانك».

كان صراعاً جميلاً. تسلل غلام يميناً ويساراً وصدَّ كل هجمات عادل وأخذ منه البلوزة. شعر عادل بأنه غبي لتسليم الفتى شيئاً من أملاكه، شيئاً عزيزاً عليه أكثر من أي شيء آخر. سلمه إياها وشعر بموجة من الدموع تجتاح عينيه لكنه ابتلعها.

امتلك غلام كياسةً منعته من ارتدائها في حضور عادل. ابتسم له وهو يتركه وسأله: «لن يغيب أبوك ثلاثة أشهر.. أليس كذلك؟».

«سوف ألاعبك لاستعادتها غداً». قال عادل وأشار إلى البلوزة.

«عليَّ أن أفكر بهذا الأمر».

عاد غلام إلى الشارع الرئيسي. توقف في منتصف الطريق وأخرج علبة السجائر الملفوفة من جيب بنطاله وقذفها لما وراء جدار بيت عادل.

استمر عادل في التسلل مع كرته خارج القصر كل صباح لمدة أسبوع، بعد أن ينهي دروسه الصباحية. كان يؤقت موعد خروجه مع جدول تغيير مناوبات الحراس المسلحين للبوابة. في المحاولة الثالثة، أمسكه الحارس ولم يسمح له بالخروج. فعاد عادل إلى البيت وأحضر له حاسوباً لوحياً وساعة. ومنذ ذلك اليوم بدأ عادل بالدخول والخروج سراً دون خوف مع المحافظة على وعده له بأنه لن يبتعد أكثر من حافة البساتين الخلفية. أما بالنسبة لأمه وكبير فقد لاحظا بالكاد غيابه لساعة أو ساعتين. كانت هذه أحد فوائد الحياة في قصر كبير كهذا.

بقي عادل يلعب وحده كل يوم وراء القصر عند الشجرة المقطوعة وهو يمنّي النفس برؤية غلام ويراقب الطريق غير المعبدة التي تربطه بالطريق الرئيسية طوال فترة لعبه، ويجلس على جذع الشجرة المقطوع وينظر للسماء لمشاهدة مرور الطائرات النفاثة المقاتلة، ويرمي الحصى بضجر على الفراغ أمامه.

في أحد الأيام، ظهر غلام حاملاً لكيس ورقي.

«أين كنت؟».

«كنت أعمل» قال غلام.

أخبر عادل بأن شخصاً ما استأجرهم لعدة أيام كي يصنعوا أحجار البناء. وأن مهمته كانت خلط الطين. وحمل دلاء الماء جيئة وذهاباً، وسحب أكياس الاسمنت والرمل التي تفوقه وزناً. شرح لعادل كيف

يخلطون الطين في آلة ذات عجلة دوّارة، وكيف يتوجب على العامل خلط المواد باستمرار بالماء والرمل إلى أن يكتسب الخليط قواماً متجانساً لا يتفتت. وعندها يوقف الآلة عن الدوران ويصب الخليط في قوالب أحجار البناء ويعود للبدء من جديد لصنع كمية جديدة، وهكذا... فتح كفّيه وسمح لعادل بالنظر للقروح التي غطتها.

«واو». قال عادل بغباء. كان يعرف أن هذا غباء منه لكنه لم يستطع التفكير بكلمة أخرى. أقرب شيء قام به عادل لمثل هذا العمل اليدوي كان عصر أحد أيام الربيع منذ ثلاث سنوات عندما ساعد البستاني على زراعة شتلات التفاح الصغيرة في فناء بيت كابول الخلفي.

«أحضرت لك مفاجأة» مدّ غلام يده داخل الكيس وأخرج منه بلوزة زيدان.

«لا أفهم» قال عادل، بدهشة وبهجة حذرة.

«رأيت ولداً في البلدة يرتدي مثلها منذ عدة أيام» قال وهو يطلب منه الكرة بإشارة من إصبعه. ناوله إياها عادل بقدمه بينما راح يستمع للقصة.

«هل تصدق؟ ذهبت إليه وقلت له.. هذه بلوزة صديقي التي ترتديها. نظر الولد إليّ وانتهينا من الأمر في الزقاق المجاور. توسل إلي في النهاية لآخذ منه البلوزة».

أمسك بالكرة في الهواء وبصق وعبس في وجه عادل. وقال «حسناً، لقد بعتها له قبل بضعة أيام».

«هذا ليس صحيحاً. إذا بعتها له، فهي ملكه».

«ماذا؟. ألم تعد تريدها بعد الآن؟ بعد كل العناء الذي تكبدته من أجل إعادتها لك؟ بذلت الجهد وحدي. لقد تلقيت العديد من الضربات على وجهي من أجلها».

«ومع ذلك..».

«إضافة لأني خدعتك وأخذتها منك في البداية، وقد ندمت على هذا. ها أنا أعيدها لك. وبالنسبة لي...» أشار إلى قدميه فوجد عادل في قدميه زوجاً جديداً من الأحذية، حذاء رياضياً أزرقاً وأبيضاً.

«هل الولد بخير؟». سأله عادل.

«سيعيش. هل سنلعب الآن أم أننا سنناقش الأمر؟».

«هل أبوك معك؟».

«لا، لم يحضر اليوم. إنه في محكمة كابول. هيا بنا».

لعبا لبعض الوقت بالكرة، ثم مشيا قليلاً. أخلف عادل وعده للحارس وأدخل الفتى إلى البساتين. أكلا من أشجار الفواكه وشربا زجاجات عصير باردة كاملة أحضرها عادل من المطبخ بسرّية تامة.

بدأا يتقابلان بشكل يومي بهذه الطريقة. كانا يلعبان بالكرة ويلاحقان بعضهما داخل البساتين، بين صفوف الأشجار المتوازية، ويدردشان حول أخبار المباريات الرياضية والأفلام. وعندما لا يوجد عندهما ما يقولانه لبعضهما، يجلسان لمراقبة شادباغ وسفوح التلال الناعمة بعيداً وراءها وسلسلة الجبال الخافتة التي تليها في الأفق.

استيقظ عادل كل يوم الآن وهو ينتظر موعد لقاءه بغلام ورؤيته يتسلل من الطريق الوسخ، ويتشوق لسماع صوته العالي والواثق. كان تفكيره باللعب مع غلام يشتت انتباهه أثناء دروس الصباح. قلق من احتمال خسارته لصداقة غلام. تخوّف عادل من أن لا يجد أبو غلام (إقبال) عملاً ثابتاً في البلدة، أو مكاناً ليعيشوا فيه. خشي من أن يضطروا للانتقال لبلدة أخرى، لجزء آخر من البلاد، حاول عادل أن يجهز نفسه لهذه الإمكانية.. لوداع غلام المحتمل.

وبينما كانا يجلسان على جذع الشجرة في أحد الأيام، قال له غلام:

«هل سبق وأن كنت مع فتاة يا عادل؟».

«تعني..».

«نعم، أعني ذلك الأمر».

شعر عادل بحرارة مفاجئة في أذنيه، فكر في الكذب لكنه عرف أن غلام لن يصدقه. فتمتم:

«هل كنت أنت؟».

أشعل غلام سيجارة وعرض واحدة على عادل. قبلها عادل هذه المرة بعد أن التفت وراءه ليتأكد من أن الحارس لا يختلس النظر إليهما، وأن كبير لم يخرج من القصر. سحب منها قليلاً وانفجر في سعال طويل، فابتسم غلام وضربه على ظهره عدة مرات.

«إذاً، هل كنت مع فتاة أم لم تفعل؟» تنفس عادل ودمعت عيناه من السعال والدخان. فقال غلام بلهجة تآمرية:

«اصطحبني صديق أكبر مني سناً في المخيم إلى ماخور في بيشاور».

حكا له عن الغرفة القذرة ذات الستائر البرتقالية والجدران المتشققة والمصباح الوحيد المعلق في السقف والجرذ الذي لمحه على الأرض، وعن أصوات العربات في الخارج وصخب السيارات. أخبره أنه وجد هناك فتاة تأكل طبق برياني على مفرش السرير، وكيف نظرت له دون أي تعبير على وجهها. وكيف استطاع رغم الضوء الخافت أن يتبن وجهها الجميل وأنها كانت بمثل سنه. كيف جمعت ما تبقى من الأرز في الصحن بقطعة خبز، ودفعت الصحن بعيداً واستلقت ومسحت الطعام عن أصابعها ببنطالها وهي تخلعه.

استمع له عادل مسحوراً، مبتهجاً. لم يكن عنده في حياته صديق كهذا. كان غلام يعرف عن العالم أكثر من أخوته الأكبر سناً المقيمين في جلال آباد. وأكثر من أصدقاءه في كابول. كانوا جميعاً أبناء مسؤولين

وسياسيين ووزراء. وكانت حياتهم تشبه حياة عادل في عدة أوجه. منحت اللمحات التي حكاها غلام عن حياته لعادل الشعور بأن حياة غلام موبوءة بالمشاكل، صعبة، مشوبة بالمشقات، لكنها كانت حياةً مغامِرة، حياةً تبعد عن حياة عادل عوالم كاملة مع أنها لا تبعد عنه سوى أمتار قليلة. شعر عادل بكآبة حياته وفراغها كلما استمع لقصص غلام.

«وفعلتها؟ هل عرفت كيف؟ هل استطعت إلصاقه بها؟».

«لا، تناولنا كأساً من الشاي وناقشنا أشعار الرومي. ما رأيك؟».

احمر وجه عادل وسأله: «كيف كان الأمر؟».

لكن غلام كان قد انتقل لموضوع آخر، هكذا انتهت أحاديثهما في أغلب الأحيان... حيث يختار غلام الحديث ويستهل قصة ما ويشدُّ عادل إليها ثم يفقد الاهتمام بها وينتقل لموضوع آخر ويترك عادل حائراً في أفكاره.

وهكذا، بدلاً من أن ينهي القصة التي بدأها قال:

«أخبرتني جدي بروانة أن زوجها سابور حكا لها قصة هذه الشجرة. حصلت هذه القصة قبل زمن طويل من قطعه لها بالطبع. أخبرها جدي بالقصة عندما كانا أطفالاً. وتقول الأسطورة أنه إذا كان لديك أمنية، فعليك أن تركع أمام الشجرة وتهمس لها بطلبك. وإذا ما وافقت الشجرة على منحك ما طلبت، فسترمي على رأسك عشر أوراق خضراء منها».

«لم أسمع بهذه الحكاية من قبل». قال عادل.

«لن تسمعها من أحد غيري». وعندها فقط استوعب عادل ما قاله غلام فاستطرد:

«مهلاً.. هل قلت أن جدك هو من قطع شجرتنا هذه؟».

نظر له غلام وقال:

«شجرتكم؟ هذه ليست شجرتكم».

رمش عادل بعينيه وقال: «ماذا يعني هذا؟».

نظر غلام عميقاً في عيني عادل. لأول مرة، لم يلمح عادل في وجه صديقه أي نوع من حيويته المعهودة أو من ابتسامته اللعوب المعروفة أو سخريته الخفيفة. تغيّر وجهه فجأة، وشعر عادل والدهشة تملأه أنه ينظر في وجه شخص راشد.

«هذه شجرة عائلتي. هذه أرض عائلتي. لقد امتلكنا هذه الأرض منذ أجيال طويلة... بنا أبوك قصره على أرضنا بينما كنا لاجئين في باكستان خلال الحرب». أشار بيده للبساتين وتابع: «أترى هذه؟ هنا كانت بيوت الناس. لكن أباك طلب من سائقي البلدوزر اقتلاعها وهدمها. كما هدم منزل أهلي، البيت الذي ولد فيه أبي وعاش قبل الحرب».

رمش عادل بدهشة.

«ادعى أنه يمتلك أرضنا وبنا هذا عليها». نظر باحتقار إلى القصر وتابع: «بنا هذا الشيء في مكانها».

قال عادل وقلبه يخفق بشدة وهو يشعر ببعض الاشمئزاز «كنت أعتقد أننا أصدقاء، لماذا تخترع هذه الأكاذيب الفظيعة عن والدي؟».

«هل تذكر يوم خدعتك وأخذت منك بلوزة زيدان؟». قال ووجهه أحمر من الخجل «كدتَ تبكي يومها. لا تنكر ذلك. لقد رأيت الدموع في عينيك من أجل بلوزة.. بلوزة. تخيل شعور عائلتي بعد تكبدنا عناء العودة من باكستان، لنصل إلى هنا وننزل من الحافلة ونجد هذا الشيء مبنياً فوق أرضنا... حيث أمرنا السيد ذو البذلة الأرجوانية بمغادرة أرضنا فوراً».

«أبي ليس لصاً». صاح عادل «اسأل أي شخص في شادباغ الجديدة. اسألهم عن انجازاته لخير هذه البلدة». فكر بالناس الذين يستقبلهم أبوه في مسجد البلدة وهو يتكئ على الأرضية وكأس الشاي أمامه وسبحته في يده. فكر بصف الناس الذين ينتظرون محادثته، والممتد إلى الباب الخارجي للمسجد، فكر بكل أولئك الرجال الذين يغطي الوحل أكفهم، والنساء العجائز اللواتي لا يملكن أسناناً في أفواههن، والأرامل الشابات مع أطفالهن. كل منهم وله حاجة يطلبها من أبيه، كانوا جميعاً ينتظرون دورهم لطلب ما يريدون.. صدقة، عمل، قرض صغير لتصليح سقف أو ساقية ري أو مال لشراء حليب للأطفال. كان أبوه يستمع لهم جميعاً بصمت وصبر لا نهائي وكأن كل شخص في الصف فرد من عائلته.

«صحيح. لماذا يمتلك أبي إذاً صكوك ملكية الأرض؟». قال غلام. «لقد أعطاها للقاضي في كابول».

«أنا واثق من أنه لو تكلم مع أبي..».

«أبوك يرفض الحديث إلى أبي، إنه لا يقرّ بفعلته. إنه يمرّ أمامنا وكأننا كلاب ضالة».

«أنتم لستم كلاباً». قال عادل. صارع نفسه ليحافظ على استقرار نبرة صوته وتابع: «أنتم بلهاء. كما قال كبير عنكم. كان يجب أن أسمع كلامه من البداية».

وقف غلام ومشى خطوتين ثم توقف وقال: «أريدك أن تعرف، أنا لا أحمل تجاهك أي ضغينة... لأنك مجرد ولد صغير جاهل. ولكن، في المرة القادمة التي سيسافر أبوك فيها إلى هلمند، اطلب منه اصطحابك لمعمل القطن الذي يدعيه أمامك. وتعرّف على نوع النباتات التي يزرعها هناك. سأعطيك تلميحاً. إنه لا يزرع القطن».

لاحقاً في ذلك المساء، وقبل العشاء، استلقى عادل في مغطس حمامه المترع بالماء الدافئ وفقاعات الصابون. كان يسمع صوت التلفاز من الأسفل، حيث كان كبير يشاهد فيلماً قديماً عن القراصنة. غسل عنه ذاك المغطس كل الغضب الذي اعتمل في صدره طوال النهار، فشعر عادل بأنه كان قاسياً كثيراً مع غلام. أخبره أبوه مرة أنه مهما فعل من أجل الفقراء فإنهم كانوا يتكلمون عن الأغنياء بحقد، لأنهم يشعرون بالإحباط وخيبة الأمل من حياتهم الخاصة. لا مفرّ من هذا لأنه أمر طبيعي، ولهذا، لا يجب أن نلومهم يا ولدي، كما قال أبوه.

لم يكن عادل ساذجاً جداً ليدرك الظلم الذي ينطوي عليه العالم، لم يكن يحتاج سوى للنظر خارج نافذته ليرى كل شيء. لكنه تخيل أن الاعتراف بهذه الحقيقة لا يرضي غلاماً وأمثاله. ربما كانوا بحاجة لشخص يرمون باللائمة عليه، شخص من لحم ودم يتهمونه بأنه سبب شظف معيشتهم، أي شخص يلومونه ويرشقونه بالاتهامات ويستطيعون البصق عليه غضباً. ولربما كان بابا جان على حق عندما قال أن رد الفعل المناسب هو فهم وتحمل أحكامهم المجحفة هذه، هو إجابة طلباتهم بلطف. فكر عادل وهو يراقب انبعاث الفقاعات من أسفل المغطس لتطفو على سطح الماء بكل المدارس التي بناها أبوه والمراكز الطبية وهو يعلم أن الناس في البلدة يتناقلون عنه كل تلك الأحاديث المؤذية.

مدّت أمه رأسها من باب الحمام وهو يجفف نفسه وقالت: «هل ستشاركنا العشاء؟».

«لست جائعاً» قال.

«آه».

دخلت وتناولت منشفة عن الرّف وقالت: «اجلس، دعني أجفف شعرك».

«يمكنني تجفيفه بنفسي».

وقفت وراءه وتفحصته في المرآة.

«هل أنت على ما يرام يا عادل؟».

نفر من سؤالها. وضعت كفها على كتفه ونظرت له متوقعة أن يفرك خده على كفها عما اعتاد.. لكنه لم يفعل.

«أمي. هل سبقت لك رؤية مصنع بابا جان؟».

لاحظ المفاجأة في عيني أمه، وتمهلها في الإجابة «بالطبع، كما أنك رأيته أنت».

«لا أعني في الصور. هل رأيته على أرض الواقع؟ هل زرته؟».

«وكيف سيتسنى لي هذا؟». قالت أمه وهي تميل رأسها وتنظر إليه في المرآة «هلمند خطرة. ولا يمكن لأبيك أن يعرضني أو يعرضك للخطر».

أومأ عادل. ارتفع دوي أصوات المدافع من الفيلم في الأسفل وعلا صوت القراصنة وهم يصرخون معلنين بداية المعركة.

ظهر غلام من جديد بعد ثلاثة أيام. مشى بسرعة باتجاه عادل ثم توقف أمامه.

«أنا مسرور لقدومك» قال عادل، ثم تابع: «لدي شيء لك» أحضر عن جذع الشجرة المقطوعة المعطف الذي كان يجلبه معه طوال الأيام الماضية. وهو معطف مصنوع من الجلد البني مبطن بجلد الغزال الناعم وله قلنسوة يمكن إخفاؤها داخل سحاب على الياقة. مدّ يده به إلى غلام وقال: «لقد لبسته عدة مرات فقط. إنه كبير قليلاً عليّ. لا بد وأنه يناسب مقاسك».

لم يأت غلام بأي حركة، وقال:

«لقد ركبنا الحافلة البارحة وذهبنا إلى المحكمة في كابول». قال بشكل قاطع، ثم تابع «احزر ماذا قال لنا القاضي؟ قال أنه يحمل لنا أخباراً سيئة. قال أن حريقاً صغيراً وقع في مكتبه وأحرق أوراق والدي.. دُمرت أوراقنا، تلاشت».

سحب عادل يده الممدودة بالسترة.

«وبينما كان القاضي يعبر لنا عن عجزه عن فعل أي شيء دون الأوراق، هل تعرف ماذا كان يضع في يده؟ كان يرتدي ساعة ذهبية جديدة لم يكن يرتديها عندما قابله أبي المرة الماضية».

رمش عادل بعينيه محاولاً الفهم. أما غلام فنظر للسترة نظرةً قاطعة صارمة ملأى بالاتهامات المخزية. وقد أفلح في ذلك، لأن عادل انكمش على نفسه، وشعر بأن السترة تتحول من هدية لإحلال السلام بينهما إلى رشوة بغيضة.

استدار غلام وعاد إلى الطريق بخطوات سريعة.

أقام بابا جان احتفالاً في مساء يوم عودته من السفر. جلس عادل بجانب والده على رأس المفرش القماشي الممدود على الأرض من أجل الطعام. كان بابا جان يفضل أحياناً الجلوس على الأرض لتناول الطعام والأكل بأصابعه، خصوصاً إذا كان برفقة أصدقاء أيام الجهاد. وكان يمزح ويقول أن الجلوس والأكل هكذا يذكرانه بأيام الكهف. كانت النساء تأكلن في غرفة الطعام إلى المنضدة الكبيرة بالملاعق والشّوك. جلست أم عادل في مقدمة الطاولة. واستطاع عادل من مكانه أن يسمع صدى ثرثرتهم يتردد بين الجدران الرخامية. جلست بينهم خطيبة أحد

أصدقاء بابا جان، وهي امرأة عريضة الوركين وغبية، وقد صبغت شعرها باللون الأحمر، وكانت قد عرضت أمام ماما في وقت سابق من المساء صوراً على كاميرتها الرقمية للمتجر المتخصص في إقامة الأعراس الذي زاروه في دبي.

أخبرهم بابا جان بعد العشاء وهم يتناولون الشاي قصة الكمين الذي نصبه وزملاءه لرتل عسكري سوفييتي كي يمنعوهم من دخول الوادي الشمالي. أنصت له الجميع باهتمام.

«عندما دخلوا دائرة نيراننا فتحنا النار عليهم. أصبنا المركبة الرئيسية ثم بعض سيارات الجيب. اعتقدت أنهم سيتراجعون أو سيحاولون الاختباء، لكن أبناء الحرام توقفوا وترجلوا وبدؤوا يطلقون النار علينا. هل تصدقون هذا؟».

انتشرت الهمهمة في الصالة، اهتزت رؤوس الرجال الذين كان عادل يعرف أن أكثر من نصفهم مجاهدين سابقين.

«كنا نفوقهم عدداً، ربما ثلاثة إلى واحد، لكنهم هاجمونا بالأسلحة الثقيلة.. هاجموا مواقعنا في البساتين، تشتتت صفوفنا بسرعة وهربنا، أنا وشخص اسمه محمد هربنا سوياً، ركضنا في حقل عنب، ولم تكن كرماته منصوبة على أسلاك أو قصب، بل كان ذاك النوع البري الذي يتركه الناس لينمو على الأرض. طار الرصاص حولنا في كل مكان وتوجب علينا النجاة بحياتنا، وفجأة تعثرنا وسقطنا أرضاً. نهضت مرة أخرى وركضت لكني لم ألمح أثراً لمحمد. استدرت وصرخت: انهض يا حمار».

توقف بابا جان قليلاً من أجل ضرورة القصة الدرامية، ووضع قبضته أمام شفتيه ليمنع ضحكته من الظهور.

«وفجأة نهض محمد وبدأ يركض، ابن العاهرة المجنون كان يحمل

في كلتا ذراعيه كثيراً من عناقيد العنب، تلةً من العنب في كل ذراع».

انفجر الجميع بالضحك، وضحك عادل أيضاً. فرك أبوه ظهره وقرّبه منه. بدأ أحد ما بحكاية قصة أخرى بينما تناول بابا جان علبة السجائر الموجودة بجانب صحنه. لكن الفرصة لم تسنح له لإشعال سيجارة لأنهم سمعوا صوت تحطم زجاج فجأة.

صرخت النساء من غرفة الطعام. رنَّ صوت شيء معدني مثل شوكة أو سكين زبدة على الرخام. نهض الرجال وركض كبير وأزمري إلى الغرفة وقد سحبوا مسدساتهم.

«جاءت من المدخل» قال كبير. وفاجئهم تحطم زجاج آخر قبل أن يتابع كلامه.

«انتظر هنا أيها القائد ساهيب، سنلقي نظرة» قال أزمري.

«أنا من سيقوم بهذا» هدر بابا جان وهو يندفع بسرعة «لن أختبئ زاحفاً تحت سقف بيتي».

توجه نحو الردهة وتبعه عادل وأزمري وكبير وكل الضيوف الرجال. وبينما كانوا يهرولون رأى عادل كبير يسحب قضيباً معدنياً كانوا يستعملونه في الشتاء لتحريك النار في الموقد. رأى أمه أيضاً وهي تحاول الانضمام إليهم بوجه شاحب. وعندما وصلوا الردهة طارت صخرة من خلال النافذة وحطت على الأرضية فوق حطام الزجاج. صرخت المرأة ذات الشعر الأحمر.

صاح أحدهم وراء عادل «كيف استطاعوا اجتياز الحراس على البوابة؟».

«لا أيها القائد ساهيب». صرخ كبير لكن أباه كان قد فتح الباب الأمامي.

كان الضوء خافتاً، لكنه الصيف، وما زال الأفق مغموراً بالأصفر الشاحب. رأى عادل عناقيداً بعيدة من الأنوار في شادباغ الجديدة، حيث يستعد الناس هناك لتناول العشاء مع أسرهم. امتدت التلال في الأفق وأظلمت الدنيا من حولهم، لكن الدنيا لم تكن مظلمةً بما فيه الكفاية، ليس بعد، لتغطية الرجل العجوز الواقف أسفل الدرجات الأمامية، والذي يحمل حجراً في كل يد.

«خذيه إلى الأعلى.. الآن». قال أبو عادل لأمه من فوق كتفه.

اصطحبته أمه للأعلى وهي تضع يديها على كتفيه، وأدخلته لغرفة النوم الرئيسية التي تتشاطرها مع أبيه. أغلقت الباب وأقفلته وأغلقت الستائر وأشعلت التلفاز. سحبت عادل إلى السرير وجلسا سوياً بلا حراك. شاهدا على الشاشة رجلين عربيين يرتديان الجلاليب الطويلة والقبعات على رؤوسهم ويحاولان إصلاح شاحنة.

«ماذا سيفعل بالرجل العجوز؟ أمي.. ماذا سيفعل به؟». لم يستطع عادل التوقف عن الارتعاش.

نظر إلى وجهها ورأى السحابة التي تغطيه، وعرف أن كل ما ستقوله سيكون كذباً.

«سيتكلم معه، سيتفاهمون. هذه مهنة أبيك، التفاهم مع الناس».

هزّ عادل رأسه وبكى، انتحب.

«ماذا سيفعل بالرجل العجوز يا أمي؟».

كررت أمه نفس الكلام وقالت أن كل شيء سيصبح على ما يرام وأن الأذى لن يطال أحداً من الناس. لكن نشيجه كان يزداد حدة كلما حاولت تهدئته، إلى أن استنزف طاقته ونام على حضنها.

قرأ عادل عنوان الحادث في الصحيفة على شاشة حاسوب أبيه بعد عدة أيام: *نجاة قائد سابق من محاولة اغتيال.*

وصفت الصحيفة المحاولة بأنها وحشية وقالت عن المجرم أنه لاجئ سابق له صلات مشبوهة بالطالبان. وفي المقابلة مع أبيه قال أنه لم يخشَ سوى على سلامة عائلته، وبالخصوص على ولده الصغير البريء، كما قال. لم تورد الصحيفة اسم الجاني ولا أي معلومة عمّا حصل له في ما بعد.

أغلق عادل الحاسوب. لم يكن يُسمح له بفتح ذاك الحاسوب أو بالدخول إلى مكتب أبيه. لم يكن ليجرؤ على فعل شيء كهذا قبل شهر. رجع إلى غرفته واستلقى على سريره وراح يرمي بكرة تنس على الحائط. لم يمض وقت طويل حتى دخلت أمه الغرفة وطلبت منه أن يتوقف عن رمي الكرة، ثم أمرته بذلك، لكنه لم يتوقف. وقفت فترة عند الباب ثم انسلت إلى الخارج.

لم يتغير شيء في حياة عادل اليومية ظاهرياً، مازال يستيقظ في الصباح الباكر ويغتسل ويتناول فطوره مع والديه ويجلس لأخذ دروسه مع معلمه، ثم يتناول الغداء ويمضي فترة بعد الظهر في الاستلقاء ومشاهدة الأفلام مع كبير أوفي لعب ألعاب الفيديو.

لكن لا شيء كان على حاله. قد يكون غلام الشخص الذي فتح الباب أمامه، لكن أباه هو من دفعه للدخول. بدأت الماكينة الخاملة في دماغه بالدوران. شعر عادل في الليل وكأنه قد اكتسب حاسّة جديدة ساعدته على فهم حقيقة أشياء لم يتنبّه لها من قبل، أشياء كانت أمام عينيه طيلة الوقت لسنوات الآن. فهم على سبيل المثال حجم الأسرار

التي تحتفظ بها أمه في داخلها، كانت الأسرار تقفز من وجهها كلما نظر إليها، وشاهد بأم عينه الجهد الذي تبذله لتخفي عنه ما تعرفه، كل ما تقفل عليه أبواب قلبها، كل ما تحرسه بحذر، تماماً مثلهما، هو وأمه، الشخصين المخفيين والمحروسين بحذر وعناية في هذا البيت الكبير. رأى قصر أبيه هذا لأول مرة كما يراه الآخرون دون أن يتفوهوا بكلمة.. مسخاً، نصباً تذكارياً للخيانة والإهانة والظلم. رأى الخوف في تسرع الناس ولهفتهم لخدمة أبيه، عرف أن الخوف هو الدعامة الحقيقية لاحترامهم له وتقديرهم إياه. شعر أن غلام سيُسرُّ من فهمه لحقيقة الأمور. لأول مرة، شعر عادل أنه يدرك بحقّ كل التحركات العميقة والواسعة التي حكمت حياته دائماً. كما فهم الحقائق المتصارعة الكبيرة التي تتغلغل داخل كل إنسان، وليس فقط في أبيه أو أمه أو كبير... بل في نفسه أيضاً.

كان اكتشافه الأخير هذا عن نفسه أكثر الاكتشافات مفاجأة بالنسبة له. أصابته المفاجئات التي أدركها عن والده بالدوار، ما قام به أولاً باسم الجهاد ثم المكافآت العادلة ـ كما كان يقول ـ التي نالها بسبب تضحياته. بقي هائماً فترة من الزمن. أصابه تشنج في المعدة لعدة أيام بعد حادثة كسر النافذة تلك كلما دخل أبوه الغرفة. كان يكفيه أن يسمع صياح أبيه على الهاتف المحمول أو يسمعه يهمهم في الحمام ليصاب بتصلب في عموده الفقري، وجفاف مؤلم في الحنجرة. كان ينكمش كلما قبله أبوه مساء ليتمنى له ليلة سعيدة. بدأت الكوابيس تصيبه، وحلم بأنه يقف على طرف البساتين ويشاهد عملية جَلد أحدهم بين الأشجار، رأى في حلمه قضيباً معدنياً يرتفع وينخفض ويلمع في الشمس، وسمع صوت ارتطام المعدن باللحم والعظم. كان يستيقظ من هذه الكوابيس وهو يشعر بصرخة محبوسة في صدره. ويسقط في نوبات

بكاء فجائية في لحظات عشوائية بلا سبب.

ومع ذلك

ومع ذلك

كان شيء آخر يحصل. لم يتلاشى من ذهنه ذاك الوعي الجديد، بل وجد رفيقاً له ببطء. في أعماقه، شق تيار وعيه الجديد المعارض مساحة موازية لوعيه القديم دون أن يمحيه. تنبّه عادل لهذا الوعي الجديد بالجزء المضطرب من نفسه... الجزء الذي بدأ يقبل بالتدريج وبلا استيعاب بهذه الهوية الجديدة التي كانت تخزه من الداخل مثل قميص صوفي مبتل. رأى عادل أنه قد يتقبل الحقيقة بنفس طريقة أمه. شعر بالغضب منها في البداية، لكنه غفر لها في ما بعد. لأنه فكر بأنها تقبلت الحال بسبب الخوف من زوجها. أو كمقايضة من أجل الحصول على مثل هذه الحياة الرغيدة والفارهة.. وفهم أن سكوتها عائد لنفس سبب سكوته هو: لأنه مضطرة إلى ذلك. ما هي خياراتها؟ كان عادل حبيس حياته الخاصة بنفس الدرجة التي كان غلام مقيداً بها إلى حياته. لقد تعلمَ الناس أن يعيشوا مع أكثر الأشياء استحالة على التّصوّر. كما يفعل هو الآن. هذه حياته الآن. تلك أمه وذاك أبوه. وهذا هو، حتى لو لم يكن مدركاً لكل تلك الأمور دائماً.

عرف أنه لن يحب أباه كما كان يفعل من قبل، عندما كان ينام في فجوة حضنه الواسع. لم يكن قادراً على تخيل مثل هذا الوضع الآن. لكنه كان قادراً على حبه من جديد، ولكن بشكل مختلف عن السابق، بشكل أكثر تعقيداً واختلافاً. شعر عادل بأنه تجاوز طفولته. سيصبح راشداً بعد فترة وجيزة، وعندما سيكبر لن تكون لديه فرصة للعودة بالزمن للخلف مرة أخرى، لأن سن الرشد كانت قريبة من وصف أبيه مرة للبطولة: ما أن تصبح بطل حرب، فيجب عليك أن تبقى كذلك

حتى آخر لحظة من حياتك.

فكر وهو يستلقي في سريره كل مساء، بأنه سينهض في اليوم التالي، أو الذي يليه، أوفي الأسبوع القادم، أو لربما في الأسبوع الذي يليه، وسيذهب إلى الحقل المجاور للطاحونة حيث تقيم عائلة غلام. اعتقد أنه سيجد الحقل خالياً منهم. وقف بجانب الطريق وتخيل غلام وأمه وأخوته وجدته، تخيل العائلة بأكملها كرتل مبعثر من الأشخاص الذين يسحبون ورائهم مقتنياتهم بالحبال ويرتحلون على طرقات الريف المغبرة، وهم يبحثون عن مكان يستقرون فيه. أصبح غلام رب الأسرة الآن. وسيتوجب عليه أن يعمل ليطعم أسرته. سيبذل شبابه الآن في تنظيف الأقنية وحفر الخنادق وصناعة أحجار البناء وحصد الحقول. سيتحول غلام بالتدريج إلى واحد من أولئك الرجال الذين يراهم عادل وراء المحاريث وظهورهم تنوء بأحمالهم.

فكر بأن يقف في الحقل لبرهة ليراقب التلال والجبال الظاهرة خلف شادباغ الجديدة. ومن ثمّ فكر بأن يخرج من جيبه الشيء الذي وجده يوماً بين البساتين، النصف الأيسر من نظارات «لبيسة» مكسورة من المنتصف، ذات العدسة المتكسرة لألف كسر والتي تغطيها طبقة من الدم الجاف. فكر بأن يلقيها في حفرة. فكر عادل بأنه عندما سيستدير ليعود للمنزل سيكون قد وجد الراحة التي يبحث عنها..لكنّه لم يجدها.

الفصل الثامن

خريف عام 2010

وجدتُ رسالة صوتية من تاليا على مسجل رسائل الهاتف في غرفة نومي، شغّلت الرسالة وأنا أخلع حذائي وجلست على مكتبي. أخبرتني أنها مصابة بنزلة برد، ثم سألتني عن أحوالي وأعمالي في كابول. وفي نهاية الرسالة، قالت أن أودي دائماً ما تتساءل عن سبب عدم اتصالي بهم. وأنها لن تخبرني بأفكارها بالطبع، ولهذا أخبرك أنا يا ماركوس. اتصل بأمك أيها الأحمق بحق الإله.

ابتسمتُ لسماع صوتها.

تاليا.

أحتفظُ بصورتها التي التقطها قبل سنوات على شاطئ تينوس، عندما كانت تجلس على صخرة تتأمل المحيط، وقد أعطت ظهرها للكاميرا. وضعتها في إطار على طاولة مكتبي. ومع ذلك، فإن الحرق

على أسفل يسار الصورة واضح، عندما حاولت فتاة إيطالية مجنونة حرقها من شدة غيرتها قبل عدة سنوات.

شغّلت حاسوبي وبدأت بتسجيل ملاحظاتي اليومية. تقع غرفة نومي في الطابق العلوي من هذا البيت، بجانب غرفتي نوم أخريين. لقد عشت في هذا البيت منذ وصولي إلى كابول عام 2002، وها أنا أجلس إلى مكتبي أمام نافذة تطل على الحديقة. تظهر من نافذتي أشجار الفاكهة التي زرعتها قبل عدة سنوات مع صاحب المنزل نبي، كما أستطيع رؤية الكوخ الذي كان يقيم فيه في آخر الحديقة من مكاني هذا، وقد أعيد طلاؤه. عرضتُ الكوخ على صديق هولندي شاب يساعد المدارس الثانوية المحلية هنا بعد وفاة نبي. إلى اليمين تظهر لي سيارة سليمان وحداتي التي تعود لأربعينيات القرن الماضي، سيارة شفروليه خضراء لم تتحرك من مكانها لعقود من الزمن، وقد كساها الصدأ كما تغطي الأشنيات الخضراء الصخور، وقد كللتها اليوم طبقة رقيقة من الثلج المبكر المفاجئ الذي هطل البارحة، إنها أول مرة تثلج فيها الدنيا هذا العام. فكرت بعد وفاة نبي برمي السيارة في أحد ساحات قمامة كابول، لكنني قلبي لم يطاوعني. تبدو لي تلك السيارة المتآكلة جزءاً من تاريخ المنزل العريق، جزءاً لا يمكن اقتطاعه من ماضيه.

أغلقت برنامج الملاحظات وتفقدت الوقت، إنها التاسعة والنصف مساء، أي أنها السابعة بتوقيت اليونان.

«اتصل بأمك يا أحمق».

لا أستطيع تأخير الاتصال أكثر من هذا إذا ما كنت سأتصل الليلة. أذكر أن تاليا قالت في إحدى رسائلها الالكترونية أن أمي تخلد للنوم أبكر من المعتاد. أخذت نفساً وشددت من عزيمتي، وتناولت السماعة وطلبت الرقم.

قابلت تاليا عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، عندما جاءت إلى جزيرتنا تينوس لزيارة أمي برفقة أمها مادلين. قالت أمي وقتها أنها لم تلتق بصديقتها مادلين منذ خمسة عشر عاماً. فقد تركت مادلين الجزيرة وهي بعمر السابعة عشرة ورحلت إلى أثينا لتحقق حلمها في التمثيل، وقد أصبحت ممثلة بالفعل لمدة لا بأس بها، ممثلة معروفة.

«لم تكن شهرتها مفاجأة بالنسبة لي، إنها امرأة جميلة تفتن كل من يراها، سترى بأم عينك عندما تقابلها» قالت أمي قبل أن تصلا. سألتها عن سبب عدم ذكرها لصديقتها الممثلة من قبل فأجابتني:

«ألم أذكرها من قبل؟ هل أنت متأكد؟».

«أنا متأكد».

«أكاد أقسم أني تحدثت عنها من قبل، وبالنسبة لابنتها، عليك أن تكون رفيقاً بها لأنها تعرضت لحادث منذ فترة. لقد عضها كلب. وقد تسبب لها بندبة».

لم تقل أمي أي شيء آخر، ولم أستوضحها. لكن كشفها لي عن موضوع الحادث أثارني أكثر بكثير من ماضي مادلين في التمثيل السينمائي والمسرحي. أثار موضوع الندبة هذه فضولي وخمنت أن موقعها لا بد وأن يكون ظاهراً للعيان حتى تطلب أمي مني أخذ وضع البنت بعين الاعتبار.. وهكذا انتظرت رؤية تلك الندبة بتوق شديد.

«التقيت مادلين في قداس الأحد عندما كنا صغاراً». ثم أضافت أنهما لم تفترقا عن بعضهما بعد ذلك أبداً. كانتا تمسكان أيدي بعضهما تحت المقعد في الصف، وفي العطلة والكنيسة، وهما تتنزهان بين الحقول. لقد أقسمتا على البقاء أختين مدى الحياة، وأن تعيشا بقرب بعضهما بعد

الزواج. تعاهدتا على أن تصبحان جارتين، وإذا ما أراد زوج إحداهما الانتقال، فعليها أن تطلب الطلاق. أذكر أن أمي كانت تبتسم باستهزاء وهي تخبرني بكل هذا، وكأنها تحاول الابتعاد بنفسها عن طيش الشباب ذاك وغباءه، عن كل تلك النذور المتهورة والساذجة. لكنني رأيت على وجهها ألماً خفياً أيضاً، ظلّ خيبةِ أملٍ تمنعها عزة نفسها من الإقرار به.

تزوجت مادلين من رجل ثري جداً أنتج لها قبل أعوام فيلمها الثاني والأخير، اسمه السيد آندرياس جياناكوس. كان يعمل في تجارة البناء ويمتلك شركة كبيرة في أثينا. بدأت علاقتهم الزوجية تسوء مؤخراً. لم تخبرني أمي بأي من هذه المعلومات بل عرفتها عندما قرأت سرّاً الرسالة التي أرسلتها مادلين لأمي لتعلمها بأمر الزيارة.

أصبح وجودي مع آندرياس ورفاقه المهووسين بموسيقاهم العسكرية أمراً متعباً جداً. أنا أبقى صامتة طوال الوقت، ولا أعترض عندما يشيدون بالمجرمين الذين شوّهوا ديمقراطيتنا واستهزؤوا بها. أنا متأكدة من أني لو نطقت بكلمة معارضة لهم لاعتبروني شيوعية تخريبية، وعندها لن ينقذني من زنزانات الأقبية الدامية أي شيء، ولا حتى نفوذ آندرياس. ولربما لن يتكبد العناء لممارسة نفوذه لينقذني في تلك الحالة. أعتقد أحياناً أنه يتعمد تحريضي لأشك بنفسي. آه يا عزيزتي أودي، كم أشتاق إليك، كم أفتقد صحبتك.

استيقظتْ أمي باكراً في يوم وصول الضيوف لتنظف المنزل. كنا نعيش في بيت صغير مبني على سفح تلة. وبيتنا، مثل كل البيوت في تينوس، مبني من الحجارة البيضاء، وله سقف مستوٍ، ومبلط بالبلاط الأحمر المقصوص على شكل ماسات صغيرة. لم يكُن لغرفة النوم الصغيرة، الوحيدة لدينا، التي كنت أتقاسمها مع أمي أي باب. كان

عمود السلم الضّيق يفضي إليها مباشرة. لكنها كانت تحتوي على نافذة رائعة وشرفة ضيقة ذات سور حديدي يصل للخصر وتطل على أسطح المنازل المجاورة وأشجار الزيتون وحقول رعي الخراف والممرات الضيقة المتعرجة بين البيوت وأقواسها الحجرية. وبالطبع، كنت أرى منها بحر إيجه، الأزرق الهادئ في صباح كل يوم من أيام الصيف، والمتموج بالأبيض بعد الظهر لدى هبوب الرياح الموسمية من الشمال.

عندما انتهت أمي من التنظيف، ارتدت فستانها الجيد الوحيد، الذي لا ترتديه سوى في الخامس عشر من آب كل عام للذهاب لكنيسة باناجيا إيفانخيليستريا، وهو يوم وصول الحجاج من كافة دول البحر المتوسط إلى تينوس للصلاة أمام أيقونة الكنيسة المشهورة. هناك صورة لأمي بذاك الرداء الذهبي الطويل ذو الياقة الدائرية، وهي ترتدي فوقه بلوزة بيضاء منكمشة عليها وجوارباً نسائية وحذاء أسود. تبدو أمي في هذه الصورة بمنظر الأرملة المحرومة من كل شيء، بوجهها الحادّ وحاجبيها السميكين وأنفها المدبب، وهي تقف بتصنع لتحاول أن تبدو تقية متجهمة في الصورة، وكأنها حاجّة أخرى من بين الحجيج. أبدو أنا في الصورة أيضاً بجانب أمي، وأرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً قصيراً أبيض وجوارب طويلة بيضاء أيضاً. يستطيع المرء لدى رؤيتي في تلك الصورة أن يخمّن أني أُمرت بالتيبس وعدم الابتسام أمام الكاميرا، وأن وجهي قد غُسل للتو وأن شعري قد بُلل بالماء ليتم تسريحه ضد إرادتي وبكثير من الاهتمام. يمكن للمرء أن يرى عدم انسجامنا في تلك الصورة، عبر الطريقة التي نقف بها، إذ لم يتلامس جسدانا إلا بالكاد أثناء التقاطها.

ولربما لن يلاحظ ذلك أحد. لكنني أرى انفصالنا العاطفي كلما نظرت إلى تلك الصورة، وقد اطلعت عليها آخر مرة منذ عامين. لا استطيع سوى أن أفكر بالغرابة والجهد المبذول ونفاذ الصبر الواضح فيها. لا

أستطيع منع نفسي من رؤية شخصين يعيشان سوية بسبب الواجب الأمومي وحده، منذورين لخذلان بعضهما، للحيرة، وكأنهما تعاهدا على كسر أحدهما لقلب الآخر.

راقبت أمي من شرفة غرفة النوم وهي تتوجه لميناء العبارة الوحيد في تينوس، وقد ربطت وشاحاً حول رأسها لتواجه به شمس ذاك اليوم. كان لها جسد طفلة نحيلة العظام، لكنها كانت مهيبة رغم ذلك. أذكر أنها كانت تمشي معي للمدرسة كل صباح، فقد كانت معلمة، وقد تقاعدت الآن طبعاً. لم تمسك يدي ولا مرة خلال كل تلك السنين كما كانت تفعل بقية الأمهات مع أطفالهن، لأنها قالت أن عليها أن تعاملني مثل أي تلميذ آخر. كانت تتقدمني دوماً بخطوات جادة، وتمسك بيدها ياقة بلوزتها، بينما أحاول أنا اللحاق بها وأنا أحمل علبة غدائي وأترنح وراء خطاها. كنت دوماً أجلس في المقعد الأخير في الصف. أذكر أن أمي كانت قادرة على تسمير تلميذ مشاغب بنظرة واحدة دقيقة وحادة من عينيها من مكانها أمام السبورة، كما يصيب الجراح هدفه بالمشرط. كان بإمكانها أن تشق التلميذ نصفين بتلك النظرات السوداء أو بصمتها المفاجئ الصاعق.

آمنت أمي بالولاء قبل كل شيء، حتى لو دفعت في سبيله ثمناً غالياً كالتنكر للذات. وقد قامت بذلك بالفعل. آمنت بالصدق والوضوح دون مواربات، وعلمتني أن أقول الحق مباشرة مهما كان مرفوضاً. لم تكن تمتلك الصبر الكافي للحديث بدبلوماسية ناعمة. وكانت وما تزال امرأة لا تعرف ماهية الاعتذار، امرأة لا يمكن للإنسان أن يجادلها في أي شيء، ولم أفهم أبداً حتى اليوم إن كان مزاجها هذا إلهياً أم أنه كان سلوكاً تبنته بدافع الضرورة، بعد أن توفي زوجها بعد عام من ارتباطهما، وتركها وحيدة لمواجهة العالم مع طفل صغير.

استغرقت قليلاً في النوم بعد أن ذهبت أمي، واستيقظت على رنين صوت امرأة عالي النبرة في البيت. جلست، ووجدتها أمامي، بأحمر شفاهها اللامع ومساحيقها وعطرها وانحناءات جسدها الملفتة وابتسامتها التي أطلت من وراء الحجاب الشفاف المتدلي من قبعتها. وقفت في منتصف الغرفة بفستان قصير أخضر وشعر طويل كستنائي وحقيبة جلدية ملقاة على الأرض ونظرت إليّ بابتسامة عريضة ووجه مشرق وكلمات تتفوه بها بهتاف سعيد وثقة لا يمكن إخفاؤها.

«إذاً أنت ماركوس ابن أودي الصغير! لم تخبرني أمك عن وسامتك، آه، أنت تشبهها كثيراً، عيناك، نعم، لديك عيناها، لا بد أنهم أخبروك بهذا من قبل. كنت متلهفة جداً للقاء بك. كنت أنا وأمك..آه لا بد أن أودي أخبرتك، ولهذا يمكنك أن تتخيل مقدار لهفتي لهذا اللقاء، لأن أراك يا ماركوس، ماركوس فارفاريس!. حسناً أنا مادلين جياناكوس، وهل لي أن أقول أني سعيدة جداً بهذا اللقاء».

نزعت من يدها قفازها الحريري اللؤلؤي الطويل، الذي لم أره من قبل إلا في أيدي السيدات الأنيقات في صور المجلات وهن خارجات من السهرات، وهنّ يدخنّ على درجات دار الأوبرا العريضة، أو وهن ينزلن من السيارات السوداء الفارهة اللماعة ووجوههن بيضاء مرعبة من شدة لمعان أضواء كاميرات التصوير عليهن. كان عليها أن تسحب كل إصبعٍ على حدة لفترة من الوقت قبل أن تنتزع القفاز، ومن ثم انحنت قليلاً ومدت يدها باتجاهي.

«أنا مسحورة بك» قالت. كانت يدها ناعمة وباردة بعض الشيء رغم ارتدائها القفازات.«وهذه ابنتي، تاليا، سلمي على ماركوس فارفاريس يا عزيزتي».

وقفت على مدخل الغرفة بجانب أمي ونظرت إلي دون اكتراث،

وقد كانت فتاة هزيلة ذات بشرة شاحبة وضفائر نحيلة. لا أستطيع أن أقول أي شيء آخر. لا أستطيع تذكر لون فستانها في ذاك اليوم لأني لا أذكر حتى إن كانت ترتدي فستاناً أو شيئاً آخر، أو نوع حذائها أو لونه أو جواربها، أو إن كانت ترتدي ساعة أو خاتماً أو أقراطاً في أذنيها، لا أذكر أي شيء.. لأنه إذا كنت في مطعم مكتظ بالناس ونهض شخص ما وتعرى من ملابسه ثم قفز فوق طاولة وبدأ يقذف الملاعق في الهواء ليتلاعب بها، فأنت لن تنظر إليه فقط، بل سيكون الشخص الوحيد الذي ستنظر إليه، هكذا كان القناع الذي غطى النصف الأسفل من وجه الفتاة. لقد منعني من ملاحظة أي شيء آخر فيها.

«قولي مرحباً له يا تاليا، لا تكوني وقحة يا عزيزتي».

أعتقد أني لمحت إيماءة ضعيفة من رأسها.

«مرحباً» قلت لها بلسان جاف كورقة. شعرت بتيار هواء بيننا، مشحون بشيء يشبه الفزع، والإثارة، شيء انفجر في داخلي وعشش في ذهني. كنت أحدق بها وأعي ذلك دون أن أستطيع منع نفسي من متابعة النظر إليها، لم أستطع التوقف عن النظر إلى القماش الأزرق الذي يلف وجهها والعقدتين اللتين تشدانه خلف رأسها، والشق الأفقي الضيق الموجود في مكان الفم. عرفت في تلك اللحظة أني لن أحتمل النظر لما يخبئه ذاك القناع، مهما كان، كما أنني لا أستطيع الانتظار لرؤيته. لم أكن قادراً على استئناف حياتي الطبيعية ما لم أرَ بنفسي الشيء القبيح والفظيع الذي تجب حمايتي والآخرين من رؤيته.

ضللني الاحتمال الآخر، بأن هذا القناع كان موجوداً لحماية تاليا منّا، لتجنيبها آلام اللقاء الأول على الأقل.

بقيت تاليا وأمها في الطابق العلوي لإفراغ حقائبهما بينما عملت أمي على طهي بعض شرائح سمك موسى من أجل العشاء. طلبت مني أمي

أن أحضّر لتاليا فنجان قهوة إيلينياكوس وأن أحمله لها إلى الأعلى على طبق مع قليل من الباستيللي.

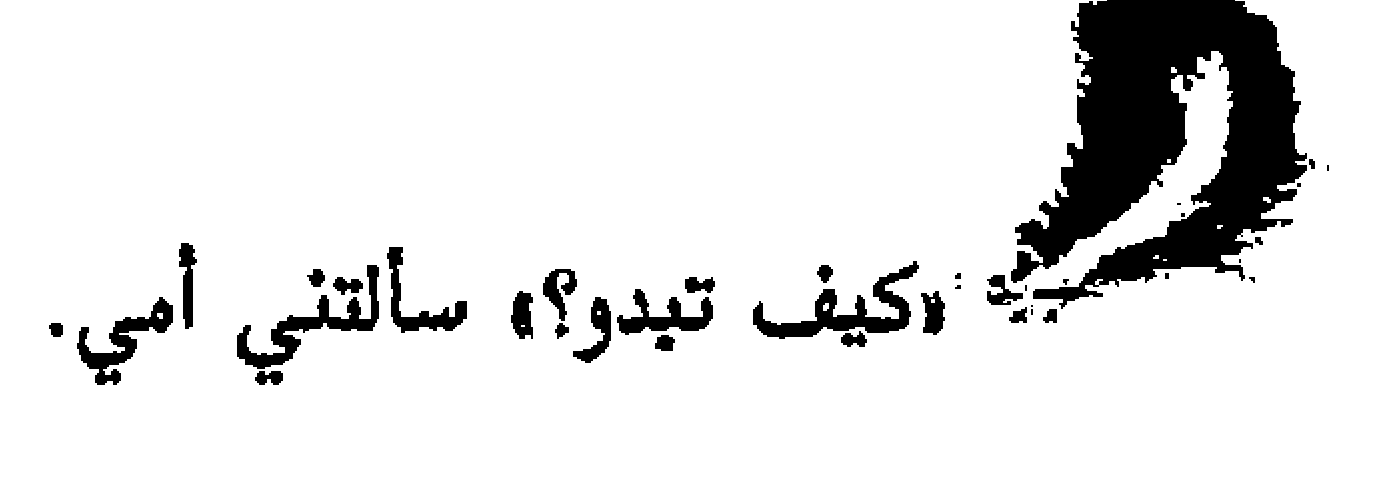
ما يزال الخزي يغمرني مثل سائل دبق دافئ كلما تذكرت ما حصل لاحقاً رغم مرور عشرات السنين على تلك الحادثة. ما أزال قادراً على رؤية المشهد أمامي مثل صورة فوتوغرافية واضحة: مادلين تدخن أمام نافذة الغرفة وتنظر للبحر وهي تضع نظارة شمسية ذات عدسات صفراء وتضع يداً على وركها وقد قاطعت قدميها. وضعت قبعتها على المرآة، وفي تلك المرآة تظهر تاليا، جالسة على طرف السرير وظهرها باتجاهي. انحنت للأسفل تفعل شيئاً ما، ربما كانت تفكّ رباط حذائها ولاحظت أنها خلعت القناع عن وجهها. لأنها وضعته على السرير بجانبها. ارتعد ظهري بموجة باردة مفاجئة، وامتدت القشعريرة إلى يدي، مما سبب ارتجاف الفنجان على صحنه الزجاجي، ولهذا انتبهت مادلين ونظرت باتجاهي، وكذلك فعلت تاليا، وهكذا رأيت وجهها في المرآة.

سقطت الصينية من يدي وتحطم الزجاج وانسكب السائل الحار وقرقع صوت الصينية وهي تسقط على الدرج، باغتتني الفوضى المفاجئة أكثر منهم جميعاً وأنا أقف فوق الزجاج المحطم، ثم قالت مادلين: «يا إلهي، يا إلهي» ثم ركضت أمي للأعلى وهي تصرخ: «ماذا حدث؟ ماذا فعلت يا ماركوس؟».

لقد عضها كلب، هكذا أخبرتني أمي لتحذرني، وقالت أن لديها ندبة..لكن الكلب كما رأيت لم يعضّ وجهها، بل أكله. ولربما كانت هناك كلمات تصف ما رأيته في المرآة ذاك اليوم، لكن كلمة (ندبة) ليست واحدة منها.

أذكر يدي أمي على أكتافي وهي تسحبني وتديرني وهي تقول: «ماذا جرى لك؟ ماذا جرى لك؟». وأذكر أنها رفعت رأسها فوق رأسي

ونظرت إليهم، وهناك.. تجمّد نظرها. ماتت الكلمات في فمها. تبخر التعبير عن وجهها. نزلت يديها عن كتفي. ثم شهدتُ أغرب وأكثر الأمور استثنائية في حياتي، شيئاً لم أعتقد أني سأراه في حياتي يوماً، كمن يأمل في رؤية الملك قسطنطين واقفاً على بابه بملابس مهرج، رأيت دمعة تتدحرج من عين أمي اليمنى.



«كيف تبدو؟» سألتني أمي.

«من؟».

«من؟؟ المرأة الفرنسية. ابنة أخت صاحب منزلكم، البروفيسورة التي أتت من باريس؟».

نقلت سماعة الهاتف إلى أذني الأخرى وقد أدهشني تذكرها للأمر. شعرت طوال عمري أن أي كلمة أقولها لأمي تتبخر في الفراغ، كما لو كان هناك بيننا حقل كهربائي يمتصّ الأصوات، كما لو كنا نتحدث باستخدام شبكة سيئة التغطية. أشعر أحياناً عندما أتصل بها من كابول، كما أفعل الآن، أنها رمت السماعة من يدها وذهبت بعيداً، وكأنني أتحدث إلى أثير عابر للقارات مع أني أشعر بوجود أمي على الطرف الآخر وأسمع أنفاسها بأذني. وفي أحيان أخرى، أخبرها عن شيء رأيته في العيادة، عن طفل مضرج بالدماء بين يدي أبيه على سبيل المثال، وشظية اخترقت خدّه أو مزقت أذنه، عن ضحية أخرى بسبب اللعب في الوقت الخطأ في الشارع الخطأ في اليوم الخطأ.. وفجأة، دون أي إنذار، أسمع صوت ارتطام عال ويصبح صوت أمي بعيداً ومكتوماً، يعلو ويهبط، ويتناهى إلى سمعي صدى خطواتها وصوت شيء يُجرُّ على الأرض، وأنتظر أنا إلى أن تعود مقطوعة الأنفاس أخيراً،

وأسمع شرحها المتكرر كل مرة: *أخبرت تاليا أني أتحدث إليك على الهاتف وأنا واقفة أمام النافذة لأنظر للبحر. لكنها دائماً تقول: «ستتعبين نفسك هكذا يا أودي، يجب أن تجلسي». ثم تقول أنها كانت تسحب الكرسي الجلدي الكبير الذي اشترته لها تاليا العام الماضي لتجلس عليه أمام النافذة. وتعيد على مسمعي كم هي قوية تاليا تلك، أنت لا تعرف كم هو كبير وثقيل هذا الكرسي يا ماركوس، بالطبع.* ثم تطلب مني متابعة قصتي، لكنني أكون قد فقدت اهتمامي وانتهى الأمر. كان ما تفعله كل مرة يدعني تحت تأثير توبيخها المبهم، لارتكابي ذنوباً لم نتحدث بشأنها يوماً، لإهاناتي التي لم تواجهني يوماً بها علناً. حتى لو مضيت قدماً برواية قصتي، فإنها كانت تبدو لي قصة مشروخة بلا روح ولا معنى، تبدو بلا أهمية بجانب مأساة جرّ أمي للكرسي الثقيل إلى جانب النافذة.

«ذكرني باسمها؟.. باري شيء ما، أليس كذلك؟».

لقد أخبرت أمي عن نبي الذي كان صديقاً عزيزاً عليّ. لكنها كانت تعرف خطوطاً عامة عن حياته لا أكثر. أخبرتها أنه ترك بيت كابول في وصيته لابنة أخته باري، التي تعيش في فرنسا. لكنني لم أخبرها عن نيلا وحداتي وفرارها إلى باريس بعد مرض زوجها، والعقود التي أمضاها نبي في الاهتمام بسليمان. لم أخبرها عن كل ذاك التاريخ الحافل بنقاط التشابه والتوازي، «وكأن الإنسان يقرأ جهارةً ورقة اتهاماته الخاصة، وذنوبه الخاصة.

«باري، نعم، لقد كانت لطيفة ،بعد الأخذ بالاعتبار أنها أكاديمية».

«ذكرني باختصاصها؟ هل هي صيدلانية؟».

«رياضية» قلت وأنا أغلق غطاء الحاسب المحمول. بدأ الثلج بالتساقط مرة أخرى، وبدأت الرقائق الصغيرة بالتراقص في الظلام

حولي، وراحت تتجمع على طرف نافذتي.

أخبرت أمي عن زيارة باري وحداتي في نهاية الصيف الماضي. قلت أنها كانت رائعة ولطيفة، نحيلة، ولها شعر رمادي، ورقبة طويلة تبدو فيها العروق النابضة تحت الجلد لشدة رقتها. بدت لي أكبر من عمرها الحقيقي لأنها كانت تعاني من حالة متأخرة من التهاب المفاصل. أخبرت أمي عن يديها العقديتين اللتين ما تزالان تعملان نوعاً ما، لكنها كانت تعرف أن نهايتهما قريبة. مما جعلني أفكر بنهاية أمي القريبة أيضاً.

أمضت باري وحداتي أسبوعاً معي في المنزل في كابول، أخذتها في جولة حول المدينة لدى وصولها من باريس. رأت المنزل آخر مرة عام 1955 وفوجئت بحيوية وغنى ذكرياتها عنه، عن تفاصيله العامة، بتذكرها للدرجتين الفاصلتين بين غرفة الجلوس وغرفة الطعام على سبيل المثال، حيث قالت أنها كانت تجلس في ضوء الشمس الواقع هنا بالضبط عند منتصف النهار لتقرأ كتبها. كما أنها شعرت أن البيت كان أصغر مما تتذكره. عرفت غرفتها عندما اصطحبتها للطابق العلوي، رغم أنها اليوم غرفة زميلي الألماني الذي يعمل مع برنامج الغذاء العالمي. أذكر شهقتها عندما رأت صندوقها الصغير في زاوية الغرفة، أحد الآثار الباقية على قيد الحياة من طفولتها. أذكر أن نبي ذكره في رسالته أيضاً. قرفصت بجانبه ومررت أطراف أصابعها على الطلاء الأصفر المتيبس وعلى الزرافات الباهتة والقرود ذات الذنب الطويل المرسومة عليه. نظرت إليّ بعينين طافحتين بالدموع وسألتني باستحياء عن إمكانية أخذها له معها إلى باريس. عرضت عليّ أن تشتري لنا بديلاً له..فقد كان الشيء الوحيد الذي أرادت أخذه من المنزل. وقد أخبرتها أني سأشحنه لها بكل سرور.

عادت باري وحداتي إلى باريس في النهاية دون أن تأخذ معها سوى دفاتر رسومات سليمان وحداتي ورسالة نبي، وبعضاً من قصائد أمها التي خبأها نبي، والصندوق الذي شحنته جواً لها بعد عدة أيام. لم تطلب مني خلال أيام زيارتها سوى أن أرتب لها زيارة لقرية شادباغ لترى مكان ولادتها، حيث تمنت أن تلتقي بأخيها غير الشقيق إقبال.

«أفترض أنها ستبيع البيت بعد أن ورثته وحدها؟» قالت أمي.

«قالت أني أستطيع البقاء هنا طوال الوقت الذي أرغب به في الحقيقة، دون دفع أي أجر».

استطعت رؤية شك أمي رغم المسافات التي تفصلنا... إنها في النهاية ابنة الجزيرة الصغيرة التي تشكك في دوافع كل ساكني الأراضي الجافة ولا تصدق أفعالهم الناتجة عن نواياهم الطيبة. هذا كان أحد أسباب معرفتي المبكرة بأني سأترك تينوس عندما ستسنح لي أول فرصة لذلك. استحوذ اليأس عليّ كلما سمعت الناس يتكلمون بتلك الطريقة.

«احكِ لي عن أخبار برج الحمام». سألتها لأغير الموضوع.

«توقفت عن بناءه لأنه أتعبني».

قابلت أمي طبيباً بعد إصراري الشديد في أثينا وشخص لها مرضها، بعد أن أخبرتني تاليا بأنها تشعر بوخز في أطرافها وتوقع الأشياء من يدها على الدوام. اصطحبتها تاليا إلى الطبيب، ولم تتوقف عن البكاء منذ زيارته. أعرف هذه المعلومات لأن تاليا تخبرني بكل شيء في رسائلها الالكترونية. أخبرتني عن طلاء المنزل وإصلاحات أنابيب المياه وبناء خزانة جديدة في الطابق العلوي واستبدال ألواح السقف التالفة، وقد قامت تاليا مشكورة بالمساعدة في كل شيء. والآن، تريد أمي بناء برج للحمام. أتخيل كميها المرفوعين وهي تمسك بالمطرقة والعرق يسيل على ظهرها وهي تدقّ المسامير هنا وهناك وتلصق الألواح الخشبية.

أتخيلها وهي تحاول أن تسابق خلاياها العصبية المتلاشية، وهي تحاول اعتصار كل ذرة منها قبل أن تخذلها وينتهي الوقت.

«متى ستعود للبيت يا ماركوس؟». سألتني أمي.

«قريباً» أجبتها بأني سأسافر لها قريباً كما قلت العام الماضي، لكني لم أزرها منذ أكثر من سنتين.

«لا تتأخر كثيراً. أريد أن أراك قبل أن يصلوني بالرئة الاصطناعية» وضحكتْ أمي. كعادتها القديمة في السخرية من الحظ السيئ، في رفضها وازدرائها للشفقة على الذات. وأنا أعرف أنها حسبت جيداً تأثير كلامها المتناقض لتقلل من شأن سوء حظها في الحياة وتذوب فيه في نفس الوقت.

«تعال في عيد الميلاد إذا استطعت قبل الرابع من كانون الثاني مهما كان الثمن. لأن تاليا أخبرتني بأن اليونان ستشهد في ذاك اليوم كسوفاً شمسياً. قرأت لي ذلك على الانترنت. تعال لنشهده سوياً».

«سأحاول يا أمي».

كان الأمر كالاستيقاظ صباحاً لتجد أن حيواناً متوحشاً يتجول في بيتك، لم أشعر بالأمان في أي ركن من المنزل. كانت هناك.. في كل زاوية.. وراء كل جدار، تطوف.. تلاحقني دون أن تفلت المنديل الذي تجفف به اللعاب الذي يسيل من فمها باستمرار. كان من المستحيل الهروب منها في بيت صغير كبيتنا. أكثر ما يخيفني كان وقت الطعام، عندما كان عليّ أن أتحمّل منظر تاليا وهي ترفع الوشاح عن فمها قليلاً لتضع ملعقة الطعام فيه. أصابني الغثيان من ذاك المشهد، ومن صوته أيضاً، فقد كانت تمضغ الطعام بصوت عالٍ، وكانت أجزاء من الطعام

الذي تمضغه تسقط مبللة باللعاب من فمها على الصحن أو الطاولة أو الأرض. كانت مجبرة على تناول كل السوائل من خلال قشّة، حتى الحساء، وقد احتفظت لها أمها بالقشات في حقيبتها. كانت تتغرغر بالمرق بعد أن تمتصه من القشة حتى تستطيع ابتلاعه، ومع ذلك، كان يسيل من فكها ويلطخ الشال الملفوف حول رأسها ويسيل على رقبتها. طلبت خلال أول وجبة لنا معاً أن أنصرف عن الطاولة لكن أمي رمقتني بنظرة حديدية. وهكذا درّبت نفسي على تحويل بصري وعدم الإنصات للأصوات، لكن ذلك لم يكن سهلاً. كنت أدخل المطبخ لأجدها هناك وأمها أمامها تدهن لها مراهماً على خدها لتمنع حدوث الالتهابات وشد الجلد. بدأت أحصي الأيام المتبقية على انتهاء الأربع أسابيع التي ستقضيانها عندنا.

تمنيت لو حضرت مادلين وحدها لزيارتنا. لقد أحببتها. كنا نجلس جميعاً في الساحة الصغيرة المربعة أمام منزلنا، حيث كانت ترتشف القهوة ببطء وتدخن السجائر الواحدة بعد الأخرى، وقد ظللتها أغصان شجرة الزيتون بدلاً من قبعتها السخيفة تلك، والحقيقة أن تلك القبعة كانت ستبدو سخيفة على رأس أي شخص آخر، حتى لو كان أمي. إلا أن الأناقة كانت جزءاً من مادلين وكأنها ورثتها مع صفاتها الوراثية، كانت إحدى أولئك الأشخاص القلائل الذين لا يتصنعون الأناقة، لأنها تصدر عنهم ولا يكتسبونها. كانت تحكي لنا قصصها باستمرار دون أن يصيبنا الملل، حكت لنا ذات صباح عن رحلتها إلى أنقرة، حيث تنزهت على ضفة نهر إنغوري ـ سووشربت الشاي الأخضر المعطر، أو عن المرة التي اصطحبها بها السيد جياناكوس إلى كينيا حيث امتطت ظهر الفيلة بين نباتات الأكاسيا الشائكة وجلست مع الفلاحين لتناول الأرز بجوز الهند و العصيدة.

أيقظت قصصها حافزاً كامناً في داخلي، رغبة تدفعني لاستكشاف العالم، لكي أقتحمه. كانت حياتي في تينوس بالمقارنة مع أطمح له حياة عادية مدمرة. كنت أرى مستقبلي الخاوي فيها وشبابي الذي سيضيع في التخبط بين صخورها. صرفت سنين طفولتي ومراهقتي فيها وأنا أشعر أن ذاتي الحقيقية موجودة في مكان آخر، أنني امتداد جامد أجوف ينتظر ساعة الاتحاد بتلك النفس المغامرة الحقيقية. شعرت أني منفي، وكأني ملعون بالغربة في دياري.

قالت مادلين أنها زارت في أنقرة منتزهاً اسمه كوغول وحيث شاهدت انسياب البجع في المياه. قالت أن المياه هناك أبهرتها.

«أنا أتحدث كثيراً». قالت مادلين:

«لا» قالت أمي.

«إنها عادتي القديمة، أنا أتحدث كثيراً. دائماً ما فعلت هذا. أتذكرين مقدار الأحزان التي سببتها بثرثرتي المتواصلة في الصفّ؟ لم تذنبي يوماً بهذا يا أودي. كنتِ شخصية مسؤولة ومولعة بالدراسة دوماً».

«استمري بالحديث، قصصك ممتعة، لقد حظيت بحياة مثيرة حقاً».

أغلقت مادلين عيناها وقالت: «ربما، أنت تعرفين اللعنة الصينية».

«هل أحببت أفريقيا يا تاليا؟» سألتها أمي.

ضغطت تاليا المنديل على خدها ولم تجب. كان صمتها يسرني لأن حديثها كان غريباً جداً، لأنه كان يجمع الغرغرة باللثغة بمزيج غريب.

«آه، تاليا لا تحب السفر أبداً». قالت مادلين وهي تطفئ سيجارتها بلهجة من يُقرُّ بحقيقة صادمة. لم ينظر أحد منا إلى تاليا للتأكد من ما قالته أمها، أو حتى للاحتجاج. تابعت أمها: «إنها لا تجد له طعماً».

«ولا أنا» قالت أمي. وجهت حديثها هذه المرة إلى تاليا «أحب أن أبقى في بلدي. وأعتقد أني لم أجد سبباً مقنعاً يدفعني لترك تينوس».

«وأنا لم أجد فيها سبباً واحداً يدفعني للبقاء، ما عداكِ أنتِ». قالت مادلين وهي تلمس معصم أمي وتابعت:

«أتعرفين ما كانت أكبر مخاوفي عندما غادرت؟ أتعرفين ماهية أكبر قلق بالنسبة لي؟ كيف سأعيش دون أودي؟ أقسم أن الفكرة أرعبتني في ذلك الوقت».

«لقد تدبرت أمورك بشكل جيد على ما يبدو». قالت أمي وهي تدير بصرها ببطء عن تاليا.

«أنت لا تفهمين قصدي» قالت مادلين، وأدركت أني الشخص الوحيد الذي لم يفهم لأنها كانت تنظر مباشرة لي.

«لم أكن قادرة على امتلاك زمام أموري دون والدتك.. لقد أنقذتني».

«أنت تتفوهين بالحماقات الآن يا مادلين». قالت أمي.

حدقت تاليا بالسماء، ونظرت إلى أثر دخاني طويل تركته طائرة على صفحة السماء الزرقاء فوقنا.

«لقد أنقذتني أودي من أبي، كان أحد الأشخاص الحاقدين بالفطرة. كانت عيناه منتفختين ورقبته قصيرة سميكة مع حدبة بارزة على ظهره. وقبضتان.. قبضتان كصخرتين. كان يعود إلى المنزل، ولم يكن يفعل أي شيء آخر، مجرد صوت ارتطام حذاءه بالأرض وصوت مفاتيحه وهمهمته كان كافياً بالنسبة لي. عندما كان يغضب، كان يغلق عينيه وكأنه غارق في التأمل العميق، ثم يمسح وجهه بيديه ويقول.. *حسناً يا فتاتي.. أنت كنت تعرفين أن غضبي قادم، وأن أحداً لن يوقفني.. لن يساعدك أحدك.* أحياناً لم أكن أرَ أو أسمع أي شيء بعد مسحه لوجهه أو تنهده الغاضب من خلال شاربيه الأشعثين. كل ما كنت أراه وأسمعه كان الخواء.

مرّ في حياتي رجال مشابهون له، وأتمنى لو كنت أستطيع قول شيء

آخر غير هذا. لكني فعلت. وما تعلمته عنهم، هو أننا لو تعمقنا قليلاً فيهم لوجدناهم جميعاً متماثلين من الداخل. بعضهم أكثر لمعاناً من الخارج من الآخرين، أكثر تهذيباً، قد يمتلكون بعض السحر أو ما يذهب بالأبصار، مما يخدع الجميع حولهم. لكنهم جميعاً.. في أعمق أعماقهم.. أطفال صغار مكلومون يدورون في دائرة غضبهم الخاص دون فرصة للهرب، جميعهم يشعرون بالظلم، يشعرون بأنهم لم يأخذوا حقهم في الحياة، أن أحداً لم يمنحهم الحب الكافي. ويتوقعون مني الحب كله، يحتاجون للشعور بالطمأنينة بين ذراعي، بالراحة والأمان. ومع ذلك، فإنه من الخطأ منحهم ما يحتاجون. إنهم لا يستطيعون تقبله. لا يستطيعون قبول أكثر شيء يحتاجونه، ويكرهونك في النهاية لمحاولتك منحهم ما طلبوه. ولا ينتهي الأمر أبداً لأنهم لن يستطيعوا يوماً منحك الكره الذي تستحقين. لا ينتهي البؤس الناجم عن مثل هذه العلاقات، لا ينتهي الأسف والوعود ونكث العهود والتعاسة. هكذا كان زوجي الأول».

صدمتني كلماتها. لم يتكلم أحد أمامي بكل ذاك الوضوح والصراحة من قبل، وعلى الخصوص أمي. لم يفصح أحد أعرفه عن مآسيه بكل تلك الانسيابية. شعرت بالأسف من أجل مادلين واحترمت صدقها بنفس الوقت.

عندما ذكرت زوجها الأول، لاحظت الحزن لأول مرة على وجه مادلين منذ وصولها إلى هنا. لاحظت ظهور الجرح النابض رغم السنين، والمتناقض مع ضحكاتها النابضة بالحياة والمزاج وثوبها البرتقالي الذي كانت ترتديه في ذاك اليوم. أذكر أني فكرت وقتها ببراعتها الحتمية في التمثيل.. لقدرتها على تمويه كل ذاك الأسى والإحباط بغشاء البهجة التي تشيعها حولها، وترتديها كقناع. سُررت وقتها من فهمي الذكي للأمور.

لاحقاً، لم يعد الأمر مفهوماً لي بما يكفي بعد أن كبرتْ. عندما أفكر بالصمت الذي تلا حديثها عن زوجها الأول ونظرها إلى الأرض وابتلاعها للعابها ورعشة شفتيها الخفيفة، وقد تلا ذلك انفجار طاقة ضخمة من المزاح والضحك والحيوية. ربما كانت كلتا الحالتين تصنعاً ملفقاً وربما لا. لم أعد أميز بين الحقيقة وبين الأداء التمثيلي في سلوكها مما جعلني أعتقد أنها كانت ممثلة عظيمة.

«كم مرة هرعت راكضة إلى هذا البيت يا أودي؟». قالت مادلين وقد عادت الابتسامة لوجهها «وأهلك المساكين.. هل تذكرين؟ هذا البيت هو ملجأي، ملاذي. جزيرة صغيرة في قلب الجزيرة الكبيرة».

«هذا بيتك دائماً يا مادلين».

«أمك وضعت حداً للضرب المبرح الذي كنت أتلقاه من أبي يا ماركوس. هل حكت لك من قبل عن هذا الأمر؟».

أجبتها بان أمي لم تخبرني يوماً عن هذه الأمور.

«لا يفاجئني هذا. تلك هي أوديليا فارفاريس».

كانت أمي تطوي المئزر الموجود على حضنها وتفرده ثم تعيد طويه وعلى وجهها لاحت نظرة حالمة هربت بها من عيناي.

«وصلت إلى هنا في أحد الليالي وأنا أنزف من فمي وقد انتزعت من جانب رأسي خصلة كاملة من الشعر، وأنا أسمع طنيناً يرن في أذني بسبب صفعة. لقد تمكن مني حقاً تلك الليلة، يا لتلك الحالة التي كنت عليها، كنت في حالة يرثى لها». كانت مادلين تصف حالتها تلك وكأنها تصف وجبة طعام رائعة تناولتها أو تروي قصة مشوقة «لم تسألني أمك أي شيء لأنها تعرف الوضع. نظرت إلي لفترة طويلة وأنا أرتعد هناك وأذكر ما قالته بوضوح: *هذا يكفي. انتهينا من هذا الأمر يجب أن نزور أباك هذا يا مادي*. توسلتها أن لا نفعل، خفت أن يقتلنا

نحن الاثنتين، لكنك تعرف كيف تواجه أمك مثل هذه المواقف».

ردت عليها بالإيجاب فنظرت أمي إليّ طويلاً.

«لم تستمع أمك إليّ ورمقتني بنظرة جامدة، أنا متأكدة من أنك تعرف تلك النظرة. التقطت بندقية صيد أباها وتوجهت للخارج. حاولت إيقافها طوال الطريق إلى بيتنا، قلت لها أنه لم يؤذني كثيراً هذه المرة وكلاماً آخراً مشابهاً لكنها لم تكن تستمع لي. مشينا مباشرة إلى الباب وهناك كان أبي، في المدخل، رفعت أودي البندقية إلى ذقنه وقالت: *إذا ضربتها مرة أخرى فسأعود وأطلق على وجهك النار من هذه البندقية*. عقدت المفاجأة لسان أبي وجحظت عيناه. لم يتفوه بكلمة واحدة. أتريد أن تعرف أفضل جزء في القصة يا ماركوس؟ تشكلت تحت أبي على الأرض، بين قدميه العاريتين تماماً... بقعة من بوله الخاص.

مسدت مادلين شعرها للوراء وقالت: «وهذه يا عزيزي.. قصة حقيقية جداً». وأشعلت سيجارة جديدة.

لم يكن عليها أن تقول آخر جملة، لأني عرفت أن القصة حقيقية، رأيت فيها ولاء أمي الشديد والبسيط لأحبتها، رأيت فيها عزيمة أمي التي لا تني، اندفاعها ورغبتها في رفع الظلم عن الآخرين وتصحيح مسار الأحداث. كما عرفت أن التفاصيل الأخيرة كانت حقيقية من التكشيرة الصامتة التي ارتسمت على وجه أمي. من المحتمل أنها كانت تجد ذلك مقيتاً جداً وغير مقبول لأسباب أخرى غير تلك الواضحة منها. كان الموتى يستحقون برأيها قليلاً من الاحترام حتى لو تصرفوا بنذالة أثناء حياتهم. وبالأخص، من تربطنا بهم صلة الدم، أقرباؤنا.

تحركت ماما في كرسيها وقالت: «إذا كنت لا تحبين السفر يا تاليا، فماذا تفضلين؟».

نظرنا جميعاً إليها. كانت مادلين تتحدث منذ بعض الوقت وأذكر

أننا كنا نجلس في ظل الزيتونة في حديقتنا الأمامية وأني فكرت في تلك اللحظة بقدرتها على لفت كل الانتباه إليها، على امتصاص كل من حولها إلى دوامتها إلى درجة أننا نسينا تاليا كلياً. كما أنني فكرت بأنهما توصلتا لتلك الديناميكية بدافع الضرورة، اختفاء الفتاة الهادئة في ظل قوة جذب أمها الهائلة للآخرين، وفكرت بأن نرجسية مادلين ليست سوى فعلاً متعمداً ينم عن لطافتها وشفقتها الأمومية على ابنتها.

غمغمت تاليا بشيء ما.

«ارفعي صوتك قليلاً يا عزيزتي» اقترحت عليها أمها. فتنحنحت تاليا وقالت بصوت غليظ «العلوم».

لاحظت لأول مرة لون عينيها الأخضر كلون المروج وعمق لون شعرها الداكن وبشرتها الصافية كأمها. تساءلت في نفسي عن مقدار جمالها السابق، وعن إمكانية أن تكون جميلة بقدر أمها.

«أخبريهم عن الساعة الشمسية» قالت مادلين. فعبست تاليا، لذلك استأنفت أمها الحديث:

«لقد بنت ساعة شمسية في حديقتنا الخلفية الصيف الماضي دون أن يساعدها أحد، لا آندرياس ولا أنا طبعاً». قالت ذلك بنغمة غنائية احتفالية.

«استوائية أم أفقية؟». سألتها أمي.

ظهرت المفاجأة في عيني تاليا، إحساس بالمباغتة، وكأنها شخص يمشي في شارع مزدحم في بلد غريبة عنه وفجأة تتناهى لسمعه كلمات بلغته الأم... فقالت «أفقية» بصوتها الرطب الغريب.

«ماذا استعملت لتمثيل العقرب الشمسي؟».

نظرت تاليا إلى أمي بكل كيانها، لا بعينيها فقط وأجابتها «لقد قصصت بطاقة بريدية واستعملتها لذاك الغرض».

تلك كانت المرة الأولى التي رأيت فيها الصلة العميقة التي ستجمع بين هاتين المرأتين.

«كانت تفكك لعبها لأجزاء صغيرة وهي طفلة، وكانت تحب الألعاب الميكانيكية التي تحتوي على أجزاء داخلية خفية. لم تكن تلعب بها بالطبع، هل لعبت بها يا عزيزتي؟ لا، لم تكن تفعل، بل كانت تفتتها لأجزاء صغيرة، كل تلك الألعاب الباهظة الثمن، كانت تفتحها مباشرة بعد أن نهديها إياها، وكنت أغضب منها لكن آندرياس، وعليّ الاعتراف بفضله في هذا، قال أن تفكيكها للألعاب يعني أنها تمتلك ذهناً فضولياً يرغب في الاكتشاف».

«يمكننا بناء واحدة هنا إذا أردتِ». قالت لها أمي: «أعني ساعة شمسية».

«أنا أعرف كيف أبنيها وحدي».

«انتبهي لكلماتك يا عزيزتي. الخالة أودي تحاول مساعدتكِ» قالت مادلين وهي تمدّ ساقها وتحنيها وكأنها تستعد للقيام برقصة رومبا.

«ربما نستطيع بناء شيء آخر» قالت أمي.

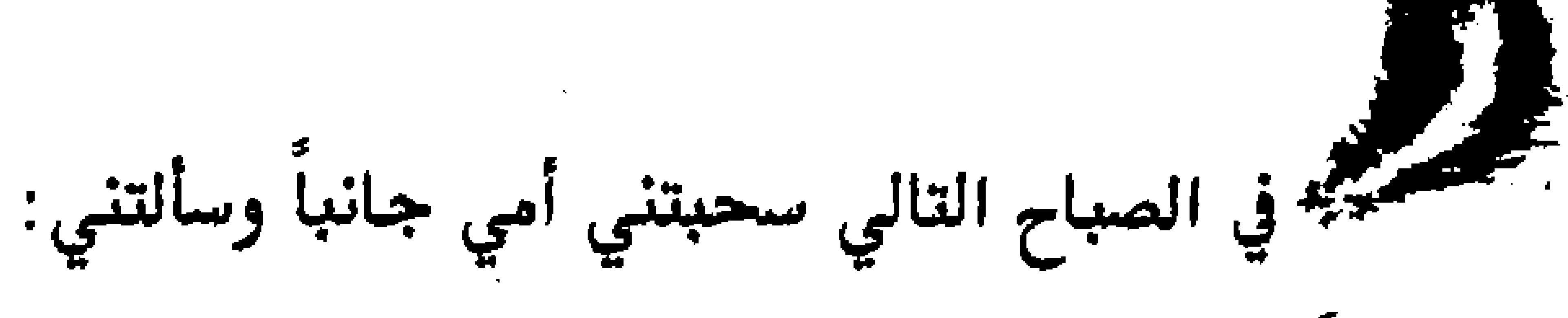
«آه، أه.. لا أستطيع تصديق أني لم أخبرك بعد يا أودي.. لديّ أخبار.. خمّني» قالت مادلين وهي تنفخ الدخان من فمها بسرعة.

استغربت أمي كلامها.

«سوف أعود للتمثيل! في السينما! لقد عرضوا عليّ دوراً.. دور بطولة في إنتاج ضخم. هل تصدقين هذا الأمر؟».

«تهانينا» قالت أمي بفتور.

«النصّ معي. سأدعك تقرأينه يا أودي. لكني أعتقد أنك لن تحبينه. هل هذا سيء؟ سوف يصيبني موقفك بالخيبة، ولن أخبئ عنك هذا الأمر. لن أتجاوز هذا أبداً. سوف نبدأ التصوير في الخريف».



في الصباح التالي سحبتني أمي جانباً وسألتني:

«حسناً، هذا يكفي، ما مشكلتك؟».

أخبرتها أني لا أعرف عما تتحدث.

«من الأفضل أن تتوقف. توقف عن التمثيل الغبي هذا. إنه لا يناسبك». ونظرت إلي بعينين ضيقتين تنمان عن الغضب والانزعاج، وما زال لتلك النظرة تأثير عليّ حتى يومنا هذا.

«لا أستطيع يا أمي. لا تجبريني».

«ولماذا؟».

خرجت الجملة من فمي دون تفكير «إنها وحش».

تضيّق فمها ونظرت إليّ دون غضب، ولكن بعينين يملأهما الشعور بالخذلان، وكأنني استنزفتها إلى أقصى حدّ. نظرت إليّ وكأنها انتهت مني، نفضت يديها مني، وكأنني منحوتة تصنعها وها هي قد انتهت ورمت المطرقة والإزميل من يديها.. لقد تخلّتْ عن كتلة حجرية لن تأخذ أبداً الشكل الذي كانت تطمح له في خيالها.

«لقد حصل شيء فظيع لهذه الإنسانة. أطلق عليها هذا اللقب مرة أخرى وسترى ماذا سيحصل لك».

مشينا أنا وتاليا بعد قليل من هذه المحادثة على درب ضيق مفروش بالحصى وتمتد على جانبيه جدران حجرية. تعمدت أن أسبقها ببضعة خطوات كي لا يعتقد المارة أو ـ لا سمح الله ـ أحد الصبية من المدرسة أننا كنا نمشي سوية. ومع ذلك، فقد رآنا الجميع. تمنيت على الأقل أن توحي المسافة بيننا للمارة بأني أرفضها وأستاء من وجودها معي. ولحسن حظي، لم تقم تاليا بأي جهد للحاق بي. مررنا بجانب

مزارعين مرهقين لوحتهم الشمس أثناء عودتهم لمنازلهم من السوق، ويصطحبون حميرهم المثقلة بالسلال المترعة بالبضائع التي لم يستطيعوا بيعها، وقد حفرت سنابك أرجلها الطريق. كنت أعرف معظمهم لكني حنيت رأسي وتحاشيت النظر إليهم.

أرشدت تاليا إلى الشاطئ، وتعمدت اصطحابها لشاطئ صخري لمعرفتي أنه لا يزدحم بالناس كالشواطئ الرملية الأخرى، مثل شاطئ آغيوس رومانوس. رفعت بنطالي عن أسفل ساقيّ وقفزت من صخرة لأخرى، اخترت واحدة قريبة من مكان تكسّر الأمواج. نزعت حذائي ودسست قدمي في بركة صغيرة ضحلة بين كتل الصخور. هرب سرطان بحر ناسك من أمام أصابع قدميّ. لمحتُ تاليا إلى يميني على صخرة مجاورة.

جلسنا لوقت طويل دون كلام وراقبنا تردد أمواج المحيط على الصخور. هبت ريح ناعمة على أذني ورشّت بعضاً من رائحة الملح على وجهي. حام طائر بجع فوق المياه الزرقاء المخضرة أمامنا ونشر جناحيه. ورأيت سيدتين واقفتين في الماء وقد رفعتا تنانيرهما إلى الركبتين. نظرت غرباً إلى الجزيرة ببيوتها البيضاء وطواحينها، وحقول الشعير الخضراء والجبال البنية الداكنة التي تكلل أعلى الجزيرة، حيث تتفجر الينابيع العذبة لتسقينا طوال السنة. مات أبي على أحد هذه الجبال. كان يعمل في أحد مقالع الرخام الأخضر، وفي أحد الأيام، كانت أمي حبلى بي في الشهر السادس، انزلق على منحدر وسقط عن ارتفاع مائة قدم قبل أن يستقر جثمانه. قالت أمي أنه نسي إحكام رباط الأمان حول خصره.

«يجب أن تتوقف». قالت تاليا.

كنت أرمي الحصى في دلو من الصفيح الصدأ بقربي عندما باغتتني، فلم أصب هدفي.

«ما دخلك أنتِ بما أقوم به؟».

«أعني أن تتوقف عن مدح نفسك. أنا لا أريد لهذا أن يستمر بقدرك تماماً».

رفعت الريح شعرها في الهواء وأمسكت الوشاح أمام وجهها. تساءلت في نفسي إن كانت تعيش مع هذه المخاوف بشكل يومي، الخوف من أن تنزع الريح الوشاح عن وجهها وتكشفه. لم أجبها. رميت حصاة أخرى ولم أصب هدفي مرة أخرى.

«أنت حمار» قالت.

نهضتْ بعد فترة من الوقت وتظاهرتُ أنا بأني أنوي البقاء. ثم نظرت للخلف فرأيتها تتجه للأعلى عائدة للطريق الذي أتينا منه، فارتديت حذائي وتبعتها للمنزل.

كانت أمي تحضر البامية في المطبخ عندما عدنا، بينما كانت مادلين تطلي أظافرها في مكان قريب منها وتدخن في نفس الوقت. أصابني الرعب عندما رأيتها تنفض رماد سيجارتها في صحفة خزفية تعود لمجموعة خزفية ورثتها أمي عن جدتها. كانت هذه المجموعة الخزفية الصينية أثمن ما تملكه أمي، ونادراً ما كانت تستعمل منه أي قطعة، لهذا احتفظت به على رفوف عالية قرب السقف.

كانت مادلين تنفخ على أظافرها لتجففها وتتحدث بنفس الوقت عن الجنرالات الثلاثة الذين نظموا الانقلاب العسكري قبل سنوات في آثينا. قالت لأمي أنها تعرف كاتباً مسرحياً (عزيزاً جداً) كما قالت، سُجن لاتهامه بأنه شيوعي هدّام.

«وهو أمر سخيف بالطبع، سخيف جداً. أتعرفين ماذا يفعلون بالناس ليجبروهم على أن يتكلموا؟». كانت تتحدث بصوت منخفض كما لو أن الشرطة العسكرية تحيط بالمنزل. «إنهم يضعون خرطوم ماء في قفا الإنسان ويفتحونه بأقصى طاقته. هذه حقيقة يا أودي. أقسم لكِ.. إنهم ينقعون

الخرق في قذارات الناس، في فضلات الناس، ويقحمونها في أفواههم».

«إنه أمر فظيع» قالت أمي. فكرتُ بأن مادلين أتعبتها بسيل آرائها السياسية وحكايات الأحزاب التي شهدتها بنفسها مع زوجها، بقصصها عن الشعراء والموسيقيين والمفكرين الذين شربت الشمبانيا برفقتهم وبلائحة البلدان الأجنبية التي سافرت إليها بلا داع أو سبب. بحديثها الطويل عن كارثة القنبلة النووية والانفجار السكاني وتلوث البيئة. جارتها أمي بابتسامة جانبية، لكنني كنت أعرف أنها تجاملها ولا توافقها الرأي أبداً. وعلى الأرجح أنها اعتقدت أن مادلين كانت تتكبر عليها، على الأرجح أنها شعرت بالحرج منها.

وهذا هو بالضبط ما يُلوِّث لطف أمي، ما يذهب بقيمة شجاعتها وإنقاذها للآخرين.. ظل الدّين هذا الذي يرافق علاقتهم بها.. المتطلبات والالتزامات التي تغرقهم بها، الطريقة التي تستعمل بها ما فعلته معك من خير كعملة، تطلب منك الولاء والتحالف معها للأبد مهما كانت الظروف مقابل ما ساعدتك به. أفهم الآن هروب مادلين من الجزيرة قبل سنوات، أفهم أن الحبل الذي أنقذ حياتها من الغرق تحول إلى أنشوطة ملفوفة حول رقبتها. لطالما خيّب الناس ظن أمي في النهاية، بمن فيهم أنا. لأنهم لا يستطيعون ردّ الدّين، ليس بالطريقة التي تتوقعها منهم أمي، تتوقع أمي أن تنال جائزة الترضية الإستراتيجية الكبرى، أن تمتلك اليد العليا والكلمة الأخيرة في إصدار الأحكام على أفعال الآخرين بما يناسبها فقط، باعتبار أنها المظلومة الوحيدة في هذا الكون.

يحزنني ما يكشفه لي تأمل شخصية أمي، عن احتياجاتها وقلقها وخوفها من الوحدة، عن فزعها من العزلة والهجر. ويحزنني أكثر أنني أعرف كل هذا عنها، أعرف بالضبط ما تحتاجه، ومع ذلك..أجدني أنكر حاجاتها عامداً متعمداً، أجد أنّي حافظت دوماً على وجود محيط

أو قارة تفصلني عنها.. ويستحسن أن يكونا معاً، لأكثر من ثلاثة عقود.

«إنهم لا يلعبون. أولئك الزمرة، إنهم يسحقون الناس في اليونان، في مهد الديمقراطية... آه، ها أنتم قد عدتم، ماذا فعلتم؟».

«لعبنا على الشاطئ» قالت تاليا.

«هل تسليتم؟».

«أمضينا وقتاً رائعاً» أجابتها تاليا.

قفزت عينا أمي بيني وبين تاليا بشكٍ، بينما صفقت مادلين لابنتها بصمت.

«جيد، نستطيع الآن أنا وأودي قضاء الوقت وحدنا طالما أنكما اتفقتما أخيراً. ما رأيك يا أودي؟ ما زال علينا إنجاز الكثير.

ابتسمت أمي وتناولت رأس ملفوف.

ومنذ تلك اللحظة، تُركنا أنا وتاليا وحدنا. توقعتا منّا أن نستكشف الجزيرة ونلعب على الشاطئ ونُسلي أنفسنا كما يتوقع من الأطفال الآخرين. كانت أمي تجهز لنا الشطائر لننطلق بعد الإفطار مباشرة.

انفصلنا عن بعضنا بمجرد ابتعادنا عن الأنظار. كنت أسبح أو أجلس على صخور الشاطئ، بينما كانت تاليا تجمع الأصداف أو ترمي الحصى في الماء. لاحقنا الآثار التي تحفرها الأفاعي بين كرمات العنب وحقول الشعير ونحن ننظر إلى ظلالنا تحت الشمس وكلٌ منّا غارق بأفكاره. غالباً ما تجولنا بلا هدى. لم يكن هناك اهتمام بالسياحة في تلك الأيام في تينوس. كانت جزيرة زراعية، حيث يعتاش الناس من أبقارهم وماعزهم.. من أشجار زيتونهم وقمحهم. كنا نشعر بالملل، نتناول الغداء في ظل شجرة ما أو بجانب إحدى الطواحين، ونتأمل

الوديان وحقول الغابات الشائكة والبحر والجبال بصمت ناسكين.

ابتعدت في أحد الأيام عن قريتنا واتجهت للبلدة، فقد كنا نعيش على الشاطئ الجنوبي الغربي من الجزيرة، وكانت البلدة تقع على بعد عدة أميال نحو الجنوب منّا. وهناك، كان يوجد دكان تحف رخيصة يملكه أرمل اسمه السيد روسوس. على واجهة متجره الزجاجية، يستطيع المرء دوماً أن يجد آلة كاتبة من العام 1940 أو حذاءاً جلدياً أو أصيص نباتات قديم أو شموعاً عملاقاً وصليباً وأيقونات باناجيا إيفانخاليستريا. رأيت هناك في أحد الأيام غوريلا نحاسية. كما أنه يهوى التصوير ويمتلك غرفة مظلمة خلف دكانه. كان السيد روسوس يبيع حجاج شهر آب كل عام مئات أفلام التصوير، ويقوم بتظهيرها لهم مقابل أجر زهيد.

وعلى واجهة محله الزجاجية تلك، رأيت قبل شهر تقريباً آلة تصوير عتيقة موضوعة فوق حقيبتها الجلدية البالية. كنت أمشي كل بضعة أيام إلى الدكان لأحدق فيها وأتخيل نفسي في الهند، وحقيبتها الجلدية الرثة معلقة على كتفي، وأنا ألتقط الصور لحقول الشاي والأرز التي رأيتها في مجلة الجغرافيا الوطنية. تمنيت أن أصور بها آثار الإنكا. تصورت نفسي على ظهر جمل، أوفي شاحنة قديمة مغبرة، أو ماشياً على قدميّ، أتحدى الحرارة الخانقة وأتفحص أبا الهول والأهرامات، وفكرت أن أصورهم أيضاً لتنشر لقطاتي في مجلات لامعة الصفحات. هذا ما شدني ذاك الصباح للوقوف أمام متجر السيد روسوس، مع أنه كان مغلقاً ذاك اليوم، أسندت جبيني إلى الزجاج ورحت أحلم.

«ما هو نوعها؟».

تراجعت قليلاً إلى الوراء ورأيت وجه تاليا في المرآة. كانت تمسك المنديل أمام خدها الأيسر.

«الكاميرا؟» استغربت سؤالها.

«إنها تبدو كاميرا C3 Argus» قالت.

«كيف تعرفين النوع؟».

«إنه النوع الأكثر رواجاً في العالم خلال الثلاثين عاماً الأخيرة، ليست ملفتة للنظر. إنها قبيحة. إنها تبدو كطوبة بناء. أتريد أن تصبح مصوراً عندما تكبر؟ ذلك ما قالته أمك لنا».

«وماذا في ذلك؟» أحرجني كلام أمي عني، فكرت بكيفية قولها لذلك الأمر، لأنها تتحدث أحياناً باستهزاء عن الأشياء التي تبدو لها طائشة وصبيانية. بإمكانها أن تُقزّم آمالك ومطامحك أمام عينيك. بإمكانها أن تسخر مني وتقول أن ماركوس يريد التجوال حول الأرض والتقاط الصور بعدسته.. ها ها.

جلست تاليا على الرصيف ورفعت تنورتها فوق ركبتيها. كان يوماً حاراً والشمس تلسع الجلد كأسنان حادة، لم يحتمل أحد الخروج في تلك الحرارة سوى زوجين مسنين يمشيان ببطء أعلى الشارع. ارتدى الزوج (ديميس شيء ما) قبعة رمادية وسترة تويد داكنة ثقيلة لا تناسب الطقس على الإطلاق. أذكر أن نظراته كانت جاحظة كبقية العجائز الذين تباغتهم الشيخوخة بوحشية قبل الأوان.. ولم أعرف إلا بعد سنوات، عندما درست في كلية الطب، أنه كان يشكي من داء باركنسون. لوّحا لنا أثناء مرورهم، ولوحت لهم بالمقابل. رأيت عيونهم تلاحظ تاليا فتوقفا قليلاً عن المشي، ومن ثمّ استأنفا المسير.

«هل تمتلك كاميرا؟» قالت تاليا.

«لا».

«هل التقطت صوراً من قبل؟».

«لا».

«وتريد أن تصبح مصوراً؟».

«هل تجدين ذلك غريباً؟».

«بعض الشيء».

«لو قلت أني أريد أن أصبح شرطياً فهل كنت ستجدين ذلك غريباً أيضاً؟ باعتبار أني لم أضع الأصفاد في يدي أحد من قبل؟».

خمنت من نظرة عينيها الناعمة أنها كانت ستبتسم لو استطاعت فعل ذلك.

«إذا أنت حمار ذكي.. سأقدم لك نصيحة: لا تذكر الكاميرا في حضور أمي وإلا اشترتها لك. إنها تتوق دوماً لإرضاء من حولها بالمشتريات، لكنني أشك أن توافق أوديليا. وأعتقد أنك تعرف هذا مسبقاً».

أعجبتُ وتعجبتُ من كلامها وفهمها لنفسية أمي رغم الوقت القصير الذي قضته عندنا. وفكرت بأن ذاك القناع الذي ترتديه، ذاك المنديل الذي يجعلها لامرئية، يمنحها الفرصة والحرية في ملاحظة الآخرين ومراقبة ردود أفعالهم بدقة.

«ستجبرك على ردّ الهدية لأمي على الأرجح».

تنهدتُ. هذا صحيح. لن تسمح أمي بحصولي على أي شيء، وبكل تأكيد مادام الأمر يتضمن المال، بمثل هذه السهولة. وقفت تاليا ونفضت الغبار عن تنورتها.

«دعني أسألك، هل عندك صندوق في البيت؟».

جلست أمي ومادلين في المطبخ، بينما رحنا ـ أنا وتاليا ـ نلصق

نلصق شرائط سوداء على صندوق حذاء في الطابق الأعلى. كان الصندوق يحتوي حذاء أخضراً جديداً لمادلين، له كعب عالٍ جداً، وما يزال ملفوفاً بغلاف ورقي.

«أين كانت تنوي لبس هذا الحذاء؟» سألتُ تاليا.

سمعت صوت مادلين من الأسفل وهي تحكي عن صف تمثيل حضرته مرة، وطلب منها المدرب أن تدعي بأنها سحلية جالسة بسكون على صخرة على سبيل التدريب، ثم سمعنا صوت ضحكة عالية منها.

أنهينا الطبقة الثانية، وقالت تاليا أن علينا وضع طبقة ثالثة للتأكد بأننا لم نترك أي ثقب. لأن السواد يجب أن يكون كاملاً ومثالياً.

«هذا هو كل ما تحتاجه لصنع آلة تصوير.. علبة سوداء لها ثقب ليسمح بمرور الضوء وشيء ما يمتص الضوء. أعطني الإبرة».

ناولتها إبرة خياطة من عند أمي. أقل ما يمكن قوله هو أني كنت أشعر بالشك، حيال فرصة تحويل هذا الشيء إلى كاميرا منزلية. أيعقل أن نلتقط الصور بعلبة حذاء وإبرة؟ إلا أن تاليا بدأت المشروع بإيمان وثقة عمياء بنفسها جعلتني أفسح المجال أمام إمكانية تحقيقها للهدف. لقد دفعتني ثقتها للاعتقاد بأنها تعرف الكثير من الأشياء التي كنت أجهلها.

«لقد أجريت بعض الحسابات» وثقبت العلبة بعناية شديدة بالإبرة.

«لا نستطيع ضبط الثقب على الوجه الصغير دون عدسة، إن العلبة طويلة جداً، لكن عرضها ممتاز. يكمن السر في قياس الثقب الصحيح. أعتقد أنه يقارب ستة ميلمترات على أبعد تقدير. والآن، نحتاج إلى درفة».

انخفض صوت مادلين في الأسفل وتحولت كلماتها إلى همهمة غير مفهومة. لم أعد أفهم ما تقوله لكنني خمنت أنها كانت تتحدث ببطء أكثر من ذي قبل، وتخيلت أنها تجلس وتضع مرفقيها على ركبتيها وتحكي لأمي شيئاً ما دون أن ترفع عينيها عنها، تتواصل معها بالعينين.. هكذا تخيلت. عرفت مع السنين أن الناس يتحدثون بهذه النبرة عندما يكشفون أسراراً، يعترفون بالكوارث التي ارتكبوها ويتوسلون المستمع من أجل الصفح. إنها الطريقة التي يتحدث بها

مندوبوا الجيش عندما يطرقون الأبواب على حين غفلة، والمحامون عندما يعقدون صفقات تبرئة موكليهم، ورجال الشرطة عندما يوقفون السيارات في الثالثة صباحاً، الطريقة التي يتكلم بها الرجال الخونة مع زوجاتهم. أتذكر عدد المرات التي لا تحصى التي استعملت بها تلك النبرة للحديث إلى الناس هنا في مشفى كابول.. كم مرة اصطحبت عائلات بأكملها إلى غرفة هادئة وطلبت منهم الجلوس وسحبت كرسياً لأجلس عليه، مستجمعاً كل شجاعتي لأنقل لهم أخبار مرضاهم، وأنا أتخوف من المحادثات التي ستلي ذلك.

«إنها تتحدث عن آندرياس، أراهن أنها تفعل. لقد وقع بينهما شجار عنيف. أعطني الشريط اللاصق والمقص». قالت تاليا دون اكتراث.

«كيف هي شخصيته؟ أعني بالإضافة لأنه رجل غني؟».

«من؟ آندرياس؟ لا بأس به. إنه يسافر كثيراً. يستضيف الناس باستمرار أثناء مكوثه في المنزل.. أناساً مهمين، مثل الوزراء والجنرالات والشخصيات العامة المعروفة.. ذاك النوع من الناس. يشربون بجانب المدفأة ويتحدثون طوال الليل حول الأعمال والسياسة غالباً. أسمعهم من غرفتي.. يتوجب عليّ البقاء دوماً في غرفتي في وقت حضور الضيوف، لا يسمحون لي بالنزول للطابق السفلي. لكنه يهديني دوماً أشياء جميلة، ويدفع لأستاذ ليأتي للمنزل كي يدرسني، ويكلمني ويعاملني بلطف شديد». ألصقت قطعة مستطيلة من الورق المقوى لونّاها باللون الأسود فوق الثقب.

ساد الهدوء في الأسفل، تصورت الموقف في ذهني... تصورت مادلين تبكي بلا صوت وتمسح وجهها بذهن شارد وكأنها تمثل مسرحية، وأمي غائبة أيضاً، تنظر لها بتصنع وهي ترسم ابتسامة صغيرة وكأنها تشعر بذوبان شيء حامض على لسانها. لا تحتمل أمي بكاء أحد أمامها، لم تكن

تستطيع النظر في عيونهم الحمراء ووجوههم المتوسلة الحزينة. لأنها ترى البكاء دليلاً على الضعف ورغبة معلنة في لفت الانتباه، لذا لا تكترث له. لا تستطيع إجبار نفسها على المواساة. عرفت مع السنين أنها ليست ضمن دائرة قدراتها. عرفت أنها تعتقد أن الحزن يجب أن يبقى سرياً، خصوصياً، غير مفضوح أمام الآخرين مهما كانوا قريبين منك. سألتها مرة وأنا طفل صغير إن كانت قد بكت حين مات والدي.

«أعني في الجنازة، وقت الدفن.. هل بكيتِ؟».

«لا .. لم أبكِ».

«ألم تكوني حزينة عليه؟».

«بلى.. لكنني لم أرغب بأن يراني أحد... لأنه لا دخل لأحد في حزني».

«هل ستبكين إذا متُّ أنا يا ماما؟».

«لنتمنى أن لا يحصل ذلك، وهذا يكفي» هكذا قالت.

حملت تاليا علبة التصوير الكرتونية وقالت لي «أحضر المصباح اليدوي الكاشف».

دخلنا إلى خزانة أمي وأغلقنا الباب بعناية وسددنا الفتحات التي كان نور النهار يتسرب منها للداخل بالمناشف. طلبت مني تاليا عندما وقفنا في الظلمة الدامسة أن أشعل المصباح، بعد أن غطيناه بعدة طبقات من ورق الألمنيوم الأحمر. كل ما استطعت رؤيته من تاليا في الوهج الخافت كان قليلاً من أصابعها وهي تدخل ورقة فوتوغرافية إلى علبة الحذاء وثبتتها مقابل الثقب. اشترينا الورقة من متجر السيد روسوس في اليوم الفائت. عندما مشينا إلى طاولة الدفع، نظر السيد روسوس إلى تاليا من فوق نظارته وأشار لها بإصبعه وقال بمزاح: «هل أتعرض للسرقة؟» فرفعت تاليا سبابتها إليه وإبهامها وكأنها توجه له مسدساً.

أغلقت تاليا غطاء العلبة وغطت الثقب بالدرفة وقالت في العتمة الشديدة: «غداً، ستلتقط أول صورة في مسيرتك المهنية». لم أستطع تمييز لهجتها، ولم أعرف إن كانت تسخر مني.

اخترنا مكاناً لنا على الشاطئ ووضعنا علبة الحذاء على صخرة صخرة مستوية وثبتناها بحبل لأنها قالت أننا لا نستطيع إتيان أي حركة بعد أن نفتح الدرفة أمام الثقب. جلستت بجانبي واختلست نظرة من بين يديها فوق العلبة وكأنها تنظر من خلال منظار خاص.

«ستكون لقطة ممتازة» قالت.

«تقريباً، لكننا بحاجة لموضوع».

نظرت إلي وفهمت ما أعنيه.. ثم قالت «لا، لن أقوم بهذا».

تجادلنا طويلاً ثم وافقت بشرط أن لا يظهر وجهها في الصورة. خلعت حذائها ووقفت فوق مجموعة صخور على بعد عدة أقدام من آلة التصوير ورفعت ذراعيها كبهلوان يمشي على حبل في الهواء. نزلت إلى صخرة تواجه الغرب باتجاه سايروس وكايثنوس. حلت رباط شعرها لتدعه يغطي عقد المنديل الذي يغطي وجهها ونظرت إليّ من فوق كتفها.

«تذكر، عليك أن تعدّ حتى العشرين». واستدارت لتواجه البحر.

انحنيت ونظرت فوق الصندوق ونظرت إلى ظهر تاليا وتشكيلات الصخور حولها، لأذرع الأعشاب البحرية المتشابكة حولها كالأفاعي الميتة ولمحت وجود زورق صيد صغير بعيداً في البحر، راقبت ارتفاع المدّ والأمواج وهي تغمر الشاطئ الخشن المتعرج وتنحسر. رفعت الدرفة عن الثقب وبدأت بالعدّ.

«واحد، اثنان، ثلاثة، ...».

كنا مستلقيين في السرير نشاهد التلفاز، إلا أن جيانا أخفت الصوت. تسلل لنا نور منتصف النهار من خلال شقوق الستائر وسقط على بقايا البيتزا التي طلبناها للغداء من خدمة غرف الفندق. أوصلها لنا رجل هزيل طويل الشعر يرتدي سترة بيضاء وربطة عنق بيضاء. رأيت على الطاولة التي يدفعها أمامه زهرية على شكل ناي وقد وضعوا بها وردة حمراء. رفع غطاء الصحن المقبب عن البيتزا بكثير من البهجة وبحركة ساحر يكشف عن أرنب من قبعته الرسمية أمام المتفرجين.

تبعثرت حولنا على الشراشف غير المرتبة مجموعات من الصور التي التقطها خلال تجوالي أثناء ثمانية عشر شهراً فاتت .. بلفاست، مونتيفيديو، طنجة، مارسيليا، ليما، طهران. أريتها الصور التي التقطها في كوبنهاجن عندما عشت مع الدنماركيين الذين بنوا دويلة ذاتية الحكم على أرض قاعدة عسكرية سابقة.

«أين أنت؟ أنت لا تظهر في الصور». سألتني جيانا.

«أفضل البقاء خلف العدسة، لقد التقطت مئات الصور لكنك لن تجديني في أيٍ منها، هذا صحيح. دائماً ما أطلب نسختين للقطاتي عندما أضع الفيلم للتظهير. أحتفظ بنسخة وأرسل الثانية بالبريد إلى تاليا في أرض الوطن».

سألتني جيانا عن مصدر المال الذي يموّل أسفاري، فأجبتها أني أصرف من مال ميراثي. وهذا صحيح جزئياً لأن الميراث لم يكن لي، بل لتاليا. لقد أوصى آندرياس بأمواله لتاليا ابنة زوجته، ولم يوصي لمادلين بقرش واحد من ثروته. وقد أعطتني نصف المال كي أدرس في الجامعة.

«ثمانية، تسعة، عشرة، .. ».

أسندت جيانا مرفقها واتكأت على السرير ومدت يدها فوقي فلامس

صدرها العاري وجهي وتناولت علبة سجائرها. التقيتها في اليوم الفائت قرب ساحة بيازا سباجنا. كنت أجلس على الدرجات الحجرية التي تصل الكنيسة المبنية فوق التلة بالساحة المربعة في الأسفل. صعدَتْ الدرجات وقالت لي شيئاً بالايطالية. بدت لي كأي فتاة إيطالية جميلة من اللواتي رأيتهن في ميادين روما وحول كنائسها، أولئك المدخنات اللواتي يتحدثن بصوت عال ويضحكن كثيراً. هززت رأسي واعتذرت منها. ابتسمت لي ثم قالت بانكليزية ركيكة: «هل معك ولاعة؟». نفيت لها برأسي وأخبرتها بلغتي الانكليزية الثقيلة أيضاً أنني لا أدخن. ابتسمت ابتسامة عريضة وبانت البهجة في عينيها. شكّلت أشعة الشمس الساطعة وهجاً حول رأسها الذي يشبه شكله حجر الألماس المقطوع بعناية. سرحتُ بأفكاري لفترة وانتبهتُ وهي تنقر جانبي بإصبعها.

«La tua ragazza؟» قالت بالإيطالية. وجدت صورة تاليا على الشاطئ، التي التقطها قبل سنوات بالكاميرا التي صنعناها بثقب الإبرة. «أهذه هي صديقتك؟».

«لا».

«أختك؟».

«لا».

«ابنة عمك؟ La tua cugina؟»

نفيت برأسي. تفحصتْ الصورة بتمعن أكثر وهي تسحب أنفاساً سريعة من سيجارتها، ثم قالت بحدّة:

«Questa è la tua ragazza! إنها حبيبتك، نعم.. أنت تكذب». ثم.. ومن أجل تكذيبي أكثر.. قدحت ولاعتها وأشعلت الناس في الصورة.

«أربعة عشر، خمسة عشر، ستة عشر، سبعة عشر..».

أثناء عودتنا إلى موقف الحافلات، أدركت أني نسيت الصورة،

أخبرت الآخرين أني بحاجة للعودة، لا مناص من ذلك. نظر دليلنا التشيلي النحيل ألفونسو إلى غاري بتساؤل صامت عن معنى كلامي. غاري أميركي، إنه زعيم جماعتنا الثلاثية. شعره أشقر قذر ولديه آثار حفرها حَبّ الشباب على خديه. كان وجهه يشي بمعيشته الضنكة... غاري شاب عكر المزاج، يزيد الجوع وقلة المشروبات الكحولية من قلة صبره. التقيت بصديقيّ الاثنين في حانة مكتظة في سانتياغو، حيث اقترح ألفونسو بعد نصف دزينة من الكؤوس أن نذهب إلى شلال أبوكويندو، حيث اعتاد والده اصطحابه في طفولته. ذهبنا إلى الشلال في اليوم التالي وخيّمنا في العراء أمامه خلال الليل. دخنّا الحشيش واستمعنا لخرير المياه وتأملنا السماء المزدانة بالنجوم فوقنا. وكنا الآن في طريقنا إلى سان كارلوس أبوكويند ولنركب الحافلة.

دفع غاري قبعة المستكشف التي يضعها على رأسه إلى الخلف ومسح حاجبيه بمنديل. وقال:

«ستحتاج لثلاث ساعات من السير لتصل إلى مكان المخيم يا ماركوس».

أعاد ألفونسو الكلمات ذاتها بالاسبانية.

«أعرف».

«وسترجع كل تلك المسافة؟».

«نعم».

«على قدميك؟». قال ألفونسو

أومأت برأسي. صمتُّ لأنهما لن يفهما. ولست متأكداً إذا ما كنت أنا نفسي أفهم السبب.

«أتعلم أنك قد تضيع على الأغلب؟». قال غاري.

«على الأغلب».

«إذا، حظاً طيباً يا صديقي». قال غاري ومدّ يده ليصافحني.

«أتمنى لك الحظ السعيد يا صديقي». قال ألفونسو أيضاً.

ضحكتُ. ليست هذه المرة الأولى التي أدعى فيها باليوناني المجنون. تصافحنا جميعاً. عدل غاري وضعية حقيبة ظهره وتابعا المسير على الطريق الجبلي الذي كنا نسير عليه. لوح لي غاري بيده دون أن يستدير للوراء قبل أن تطويهم الانحناءات الصخرية. قفلت عائداً من نفس الطريق الذي أتينا منه، استغرق مني الطريق أربع ساعات في الحقيقة، لأنني ضعت أكثر من مرة كما تنبأ غاري. وعندما وصلت لمكان المخيم كنت قد أنهكت، بحثت بين الأجمات والحشائش والصخور دون جدوى. وفي النهاية، عندما فقدت الأمل تقريباً، لاحظت لمعاناً بين كتلة شجيرات فوق منحدر ضحل. وجدت الصورة محشورة بين أغصان العليق.. سحبتها ونفضت عنها الغبار، وامتلأت عيناي بدموع الارتياح.

«ثلاثة وعشرون، أربعة وعشرون، خمسة وعشرون..».

قضيت ليلة تحت جسر في كاراكاس، وأخرى في مأوى شباب في بروكسل، وتباهيت أحياناً باستئجار غرفة في فندق لطيف، لأستمتع بالحمامات الساخنة والحلاقة وتناول وجبات طعام مرتدياً روب الحمام. لأشاهد التلفاز الملون.. وتابعت الارتحال بنهم لا يشبع من المدن والطرقات والأرياف ووجوه الناس التي أنساها على الفور. فكرت أنني أبحث عن شيء ما، لكنني مع الوقت شعرت أنني أتجول بلا هدى، أنتظر حدوث شيء لي.. شيء سيغير كل حياتي.. وهو الأمر الذي شعرت أن حياتي بأكملها كانت مجرد مقدمات لحدوثه.

«أربعة وثلاثون، خمسة وثلاثون، ستة وثلاثون..».

في يومي الرابع في الهند، وبعد نهار طويل من التقيؤ.كنت أمشي في درب قذر بين ماشية ضالة بلا راعي، والدنيا تترنح حولي، اصفرّ

جلـدي وشـعرت بخـدر يسـري في جسـدي. لم أعـد أسـتطيع المشـي، فاضجعت بجانب الطريق. رأيت مقابلي رجلاً عجوزاً يحـرك طعامـاً في قدر حديدي كبير وبجانبه يضع قفصـاً يحـوي ببغـاء أزرق وأحمر. مـرّ بجانبي رجل داكن البشرة يجر عربـة يبيـع عليهـا زجاجـات خضـراء فارغة، وهذا هو آخر شيء أذكره من ذاك اليوم.

«واحد وأربعون، اثنان وأربعون، ..».

استيقظت في غرفـة كـبيرة حـارة عابقـة برائحـة خضـار مسـلوقة. ووجدت نفسي مستلقياً على سرير عريض تغطيه فرشة لا يزيـد سمكهـا عن كتاب نحيل. رأيت أن الغرفـة مليئـة بأسـرّة كسـريري، وشـاهدت الأذرع والسيقان المرمية عليها ولاحظت المـلاءات الملوثـة بـالبقع وأفـواه المرضى المفتوحة. تدلت من السقف المـراوح الجامـدة وغطـت العلامـات الدامية الجدران. أما النافذة المجـاورة لـي، فقـد كانـت تـدخل الهـواء الثقيل الدبق وأشعة الشمس اللاهبة. هناك، قابلني ممرض مسـلم اسمـه غُل، وقال لي أنني سأموت بلا شك بسبب إصابتي بالتهاب الكبد.

«خمسة وخمسون، ستة وخمسون، سبعة وخمسون..».

سألتهم عن حقيبة ظهري، فلم يعرف أحد منهم شيئاً عنها. اختفت كل أشيائي.. ثيابي ونقودي وكتبي وآلة تصويري. ثم قـال غُـل بلكنتـه الانكليزية المائعة «هذا هو كل ما تركه لك اللص» وأشار إلى حافة النافذة المجاورة لي.. فرأيـت الصـورة. التقطهـا.. تاليـا، بشـعرها المتطـاير في النسيم وفقاعات الزبد المحيطة بهـا وقـدميها العـاريتين علـى الصـخور وبحر إيجه الراقص أمامها. ارتفعت حشرجة إلى حنجرتي.. لا أريد أن أموت هنا بين هـؤلاء الغربـاء بعيـداً كـل تلـك المسـافة عنـك يـا تاليـا. وأمسكتها في يدي.

«ستة وستون.. سبعة وستون.. ثمانية وستون..».

كان لوجه الصبي المستلقي في السرير المجاور لي ملامح كهل مسنّ، منهك وغارق في الهموم.. وبطنه منتفخ بسبب ورم هائل وكأنه ابتلع كرة بولنج. كان يتألم ويتعذب بصمت كلما لمست الممرضة بطنه. حاول ممرض آخر اليوم إعطاءه حبوباً، لكنه رفض وأدار رأسه بعيداً، فصدر عن حلقه صوت احتكاك أخشاب ببعضها. أخيراً فتح الممرض فمه بالقوة وأقحم الحبوب في فمه غصباً عنه. أدار الصبي وجهه باتجاهي بعد مغادرة الممرض.. تلاقت عيوننا، فتدحرجت دمعة صغيرة من مقلته وسالت على خده الغائر.

«خمسة وسبعون، ستة وسبعون، سبعة وسبعون..».

المعاناة واليأس.. نكبات تجتاح هذا المكان كأمواج البحر.. تفيض عن كل سرير وتتحطم على الجدران ثم تعيد انقضاضها عليك.. تغرقك. نمت كثيراً في تلك الأيام، وعندما كنت أصحو، كنت أعاني من الحكة الشديدة. أتناول الحبوب التي يعطونها لي وأنام من جديد. كنت أستطيع رؤية الشارع النشيط من النافذة المجاورة لسريري، أرى البازارات المكتظة ونور الشمس المنزلق على أسطح الخيام الارتجالية التي ينصبها الباعة ومقاهي الزقاق الخلفي. راقبت الأطفال وهم يلعبون بالكريات الرخامية على الأرصفة الموحلة والعجائز الجالسات على المداخل وباعة الشوارع القرفصين فوق الحصر المفروشة على الأرض ليقشروا جوز الهند ويجمعوا أزهار الخمائل في سلاسل للبيع. صرخ أحدهم صرخة تصم الأذان من قلب غرفتي.. فأجفلت.

«ثلاثة وثمانون، أربعة وثمانون، خمسة وثمانون...».

عرفت من الممرض أن اسم الصبي المريض (منار) ويعني النور الهادي للآخرين. كانت أمه مومساً وأبوه لصاً. وأنه كان يعيش مع عمته وعمه اللذان كانا يضربانه دوماً. لم يعرف أحد أبداً نوع مرضه القاتل ذاك،

لكنهم جميعاً عرفوا أنه يموت شيئاً فشيئاً. لم يكن يزوره أحد، وعندما سيموت بعد أسبوع أو شهر من الآن، لن يطالب بجثمانه أحد. لن يحزن عليه أحد، ولن يذكره أحد. سيموت حيث عاش، بين الانهيارات والصدوع. وعندما ينام، أجد نفسي أنظر إليه، إلى شعره المتآكل وقياس رأسه الكبير بالنسبة لجسمه والندبة المحفورة على شفته السفلى، حيث اعتاد قوّاد أمه أن يطفئ سيجارته، كما أخبرني غُل. حاولت محادثته بالانكليزية، ثم بلغة الأوردو، لكنه كان يرمش بعيونه بتعب دون أن يجيبني. كنت أحياناً أجمع يداي سوية لأرسم من ظلالها على الجدار أمامنا أشكال حيوانات لأفوز بابتسامة من شفتيه.

«سبعة وثمانون، ثمانية وثمانون، تسعة وثمانون...».

أشار منار إلى شيء ما خارج نافذتي، فتبعت سبابته ورفعت رأسي، لكني لم ألاحظ شيئاً سوى زرقة السماء اللامعة بين الغيوم وبعضاً من الأطفال يلعبون بالماء المتدفق من مضخة الشارع وحافلة تتوقف أمامهم. ثم أدركت أنه يشير إلى صورة تاليا، فسحبتها وسلمتها له، قربها من وجهه وحدق بها لفترة طويلة.. تساءلت في نفسي إن كان البحر ما يشدّه في الصورة. تساءلت إن كان قد تذوق يوماً ملوحة مياهه أو إن أصابه الدوار يوماً من مراقبة ارتطام الأمواج بقدميه. ولربما، ومع أنه لا يستطيع رؤية وجهها، لربما شعر بشيء يربطه بتاليا، لأنه يعرف ما معنى الألم.. حاول أن يرجعها فرفضت وقلت له أن يحتفظ بها. لاحت على وجهه موجة سوء ظن، فابتسمت. وأظن أنه ابتسم لي أيضاً.

«اثنان وتسعون، ثلاثة وتسعون..».

هزمتُ التهاب الكبد الوبائي. ومن الغريب أني لم افهم شعور غُل تجاه تعافيٍّ.. هل كان محبطاً أم مسروراً بعد أن أثبتُّ خطأ الأطباء.. لا أدري. لكنني متأكد من دهشته عندما سألته عن كيفية تطوعي معهم.

اشرأب رأسه وتجهم وجهه. وقادني إلى كبير المرضين.

«سبعة وتسعون، ثمانية وتسعون، تسعة وتسعون..».

مع أن غرفة الحمام كانت عابقة دوماً برائحة البول والكبريت، إلا أنني حملت منار إليها كل يوم، حملت جسده العاري بيديّ، وتجنبت أن أحمله مثل كيس الأرز على كتفي كما كان يفعل بقية المرضين. كنت أنزله عن ذراعاي بلطف وأمسكه حتى يتمالك نفسه، ثم اشطف جسد الصغير بالماء الدافئ. جلس الصبي بصبر وهدوء دوماً، وكفاه ملقيين على ركبتيه ورأسه متدل للأمام... بدا للآخرين كرجل هرم هزيل. كنت أمرر الإسفنجة المبللّة بالصابون على ظهره وقفصه الصدري وكتفيه البارزين كزعانف سمك القرش..ثم أحمله وأعود به إلى سريره وأعطيه حبوب دوائه وأهدأه بتدليك قدميه لفترة طويلة إلى أن ينام وصورة تاليا مطوية تحت وسادته.

«مائة وواحد، مائة واثنين..».

كنت أمشي مسافات طويلة، أتوه حول المدينة، لأبتعد عن المشفى وأنفاس المرضى والمحتضرين. تسكعت في شوارع مغبرة تغطي جدرانها رسومات ملونة، عبرت أمام الأكشاك المتلاصقة وصادفت فتاتين تحملان فوق رأسيهما سلتين مترعتين بالروث. شاهدت نساء يغطيهن السخام الأسود وهن يغلين الخرق القماشية في قدور ألمنيوم كبيرة. فكرت كثيراً بمنار أثناء تجوالي في الأزقة الضيقة، منار الذي ينتظر الموت في غرفة مليئة بأناس مكسورين مثله. فكرت بتاليا كثيراً أيضاً، وهي تجلس على تلك الصخرة وتنظر للبحر. شعرت بشيء هائل يجتاح أعماقي، يسحبني كتيار يسري تحت الماء. وددت الاستسلام له.. وددت تركه ليستولي عليّ.. أردت أن أتوقف عن مقاومته.. وأن أنسلخ عن كياني، أن أرمي عني ذاتي القديمة، كما تخلع الأفعى جلدها القديم.

لا أريد القول أن منار غيّر كل شيء في حياتي، لم يقم بذلك وحده. تجولت حول العالم سنة أخرى قبل أن أجد نفسي جالساً في مكتبة بآثينا، أتفحص طلب الانتساب لكلية الطب. قضيت أسبوعين في دمشق قبل أن أصل اليونان، ولا أذكر منها أي شيء سوى سيدتين مكحلتي العينين باسمتين وسناً ذهبياً في فم كل منهما. وثلاثة أشهر في القاهرة، قضيتها في قبومبني متداعٍ يملكه مدمن على الحشيش. أنفقتُ نقود تاليا في ركوب حافلات آيسلاندا وتتبع فرقة موسيقية في ميونخ. وفي العام 1977 كسرت مرفق ذراعي أثناء وقفة احتجاجية ضد التسلح النووي في بيلباو.

لكن ذهني كان دوماً يعود إلى منار، أينما كنت نائماً، أثناء الرحلات الطويلة في مؤخرة الحافلات أوفي سريري أوفي شاحنة.

دائماً ما استرجعت في ذهني معاناة أيامه الأخيرة، وعجزي أمامه، صِغَرَ حجمي أمام آلامه التي جعلت من كل شيء فعلته، وكل ما كنت أرغب في فعله، مجرد أمور بلا قيمة أو معنى، كالنذور التي يقسم بها الإنسان لنفسه قبل أن ينام، ويستيقظ في اليوم التالي دون أن يذكر منها أي شيء.

«مئة وتسعة عشر، مئة وعشرون».

وأغلقتُ الدرفة.

علمت في نهاية ذاك الصيف أن مادلين ستغادر إلى آثينا وستترك تاليا معنا لبعض الوقت.

«بضعة أسابيع فقط». قالت مادلين.

كنا نتناول العشاء، نحن الأربعة، نأكل حساء الفاصولياء البيضاء الذي أعدته أمي ومادلين سوية. نظرت إلى تاليا لأتبيّن إذا ما كنتُ

الوحيد الذي وصلته الأنباء. وتحققت من مظهرها أنها لا تدري. كانت تاليا تتناول ملاعق حساء ممتلئة بنهم، وترفع الوشاح قليلاً مع كل لقمة لتضع الملعقة في فمها. بعد مرور وقت على مكوثهم معنا لم أعد أكترث بما يبدو من عاهتها أثناء الحديث أو الطعام، تماماً كما لا أكترث لمشاهدة رجل عجوز أدرد أثناء تناوله الطعام. كما ستصبح أمي بعد عدد من السنين.

قالت مادلين أنها سترسل في طلب تاليا بعد انتهائها من تصوير الفيلم، والذي تنتظر انتهاءه قبل حلول عيد الميلاد.

«في الحقيقة، سوف أحضركم جميعاً إلى آثينا». قالت بوجهها المرح ولهجتها النابضة كالهتاف في الملاعب. وتابعت: «وسنذهب لافتتاح الفيلم سوياً، ألن يكون ذلك رائعاً يا ماركوس؟ سنرتدي أجمل ما عندنا ونختال في المشي على السجادة الحمراء».

وافقتها برأسي مع أنني شككت في موافقة أمي على الذهاب أو ارتداء ثوب سهرة أو الاختيال في المشي أمام مدخل سينما. أخبرتني مادلين عن ترتيبات الأمر، قالت بأن تاليا ستستأنف الدراسة مع افتتاح المدارس بعد أسبوعين بمساعدة أمي، وسترسل لنا البطاقات البريدية والرسائل وصوراً لمواقع تصوير الفيلم، قالت الكثير لكنني لم أسمع معظمه. كنت أشعر براحة هائلة ودوار لكثرة الأفكار التي بدأت تحوم في رأسي. فقد كان فزعي من انتهاء الصيف يزداد كل يوم، كلما فكرت بالوداع المحتم في نهاية الزيارة. كنت أستيقظ كل صباح بتوق لرؤية تاليا على منضدة الفطور، لسماع صوتها الغريب، كنا نتناول فطورنا بالكاد قبل أن نخرج ونبدأ بتسلق الأشجار وملاحقة بعضنا البعض فوق حقول الشعير، لنلعب بين تلال المحاصيل ونصرخ ملئ رئتينا بأعلى صوت نستطيعه.. حتى السحالي كانت تهرب من أمامنا. أخفينا كنوزاً

خيالية في الكهوف وبحثنا عن أكثر الأماكن الجبلية التي ترجع الصدى على الجزيرة. التقطنا صوراً للطواحين وأبراج الحمام بآلة التصوير التي صنعناها وأخذنا الصور للتظهير في مخبر السيد روسوس، وقد أحبّنا الرجل لدرجة أنه سمح لنا بدخول الغرفة المظلمة الخاصة بالتظهير وعلمنا عن أنواع المظهرات ومثبتات الألوان ومغاطس الصور المائية.

فتحت ماما ومادلين زجاجة نبيذ في ليلة إعلان مادلين عن مخططها، وشربتاها في المطبخ بينما كنت ألعب النرد مع تاليا في الطابق العلوي.

«لديها عشيق» قالت تاليا ورمت أحجار النرد على الطاولة.

«من هو؟» أجبتها وأنا أقفز من مكاني.

«من برأيك؟»

تعلمتُ خلال الصيف أن أفهم تعابير وجه تاليا من خلال نظرات عينيها، وكانت تنظر لي في تلك اللحظة وكأنني أقف أمام الشاطئ وأسألها عن مكان وجود الماء. فكرتُ مرة أخرى بالأمر، ثم قلت وقد احمرّ خداي من الخجل والإثارة «أنا أعرف من هو.. أعني.. ذاك الـ.. أنت تفهمين من أعني».

كنت في الثانية عشرة من عمري ولم تكن لغتي تتضمن مفردات كالعشيق أو الحبيب.

«ألا تستطيع أن تحزر وحدك؟ إنه المخرج..».

«كنت سأقول هذا».

«إيلياس. إنه مخرج كبير، يلصق شعره على رأسه وكأننا نعيش في العشرينيات. ولديه شارب رفيع أيضاً. أعتقد أنه يرى نفسه أنيقاً هكذا. لكن مظهره سخيف للغاية. كما أنه يعتقد أنه فنان عظيم بالطبع. وأمي تعتقد هذا أيضاً. كان يجب أن تراها وهي برفقته.. وهي تتظاهر بالخجل الشديد والطاعة العمياء له، لدرجة أنك تعتقد أنها ستنحني له

إجلالاً لموهبته العبقرية بعد قليل. لا أفهم سبب انخداعها به».

«هل ستتزوجه الخالة مادلين؟».

«إنها بلا ذوق فيما يخص الرجال، لا يوجد لديها أي ذوق في اختيارهم» عبست تاليا ورمت النرد، ثم بدت وكأنها أعادت التفكير فقالت «ما عدا آندرياس، على ما أعتقد. إنه لطيف وطيب. لكنها ستهجره بالطبع... بسبب الأنذال الذين تقع في حبهم».

«أتعنين الرجال كأبيكِ؟».

«عبست من جديد وقالت» أبي كان شخصاً غريباً قابلته على الطريق إلى أمستردام. في محطة قطار خلال عاصفة رعدية. أمضيا فترة بعد الظهر سوية.. ولا أعرف هويته، لأن أمي لا تعرف هويته».

«آه، أذكر أنها قالت شيئاً عن زوجها الأول، قالت مرة أنه سكير. وقد افترضت أنه..».

«كانت تتحدث عن دوريان، إنه شخصية مختلفة أيضاً، كان يضربها، إذ أن مزاجه كان يتقلب من السرور الشديد إلى الغضب العنيف في لمحة عين. كحال الطقس عندما يتغير بشكل مفاجئ. كان يشرب طوال النهار ولم يكن يقوم بأي شيء سوى الاستلقاء في المنزل بلا عمل. وينسى كل شيء عندما يشرب. قد ينسى صنبور الماء مفتوحاً، ويغرق البيت على سبيل المثال. أذكر أنه نسي إطفاء نار موقد الطهي مرة في المطبخ وأحرقه كلياً تقريباً».

راحت تاليا تبني برجاً من رقائق البطاطا.. عملت على وضعها على استقامة واحدة لفترة من الوقت دون أن تتفوه بكلمة.

«أبولو.. كان الشيء الوحيد الذي أحبه دوريان. كان جميع أطفال الحي يخافون منه، أعني أبولو. رغم أنهم لم يروه سوى نادراً، لقد سمعوا صوته فقط، وهذا كان كافياً ليهابوه. ربطه دوريان بسلسلة غليظة

في آخر الساحة وكان يطعمه قطعاً كبيرة من لحم الحمل».

لم تخبرني تاليا أي شيء آخر، لكنني تصورت كل شيء بسهولة شديدة. غاب دوريان عن الوعي، ونسي ربط الكلب، ونسي الباب مفتوحاً.

«كم كان عمرك؟» سألتها بصوت هامس.

«خمسة أعوام».

ثم سألتها السؤال الذي كان يعتمل في عقلي منذ بداية الصيف.

«ألا يستطيعون فعلَ... أعني ألا يمكنهم إجراء أي شيء؟».

أشاحت تاليا ببصرها بعيداً عني وقاطعتني قائلة: «أرجوك لا تسأل». قالت جملتها هذه بحزن عميق ينم عن وجع نابض حديث رغم السنين التي مرت على الحادث «لقد تعبت».

«أنا آسف».

«سوف أخبرك يوماً ما».

وقد أخبرتني لاحقاً. حكت لي عن الجراحة الفاشلة والعدوى التي أصابت الجرح بعد العملية والالتهاب الذي أصاب كليتيها وأفضى بها إلى فشل الكبد، مما أجبر الجراحين في ما بعد على اقتطاع أجزاء من خدها الأيسر وعظام فكها للنجاة بحياتها. بقيت في المشفى لثلاثة أشهر بسبب تعقيدات حالتها، ماتت تقريباً، كان يجب أن تموت. وبعدها.. لم تسمح لهم بلمسها ثانيةً.

«تاليا.. أنا آسف لما حصل في بداية تعارفنا».

نظرت إليّ وأشرقت عينيها من جديد وقالت «يجب أن تأسف.. لكني عرفت قبل أن تسكب الصينية على الأرض».

«عرفتِ ماذا؟».

«أنك حمار».

غادرتنا مادلين قبل يومين من افتتاح المدرسة. ارتدت فستاناً ضيقاً بلا أكمام بلون الزبدة، ونظارات شمسية ضيقة ووشاحاً حريرياً أبيضاً معقوداً على رأسها لتحافظ على تصفيفة شعرها. ظهرت وكأنها تحاول المحافظة على أجزاءها مربوطة سوياً، وكأنها تريد المحافظة على تماسكها... وقد كانت بحاجة لذلك بالفعل. عانقتنا جميعاً في الميناء قبل أن تركب العبارة. شدت تاليا إلى صدرها لفترة طويلة بقوة وقبلت رأسها طويلاً دون أن تنزع نظارتها الشمسية.

«عانقيني» سمعتها تقول لتاليا.

أطاعتها تاليا بصرامة. وعندما انطلقت العبارة مترنحة في طريقها وتركت أثر مرورها فوق صفحة الماء، تخيلت أن مادلين ستقف أمام حاجز المؤخرة لتلوح لنا وترسل لنا القبل في الهواء.. لكنها دخلت بسرعة نحو القمرة الكبيرة وجلست. لم تلتفت إلى الخلف باتجاهنا أبداً.

عندما وصلنا إلى البيت، طلبت منا ماما الجلوس وقالت: «تاليا.. أريدك أن تعرفي بأنك غير مضطرة لربط الوشاح حول وجهك في المنزل بعد الآن. لا من أجلي ولا من أجله. ارتديه عندما تشعرين بالرغبة في ذلك. وهذا آخر كلام عندي حول هذا الأمر.

عندها فقط. توضحت الصورة أمامي، وعرفت ما اكتشفته أمي، كان ربط الوشاح حول الوجه لتجنيب مادلين الشعور الدائم بالخزي والإحراج... وليس تاليا.

لم تأتِ تاليا بأي حركة لفترة طويلة، ثم امتدت يدها ببطء وحلت عقدة الوشاح المربوطة في الخلف. وانكشف وجهها لي، نظرت إليه مباشرة وشعرت بحافز يدفعني للإشاحة بنظري، لكني لم أفعل.

حدقت بها وتعمدت أن لا أرمش بعيوني.

قررت ماما أن تدرسني في المنزل مع تاليا بدل أن الذهاب معها للمدرسة وبقاء تاليا وحيدة في المنزل. كانت تعطينا دروسنا مساءً بعد العشاء وتضع لنا فروضاً لننجزها في الصباح التالي في الوقت الذي تذهب به إلى المدرسة. بدت تلك خطة ناجحة نظرياً.

لكن الدراسة في غياب أمي عن المنزل كانت أمراً مستحيلاً. انتشرت أنباء وجه تاليا المشوه في أنحاء الجزيرة وبدأ الناس بالتوافد إلى بيتنا والطرق على الباب لشدة الفضول. بدا الأمر وكأنهم يقفون أمام مركز توزيع المواد الاستهلاكية الوحيد في الجزيرة بعد نفاذ كل الضروريات منها... من الملح والطحين والثوم. لم يتكبدوا عناء إخفاء غاياتهم من المجيء لبيتنا. كانت عيونهم تقفز فوق رأسي عندما أفتح الباب، ويشدون أعناقهم ويقفون على أطراف أصابع أقدامهم ليروها. لم يكن معظمهم جيراننا حتى. لقد قطعوا أميالاً مشياً على الأقدام لاستعارة كوب من السكر كما كانوا يقولون. لم أسمح لأحد منهم بالدخول طبعاً، وقد شعرت بالرضى كلما أغلقت الباب في وجوههم. لكنني شعرت بالكآبة أيضاً والإحباط لإدراكي أني سأصبح مثلهم، سأتصرف مثلهم، لو بقيت على الجزيرة لبقية عمري، كنت سأصبح واحداً منهم في النهاية.

كان الأطفال أسوأ من الكبار وأشدّ وقاحة. كنت أمسك يومياً بأحدهم وهو يتسلق حائطنا أو يحوم حول المنزل. في أحد الأيام كنا منهمكين بالدراسة، وفجأة، نقرت تاليا كتفي بالقلم ومدت ذقنها، فنظرت إلى ذاك الاتجاه ورأيت وجهاً ملتصقاً بالنافذة، وفي مرات أخرى كنت أرى أكثر من وجه. ثم ساء الأمر أكثر من ذلك.. اضطررنا لإغلاق الستائر كل يوم والبقاء في الطابق العلوي. فتحت الباب في أحد الأيام لزميل لي من المدرسة اسمه بيتروس، ووجدت معه ثلاثة صبيان آخرين، عرض عليّ

حفنة من العملات المعدنية لإلقاء نظرة واحدة على وجهها. فرفضتُ.. أين كان يظن نفسه.. في السيرك؟

اضطررت في النهاية إلى إخبار أمي عن ما يجري في غيابها. احمرّ وجهها عندما سمعت بالأمر وصرّت أسنانها.

في الصباح التالي وجدتُ شطيرتينا ملفوفتين وكتبنا جاهزة على الطاولة، فهمت تاليا قرار أمي قبلي وانطوت على نفسها مثل ورقة. احتجّت على أوامر أمي عندما آن وقت الذهاب.

«أرجوك يا خالة أودي.. لا».

«أعطني يدكِ».

«لا أرجوكِ».

«هيّا، أمسكي يدي».

«لا أريد الذهاب».

«سوف نتأخر».

«لا ترغميني يا خالة أودي».

سحبت ماما تاليا من ذراعيها وركزت نظرها على عينيها بصلابة شديدة، بنظرة أعرفها جيداً.. لا يمكن لأي شيء إيقافها بعد الآن. وقالت: «تاليا.. أنا لا أشعر بالخجل منكِ» حاولت أن تتكلم بنبرة ناعمة وقوية بنفس الوقت.

انطلقنا، نحن الثلاثة، أمي بشفاهها المزمومة واندفاعها في المشي وكأنها تحاول التقدم ضد ريحٍ عاصفةٍ، ومشيتها السريعة رغم خطواتها البطيئة. تخيلت أمي وهي تمشي بنفس هذا الإصرار إلى بيت أبو مادلين قبل سنين طويلة والبندقية في يدها.

حدق الناس بنا وشهقوا ونحن نمر أمامهم بخطانا الحثيثة على الطريق المتعرج. توقفوا ليحدقوا فقط. بعضهم أشار لنا بالبنان..

وحاولت ألا أنظر باتجاههم. كانوا مجموعة من الوجوه الشاحبة والأفواه المفتوحة من الدهشة من وجهة نظري.

في باحة المدرسة، فتح لنا الأطفال الطريق لنعبر بين التلاميذ. سمعت فتاة تصرخ. اندفعت أمي بينهم مثل كرة بولنج وهي تسحب تاليا وراءها. مشت باتجاه زاوية الساحة حيث كان يوجد مقعد هناك. صعدت فوقه وساعدت تاليا على الصعود أيضاً، ومن ثم نفخت صفارتها ثلاث مرّات، فساد صمت ثقيل في أنحاء الباحة.

«أعرفكم إلى تاليا جياناكوس». صاحت أمي: «إلى كل من يصرخ أو يبكي.. أغلق فمك واصمت قبل أن أعطيك سبباً وجيهاً للبكاء. والآن.. ابتداء من اليوم ستكون تاليا تلميذة معكم في هذه المدرسة. أتوقع منكم جميعاً معاملتها بكل احترام وتهذيب. إذا سمعت أي إشاعة عن أي تحرش بها سأجد الفاعل وسأعاقبه عقاباً شديداً يأسف عليه لما تبقى من عمره. وأنتم تعرفون أني قادرة على ذلك. انتهى الحديث عن هذا الموضوع. للأبد».

نزلت عن المقعد وهي تمسك بيد تاليا وتوجهت لغرفة الصف.

لم تضع تاليا الوشاح على وجهها أبداً بعد ذلك اليوم، لا في الأماكن العامة ولا في المنزل.

تلقينا رسالة من مادلين قبل عيد الميلاد بأسبوعين، حكت لنا

لنا فيها عن تأجيل تصوير الفيلم لعدة أسباب غير متوقعة.. فقد وقع مدير التصوير عن سقالة التصوير وكسر يده في ثلاثة أماكن مختلفة، ثم أوقفوا التصوير بسبب سوء الطقس في مكان التصوير.

لذلك، أوقفنا العمل قليلاً.. وليس ذلك أمراً سيئاً كلياً، لأنه يمنحنا الوقت للعمل على بعض الأخطاء الواردة في نص الفيلم. لكنه أحزنني لأننا لن نجتمع مع بعضنا قريباً كما خططنا يا أعزائي.. وعلى الأخص أنتِ يا تاليا، يا حبيبتي. أنا أعد الأيام حتى حلول الربيع للانتهاء من التصوير والعودة إليكِ. أنتم جميعاً في قلبي وتفكيري طوال الوقت، وكل يوم.

«لن تعود» قالت تاليا بلامبالاة وهي تعيد الرسالة إلى أمي.

«بالطبع ستعود». قلت لها وأنا مصعوق بتوقعها. التفتّ إلى أمي منتظراً أن تقول أي شيء، كلمة تشجيع على الأقل..لكنها طوت الرسالة ووضعتها على المنضدة وذهبت لتغلي ماء للقهوة. فكرت بخطأها في عدم مواساة تاليا حتى لو وافقتها في توقع عدم عودة مادلين. لكنني لم أكن أعرف بعد أنهما تفهمان بعضهما البعض، أكثر مما فهمتهما حتى اليوم. كانت أمي وما زالت تحترم تاليا وتقدر عقلها بقدر كبير يمنعها من تدليلها ومواساتها بكلمات بلا معنى، يمنعها من إهانتها بالوعود الفارغة.

حل الربيع بكل مجده الأخضر الدافق، ورحل. تلقينا بطاقة بريدية جديدة من مادلين ورسالة بدت وكأنها كتبتها على عجل، تخبرنا بها عن مزيد من المشاكل في موقع التصوير، عن مشاكل في التمويل هذه المرة بسبب التأجيلات المتكررة مما قد يستوجب غض النظر عنه نهائياً. لم تضع في هذه الرسالة، وعلى عكس الرسالة السابقة، أي وقت لعودتها.

ذهبت إلى الشاطئ مع تاليا في عصر أحد أيام بداية الصيف، وقد حدث هذا في عام 1968، مع صديقة لنا تُدعى دوري. مضى على وجود تاليا معنا عام كامل في تينوس، ولم تعد عاهتها تسبب الهمس والتحديق. كانت محاطةً بهالة من الفضول وما تزال،لكنه يتضاءل مع الوقت. أصبح لديها أصدقاء الآن، ودوري واحدة منهم، أصدقاء لا يخافون من مظهرها ويتناولون الغداء برفقتها ويثرثرون معها ويلعبون

بعد المدرسة ويدرسون سوياً. أصبحت تقريباً، أمراً عادياً بما فيه الكفاية.. وعليّ الاعتراف بشيء من الاحترام لسكان الجزيرة لطريقة قبولهم بها كواحدة منهم.

في ذلك العصر، كنا قد خططنا للسباحة، لكننا وجدنا أن الماء ما يزال بارداً على السباحة، وانتهى الأمر بنا بالاستلقاء على الصخور. وجدنا أمي في المطبخ تقشر الجزر عندما رجعنا إلى المنزل، ووجدنا رسالة جديدة غير مفتوحة متروكة على الطاولة.

«إنها من زوج أملكِ» قالت أمي.

تناولت تاليا الرسالة وصعدت إلى الأعلى. مرّ وقت طويل قبل أن تنزل إلينا. رمت الورقة على الطاولة وجلست وتناولت سكيناً وجزرة.

«يريدني أن أعود إلى المنزل».

«نعم» قالت أمي. وأعتقد أني سمعت ارتجافاً ضعيفاً في صوتها.

«ليس للمنزل في الواقع، بل لمدرسة داخلية في إنكلترا، لألتحق بها في الخريف، ويقول أنه سيدفع كل المصاريف».

«ماذا عن الخالة مادلين؟» سألتها.

«لقد رحلت مع إلياس، هجرته».

«ماذا عن الفيلم؟».

تبادلت ماما وتاليا النظرات ثم نظرتا إليّ في نفس الوقت وفهمتُ ما كانتا تعرفانه طوال الوقت.

في صباح أحد أيام عام 2002، وبعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً.. رأيت نعي وفاتها في الصحيفة بينما كنت أستعد للرحيل من آثينا إلى كابول. اسم عائلتها الآن هو كوريس، لكنني عرفت في صورة المرأة

العجوزة التي وضعوها لها مع النعي العينين اللامعتبن والكثير من جمال شبابها الماضي. قالت الفقرة الصغيرة الموجودة تحت صورتها أنها كانت ممثلة معروفة لفترة بسيطة في شبابها قبل أن تؤسس فرقتها المسرحية الخاصة بها في أوائل الثمانينات. تلقت فرقتها الثناء على عدة أعمال وأهمها مسرحية يوجين أونيل (رحلة اليوم الطويل) في منتصف التسعينيات ومسرحية تشيخوف (النورس) وأعمالاً أخرى لديميتريوس ميوغريس. يقول النعي عنها أنها كانت معروفة في الوسط الفني الأثيني لأعمالها الخيرية الكثيرة وذكائها وأناقتها وحفلاتها الباذخة واستعدادها الدائم لاحتواء المؤلفين المغمورين. كما ذكروا أنها ماتت بعد صراع طويل مع المرض لكنهم لم يذكروا وجود أي زوج أو أبناء لها. ذُهلت لمعرفتي - من الصحيفة أيضاً - أنها قضت آخر عشرين عاماً من حياتها في مدينة آثينا على بعد ستة شوارع مني.. فقط، في منطقة كولوناكي.

وضعت الصحيفة من يدَي، ودهشت لشعوري بنفاذ الصبر من هذه المرأة التي لم أرها أبداً لفترة تزيد على ثلاثين عاماً. شعرت بنوع من الرفض للطريقة التي آلت إليها أمورها. لقد تصورت دائماً أنها كانت تعيش حياةً صاخبة منفلتة، سنوات صعبة من الحظ السيئ والبدايات المتكررة دون جدوى والانهيارات والندم وعلاقات الحب الطائشة. تخيلت دوماً أنها تقوم بتدمير نفسها، تستهلك نفسها ليفضي بها الأمر إلى موت مبكر يدعوه الناس دوماً بالنهاية المأساوية. حتى أن جزءاً مني صدّقها، صدّق أنها كانت تتوقع الانهيار ولذا قامت بإحضار تاليا إلى تينوس.. لتوفر عليها كل تلك المآسي، لتنقذها من الكوارث التي ستحوق بها. لكني عرفت الآن أني تخيلت مادلين بالطريقة التي كانت أمي ستتعامل بها مع مثل تلك المواقف، تخيلت أنها ستجلس أمام طاولة، وسترسم بهدوء وعناية خريطة مستقبلها، وأنها ستضع عبئ

ابنتها الثقيل خارج حدود مخططاتها المستقبلية. ويبدو أنها نجحت نجاحاً منقطع النظير في هذا، على الأقل كما يبدو من هذا النعي، كما تشي أخبار حياتها العامرة بالانجازات والثروة والاحترام العام.

رفضت ما عرفته عنها. لم أستطع تقبل نجاحها وإفلاتها به دون حساب.. إنه أمر غير معقول. أين خسائرها؟ ألم تكن هناك أي ضريبة على تركها لابنتها بكل تلك القسوة؟

ومع ذلك.. تسرب الشك إلى نفسي وأنا أطوي الصحيفة بأنني حكمت على مادلين بقسوة، لأننا لم نكن مختلفين كثيراً عن بعضنا.. أنا وهي. ألم يخطط كلانا للهرب؟ ألم نفكر بإعادة بناء حياتنا وأنفسنا واختراع هويات جديدة لنا؟ ألم يقطع كلانا، في النهاية، كل الروابط التي كانت تعيقه وتثقل تقدمه نحو حياته التي يطمح لها؟ سخرت من أفكاري وطمأنت نفسي بأننا غير متشابهين، حتى أنني شعرت أن الغضب الذي انتابني نحوها كان قناعاً لحسدي لها على نجاحها في تحقيق آمالها أكثر مني أنا.

رميت الصحيفة بعيداً. لن أخبر تاليا، لن تسمع الخبر مني.

ر

رفعت ماما قشور الجزر عن المنضدة بسكينها ووضعتها في وعاء عميق، فقد كانت تكره رمي أي شيء من الطعام، حتى لو كانت قشوراً، وكانت تفضل صنع المربى به بدلاً من التخلص منه.

«عليك اتخاذ قرار مهم جداً بالنسبة لحياتك يا تاليا».

فاجأتني تاليا بالالتفات لي وسؤالي «ماذا ستفعل لو كنت مكاني يا ماركوس؟».

«أنا أعرف ما كان سيفعل». قالت أمي بسرعة.

«سأذهب» أجبت تاليا وأنا أنظر إلى أمي، راضياً بلعب دور التمرد الذي كانت أمي تعتقد أنني أمثله، كما أنني كنت أعني كلامي حقاً.. لم أصدق أن تاليا ستتردد في اتخاذ ذاك القرار ولو للحظة. كنت سأغتنم تلك الفرصة.. فرصة التعليم الداخلي الخاص في لندن.

«يجب أن تفكري جيداً» قالت أمي.

«لقد فكرت» قالت تاليا بتردد. ومن ثم تابعت بتردد أكبر وهي ترفع نظرها لتواجه عينا أمي «لكني لا أود الافتراض..».

وضعت أمي السكين من يدها وسمعت زفرة ضعيفة من صدرها.. أيعقل أنها كانت تحبس أنفاسها؟ وإن كانت كذلك فعلاً فإن وجهها الجامد لم يخنها ولم تبد عليها أي لمحة ارتياح. «الجواب هو نعم.. بالطبع هو نعم».

عبرت تاليا المسافة بينها وبين أمي ولست معصمها وقالت «شكراً لك يا خالة أودي».

«لن أكرر هذا مرة أخرى.. أعتقد أنك مخطئة.. كلاكما مخطئتان» قلتُ.

التفتتا كلاهما ونظرتا إليّ: «أتريدني أن أرحل يا ماركوس؟». قالت تاليا.

«نعم.. سأفتقدك كثيراً وأنت تعرفين هذا.. لا يمكنك التخلي عن فرصة التعلم في مدرسة بريطانية. ستذهبين للجامعة بعدها.. قد تصبحين باحثة أو عالمة، دكتورة في مجال ما، أو مخترعة. أليس هذا ما تريدين؟ أنت أذكى إنسان أعرفه.. بإمكانك أن تصبحي أي شيء تريدين».

توقفت عن الكلام.

«لا يا ماركوس» قالت تاليا بشدة: «لا أستطيع» قالت جملتها هذه برفض قاطع نسف كل محاولات إقناعها بالعكس.

فهمت بعد العديد من السنين، عندما بدأت تدريبي كجراح تجميلي، فهمت ما لم أفهمه ذاك اليوم في المطبخ عندما حاولت إقناع تاليا بترك تينوس والذهاب للمدرسة الداخلية. عرفت أن العالم لا يراك.. أنت الساكن داخل قميص اللحم والعظم.. لا يهتم مقدار ذرة بالآمال والأحلام، بالأحزان التي تنبض داخلك. الأمر بسيط بقدر ما هو عبثي وقاس لدرجة الوحشية. كل مرضاي يعرفون هذا، يفهمون حدودهم، وما يمكن أن يصبحوا عليه من مجرد النظر إلى تناظر عظام وجوههم، بناءً على المسافة بين عيونهم، على طول الذقن وشكل الأنف..من مجرد النظر للمرآة، والتأكد من أنهم يملكون بناء أنفياً جبهياً مناسباً للعالم من حولهم أم لا.

الجمال هبةُ عظيمةٌ مُنحت للبعض دون استحقاق، بطريقة عشوائية، بغباء. ولهذا اخترت تخصص التجميل في الطب، لمحي أفضلية الناس العاديين على أمثال تاليا، لأصحح بكل جرح بمبضعي ظلماً اعتباطياً، لأسجل موقفاً صغيراً أمام نظام عالمي مُشين، في عالم يسمح بأن تسرق عضة كلب المستقبل من فتاة صغيرة، بأن تجعلها مرفوضة من المجتمع.. وأن تُقزمها إلى مجردِ مجسمٍ موجودٍ للازدراء..فقط.

هذا ما أحدث به نفسي على الأقل. اخترت الجراحة التجميلية لهذا السبب ولأسباب أخرى.. كالمال على سبيل المثال والمكانة الاجتماعية والسمعة. سيبدو كلامي متوازناً ومنطقياً أكثر من اللازم لو قلت أنني اخترت التخصص بسبب تاليا، هكذا بكل بساطة..رغم جمال الفكرة..لكنني تعلمت في كابول أن السلوك البشري فوضوي وهوائي ومتهور ولا مبال بالأسباب المنطقية والنتائج المتوقعة. ومع ذلك، فقد وجدت الراحة في النمطية، في تسلسل أحداث قصة حياتي، في تشكلها وتبيّنها كما تظهر الصور الفوتوغرافية بالتدريج في غرفة التظهير

المظلمة، وجدت الاطمئنان في تفتحها وتأكيدها الخير الذي أردت دوماً أن أراه في حياتي.

أمضيت نصف فترة التدريب في آثينا وأنا أمحو التجاعيد وأشد الحواجب وأعيد تشكيل الأنوف المرفوضة بين الناس. وأمضيت بقية الفترة في ما أردت حقاً القيام به، في التجوال حول العالم للوصول إلى أميركا الوسطى والصحارى الفريقية و جنوب آسيا والشرق الأقصى والعمل على الأطفال لإصلاح الشفاه المشقوقة والحلق المفتوح وأزيل الأورام عن الوجوه وأمحي آثار الجروح المحفورة على وجوههم. لم يكن العمل في آثينا يرضيني، لكن الأتعاب كانت جيدة مما منحني ترف قضاء الأسابيع والأشهر في العمل التطوعي.

في أوائل عام 2002 تلقيت مكالمة تلفونية من امرأة أعرفها اسمها آمرا أديموفيك، كانت ممرضة في البوسنة. التقيتها لأول مرة في مؤتمر طبي في لندن قبل عدة سنوات وقضينا سوياً نهاية عطلة نهاية أسبوع بهيجة وأبقينا الأمر على هذه الحال دون تعقيدات أو انتظار لتطور الأمر. بقينا على اتصال بسيط وتقابلنا أثناء الأحداث الاجتماعية العادية.

قالت على الهاتف أنها باتت تعمل الآن لدى مؤسسة غير ربحية في كابول وأنهم يبحثون الآن عن جراح تجميلي ليساعدهم في إصلاح وجوه الأطفال المتأذية من الشظايا والرصاص والأمور المشابهة. وافقت في الحال، وقررت المكوث معهم ثلاثة أشهر. ارتحلت إلى كابول في نهاية ربيع عام 2002، ولم أعد أبداً.

لاقتني تاليا إلى ميناء العبارة وقد ارتدت وشاحاً صوفياً أخضراً ومعطفاً سميكاً باللون الوردي الداكن فوق بلوزة وبنطال جينز. وقد

أطلقت شعرها الطويل المفروق من المنتصف فوق كتفيها. استوقفني شعرها الأبيض، لا وجهها المشوه، عندما رأيتها. لم يفاجئني الأمر، لأنها بدأت تشيب في منتصف الثلاثينات من عمرها وتحول شعرها للون الأبيض القطني الناصع مع نهاية العقد التالي من عمرها. أعرف أني تغيرت أيضاً.. انتفخ بطني باطراد وتراجع شعري إلى الوراء، لكن انكماش الجسد غير المفهوم والماكر والمتزايد بلا رجعة هو ما استوقفني. قدم لي شعرها الناصع البياض الدليل القاطع على مسيرتها الثابتة نحو الشيخوخة، وبنفس القدر.. مسيرتي أنا أيضاً.

«ستصاب بالبرد». قالت وهي تشد الوشاح حول عنقها. إنه كانون الثاني، في وقت متأخر من الصباح، والسماء غائمة ورمادية. ارتعشت أوراق الأشجار وعلا صوت حفيفها من مرور النسيم البارد بين ثناياها.

«أتريدين التعرف إلى البرد الحقيقي.. تعالي معي إلى كابول» قلت وأنا ألتقط حقيبتي.

«كما تريد يا دكتور. هل نركب الحافلة أم نمشي؟ اختر أنت».

«لنمشي» قلت لها.

توجهنا شمالاً. عبرنا بلدة تينوس. شاهدنا اليخوت والقوارب مربوطة في ميناءها الرئيسي الداخلي، وأكشاك بيع البطاقات البريدية والبلوزات القطنية، والناس الذين يشربون القهوة خارج المقاهي على طاولات مستديرة صغيرة، ويقرأون الصحف ويلعبون الشطرنج. شاهدنا الندل الذين يفرشون أدوات المائدة الفضية تحضيراً لوقت الغداء، بعد ساعة أو اثنتين ستبدأ رائحة طهي السمك بالانبعاث من المطابخ.

بدأت تاليا تحكي لي بحيوية عن البيوت الجديدة البيضاء ذات الطابق الواحد التي يبنونها الآن في جنوب بلدة تينوس، حيث يمكن للقاطن أن يرى ميكونوس وبحر إيجه. قالت أنها مخصصة للسياح

وللأغنياء الذين يقررون قضاء الصيف هنا والذين بدأوا يرتادون تينوس منذ التسعينيات. قالت أن كل من هذه البيوت سوف يحظى ببركة سباحة خاصة ومركزاً للرشاقة.

أخبرتني منذ سنوات في رسائلها الالكترونية عن التغييرات التي تطال تينوس، عن الفنادق الباذخة والنوادي الليلية والحانات والمطاعم والدكاكين السياحية وسيارات الأجرة والحافلات والحشود والنساء الأجنبيات اللواتي تستلقين عاريات الصدور على الشواطئ. وعن المزارعين الذين باتوا يركبون الآن شاحنات النقل الصغيرة بدلاً عن الحمير، على الأقل من بقي مزارعاً منهم.. ورغم أن معظمهم غادر منذ زمن بعيد إلا أن بعضهم كان يعود الآن لإمضاء ما تبقى من حياته وفترة تقاعده على الجزيرة.

«أودي ليست مسرورة» وهي تقصد التغييرات التي تحصل على الجزيرة. لقد كتبت لي عن هذا أيضاً، وهو شك الساكن الأصلي للجزيرة بالقادمين الجدد والتغييرات التي يستوردونها إلى هنا.

«أنتِ لا تبالين بالتغييرات».

«لا جدوى من رفض المحتوم» صمتت قليلاً ثم أضافت «تقول أودي أن موقفي طبيعي باعتبار أني لم أولد على الجزيرة» ضحكت. تاليا بصوت عال من قلبها وقالت «وظننت بعد أربعة وأربعين عاماً على الجزيرة أني بتّ من أهلها واكتسبت الحق كاملاً.. لكن ماذا بوسعك أن تقول إزاء هذا؟».

لقد تغيرت تاليا أيضاً. أصبحت أكثر سمنة عند الوركين.. أستطيع تمييز هذا من فوق المعطف.. أصبحت أكثر انتفاخاً بشكل عام من ذي قبل. تولدت لديها طريقة ماكرة مثيرة للتعليق على الأشياء التي أقوم بها وأشتبه بأنها ستعتقدها حمقاء. لديها الآن لمعان في العينين وضحكة

قلبية جديدة واحمرار خدود دائم يعطي المرء انطباعاً بأنها زوجة مزارع.. بأنها تنتمي لذاك النوع من النساء الكادحات اللواتي توحي قوتهن البدنية الواضحة بالتسلط والشدة دون أدنى ذرة شك بهذا.

«كيف الأعمال؟ أما زلت تعملين؟» سألتها

«أحياناً.. أنت تعرف الوقت الذي نعيش فيه» أومأ كلانا برأسه للآخر. تابعت أخبار خطط تقشف الحكومة اليونانية في الأخبار إثناء إقامتي في كابول.. شاهدت على قناة الـ CNN الشبان اليونانيين الذين رموا الشرطة بالحجارة خارج مبنى البرلمان، وعناصر مقاومة الشغب الذين يرمون الناس بالقنابل المسيلة للدموع وهم يلوحون بالعصي أمام المارة.

تاليا لا تدير عملاً بمعنى العمل الحقيقي.. كانت امرأة عاملة قبل حلول العصر الرقمي.. كانت تذهب لبيوت الناس لإصلاح تلفزيوناتهم وآلات الراديو وثلاجاتهم ومواسيرهم المعطوبة. كان الناس يدفعون لها ما يستطيعون، وإذا لم يستطيعوا الدفع كانت تقوم بالعمل على أية حال. أنا لا أحتاج للمال كما كانت تقول. أنا أقوم العمل لمجرد متعته بالنسبة لي. ما زلت أهوى فتح الأشياء لرؤية كيف تعمل من الداخل. أما في هذه الأيام، فقد تحوّلت إلى قسم تقنيات عالية متطورة ومتألف من شخص واحد.. كل ما كانت تعرفه كانت قد تعلمته من تلقاء نفسها، من تجاربها.. كانت تطلب أجوراً رمزية مقابل إصلاح حواسيب الناس وتغيير إعداداتها وإطلاقها للعمل بعد توقفها المفاجئ بلا سبب، لتسريعها وتحديثها. اتصلت بها أكثر من مرة من كابول لتساعدني في إصلاح حاسوبي الـ IBM المتجمد كصخرة.

عندما وصلنا إلى بيت أمي، وقفنا في حديقة البيت المربعة تحت شجرة الزيتون.. رأيت دلائل هيجان أمي الأخير.. الجدران المطلية حديثاً وبرج الحمائم غير المنتهي، ومطرقة بجانب علبة مسامير

موضوعان على لوح خشبي في الزاوية.

«كيف حالها؟».

«شائكة وحادة الطبع كما كانت دائماً.. ولهذا وضعته هنا» أشارت إلى صحن لاقط للقنوات الفضائية على السطح، ثم تابعت: «نتابع المسلسلات الأجنبية، العربية هي أفضلها، أو أسوأها، نحاول فهم الموضوع سوياً مما يبقي مخالبها بعيدة عني». اندفعت نحو الباب الأمامي «أهلاً بك في المنزل، سأعد لك شيئاً لتأكله».

من الغريب أن أعود للمنزل. رأيت بضعة أشياء غير مألوفة لي، كالكرسي الجلدي الكبير الرمادي في غرفة الجلوس ومنضدة بيضاء بجانب التلفاز، لكن كل شيء آخر كان في مكانه. طاولة المطبخ المغطاة الآن بغطاء من الفينيل المشمع المطلي برسوم الإجاص والباذنجان، كراسي الخيزران ومصباح الزيت القديم، المدفأة القديمة الملطخة بسواد الدخان، صورتي مع أمي.. أنا بالقميص البيض وماما بردائها الوحيد الجيد التي ما تزال معلقة على الجدار فوق رف الموقد في غرفة الجلوس، مجموعة الخزف الصيني على الرفوف العالية.

ومع ذلك.. شعرت وأنا أضع حقيبتي أرضاً بحفرة.. بثقب أسود يتوسط كل شيء هنا.. عشرات السنين من حياة أمي وتاليا هنا.. شعرت بالفراغ.. بالفضاء الشاسع المظلم والمسافات البعيدة التي تفصلهما عني حاضرة في تلك اللحظة.. لقد كنت غائباً.. غائباً عن كل وجبات الطعام التي تقاسمتاها في غيابي على هذه المنضدة، عن الضحكات والشجارات والنزاعات التي ولدها السأم ونوبات الأمراض، عن الخيط الطويل الذي يجمع الطقوس البسيطة التي تشكل العمر. حيرني دخول

بيت طفولتي، شعرت بأنني أقرأ نهاية رواية بدأتها، ثم هجرتها دون أن أكملها منذ زمن بعيد.

«ما رأيك بالبيض؟» قالت تاليا وهي ترتدي مئزراً لتحضير الطعام، وتسكب الزيت في مقلاة.. رأيتها تتنقل داخل المطبخ بنفسية القائد، بطريقة توحي بامتلاكها لكل ما حولها.

«بالطبع.. أين أمي؟».

«نائمة. لقد كانت ليلتها سيئة للغاية».

«سألقي عليها نظرة سريعة».

تناولت تاليا مخفقة من الدُّرج وقالت «إذا أيقظتها فستجيبني على كل أسئلتي، يا دكتور».

صعدت إلى الأعلى على رؤوس أصابعي، ووجدت الغرفة مظلمة. تسلل خيط من النور من شقّ بين الستائر المسدلة وسقط على سرير أمي. تنشقت الهواء المثقل برائحة المرض، لم تكن رائحة بالضبط، بل شعرت به كوجود فيزيائي ملموس بالأحرى. كل الأطباء يعرفون هذا. المرض يتخلل غرفة العليل كالبخار، يحضر فيها. توقفت على مدخل الغرفة لوهلة لأسمح لعينيّ أن تعتادا على الظلمة. تتوقف الظلمة عند ضوء ملون متحرك على الخزانة ليسقط على ما أظنه جانب تاليا من السرير، الجانب الذي كنت أنام أنا عليه.. تبيّنت أنه إطار صورة رقمية مضيئة، تظهر في الصورة حقول أرز وبيوت خشبية مسقوفة الأسطح بالقرميد الرمادي يظهر من ورائها سوق مكتظ بالناس وحافل بذبائح الماعز المسلوخة والمعلقة إلى خطافات، ويظهر أيضاً رجل أسمر البشرة يقرفص بجانب نهر موحل ينظف أسنانه بإصبعه.

سحبت كرسياً وجلست بجانب أمي.. شعرت بهبوط شيء ما في داخلي وأنا أتفحصها بعد أن اعتادت عيناي على الضوء. أذهلني مقدار

تقلص جسدها في غيابي.. كانت المنامة الوردية واسعة جداً على كتفيها وفوق صدرها المسطح. لا أكترث لطريقة نومها، لفمها الذي يفتح ويغلق مع كل نفس، بل تضايقت من رؤية انزلاق طقم أسنانها في فمها أثناء النوم، رفرفت عيناها قليلاً.. جلست هناك لبرهة.. وسألت نفسي.. ماذا كنت تتوقع؟ أنصتُّ إلى دقات الساعة المعلقة على الحائط ورنين الملعقة في يد تاليا وهي تحرك بها الطعام في المقلاة.. جردت تفاصيل حياة أمي اليومية من موجودات الغرفة.. لاحظت شاشة التلفاز المسطحة المعلقة على الحائط والحاسب النقال في الزاوية ولعبة السودوكو غير المنتهية بجانبها على الطاولة ونظارة القراءة عليها، جهاز التحكم بالتلفزيون، عبوة ماء الورد وكريم للبشرة وأنبوب لاصق لطقم الأسنان، زجاجة دواء، وعلى الأرضية أمام السرير.. خفٌّ منزلي بلون الأصداف. لم ترتد أمي هذا الخف من قبل بكل تأكيد. وبجانب الخف، لاحظت وجود علبة حفاظات أطفال مفتوحة. لا أستطيع ربط هذه الأشياء مع أمي.. قاومت وجودها، وبدت لي كحاجات شخص غريب، شخص كسول وغير مؤذي، شخص لا يمكنك أبداً أن تغضب منه.

تغيرت الصورة في الإطار الرقمي بجانب الطرف الآخر من السرير، راقبتها قليلاً، وفجأة.. ظهرتُ أنا. أنا أعرف هذه الصور، لقد التقطها بنفسي عندما كنتُ.. ماذا؟ أجوب العالم!.. على ما أعتقد، كنت أحرص دائماً على طلب نسختين من كل صورة، لإرسال الأخرى إلى تاليا.. وقد احتفظتْ بها كل هذه السنين. تاليا.. تسربت العاطفة الحلوة خلالي كالعسل، لقد كانت أختي الحقيقية، *مناري الحقيقي*، كل الوقت.

نادتني من الأسفل. نهضت بهدوء.. وبينما كنت أغادر الغرفة استرعى شيء ما انتباهي.. شيء مُحاط بإطار ومعلق على الحائط تحت الساعة. لم أتبين ماهيته في الظلام.. فتحت هاتفي الجوال وسلطت الضوء

الفضي على الجدار. فوجدت أنها مقالة لجريدة الأسوشييتد برس يتحدثون فيها عن المنظمة اللاربحية التي أعمل معها في كابول. أذكر المقابلة، وأذكر أن الصحفي كان كورياً أميريكياً شاباً. تناولنا سوياً وجبة أرز أفغاني اسمه قابولي، مصنوعة من الأرز الأسمر والزبيب ولحم الحمل. في منتصف المقالة صورة لي مع الصحفي وبعض الأطفال ونبي وهو يقف في الخلف بصرامته المعهودة ويديه معقودتين خلف ظهره ويبدو شخصاً وقوراً وخجولاً، كما يظهر الأفغان دائماً في الصور. كما تظهر آمرا مع ابنتها المتبناة روشي، وجميع الأطفال في الصورة مبتسمون.

«ماركوس».

أغلقت هاتفي ونزلت على الدرج. وضعت تاليا أمامي كأس حليب وصحناً ساخناً من البيض بالطماطم.

«لا تقلق، وضعت السكر في الحليب».

«أنت تذكرين».

جلست أمامي دون أن تخلع المئزر وأسندت مرفقها على الطاولة وراقبتني وأنا آكل، وكانت تلمس خدها أحياناً بمنديل. أذكر كل المرات التي حاولت إقناعها فيها أن تدعني أعمل على وجهها، أخبرتها عن التقدم الطبي الذي حصل بعد الستينيات، وأنني واثق من قدرتي على تحسين وضع وجهها على الأقل، لا إصلاحه نهائياً. رفضت تاليا مسببة الحيرة الرهيبة لي. «هذا *أنا*».. هكذا كانت تقول، وهو جواب غير مرض وعديم الطعم كما اعتقدت في ذلك الوقت، كما أنني سألت نفسي.. ما معنى كلامها؟ لم أفهم قصدها.. ظننتها كأولئك السجناء المحكومين بقضاء عقوبة المؤبد في السجن والذين يخشون الخروج منه في النهاية، الذين ترعبهم فكرة الحرية، فكرة التغيير.. يرعبهم مجرد التفكير في بناء حياة جديدة خارج القضبان وبعيداً عن أبراج المراقبة.

ما زال عرضي قائماً حتى اليوم. أعرف أنها لن تقبله، لكني أفهمها الآن، لأنها كانت على حق.. هذا هو ما هي عليه. لا أستطيع التظاهر بأني أعرف معنى النظر يومياً للمرآة ورؤية هذا الوجه، النظر يومياً لتفحّص الخراب الفظيع الذي طاله، وللصلاة لإمدادها بالقوة والقدرة على قبوله.. لاستدعاء القدرة على تحمل ما لا تحمله الجبال، للجهد والصبر. قبلت تاليا بوجهها ببطء، احتاجت لسنين طوال، كما يحتاج المدّ لسنين ودهور ليحفر أشكال الصخور على الشواطئ. احتاج الكلب لدقيقة لمنح تاليا وجهها، واحتاجت هي عمراً بأكمله لتحويله إلى هوية لها. ولذلك.. لن تسمح لي بإلغائه بمبضعي.. لأنها ستشعر بجرح جديد يحتل مكان الجرح القديم.

بدأت أتناول البيض مع أني لم أكن جائعاً، لأني أعرف أن هذا سيفرحها.

«إنه لذيذ يا تاليا».

«إذاً.. هل أنت متحمس؟».

«ماذا تعنين؟».

مدت يدها لدرج بجانبها وأخرجت منه نظارات مربعة الشكل وداكنة اللون.. استغرق الأمر مني لحظة، ثم تذكرت الكسوف الشمسي.

«آه، بالطبع».

«في بدء الأمر، اعتقدت أننا نستطيع مراقبته من خلال ثقب صغير في النافذة، ثم قالت أودي أنك قادم، فقلت لها: «لنراقب الكسوف إذاً بأناقة».

تحدثنا قليلاً عن الكسوف الذي سيحدث في اليوم التالي، قالت تاليا أنه سيبدأ في الصباح وسيكتمل بحلول الظهر. وقد تفقدت أخبار الطقس وأسعدها صفاء الجو المرتقب. سألتني إذا ما كنت أرغب بالمزيد

من البيض، فأومأت لها بالإيجاب. أخبرتني عن مقهى الانترنت الجديد الذي افتتح في مكان متجر السيد روسوس القديم.

«رأيتُ الصور، ورأيتُ المقالة المعلقة في الأعلى».

مسحت فتات الخبز من أمامي بكف يدها ورمتها إلى مغسلة المطبخ دون أن تنظر

«آه، هذا سهل، أمسحها بالماسح الضوئي ثم أحمّلها إلى الذاكرة النقالة، لم أجد صعوبة إلا في تصنيفها حسب الدول. كان عليّ الجلوس والتفكير بها وحدي لأنك لم ترسل لنا أي ملاحظة حول أسفارك.. فقط الصور. وقد كانتْ حازمة كثيراً في مسألة ترتيبها حسب الدول. لقد أصرّتْ كثيراً».

«من؟».

تنهدتْ وأجابتني «من؟؟ أودي.. من غيرها؟».

«هل كانت هذه فكرتها؟».

«والمقالة أيضاً. هي من وجدتها على الانترنت».

«ماما بحثت عني على الانترنت؟».

«ما كان يجب أن أعلمها فعل هذه الأمور لأنها لا تتوقف أبداً، إنها تتفقد أخبارك يومياً.. هذا أمر صحيح.. لديك متابع مهووس بك يا ماركوس فارفاريس».

صحت ماما من نومها بعد الظهر ونزلت إلى الأسفل مرتدية رداء حمام كحلي والخف الصدفي الذي رأيته في الأعلى. وبدت وكأنها سرحت شعرها.. سررت لأني رأيتها تتحرك بشكل طبيعي وهي تنزل الدرج، فتحت ذراعيها لي وهي تبتسم لي بنعاس. جلسنا إلى الطاولة

لتناول القهوة.

«أين تاليا؟». سألت وهي تنفخ القهوة الساخنة لتبردها.

«خرجت لشراء بعض الأطايب كما قالت.. من أجل الغد. هل هذا لكِ يا ماما؟» أشرت إلى عصا مستندة إلى الجدار خلف الكرسي الجلدي الجديد. لم ألاحظه عند وصولي.

«قليلاً ما أستعملها، في الأيام الصعبة فقط، وللمشي الطويل. وحتى عندما أفعل، أستعين بها لراحة البال فقط» قالت كلماتها بلهجة توحي بأنها تريد التخلص من الحديث، مما جعلني افهم أنها كانت تعتمد على تلك العصا أكثر بكثير مما قالت. «أنا أقلق عليك.. من أخبار تلك البلاد الفظيعة. تاليا لا تريدني أن أستمع للأخبار.. إنها تقول أنها ستثير مخاوفي عليك».

«تقع معنا بعض الحوادث، لكن الناس غالباً ما يستمرون بحياتهم بعدها.. وأنا حذر دائماً يا ماما». بالطبع لم أخبرها عن إطلاق الرصاص في دار الضيافة التي تقع مقابلنا عبر الشارع، أو عن الهجمات الأخيرة على عمال الإغاثة الخارجية، وأني أعني بكلمة الحذر اصطحاب مسدس من عيار 9 ملم عندما أقود السيارة في المدينة، وهو أمر لا يجب علي القيام به إن كنت أخاف على حياتي.

تناولت أمي رشفة من القهوة وارتجفت بشكل بسيط، صمتتْ، لم تدفعني للكلام أكثر من ذلك ولم أفهم إن كان هذا أمراً جيداً، لم أتبين إن كانت قد غرقت في أفكارها، انجرفت كما يفعل المسنون، أو أن صمتها وسيلة كي لا تضطرني للكذب ولكشف الأشياء التي ستزعجها.. لا أكثر من ذلك.

«افتقدناكَ في أعياد الميلاد».

«لم أستطع ترك عملي وقتها يا أمي».

أومأت «أنت هنا الآن، هذا كل ما يهم».

ارتشفت شيئاً من قهوتي. وتذكرت حين كنت صغيراً، عندما كنت وأمي نتناول الفطور على هذه الطاولة بعينها كل صباح، بهدوء، بجديّة، قبل أن نمشي للمدرسة سوياً. لم نكن نتكلم إلا قليلاً.

«هل تعرفين يا أمي.. أنا أقلق عليك أيضاً».

«لا حاجة لذلك. أنا أعتني بنفسي جيداً» ولمع في عينيها وميض الفخر الحافل بالتحدي، القديم ذاته، كما ارتجاف بصيص ضوء في الضباب.

«نعم، لكن إلى متى؟».

«طالما استطعت ذلك».

«وعندما لن تستطيعي، ما سيكون العمل؟» لم أكن أتحداها أو أستفزها. سألت لأنني لم أعرف الإجابة. لم أعرف ما سيكون دوري، ولم أعرف حتى إن كانت الفرصة ستتسنى لي للعب أي دور. نظرت إليّ بهدوء، ثم أضافت ملعقة سكر إلى فنجانها وحركته ببطء.

«إنه أمر مضحك يا ماركوس.. لأن الأمر معكوس مع الناس الآخرين. يظنون أنهم يعيشون بالطريقة التي يريدونها.. لكن مخاوفهم الكبرى هي من توجههم في الحياة ، ما لا يريدونه لأنفسهم».

«لا أفهمك يا أمي».

«انظر إلى نفسك أنت على سبيل المثال.. تركت بلادك، انظر إلى الحياة التي اصطنعتها لنفسك، كنت تخاف من أن تُقيّد وتُحتجز هنا معي..كنتَ تخشى أن أمنعك من الانطلاق قدماً في حياتك. أو انظر إلى تاليا، بقيت هنا لأنها لا تريد أن يحدق الناس بها أكثر من ذلك».

راقبتها وهي تتذوق قهوتها، ثم وضعت كمية أخرى من السكر. تذكرت وأنا أراقبها رغبتي أثناء طفولتي في مناقشتها ومجادلتها مهما

قالت.. كانت أمي تتحدث بطريقة لا تترك مجالاً للرد بعد كلامها، تقذف بالحقيقة الجارفة مباشرة في وجهي، بكل صدق ووضوح. دائماً ما هُزمتُ قبل أن أتفوه بكلمة.. وكنت دوماً أشعر بالظلم لأنني لا أحظى بفرصة للرد.

«ماذا عنك أنت يا ماما ؟ ممماذا تخافين؟ ما هو الشيء الذي لا تريدينه وتخشين وقوعه؟».

«أخشى أن أتحول إلى عبئ».

«لن تكوني عبئاً على أحد في يوم من الأيام».

«أنت محق في هذا يا ماركوس».

انتشر الانزعاج في جسدي بعد هذه الجملة المخيفة والغامضة. عاد ذهني للرسالة التي أعطانيها نبي في كابول، التي تحوي اعترافه الأخير... والحلف الذي عقده مع سليمان وحداتي.. لم أستطع منع نفسي من التفكير بأن ماما عقدت نفس المعاهدة مع تاليا، وأنها اختارتها لتنقذها عندما يحين الوقت المناسب. أنا أعرف تماماً أن تاليا قادرة على فعلها. إنها قوية الآن. سوف تنقذ أمي مما تخشاه.

راحت أمي تدرس معالم وجهي الصامت.. ثم قالت:

«لديك حياتك الخاصة، وعملك يا ماركوس..» قالت بنعومة محاولة إعادة توجيه الحديث وكأنها استرقت النظر لما يدور في عقلي وعرفت ما يقلقني. لقد ضللتني العصا والحفاظات وطقم الأسنان والخف الصدفي.. ما زالت قوية كما كانت، وأكثر.. وستبقى.. تابعت كلامها «لا أريد أن أعيق تقدمك في حياتك».

وأخيراً.. تفوهت بكذبة، لكنها كذبة لطيفة. لن تعيق تقدمي أنا في حياتي، وهي تعرف ذلك جيداً كما أعرفه.. فأنا غائب كلياً، أنا أبعد عنها آلاف الأميال. كل الأمور الكريهة والعمل الشاق والكدح الحقيقي

سيقع على عاتق تاليا. لكن أمي تشركني به.. تضمن حصتي في شيء لا أستحقه لأني لم أعمل بجد للحصول عليه، لم أحاول حتى.

«لن يكون الأمر على هذه الشاكلة» قلتُ بضعف.

ابتسمت أمي وقالت «بما أننا نتكلم عن عملك.. أعتقد أنك تعرف أنني لم أوافق تماماً على رحيلك إلى ذلك البلد».

«شككت بهذا، نعم».

«لم أفهم سبب ذهابك إلى هناك.. لماذا تخليت عن كل شيء.. عن ممارسة المهنة والمال، عن بيتك الفخم في آثينا، عن كل ما عملت لأجل الحصول عليه واختفيت في ذلك المكان الحافل بأعمال العنف؟».

«لدي أسبابي».

«أعرف» رفعت الفنجان إلى شفتيها ثم أرجعته إلى الطاولة دون أن تشرب منه شيئاً «لست ماهرة في هذا.. أنا أدور حول نقطة ولا أقولها بشكل مباشر..لقد تبين لي أنك شخص جيد يا ماركوس. لقد جعلتني فخورة بك، يا بني» قالت ذلك ببطء واستحياء.

نظرتُ إلى الأسفل، نحو يديَّ.. شعرت بكلماتها تحط في قاع أعماقي، لقد باغتتني وفاجأتني دون أن أستعد لمثل هذه الكلمات.. ولمثل هذا النور في عينيها عندما قالت جملتها تلك. لم أعرف بم يفترض بي أن أجيبها.

«شكراً لك يا أمي» تمتمتُ.

لم أستطع قول أي شيء آخر، صمتنا لفترة وأثقلتِ الغرابة الهواء ما بيننا، أثقله إدراكنا لكل الوقت والسنين التي فقدناها، لكل الفرص التي بددناها.

«كنت أود أن أسألك عن شيء يحيرني». قالت أمي.

«ما هو؟».

«جيمس باركنسون، جورج هانتينجتون، روبرت غريفس. جون داون. وهذا لوغاريغ.. كيف استطاع كل هؤلاء الرجال احتكار أسماء الأمراض أيضاً؟».

رمشت عيناي ومن ثم رمشت أمي بعينيها بحركة مماثلة.. ثم انفجرت بالضحك وكذلك ضحكت أنا عندما فهمت قصدها. مع أنني كنت متكوراً من الداخل على نفسي.

استلقينا في الصباح التالي على الكراسي الطويلة وقد ارتدت أمي وشاحاً سميكاً وسترة صوفية رمادية وغطت قدميها ببطانية صوفية سميكة لتقيها من البرد القارص. ارتشفنا القهوة وأكلنا بسكويتاً بالقرفة والسفرجل، مما أحضرت تاليا للمناسبة. وضعنا على عيوننا نظارات الكسوف ونظرنا إلى السماء: ظهرت عضة صغيرة على الحافة الشمالية للشمس وبدت كالتفاحة التي تتخذها شركة Apple التكنولوجية شعاراً لها لفترة قصيرة، وراحت تاليا تفتح حاسبها المحمول كل هنيهة لتضع تعليقاتها على الحدث على صفحتها العامة على الانترنت. وجد الناس في المدينة والشوارع أماكناً لهم ليستقروا بها، على الأسطح والأرصفة كي يشاهدوا الحدث. اصطحب بعضهم عائلته للطرف الآخر من الجزيرة، حيث وضع المجمع الفلكي الهيليني مناظير وتلسكوبات خصيصاً لمراقبة الحدث..

«في أي وقت يفترض أن تحصل الذروة؟». سألتُ.

«عند العاشرة والنصف» قالت تاليا.. رفعت نظارتها وتفقدت ساعتها «أي بعد ساعة تقريباً» فركت كفيها بحماس وكتبت شيئاً على لوحة مفاتيح حاسبها.

راقبتهما. هما الاثنتين، أمي بنظارتها السوداء، تفحصت العروق الزرقاء البارزة من كفي يديها وهي تضعها على صدرها، وتاليا وهي تكتب على لوحة المفاتيح بشغف وسرعة والشعر الأبيض ينسكب من تحت قبعتها.

لقد تبين أنك شخص جيد.

فكرت بما قالته أمي عندما استلقيت على الأريكة في الليلة الماضية، وفكرت دون قصد مني بمادلين. تذكرت كيف كنت أتحسر في طفولتي على كل الأشياء التي لا تفعلها أمي معي، والتي تفعلها الأمهات مع أطفالهن.. على عدم مسكها ليدي أثناء المشي.. على عدم حملها لي ووضعها لجسدي الصغير على حضنها، على عدم قراءتها لي قبل النوم لقصص الأطفال.. على عدم تقبيلها لي قبلة الأحلام السعيدة. كانت كل تلك الأشياء مهمة وحقيقية لي بما فيه الكفاية.. لكنني كنت أعمى.. لم أرى الحقيقة الأعظم، المدفونة بعمق، غير المقدرة وغير الملحوظة تحت أحزاني. تلك كانت الحقيقة.. أن أمي لن تتركني في يوم من الأيام.. لن تتخلى عني أبداً.. هذه كانت هديتها لي... قناعتي وثقتي بأنها لن تفعل بي ما فعلته مادلين بتاليا. هي أمي ولن تتخلى عني. هذا ما كنت أعرفه ببساطة وأتوقعه منها دون شك.. لم أشكرها يوماً عليه كما لم أشكر الشمس يوماً على الإشراق فوق رأسي.

صاحت تاليا: «انظروا».

فجأة.. رأينا قوساً ضوئياً يشع على الأرض والجدران وعلى ملابسنا، رأينا هلالاً من نور الشمس يمر عبر أوراق وأغصان زيتونتنا وعلى القهوة داخل فنجاني وعلى حذائي.

«هاتِ يديك يا أودي». قالت تاليا.. «بسرعة».

فتحت ماما يديها.. تناولت تاليا من جيبها مربعاً من الزجاج

ورفعته فوق كف أمي.. وفجأة تراقص قوس قزح فوق بشرة أمي المجعدة.. لهثت أمي بسعادة.

«انظر إلى هذا يا ماركوس». قالت أمي وهي تبتسم بلا خجل مثل تلميذة مدرسة. لم أرها تبتسم من قبل بهذا الصفاء.. بهذه البساطة.

جلسنا، نحن الثلاثة لنشاهد أقواس القزح الصغيرة على يدي أمي وأنا أشعر بها تخترقني، تخترق أوجاعي القديمة، شعرت بكل منها كمنجل يخدش حنجرتي..

تبين لي أنك شخص جيد

لقد جعلتني فخورة بك يا ماركوس

أنا في الخامسة والخمسين من عمري. انتظرت حياتي كلها لسماع هذه الكلمات. هل تأخر الوقت كثيراً عليها؟ هل تأخر الوقت بالنسبة لنا؟ هل أهدرنا الكثير من الوقت، أمي وأنا؟ حاول جزء مني إقناعي أنه من الأفضل لكلينا متابعة حياتنا كما اعتدنا، أن أتصرف وكأننا لا نعرف كم كنا غير ملائمين لبعضنا البعض. وأن الأمر سيكون أقل إيلاماً بهذه الطريقة. ولربما كان أفضل من هذا العرض المتأخر منها. هذه اللمحة الهشة الضعيفة عما كان يمكن لحياتنا أن تكون عليه لو قضيناها سوياً من البداية. لن يفضي الأمر سوى إلى مزيد من الندم.. قلت لنفسي، وبماذا ينفع الندم؟ لن يفيدنا بأي شيء. لن نستطيع استرجاع الزمن المفقود أبداً.

ومع ذلك.. عندما قالت أمي: «أليست جميلة يا ماركوس» قلت لها: «إنها جميلة يا ماما.. إنها جميلة» وشعرت بستارة تفتح في داخلي.. ستارة عريضة جداً، بعرض حياتي.. تفتح حتى النهاية،

الفصل التاسع

شتاء عام 2010

عندما كنت صغيرة.. كان أبي يجلس بجانبي على السرير يومياً قبل النوم ليسحب الأحلام السيئة من رأسي بإبهامه وسبابته، بعد أن أتلو البسملة واحداً وعشرين مرة، وبعد أن يغطيني في السرير. كان يمسّد جبيني باتجاه جانبي رأسي بصبر شديد ويفتش عن الكوابيس خلف أذنيّ وفي مؤخرة رأسي، ثم يُصدر صوتاً يشبه صوت القارورة عندما تُفتح مع كل كابوس ينتشله من رأسي الصغير. كان يحملها ويخفيها في كيس غير مرئي يضعه في حضنه ثم يربطه بإحكام. ثم كان يُقلب الهواء حولنا بحثاً عن الأحلام السعيدة ليستبدل بها ما سحبه من رأسي. كنت أراقبه وهو يلتفت برأسه عبر عدة اتجاهات وعيناه تجوبان المكان وكأنه ينصت لموسيقى تأتي من البعيد. كنت أحبس أنفاسي إلى اللحظة التي يبتسم بها وجه والدي، إلى اللحظة التي سيغني لي فيها ويهتف.. آه..

وجدت واحداً. إلى اللحظة التي كان يجمع يديه سوياً كطبق عميق ويدع الحلم الجميل يهبط فيهما كبتلة زهرة ناعمة يتلقفها تحت شجرة. كان أبي يقول أن كل الأشياء الجيدة في الحياة هشة، تتلاشى بسرعة كما تأتي، ويرفع يديه بكل لطفه ذاك إلى وجهي ويمسح بكفيه على حاجبيّ ليدخل السعادة إلى رأسي.

«بماذا سأحلم الليلة يا أبتي؟». سألته.

«آه.. الليلة هي ليلة خاصة». هذه كانت إجابته دوماً قبل أن يحكي لي عن الحلم. في أحد الأحلام التي أهداني إياها كنت أشهر رسامة في العالم. وفي آخر كنت ملكة الجزيرة المسحورة، وكان لدي عرش طائر. وفي أحد المرات أهداني حلماً عن حلواي المفضلة، الجيلو، حيث كنت أستطيع بحركة من يدي تحويل أي شيء إلى جيلو.. حافلة مدرسة من الجيلو.. مبنى الامباير ستيت، المحيط الهادي بكامله. وقد أنقذت الكوكب الأرضي من الدمار أكثر من مرة بتحريك عصاي السحرية باتجاه نيزك يهدد بتدمير الأرض. قال أبي أنه ورث موهبته في تأليف القصص عن أبيه، والذي لم يتحدث عنه كثيراً. حكى لي أن أباه كان يجلسه أمامه عندما يكون مزاجه معتدلاً، وهو أمر لم يكن يحصل كثيراً، ويخبره بالقصص الشيقة المأهولة بالجان والجنيات والغيلان.

كنت أحياناً أتغلب على والدي، وأنتظره حتى يغمض عيونه لأقوم بلمس وجهه بكفي، أبدأ من حاجبه وأمررها فوق خدوده الخشنة وشعر شاربه الأشعث.

«أخبريني أنتِ عن حلمي هذه الليلة..»، كان يهمس ويديّ مضمومتان إلى يديه، ثم يبتسم، لأنه كان يعرف الحلم الذي سأمنحه إياه لتلك الليلة وكل ليلة. كان دائماً ذات الحلم، حكايته مع أخته الصغيرة وهما مستلقيان تحت شجرة تفاح مزهرة يحاولان الإغفاء وشمس الظهيرة تدفئ خديهما مع الأوراق والأزهار الناعمة التي تعلوهما.

كنت طفلة وحيدة لأبوي، ووحيدة جداً في الحياة. فقد قرّر أبواي، اللذان التقيا في باكستان وكانا في حوالي الأربعين من عمرهما في ذلك الوقت، عدم تكرار الإنجاب بعد إنجابهما لي. أذكر كيف كنت أحسد أطفال الجيران ورفاق المدرسة الذين كان لديهم أخوة آخرون.. كيف كنت أصاب بالدهشة من طريقة معاملتهم لبعضهم البعض، فقد كانوا كالكلاب المتوحشة بالنسبة لي، يقرصون بعضهم ويخونون بعضهم البعض متى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. كما كانوا يسخرون من تلك الأمور أيضاً. ويتخاصمون.. لم أفهمهم أبداً.. أنا التي أمضيت معظم سنواتي الأولى في اشتهاء الرفيق. أكثر ما تمنيت كان أخاً توأماً لي، شخصاً يبكي بجانبي في مهدي وينام بقربي ويرضع من صدر أمي معي. شخصاً أحبه دون وعي، وأرى نفسي في وجهه وفي ذاته.

وهكذا.. وجدت في أخت أبي الصغيرة (باري) رفيقتي السرية، التي لا يراها أحد غيري. كانت أختي التي تمنيت لو استطاع والداي إنجابها لي.. كنت أراها في مرآة الحمام عندما ننظف أسناننا سوياً في الصباح. وكنا نرتدي ملابسنا سوياً، وكانت تتبعني إلى المدرسة وتجلس بقربي في الصف وتنظر نحو اللوح بتصميم. دائماً ما كنت ألمح سواد شعرها وبياض وجهها بطرف عيني أينما كنت. اصطحبتها معي للملعب وشعرت بانزلاقها خلفي على الألعاب الموجودة في الحدائق وركوبها بجانبي في كل أرجوحة. كانت تنتظرني بجانب النافذة بينما أنهي رسوماتي على طاولة المطبخ كي نخرج لنلعب بالحبل.. لدرجة أنني كنت أرى خيالها أمامي على الأرض كأي رفيقة حقيقية أخرى.

لم يعرف أحد أبداً عن باري، رفيقتي الخيالية.. ولا حتى أبي. كانت سرّي الخاص. كنا نتناول العنب سوياً ونتحدث عن الألعاب كلما جلسنا وحدنا تماماً، وعن طعامنا المفضل والرسوم الكارتونية التي تفضلها كل منّا. كنا نفضل اللون ذاته، ونكره ذات الأطفال في المدرسة

وتشاطرنا ذات الرأي حول المعلمين الحقيرين في المدرسة. لوننا المفضل هو الأصفر ومثلجاتنا المفضلة هي التوت البري ومسلسلنا التلفزيوني المفضل هو (آلف)، وأرادت كلانا أن تصبح ممثلة عندما تكبر. ومن الطبيعي أنني اعتقدت أننا متشابهتان، لأننا بعد كل شيء.. أختان توأمتان. كنت أراها أحياناً، أراها حقاً بطرف عيني..حاولت رسمها أكثر من مرة، ودائماً ما كانت عيناها تظهران خضراوان كعيناي، وشعرها داكن أجعد مثلي وحاجباها سميكان متصلان تقريباً مثلي.. وإذا ما سألني أحد عن رسوماتي.. كنت أجيبهم أنني أرسم نفسي.

كنت أحفظ قصة فقدان أبي لأخته كما أحفظ القصص التي يعلموننا إياها في المدرسة الإسلامية كل يوم أحد، عن النبي محمد في هايورد. ومع ذلك، رغم معرفتي بالقصة، إلا أنني كنت أطلب سماع قصة باري كل ليلة، مأخوذة بجدية وعمق الأحداث. ربما سبّب اشتراكنا في الاسم جاذبية خاصة، ولربما عاد السبب لشعوري بوجود رابط خفيّ يجمعنا، رابط خافت، مطوي داخل لغز قديم.. وحقيقي رغم الغموض. لكن الأمر كان أكبر من هذا. شعرت بأنني ممسوسة بها، وكأنني كنت جزءاً مما حصل لها، كأن ما جرى لها طالني أنا أيضاً. لقد تشابكت حيواتنا، عبر ترتيب خفي لم أفهمه، ارتبطنا ببعضنا بشكل أعمق من مجرد اسم حملناه سوياً، بما هو أبعد من الروابط الأسرية وكأن كل واحدة منا تكمل الفجوات الناقصة في لغز يجمعنا وحدنا، سوياً.

كنت متأكدة من أني لو أنصتُّ بما فيه الكفاية لقصتها وفهمتها جيداً، سأكون قادرة على كشف شيء ما يخصني.

«هل تظن أن أباك حزن لفراقها؟ لأنه باعها؟».

«يستطيع بعض الناس تخبئة أحزانهم بطريقة ممتازة يا باري.. وقد كان من هؤلاء الناس. لم يظهر ذلك على وجهه أبداً كان صلباً.. لكنني أعتقد أنه حزن لفراقها جداً، حزن في داخله كثيراً».

«هل أنت حزين أيضاً؟».

كان يبتسم ويجيبني: *«ولماذا أحزن وأنت معي؟»* لكنني كنت أستطيع كشف كذبه حتى في تلك السن المبكرة من عمري.. ظهر حزنه عليها على وجهه كعلامة فارقة مميزة له مثل تشوهات الولادة.

هكذا كانت تدور كل أحاديثنا.. حول الخيالات التي تدور في ذهني، كنت أوفر أموالي دون أن أنفق أي دولار على السكاكر والحلوى واللواصق وعندما كانت حصالتي التي تشبه حورية البحر تمتلأ.. كنت أكسرها وأذهب مع المال لمحاولة إيجاد أخت أبي الصغيرة، للبحث عنها.. وعندما كنت أجدها كنت أشتريها من جديد وأحضرها إلى البيت، إلى بابا. لم أكن أشتهي من الدنيا غير جلب السعادة إلى قلب بابا وتبديد أحزانه المعمرة تلك.

«عمّ يدور حلمي الليلة؟». كان بابا يسألني.

«أنت تعرف».

«نعم أنا أعرف». ويبتسم من جديد.

«بابا».

«ممم؟».

«هل كانت أختاً جيدة؟».

«كانت مثالية».

كان يقبل خدي ويغطيني بالبطانية بإحكام حول رقبتي.. ثم كان يقول وهو يقف عند الباب بعد أن يطفئ النور..

«كانت أختاً رائعة، مثلك تماماً».

كنت أنتظر إغلاقه للباب حتى أنزلق خارج السرير وأحضر وسادة أخرى وأضعها بجانب وسادتي. نمت كل ليلة وأنا أشعر بقلبي ينبض بجانب قلب أختي التوأم المستلقية بجانبي.

تحققت من ساعتي وأنا أنحرف عن الطريق العام لأدخل إلى الطريق المؤدية إلى مدخل أوكلند القديم. سأحتاج إلى أربعين دقيقة للوصول إلى المطار على الأقل، إذا لم أصادف أي حوادث أو أعمال ترميمات على الطريق 101. بالإضافة لأنها قادمة على متن رحلة دولية، مما يعني أنها ستحتاج لوقت إضافي للمرور على الجمارك، ولربما أكسبني هذا وقتاً إضافياً. أخذت المسرى اليساري من الطريق ورفعت سرعة سيارتي اللكزس إلى الثمانين ميلاً.

أذكر حدوث معجزة صغيرة في حديث تبادلته مع والدي منذ حوالي الشهر.. حاولت الخروج يومها عن الأحاديث الطبيعية التي كنا نتبادلها دوماً، فكانت النتيجة فقاعة خيالية مثل فقاعات الصابون المرتفعة في الهواء.. كجيب هوائي صغير يرتفع من القاع البارد والمعتم والعميق للمحيط. في ذلك اليوم.. تأخرت في إحضار الغداء له، استدار نحوي وقال بنغمة تأنيب لطيفة أنني مبرمجة وراثياً كي لا أكون حريصة على الوقت.. *تماماً مثل أمك*، رحمها الله.

لكنه تابع كلامه مبتسماً مطمئناً لي أن *كل إنسان لديه عيب ما.. وأن عيبي هذا ليس هاماً. هذا العيب الرمزي الوحيد الذي خصني به الله*.. فقلت وأنا أضع أمامه طبق الفاصولياء والأرز.. *لقد بدأت تعتاد على تأخري*.

وقد خلقك الله بعنايته ورحمته.. أقرب ما تكونين إلى الكمال. قال جملته هذه وهو يضم يدي إلى صدره.

آه.. أنت جاهز لإطلاق العنان لخيالك.. باعتبار أنك ترى نفسك عجوزاً وعاجزاً.

أنا عجوز وعاجز بالفعل.

والآن.. تريدني أن أشعر بالشفقة عليك؟

قلبت قنوات الراديوبين المتحدثين إلى موسيقى الكاونتري إلى الجاز إلى مزيد من المتحدثين.. ثم أطفأته. شعرت بالقلق والعصبية. تناولت هاتفي الخلوي واتصلت بالمنزل وتركت الهاتف مفتوحاً على حضني.

«ألو».

«سلام بابا، هذا أنا».

«باري؟».

«نعم يا بابا، هل أنتما على ما يرام في المنزل.. أنت وهكتور؟».

«نعم، أنه شاب رائع، لقد طبخ لنا بعض البيض وأكلناه مع الخبز المحمص.. أين أنتِ؟».

«أنا أقود السيارة».

«إلى المطعم؟ ليس لديك مناوبة اليوم على حد علمي؟».

«لا.. لست في طريقي إلى المطعم يا بابا.. أنا ذاهبة إلى المطار. سأقل شخصاً من هناك».

«حسناً، سأطلب من أمك أن تعد لنا الغداء، يمكنها أن تحضر لنا شيئاً من المطعم».

«حسناً يا بابا».

لم يذكرها أكثر من ذلك لحسن حظي. لكنه لا يتوقف عن الحديث عنها في أوقات أخرى.. ويسألني: لماذا لا تخبريني بمكانها؟ هل هي في المستشفى، هل تجري عملاً جراحياً؟ لا تكذبي عليّ، لماذا يكذب علي الجميع؟ هل رحلت وتركتني؟ هل سافرت إلى أفغانستان؟ أنا ذاهب إلى هناك أيضاً.. سأذهب إلى كابول ولا تستطيعين منعي. كنا نراوح في مكاننا هكذا لساعات.. أتابع تغذيته بالأكاذيب، أصرف انتباهه عن الموضوع بعدّة الإصلاحات التي يمتلكها أو بدليل تحسين المنزل المُصوّر أو بشيء ما على التلفاز. كانت حيلي تنجح في بعض الأوقات، لكنه كان يرفضها

في أغلب الأوقات الأخرى ويتابع حتى البكاء.. يضرب على رأسه ويهز نفسه في الكرسي جيئة وذهاباً بنوبات هستيرية، ينشج، ترتجف سيقانه، ويتوجب عليّ عندها أن أعطيه حبوب معالجة القلق العصبي، أنتظر إغماض عيناه، ثم أتهاوى على الأريكة، مستنزفة، مقطوعة النفس، على شفير البكاء. أنظر للباب الأمامي بتوق سجين للهرب.. أريد أن أمشي فقط، وأستمر بالمشي.. وما أن يتنهد أبي في نومه حتى أعود للأريكة مرة أخرى، والذنب ينبض في عروقي بدل الدماء.

«هل أستطيع الحديث مع هيكتور يا بابا؟». سمعت صوت أيدٍ تتبادل السماعة وصوت حشد يزأر مشجعاً لمباراة ما على التلفاز، ثم سمعت صوت تصفيق وهتاف عال.

«مرحبا يا فتاة».

هيكتور خواريز جارنا منذ سنوات، يعيش مقابل بيتنا، وقد أصبحنا أصدقاء في السنوات الأخيرة. وهو يأتي إلى منزلنا عدة مرات في الأسبوع لنتناول العشاء سوياً في وقت متأخر ونشاهد عروض التلفاز، لنأكل البيتزا الباردة ونهز رؤوسنا عجباً من المسلسلات التي تتحدث عن حياة أناس حقيقيين ونوبات غضبهم العجيبة والتحف التي تظهر على الشاشة أمامنا من بيوتهم. كان هيكتور جندي بحرية في جنوب أفغانستان منذ سنتين، وقد جُرح وأوذي بشكل سيء في هجوم عنيف فعاد إلى الوطن. زاره جميع سكان الحي عند عودته، وعلق له أبواه لوحة إعلانية كبيرة في الحديقة الأمامية كتب عليها (أهلاً بعودتك) مع الكثير من البوالين والزهور. صفق الجميع عند وصوله مع أبويه للمنزل وأحضر لهم العديد من الجيران الكعك والفطائر وشكره الآخرون على قيامه بواجبه الوطني. وقالوا: باركك الله. حضر والد هيكتور (سيزر) إلى منزلنا بعد عدة أيام وساعدني على تركيب هضبة صناعية على الأرض أمام الباب الأمامي لمنزلنا ليستطيع أبي الخروج على كرسيه المدولب دون إعاقة الدرجات الأمامية،

تماماً كما فعل على بابا منزله الذي علق عليه أيضاً علم الولايات المتحدة. أذكر أنني شعرت بحاجة للاعتذار لسيزر عما حصل لولده هكتور في وطن والدي بينما كنا نُركب الهضبة الصغيرة.

«مرحباً، لقد تأخرتْ».

«لا بأس، كل شيء على ما يرام هنا. لقد أكلنا ونشاهد التلفاز الآن».

«آسفة».

«على ماذا يا فتاة؟ نحن نقضي وقتاً ممتعاً، أليس كذلك يا آبي؟».

«شكراً لأنك طهوت له البيض».

خفض هيكتور صوته قليلاً وقال: «طهوت له البان ـ كيك في الحقيقة، واحزري ماذا؟ لقد أحبها جداً وأكل أربع صحون منها».

«أنا مدينة لك حقاً».

«لا داعي لهذا.. لقد أحببت اللوحة الجديدة، التي يظهر بها الطفل ذا القبعة المضحكة. لقد عرضها آبي علي.. كان فخوراً بها جداً وشعرت بالفخر بنفسي أيضاً..».

ابتسمت وأنا أفسح المجال لسيارة أخرى للمرور.

«الآن أعرف ماذا سأهديك في عيد الميلاد».

«ذكريني مرة أخرى بالسبب الذي يمنعنا من الزواج؟». قال هيكتور وسمعت احتجاجات بابا على سؤاله من بعيد وضحك هيكتور.. ثم قال: «أنا أمزح يا آبي، هوّن عليك..أعتقد أن أباك نظر إليّ الآن بعيون البشتون الأفغانية التي يخفيها داخله».

ذكرته بأن يعطي والدي حبوب الدواء الصباحية وأغلقت الخط.

كان الأمر شبيهاً برؤية صورة مذيع على الراديو.. حيث تكتشف أنه لا يشبه الصورة التي بنيتها عنه في خيالك على الإطلاق.

أولاً.. هي امرأة مسنّة، أو أنها تبدو كذلك. وأنا أعرف هذا بالطبع، فقد حسبت عمرها وقدرت أنها في بداية الستينات من عمرها. باستثناء أنه يصعب مطابقة هذه المرأة النحيلة رمادية الشعر مع الطفلة الصغيرة ذات الأعوام الثلاثة التي تصورتها دائماً، والشعر الأجعد الأسود والحاجبين الكثيفين الذين يكادان يلتقيان بين العينين، كحاجبيّ أنا.. كما أنها كانت أطول مما ظننت. خمنت هذا مع أنها كانت جالسة على مقعد خشبي بجانب كشك شطائر، وتنظر حولها بخجل كشخص ضائع. كتفاها ضيقان وبنيتها هشة وضعيفة، وجهها لطيف وشعرها مشدود إلى الخلف برباط رأس موشّى بالرسومات. تزينت بقرطين من اليشب اللؤلؤي وارتدت بنطال جينز وسترة طويلة ووشاحاً أصفراً مربوطاً حول عنقها بأناقة أوروبية واضحة. قالت لي في رسالتها الالكترونية الأخيرة أنها ستضعه لأتعرف عليها بسهولة.

لم ترني بعد.. نظرت إليها من بين المسافرين الذين يدفعون عربات أمتعتهم وسائقي سيارات الأجرة الذين يرفعون لافتات تحمل أسماء المسافرين.. صرخ قلبي داخل صدري وقفز وأنا أقول.. تلك هي.. هذه هي حقاً.. ثم التقت عيوننا وبدا الارتياح على وجهها ولوحت لي.

التقينا عند المقعد.. ابتسمت لي ابتسامة عريضة جداً وارتعشت ركبتاي. ابتسامتها تبدو تماماً كابتسامة بابا باستثناء أسنانها المفروقة من المنتصف والمائلة باتجاه الجهة اليسرى، كما أنها تبدو مثله في الطريقة التي ترفع بها وجهها للأعلى وتغلق عيونها تقريباً من شدة السعادة وتميل رأسها إلى الجانب قليلاً. نهضتُ، فلاحظتُ مفاصلها المشوهة، وأصابعها المتقوسة بعيداً عن الإبهام عند العقدة الأولى.. والبروز الذي يشبه حبة الحمّص على كل معصم. شعرت بتشنج في معدتي وتألمت بشدة.

تعانقنا وقبلتني على الخدين.. شعرت ببشرتها الناعمة. وعندما

مشينا قليلاً أوقفتني ووضعت يديها على كتفي وراحت تتأملني وكأنها تقيّم لوحة فنية.. رأيت الدموع في عينيها اللتين عادتا للحياة من جديد ونُفختا بروح السعادة.

«أعتذر لتأخري».

«لا بأس.. أنا مسرورة لأننا اجتمعنا أخيراً». قالت هذه الجملة بالانكليزية ولكن بلكنة فرنسية واضحة أكثر مما شعرت به عندما تحدثنا على الهاتف.

«أنا مسرورة أيضاً.. كيف كانت رحلتك؟».

«أخذت حبة دواء كي أنام، لذا.. سأبقى مستيقظة طوال الوقت.. لأنني سعيدة جداً ومتحمسة جداً». لم ترفع عينيها عني وكأنها كانت تخشى زوال السحر عنها لو حولت بصرها عني إلى أن سمعنا صوت الإذاعة في المطار وهو ينصح المسافرين بالتأكد من حقائبهم. وعندها تغضن وجهها قليلاً.

«هل يعرف عبدالله أني قادمة إلى هنا؟».

«أخبرته أنني سأحضر معي ضيفاً إلى البيت».

استرقت نظرات خاطفة إليها بينما كنا نضع الأمتعة في السيارة.. وشعرت بغرابة وجود باري وحداتي في سيارتي، كمن ينظر إلى وهم لا يراه أحد غيره، على بعد عدة إنشات مني. ولوهلةٍ رأيتها بوضوح تام، رأيت الوشاح الأصفر الملفوف حول العنق والشعر القصير الضعيف والشامة البنية التي تشبه حبة القهوة تحت الأذن اليسرى، أما في ما يخص بقية ملامحها.. فقد شعرت أنني أنظر إلى سديم، إلى شخص من خلال زجاج، غير واضح المعالم مما سبب لي دواراً خفيفاً.

«هل أنت على ما يرام؟». قالت وهي تنظر باتجاهي وتضع حزام الأمان.

«أنا آسفة».

«إن الأمر غير قابل للتصديق إلى حد ما، أنكِ موجودة حقاً.. وأنكِ أتيت حقاً إلى هنا» ضحكتُ بتوتر واضح.

أومأت وهي تبتسم وقالت: «آه.. إن الأمر يبدو لي غريباً أيضاً.. أنا لم ألتق بأحدٍ يحمل اسمي في حياتي كلها».

«ولا أنا» أدرت محرك السيارة وتابعت: «أخبريني عن أولادك».

حكت لي عنهم وأنا أخرج بالسيارة من الموقف واستعملتْ أسمائهم وكأنني كنت أعرفهم طوال عمري، كما لو أنني كبرت جنباً إلى جنب مع أولادها.. وكأننا قمنا بنزهات سوياً ورحلات التخييم والعطلات الصيفية إلى المنتجعات الساحلية سوياً.. كما لو أننا صنعنا عقوداً من الأصداف مع بعضنا ودفنا بعضنا بعضاً تحت رمال شاطئ البحر.

أتمنى فعلاً لو سنحت لنا الفرصة لذلك.

قالت أن ابن عمتك آلان وزوجته قد رزقا مؤخراً بطفلة، وهي طفلهما الخامس، وانتقلوا أخيراً من شقة مدريد المقيتة تلك إلى البيت الذي اشتراه آلان في فالنسيا. أما ابنتها البكر إيزابيل التي تؤلف الموسيقى للتلفزيون، فقد كلفت لأول مرة الآن بتأليف موسيقى لفيلم سينمائي. ويشغل زوجها آلبرت منصب كبير طهاة في مطعم بارز في باريس.

«أنتم تمتلكون مطعماً.. أليس كذلك؟ أعتقد أنك أخبرتني بهذا في رسالتك».

«نعم.. أسسه والداي. حلم والدي دوماً بامتلاك مطعم.. كنت أساعدهم في العمل به لكنني اضطررت لبيعه منذ عدة سنوات بعد وفاة أمي وشلل والدي».

«آه، أنا آسفة».

«لا عليك.. أنا لم أخلق للعمل في المطعم».

«لا أعتقد ذلك أيضاً.. أنت فنانة».

أخبرتها في أول محادثة هاتفية لنا أنني أحلم بالانتساب لكلية

الفنون عندما سألتني عن نفسي وما أهواه وأفعله.

«أنا أعمل الآن كمحررة نصوص». استمعت إلي باهتمام وأنا اشرح لها عن طبيعة عملي، وكيف أني أعمل على كتابة النصوص لصالح شركة كبيرة «أنا أكتب لهم نصوص الطلبات والأدلة والإيصالات وقوائم الزبائن وقوائم البريد الالكتروني وهذا النوع من الأشياء. كل ما يحتاجه الأمر هو معرفة آلية الطباعة، كما أن الراتب محترم».

«أفهم..» فكرت قليلاً ثم قالت: «هل تحبين ما تقومين به، هل تستمتعين بالقيام بعملك هذا؟».

عبرنا وسط مدينة ريدوود في طريقنا إلى الجنوب، فاقتربت من مقعدها وأشرت إلى مبنى ظاهر من نافذتها وقلت «هل ترين ذاك المبنى؟ المبنى الطويل ذا اللافتة الزرقاء الكبيرة؟».

«نعم».

«لقد ولدتُ هنا».

«آه.. bon .. أنت محظوظة».

«لماذا؟».

«لأنك تعرفين مكان ولادتك».

«أعتقد أنني لم أفكر بالأمر من قبل».

«بالطبع لم تفعلي. لكنه أمر مهم.. أن يعرف المرء جذوره، أن يعرف من أين بدأ حياته كإنسان، إذا لم يعرف المرء تلك الأشياء فستبدو له حياته غير واقعية، مثل لغز.. Vous comprenez؟ كأنك تغيبت عن بداية قصة ما ووجدت نفسك فجأة في منتصفها، ستجدين صعوبة في فهمها».

ساد الصمت لفترة من الوقت.

«هل أحبُّ عملي؟» قلت وحدي.. ثم تابعت «عدت للبيت في أحد الأيام ووجدت الماء مفتوحة في حوض المطبخ وزجاجاً مكسوراً على

الأرض وغاز الوقد مشتعل دون حاجة له. عندها عرفت أنني لا أستطيع تركه وحده بعد الآن. ولأنني لم أستطع دفع تكاليف مرافق شخصي له بحثت عن عمل أستطيع القيام به في المنزل. لم يكن هنالك مجال للتفكير بالقيام بأمر أحبه».

«ووضعتِ مدرسة الفنون على قائمة الانتظار».

«لا بد من ذلك».

خشيت أن تبادرني بالحديث عن حظ بابا الشديد في كوني ابنته، لكنها لم تقل شيئاً.. بل أومأت برأسها وراقبت شاخصات الطريق العام. كان الجميع ـ غالباً من الأفغان ـ يتحدثون عن حظ بابا بابنته وكم أنا بارّة بوالديّ.. جعلوا مني قديسة، تحدثوا عن الفتاة التي تخلت عن عيش الحياة بطولها وعرضها لتبقى في المنزل وتعتني بوالدها. لكنهم كانوا يذكرون أمي أولاً.. كانوا يتحدثون عنها بصوت خفيض وبنوع من الشفقة.. *أمضت الفتاة سنيناً وهي تمرض أمها، وكم سبب ذلك لها الفوضى في حياتها، والآن ها هي تعتني بالأب، كان لديها عريس أمريكي، وكان يمكنها أن تتزوجه لكنها ضحت بسببهم، بكل شيء. آه، يجب أن يكون لكل أب ابنة كهذه.* كانوا يمدحونني على حسّ الفكاهة الذي أستعمله للحديث عن هذه الأمور، وتعجبوا من شجاعتي ونبالة أخلاقي كما وكأنهم يتحدثون عن شخص تغلب على إعاقة جسدية ما.

لكنني لا أرى نفسي في قصتهم عني. على سبيل المثال.. كنت أرى بابا جالساً على طرف سريره في بعض الأيام في الصباح الباكر، أراه ينظر إلي بنفاذ صبر كي أنهض وألبسه جوربه الصوفي في قدميه الباردتين الجافتين، أسمعه وهو يهمس باسمي بوجه طفولي، يعبس ويبدو كقارض خائف مبتل، وأغضب منه عندما يرسم هذا التعبير على وجهه..أستاء منه، أستاء منه لأنه يحدد وجودي بمرضه، لأنه سبب تبخر أفضل سنين حياتي مني دون أن أشعر بها. كل ما كنت أريده في

بعض الأيام هو أن أتخلص منه ومن حاجاته ومتاعبه. أنا لست قديسة على الإطلاق.

انعطفت باتجاه الشارع الثالث عشر وبعد عدة أميال وصلنا إلى بيتنا في بيفركريك كورت.

نظرت باري من النافذة إلى بيتنا الذي يتألف من طابق واحد، إلى باب المرآب الذي لم يكتمل طلاؤه بعد، إلى النافذة الزيتونية وزوج الأسود الحجرية الرخيصة التي تقف على أهبة الاستعداد على جانبي الباب الأمامي، لم أستطع التخلص منهما لأن بابا يحبهما، مع أنني أشك في ملاحظته لغيابهما وهو بتلك الحالة. لقد عشنا في هذا المنزل منذ عام 1989، منذ أن كنت في السابعة من عمري، استأجرناه أولاً ثم اشتراه والدي عام 1993. ماتت أمي في هذا المنزل في صبح عيد الميلاد، حيث كنت قد مددتها على سرير مشفى في غرفة نوم الضيوف، حيث أمضت آخر ثلاثة أشهر من حياتها. طلبت مني أن أنقلها إلى تلك الغرفة من أجل إطلالة النافذة. وقالت أنها ترفع من معنوياتها. كانت تستلقي في السرير بقدميها الرماديتين المنتفختين، وتمضي أيامها في النظر من خلال النافذة إلى الباحة الأمامية وسورها الذي يغطيه القيقب الياباني الذي زرعته قبل سنين من مرضها، وإلى مسكبة الزهور النجمية والمر المفروش بالحصى الذي يشق المرج الأخضر إلى نصفين، والتلال البعيدة التي تبدو كلون الذهب عندما تشرق عليها شمس آخر النهار.

«أنا متوترة جداً».

«هذا مفهوم.. لقد مرّت ثمانية وخمسون عاماً».

نظرتْ إلى يديها المطويتان على حضنها وقالت: «لا أذكر عنه أي شيء تقريباً.. لا أذكر وجهه أو صوته.. إلا أني كنت أشعر بشيء مفقود من حياتي على الدوام..شيء ودود وطيب.. شيء.. لا أعرف ما أقول.. هذا كل شيء».

أومأت بالإيجاب. فكرت بأنني يجب أن أخبرها أنني أفهمها تماماً، قاربت على سؤالها إن كانت أحست بوجودي كما كنت أشعر بوجودها.

لعبتْ بطرف وشاحها وقالت: «هل تعتقدين بأنه سيذكرني؟».

«هل تريدين الحقيقة؟».

تفرست في وجهي «بالطبع، نعم».

«من الأفضل أن لا نخبره» فكرتُ بما نصحنا به الدكتور بشيري، طبيب عائلتي منذ مدة طويلة، قال أن بابا يحتاج لنظام غذائي ونظام حياتي ثابت، ولا تناسبه المفاجآت.

فتحت الباب وقلت «هل تمانعين البقاء في السيارة؟ سأطلب من صديقي المغادرة وبعدها يمكنك الدخول ولقاء بابا».

وضعت يدها على عينيها، لم أنتظر لأرى إن كانت ستبكي.

عندما كنت في الحادية عشرة، نظمت مدرستي رحلة ليلية لزيارة الحديقة المائية في خليج مونتيري لطلاب الصف السادس. لم يتوقف زملائي عن الحديث عن الرحلة طوال الأسبوع الذي يسبقها، أثناء اللعب وفي المكتبة، عن المرح الذي سيحظون به عندما ستغلق الحديقة أبوابها ليلاً وسيسمح لهم بالركض في أرجائها طوال الليل بمناماتهم بين الأحواض والأسماك.. بين تنانين البحر والحبار وأبو مطرقة والأسماك الأخرى. قالت المعلمة غيليسبي أن طاولات العشاء ستفرش حول أرجاء الحديقة ويمكن للتلاميذ الاختيار بين وجبات المعكرونة بالجبن أو اللحم المشوي، والاختيار بين الكعك بالشوكولا أو المثلجات للتحلية. سيتمكن التلاميذ من المبيت في أكياس النوم وسيستمعون للمعلمة وهي تحكي لهم قصة ما قبل النوم، وسينامون بين أحواض فرس البحر والسردين وقرش النمر المنزلقة بين أذرع عشب

البحر. وعندما وصل يوم الثلاثاء وصلت مشاركة التلاميذ إلى حد الهيستيريا. حتى مثيروا الشغب الاعتياديون كانوا يحاولون البقاء ضمن حدودهم كي لا يُحرموا من الذهاب إلى الرحلة.

بدا الأمر لي كمشاهدة فيلم جميل بعد كتم صوته. شعرت أني منفية خارج كل تلك البهجة، محرومة من الشعور الاحتفالي العام في الصف، كما كنت أشعر كل شهر كانون الأول من كل عام، عندما كان أصدقائي يعودون إلى منازلهم ليجدوا الأجراس المعلقة فوق المدافئ وأكوام الهدايا المكدسة تحت أشجار عيد الميلاد. أخبرت المعلمة بأنني لا أستطيع الذهاب، وعندما سألتني عن السبب أجبتها بأن موعد الرحلة سيقع خلال عيد خاص بالمسلمين. لست واثقة من أنها صدقتني.

في ليلة الرحلة، لازمت أبويّ لمشاهدة فيلم بوليسي سوياً على التلفاز. حاولت أن أركز على الفيلم وألا أفكر بالرحلة الميدانية لكن عقلي كان يصرّ على التفكير بزملائي وتخيلهم في تلك اللحظة بمناماتهم ومصابيح الجيب في يدهم وجباههم ملتصقة بزجاج الأحواض العملاقة. شعرت بغصة في صدري ورميت نفسي على الأريكة. استلقى بابا على الأريكة الأخرى وهو يقذف بحبات الفستق السوداني في فمه الواحدة تلو الأخرى. لاحظت أن أمي تراقبني بجدية وقد تغضن وجهها، عندما التقت عيوننا تغيرت ملامحها وابتسمتْ بتحفظ، فجاهدت نفسي لأجد ابتسامة أردّ بها عليها. حلمت تلك الليلة بأنني على الشاطئ، بأنني أقف في الماء وأنها تصل إلى خصري، وقد تلون الماء بظلال لا تحصى من الأزرق والأخضر والزفير الياقوتي الأزرق والفيروز. سبحتْ بين قدمي أسراب من السمك الصغير.. شعرت كما لو أن المحيط كان حوض أسماكي الخاص.. دغدغت الأسماك أصابع قدميّ واندفع الآلاف منها حولي بكل الألوان فوق رمال القاع البيضاء.

فاجأني أبي ذاك الأحد بإغلاق المطعم، وهو شيء لم يكن يفعله

أبداً، وقاد السيارة بنا إلى الحديقة المائية في مونتيري. كان يتحدث طوال الطريق بحماس عما سنشاهده هناك وتتطلع للوصول بنفاذ صبر لرؤية أسماك القرش على وجه الخصوص، وعما سنتناوله على الغداء. تذكرت أثناء حديثه المرات العديدة التي اصطحبني فيها لزيارة حديقة الحيوانات في منتزه كيلي والحدائق اليابانية، وكيف كنا نعطي الأسماك أسماءً، وكيف كنت أتعلق بذراعه وأفكر بأني لن أحتاج لشخص آخر غيره طوال العمر.

تجولت في الحديقة المائية بفرح شديد وأجبت على ما استطعت من أسئلة والدي حول الأسماك، لكن المكان كان صاخباً جداً ومزدحماً. لم يشبه أبداً الرحلة الليلة التي قام بها زملائي كما تخيلتها. صارعت كي أقنع نفسي بأنني كنت أقضي وقتاً ممتعاً. شعرت بألم في معدتي وغادرنا الحديقة بعد وصولنا بساعة من شدة الصخب والزحام. راقبني والدي طوال طريق العودة بعينين عابستين وكأنه كان يحاول قول شيء ما. شعرت بعينيه تتفحصاني وتظاهرت بالنوم.

في السنة التالية.. عندما وصلت في المدرسة الإعدادية، بدأت الفتيات في عمري بوضع مساحيق التجميل على عيونهن وشفاههن، والذهاب لحضور الحفلات الموسيقية والراقصة وإلى مواعيد غرامية جماعية. انتظم الزملاء في فرق كرة السلة والرياضات الأخرى وانضمت البنات إلى فرق المشجعات.. اقترحت علي الفتاة التي تجلس خلفي في أحد الأيام أن أنضم لفريق السباحة كما فعلت هي.. أن أجرب حظي. لم تفهم سبب رفض أبواي لارتدائي لباس السباحة علناً، لا أعني أنني كنت أريد الانضمام لفريق السباحة.. فقد كنت أعي وضع جسدي تماماً. كنت نحيلة من الأعلى وسمينة جداً عند الوركين.. بشكل شاذ وغير متناسق. وكأن الجاذبية سحبت كل وزني للأسفل. بدوت كإحدى تلك الألعاب المضحكة التي يُركّب بها الأطفال أقسام الجسم بشكل

عشوائي. قالت أمي أنني أمتلك عظاماً قوية وأن أمها كانت تبدو هكذا. لكنها توقفت بعد فترة من التعليق على الأمر لأنها فهمت على ما يبدو أن العظام القوية ليست شيئاً تفخر به الفتاة هنا.

حاولت إقناع بابا بالسماح لي للانضمام لفريق الكرة الطائرة، لكنه أخذني بين ذراعيه وأحاط رأسي بكفيه وسألني.. من سيصطحبني للتمارين، من سيقود السيارة ليأخذني للمباريات؟ أتمنى يا باري لو مترفين مثل آباء أصدقائك، لكننا نحتاج للعمل كي نعيش.. أمك وأنا. هل تفهمينني يا حبّي؟ أنا متأكد من أنك تفهمينني.

على الرغم من الحاجة الماسّة للعمل، وجد بابا الوقت ليقود السيارة بي إلى دروس اللغة الفارسية في كامبل كل عصر ثلاثاء، كنت أجلس في صف اللغة الفارسية بعد المدرسة الصباحية المعتادة، أحاول السباحة عكس التيار وتطويع القلم في يدي للكتابة بشكل معكوس، من اليمين لليسار. توسلت إليه لعدم الذهاب لكنه رفض. قال أنني سأقدر الهدية الكبيرة التي يمنحني إياها في تعلم الفارسية عندما أكبر. أذكر تشبيهه الحضارة بالمنزل واللغة بمفتاح بابه الأمامي المؤدي إلى كل الغرف الداخلية. وبدونها، سينتهي بكِ الأمر مشردة بلا بيت يأويكِ، بلا هوية.

كما كنت أذهب أيام الآحاد إلى المسجد في هايورد لحضور دروس القرآن، مرتدية حجاباً أبيضاً على رأسي. كانت غرفة الدراسة ـ التي أدرس فيها مع عشر بنات أخريات ـ صغيرة الحجم، دون تكييف، وتفوح منها رائحة قماش اللينين الوسخ، نوافذها ضيقة وعالية كما تبدو نوافذ زنازين السجون في الأفلام. كانت معلمتنا زوجة بقال من فريمونت، أكثر ما كنت أحبه فيها هو روايتها للقصص عن حياة النبي محمد ـ وهي قصص أثارت اهتمامي لأنه عاش طفولته في الصحراء ـ وعن كيفية ظهور الملاك جبريل له في كهف وأمره له بقراءة الآيات، وعن النور واللطف

الذين كانا يشعان من وجهه كما كان يعتقد كل من رآه. لكنها قضت معظم الوقت في تعداد أمور كثيرة ينبغي علينا كفتيات مسلمات مستقيمات أن نتفاداها مهما كلفنا الأمر خشية أن تفسدنا الثقافة الغربية. أكثر ما كان علينا أن نحذره هو الصبيان، ومن ثم موسيقى الراب، مادونا، التنانير والبناطيل القصيرة، الرقص، السباحة علناً، الكحول، لحم الخنزير، الببروني، شطائر اللحم لأن لحمها ليس حلالاً، والعديد من الأشياء الأخرى. كنت أجلس على الأرض وأنا أتعرق من شدة الحر، وقدماي غائبتان عن جسدي، أتمنى لو كنت أستطيع نزع الحجاب عن رأسي، لكنني لا أستطيع خلعه في المسجد. كنت أنظر للنوافذ باستجداء، لكنها لم تكن تسمح سوى برؤية قطع صغيرة من السماء.. تُقتُ إلى لحظة مغادرة المسجد، إلى اللحظة التي سأتنشق فيها الهواء النظيف وأدعه يدغدغ وجهي، شعرت دوماً عند مغادرتي بانفكاك عقدة كانت تخنق صدري في الداخل، شعرت بالحرية.

ولكن، إلى أن يحين وقت الرحيل، كان الهروب إلى أعماق أفكاري ملجأي الوحيد. فكرت بزميلي في صف الرياضيات جيرمي واورويك بين الحين والآخر، بعينيه الزرقاوين وبياض وجهه. كان صبياً محافظاً وكئيباً، وعازف غيتار مع فرقة تتدرب في مرآب أحد الأصدقاء، وقد عزف في الحفل مواهب المدرسة السنوي. كنت أجلس خلفه بأربعة مقاعد في الصف. تخيلت أحياناً أننا نقبل بعضنا، ويده تطوق عنقي ووجهه قريب من وجهي لدرجة حجبه العالم بأكمله عن نظري. كانت العاطفة تجتاحني وتنتشر في جسدي بنعومة ريشة تدغدغ بطني وأطرافي. بالطبع كانت خيالاتي مستحيلة الحدوث. لا يمكن لحبنا أن يصبح حقيقة. لأنه لم يلحظ وجودي على وجه الأرض أصلاً. وهكذا، كنت أقنع نفسي وأتظاهر أن سبب عدم وقوع علاقة بيننا هو أنني لم أكن أعجبه.

عملت في الصيف في مطعم والديّ، كنت أحب تنظيف الطاولات وأنا

أصغر سناً، أحب المساعدة في ترتيب الصحون عليها والملاعق والكؤوس، وأن أطوي المناديل وأضع وردة حمراء في كل زهرية على الطاولات. تظاهرت بأن لا غنى عني فيما يخص عمل الأسرة، وأن المطعم سينهار دوني، دون اهتمامي بوضع الملح والفلفل على كل طاولة.

وفي الوقت الذي أصبحتُ فيه في المدرسة الثانوية، تحولت أيامي في المطعم إلى أيام طويلة مملة وحارة، تلاشى كل اللمعان الذي كنت أراه داخل المطعم في طفولتي.. لم أعد أهتم بآلة الصودا أو بأغطية الفينيل على الطاولات، امتلأت الأكواب البلاستيكية بالبقع وبدأت أعتقد بأن أسماء الوجبات على قائمة طعامنا بالية وقديمة، مثل أرز خيبر، ودجاج طريق الحرير، وكباب القافلة، بالإضافة للصورة الملصقة على الحائط والتي انتزعناها من مجلة الجغرافية الوطنية والتي تُظهر فتاة أفغانية مسرورة وكأن شيئاً لم يكن، وهي الصورة المعلقة في كل المطاعم الأفغانية. بجانب مكتبه.. علق بابا لوحة زيتية رسمتها عندما كنت في الصف السابع، وتبدو فيها مآذن الجوامع في مدينة هيرات. أذكر الفخر والاعتزاز اللذين شعرت بهما عندما علقها على الجدار، وبدأ الزبائن يجلسون لتناول الكباب تحت عملي الفني الأول.

بينما كنت وأمي نسرع جيئة وذهاباً في ساعة الغداء بين المطبخ المدخن بالتوابل والناضد المكتظة بالموظفين والمستخدمين ورجال الشرطة، كان بابا يجلس إلى طاولة الحساب، بقميصه الأبيض المبقع بالدهون، وشعر صدره الرمادي البادي من الزر المفتوح في الأعلى، وسواعده السميكة المشعرة أيضاً، ومع ذلك، كان يشعّ بالبهجة، يلوح بمرح لكل زبون يدخل المكان.. *مرحباً يا سيدي، مرحباً يا سيدتي، أهلاً بكم في مطعم كباب آبي.. أنا آبي. بماذا تأمرون؟* كنت أشعر بالذل من طريقة حديثه، لأنه يبدو كممثل مغفل في أحد المسلسلات الهزلية السيئة. ثم كان يقرع الجرس النحاسي القديم المعلق على الجدار خلف

طاولة الحساب التي يجلس خلفها مع كل وجبة كنت أقدمها، والذي كان يبدو كنوع من المزاح، وهو يقول للجميع أنها تحية قلبية لكل طاولة. اعتاد الزبائن المداومون على صوته، بينما سحر صوت الجرس البدائي الزبائن الجدد، مع أننا كنا نتلقى بعض الشكاوى بين الحين والآخر.

أنتِ لا تريدينني أن أقرع الجرس بعد الآن. قال بابا في أحد الأمسيات ونحن نجلس في السيارة بعد إغلاق المطعم بانتظار أمي التي نسيت حبوب مضاد الحموضة في الداخل وعادت لتحضرها. كنت في سنة التخرج من المدرسة الثانوية. كان متجهماً طوال النهار. انهمر رذاذ خفيف أمامنا وكان الوقت متأخراً والشارع فارغاً ما عدا سيارتين متوقفتين أمام مطعم دجاج كنتاكي المقابل.

كان الأمر مسلياً أكثر عندما لم يكن يفترض بي القيام به.. كما هو حال كل شيء آخر في الحياة. تنهد بعمق.

تذكرت كم كنت أرى الأمر مثيراً عندما كنت صغيرة وكان يرفعني للأعلى لأدق الجرس، وكيف كان وجهي يتألق بفرح وفخر عندما كان ينزلني أرضاً. أدار بابا مفتاح التدفئة في السيارة وشبك ذراعيه أمام صدره.

«الطريق طويلة إلى بالتيمور».

«تستطيع المجيء بالطيارة في أي وقت تريده لزيارتي».

«المجيء بالطيارة في أي وقت!!» كرر كلامي بسخرية، ثم قال «أنا أدير مطعم كباب لأعيش يا باري».

«إذا سأقوم أنا بزيارتكم».

نظر باتجاهي بيأس غريق، وبانت كآبته كالظلمة المحيطة بنا، التي تحاول الانقضاض على حياتنا من نوافذ السيارة.

دققت في صندوق البريد لمدة شهر وقلبي يتنفس أملاً كلما وصلت شاحنة تسليم البريد إلى باب بيتنا. كنت أندفع إلى الخارج وأحضر

البريد وأغلق عيوني لأصلي بأمل لأن أجد الرسالة المنتظرة... أفتح عيوني بعدها وأبحث بين الفواتير والكوبونات ونتائج سباقات الخيل.. ثم وصلت الرسالة يوم الثلاثاء الماضي قائلة: يسرنا أن نعلمك..

قفزت في الهواء وصرخت بأعلى صوت استطعته ودمعت عيناي.. وتخيلت بشكل آني تقريباً ليلة افتتاح معرضي الأول وأنا أرتدي فستاناً بسيطاً أسوداً ورائعاً في نفس الوقت، مطوقة بالرعاة والممولين والنقاد المسرورين، وأنا أجيب على أسئلتهم، وعناقيد المعجبين المتحلقين حول المبنى، والندل والخدم ذوي القفازات البيضاء الذين يحملون كؤوس النبيذ ولقيمات محشوة بالسلمون المدخن والشبت، وأعواد الهليون الملفوفة بالمعجنات المنتفخة. عشت انفجاراً للغبطة في عقلي وروحي، ذاك النوع من السعادة الذي يدفعك لعناق أي شخص غريب تجده أمامك والرقص معه.

«أنا قلق على أمك».

«سأتصل بكما كل ليلة، أعدك، تعرف أني لن أخلف وعدي».

أومأ بابا برأسه. مالت أوراق أشجار القيقب فجأة لشدة الريح المفاجئة التي هبت عليها.

«هل فكرتِ مرة أخرى بالموضوع الذي تحدثنا عنه؟».

«أتعني الجامعة المختصرة؟».

«مدتها عام واحد أو عامين.. لنسمح لها بالتعود على الفكرة، ثم تستطيعين التقدم بطلب الانتساب لكلية الفنون مرة أخرى».

ارتجفت بهزة مفاجئة من الغضب.. «بابا..لقد قرأ هؤلاء الناس نتائج اختباراتي وراجعوا المعلومات الواردة في ملفي وفكروا ملياً برسوماتي ووجدوا أني لا أستحق القبول في الجامعة فقط، بل منحة دراسية مجانية أيضاً.. هذه إحدى أفضل المؤسسات الفنية في البلاد.. لا نمتلك خيار رفضها على الإطلاق. لن أحصل على فرصة ثانية مماثلة لهذه أبداً».

«هذا صحيح». عدّل جلسته في مقعده ورفع كفيه إلى وجهه ونفخ ليبعث فيهما الدفء، «أنا أفهم بالطبع، وسعيد لأجلك». استطعت أن أرى الكفاح على وجهه، رأيت خوفه، ليس خوفه عليّ ومما قد يحصل لي على بعد ثلاثة آلاف ميل من المنزل، بل الخوف مني، من خسارتي. من جبروت غيابي والحزن الذي سأسببه، من قسوة رحيلي على قلبه إذا ما اخترت الرحيل.

وجدت نفسي أفكر بأخته. كان ارتباطي بها قد تضاءل مع الوقت، ونادراً ما كنت أفكر بها. لقد كبرت على قصتها مع السنين كما كبرت على الدمى المحشوة والنامات الوردية المفضلة التي كنت متعلقة بها. لكنني أفكر بها مجدداً وبالروابط التي تجمعنا، إذا كان ما حصل لها قد ضرب والدي كموجة تسونامي رفعته بعيداً جداً عن الشاطئ، فإن ما يجري الآن بيني وبينه هو انحسار تلك الموجة وجرفها لحياتي معها إلى الهاوية.

تنحنح بابا ونظر من النافذة باتجاه الفراغ المظلم والسماء الملبدة بالغيوم والتي تغطي القمر دون رحمة، والتمعت الدموع في عينيه وغزتها العواطف الجياشة بشدة.

«كل شيء سيذكرني بك».

أصابتني كلماته في الصميم.. في الخاصرة، لأنني عرفت من صوته أنه كان جريحاً، لأنني عرفت أن حبه لي كان كبيراً، واسعاً وأبدياً كالسماء. وأنه سيبقى حامياً لي للأبد كما تحمي السماوات الأرض..حبه لي كان من ذاك النوع، الذي يقيدك عاجلاً أم آجلاً ويدفعك للاختيار بين أمرين أحلاهما مر: إما أن تمزقي عائلتنا وترحلي، أو أن تبقي وتتحملي صرامته وتتقلصي إلى شيء أدنى منك حجماً، أصغر من ذاتك وروحك.

اقتربت إليه من مؤخرة المقعد الخلفي ولمست وجهه، أراح رأسه على كفي.

«ما الذي يؤخرها كل ذلك الوقت في الداخل؟».

«إنها تقفل المحل». قلت وأنا اشعر بالإجهاد.. شاهدتها وهي تسرع باتجاه السيارة تحت المطر المنهمر بقسوة.

بعد شهر، وقبل أسبوعين من رحيلي إلى الجامعة، رافقت أمي لزيارة الدكتور بشيري، لأن حبوب مضاد الحموضة لم تعد تفيدها بأي شيء. أرسلنا إلى قسم التصوير الشعاعي. وهناك، وجدوا في الصورة ورماً بحجم حبة الجوز في أحد مبيضيها.



«بابا».

كان يجلس ساكناً على الأريكة مرتدياً بنطال رياضة وقد غطى ساقيه بشال صوفي، ومن الأعلى، كان يرتدي بلوزة ذات أزرار كنت قد ابتعتها له العام الماضي، وقد أقفل كل أزرارها حتى أعلى الرقبة.. هكذا كان يفعل بكل بلوزاته وقمصانه الآن، مما يجعله يبدو كتلميذ صغير ضعيف، كطفل مهيض الجناح أصابه مرض الشيخوخة. يبدو وجهه متورماً قليلاً اليوم وقد نزلت بعض من خصل شعره الأشيب على جبينه وغطت حاجبيه. وقد جلس ليشاهد برنامج (من سيربح المليون) بتعبير متجهم على وجهه. بقي نظره حائراً ثابتاً على الشاشة بعد أن ناديت اسمه وكأنه لم يسمعني.. ثم استدار بعينيه ونظر باتجاهي. لاحظت أنه يحتاج لحلاقة ذقنه.

«بابا، هل أستطيع إخفاء صوت التلفاز قليلاً؟».

«أنا أشاهد البرنامج».

«أعرف.. لكن لديك زائر هنا».

كنت قد أخبرته عن زيارة باري وحداتي المرتقبة لنا في الصباح وفي اليوم الفائت، لكنني لا أسأله إن كان يذكر حديثي عنها، فقد تعلمت أنه لا يحب أن يظهر بمظهر الرجل المسن الخرف، فهذا سيحرجه

وسيضعه في موقع الدفاع، مما يسيء لوضعه الصحي. تناولت جهاز التحكم وأخفيت الصوت وأنا أهيئ نفسي لنوبة غضب مرتقبة منه. في المرة الأولى التي انفجر غضبه فيها أمامي كنت مقتنعة بأنه يمثل، بأنه يؤدي دور المريض التائه بين ذكرياته وأوهامه. لكنه لم يعترض لحسن حظي في تلك الآونة وأطلق زفرة طويلة من أنفه.

أشرت لباري التي كانت ما تزال في الردهة لكي تدخل. خطت نحونا ببطء وسحبتها من يدها إلى جانب أريكة بابا. جلست منتصبة في الكرسي، شاحبة، ثبتت يديها على ركبتيها وانحنت للأمام باتجاه بابا، ابتسمت قليلاً بشفتيها المبيضتين من الخوف والتصقت عينيها ببابا كما لو أن كل ما ستحظى به معه هي مجرد لحظات، ومن ثم سيسرق منها من جديد، ولهذا تحاول حفظ معالم وجهه.

«بابا، هذه هي الصديقة التي أخبرتك عنها».

نظر إلى المرأة الشائبة التي تجلس أمامه بطريقته الجديدة اللامبالية هذه الأيام، حتى عندما يحدق في الناس مباشرة... فإنه يبدو غائباً، منعزلاً، وكأنه يحاول النظر باتجاه آخر وقد وقعت عيناه على الشخص الجالس أمامه بالصدفة.

صدر صوت من حنجرة باري، وارتجفت كلماتها: «مرحباً عبدالله، اسمي باري.. أنا سعيدة جداً بلقياك».

أومأ بهدوء، واستطعت ملاحظة الحيرة التي خيمت على وجهه وغضنت عضلاته، تحركت مقلتاه بيني وبين باري، فتح فمه قليلاً وابتسم نصف ابتسامة، وارتسم على وجهه ذاك التعبير الذي يظهر عندما يعتقد أن أحداً يداعبه ويمزح معه.

«أنت تتحدثين بلكنة غريبة»! قال بعد فترة من الصمت.

«إنها تعيش في فرنسا، وعليك يا بابا أن تتكلم بالانكليزية لأنها لا تفهم الفارسية».

أومأ ثم قال: «إذا أنت تعيشين في لندن؟». قال لباري.

«بابا».

«ماذا؟» التفت باتجاهي بحدّة، ثم فهم قصدي وضحك بإحراج واضح وتوقف عن الحديث بالفارسية. «هل تعيشين في لندن؟».

«في باريس، في الواقع. أنا أعيش في شقة صغيرة في باريس» قالت دون أن ترفع بصرها عنه.

«دائماً ما خططت للسفر مع زوجتي إلى باريس، كان اسمها سلطانة، رحمها الله. كانت تقول لي دوماً: خذني إلى باريس يا عبدالله، متى ستأخذني إلى باريس؟».

في الحقيقة، لم تكن ماما تحب السفر. لم تفهم لم يتوجب عليها التخلي عن الراحة والألفة المتوفرة في بيتها ومواجهة محنة الطيران وجر الحقائب. لم تمتلك حس المغامرة، وكانت فكرتها حول تذوق المطابخ الغريبة العالمية تتلخص في تجربة الدجاج بالبرتقال المتوفر في المطعم الصيني المجاور لنا. كنت أتعجب من قدرة بابا الغريبة على تذكر تفاصيل شخصيتها الدقيقة، مثل الطريقة التي كانت تملح بها الطعام برمي الملح من كف يدها، أو بمقاطعتها للناس وهم يتكلمون على الهاتف بينما لا تقوم أبداً بذلك وجهاً لوجه. وكيف أنه في أوقات أخرى يتخيل أموراً خاطئة جداً عنها. أعتقد أن أمي بدأت تضيع منه، بدأ وجهها بالتلاشي من ذاكرته والتحول لمجرد ظلال، تتضائل ذكراها مع مرور كل يوم كما تتسرب الرمال من قبضة اليد. لقد تحولت أمي في عقله لمجرد بقايا شبح، كصدفة خالية جوفاء، لدرجة أنه يشعر بالحاجة لملأ الفراغات التي حفرها النسيان بالتفاصيل المزيفة والميزات الشخصية المصطنعة، كما لو أن الذكريات الخاطئة أفضل من عدم وجود أي منها في الذاكرة.

«إنها مدينة رائعة». قالت باري.

«سآخذها يوماً ما، إنها مصابة بالسرطان حالياً، ذاك النوع الذي يصيب النساء.. ما اسمه؟».

«سرطان المبيض».

أومأت باري برأسها ونقلت أنظارها بيني وبين بابا.

«أكثر ما تحلم به هو تسلق برج إيفل.. هل شاهدته؟» سألها بابا.

«برج إيفل؟» ضحكت باري وحداتي بصوت عالٍ «آه .. نعم.. أراه كل يوم. لا يمكنني تفاديه في الحقيقة».

«هل تسلقته؟ هل وصلت لقمته؟».

«نعم.. لقد قمت بهذا. لكنني أخاف من المرتفعات لهذا لا أشعر بالراحة في أعلاه، لكنك تستطيع رؤية مسافة تصل إلى ستين كيلومتراً إذا كان الجو صحواً ومشمساً، وهذا أمر نادر في باريس».

همهم بابا.. استمرت باري بالحديث عن البرج بعد أن شجعها اهتمام بابا بالموضوع، حكت له عن السنوات التي احتاجوها لبنائه، وكيف أنه لم يكن يفترض به البقاء في باريس بعد المعرض العالمي عام 1889، لكنها لا تستطيع قراءة عيني بابا كما أستطيع أنا. بات وجهه خالياً من التعابير، لم تدرك بأنها فقدته، بأن أفكاره غيرت اتجاهها كما أوراق الأشجار التي تحملها الرياح بكل الاتجاهات.

«هل تعرف يا عبدالله أنهم يحتاجون لطلاء البرج بأكمله كل سبع سنين؟».

«ذكريني باسمك مرة أخرى من فضلك» قال بابا.

«باري».

«نفس اسم ابنتي».

«نعم.. أنا أعرف هذا».

«لديك نفس الاسم.. أنتما الاثنتين تحملان نفس الاسم». سعل بابا وتحسس بيده قماش الأريكة الجلدي.

«هل أستطيع أن أسالك شيئاً يا عبدالله؟».

هز بابا كتفيه. نظرت باري إليّ وكأنها تنتظر الإذن مني كي تتحدث. أعطيتها الموافقة بإيماءة من رأسي. فاتكأت نحو الأمام على كرسيها وقالت: «كيف اخترت اسم ابنتك؟».

حول بابا بصره إلى النافذة وبدأ يتحسس الأريكة بيده.

«هل تذكر يا عبدالله سبب اختيارك لهذا الاسم؟».

نفى برأسه. امتدت يده الأخرى إلى أزرار ياقة بلوزته وحاول إغلاقها مع أنها كانت مغلقة أصلاً. تحركت شفتيه بهمهمة خافتة غير مفهومة، وهو الشيء الذي يلجأ إليه كلما شعر بالقلق والارتباك لعدم قدرته على إجابة الأسئلة، عندما يطغى الغموض فوق كل شيء يعرفه وتصرعه أفكار مشتتة غير مترابطة، وينتظر إلى أن يصفو ذهنه من جديد.

«عبد الله.. ما هذا الذي تغنيه؟» قالت باري.

«لا شيء». تمتم بابا.

«لا، أنت تغني أغنية.. ما هي؟».

استدار والدي نحوي وهو يستنجد بي بعينيه، إنه لا يعرف الجواب.

«إنها تهويدة للنوم، هل تذكر يا بابا؟ قلت أنك حفظتها عندما كنت صغيراً.. من أمك».

«حسناً».

«هل تستطيع غنائها لي مرة أخرى؟ أرجوك يا عبدالله». قالت باري بلهفة شديدة.

أخفض رأسه وهزه ببطء

«هيا يا بابا». قلت، بحنان شديد، وضعت يدي فوق كتفه «لا بأس عليك».

غنى بابا البيتين اللذين ما زال يذكرهما بصوت عال مرتجف ومتردد، ودون أن يرفع عيونه عن الأرض..

وجدت جنية صغيرة حزينة

تحت ظل ورقة شجرة

«اعتاد أن يقول بيتين آخرين، لكنه نسيهما الآن». قلت لباري.

ضحكت باري بصوت عال مفاجئ بدا لي كنواح عميق صادر عن أعمق أعماقها، وغطت فمها بيديها وتابعت:

اعرف جنية صغيرة حزينة

اطاحت بها الريح في احد الليالي

رفع بابا رأسه بدهشة غامرة وفي مدة لا تزيد عن اللحظة، رأيت وميضاً من النور في عينيه، ومن ثم انطفأ النور مرة أخرى. وعاد وجهه للهدوء مرة أخرى. هز رأسه نافياً وقال: «لا .. لا.. لا أعتقد أنها نفس الأغنية».

«آه يا عبدالله». قالت باري.. أترعت مقلتيها بالدموع وابتسمت ومدت يدها لتمسك بيده وأخذتها إلى صدرها. قبلت ظاهر كفيه ووضعت كفه الأيمن على خدها. ابتسم أبي ابتسامة عريضة جداً وتجمعت الدموع في عينيه أيضاً، نظرت باري نحوي غير مصدقة ودموع الفرح تسيل على خديها. عرفتُ أنها ظنت أنها اخترقت أفكاره وذاكرته، أنها استدعت أخاها المفقود بهذه الأنشودة المسحورة كما تفعل الجنية في قصة خرافية. إنها تعتقد أنه تعرّف عليها، لكنها ستفهم بعد قليل أن كل ما تراه منه الآن مجرد رد فعل، استجابة للمساتها الدافئة وعاطفتها الحنونة، مجرد استجابة غريزية، لا أكثر. هذا ما أعرفه وأراه بوضوح جارح إلى حد الألم.

اصطحبت أمي في رحلة إلى جبال سانتا كروز، ونزلنا هناك في فندق لمدة يومين قبل أن يعطيني الدكتور بشيري رقم هاتف دار عجزة قريب منا بعدة أشهر. لم تكن أمي تحب السفرات الطويلة، لكننا

كنا نقوم برحلات قصيرة بين الحين والآخر، أنا وهي، وحدنا قبل إصابتها بالمرض. كنا نترك بابا ليدير شؤون المطعم وحده، وأقود السيارة إلى خليج بوديجا أو سوساليتو أو سان فرانسيسكو، حيث نرتاد الفنادق ونبقى قريبين من اليونيون سكوير هناك. كنا نطلب خدمة الغرف ونتناول طعامنا المفضل ونشاهد أفلاماً سينمائية في السرير. ثم كنا ننزل إلى المرفأ، وهناك.. كانت أمي تتفوق على كل السياح الآخرين.. كانت تشتري كل شيء..الجيلاتو على الخصوص، وترمي العملات المعدنية لعازفي الغيتار في الشوارع وممثلي الإيماء في الساحات ومقلدي الرجال الآليين. كانت تحب مشاهدة أسود البحر وهي تقفز وتغوص في الماء بجانب رصيف الميناء. ودائماً ما كنا نزور متحف الفن الحديث، حيث كنت أريها أعمال ريفيرا، كالو، ماتيس، بولوك، وآخرين، وأنا أضع ذراعي حول كتفيها. ثم كنا نحضر حفلات العصر التي كانت أمي تعشقها، ونعود لمشاهدة فيلمين أو ثلاثة ونخرج في الظلام وعينانا مرهقتين من شاشة السينما والطنين يهز آذاننا ورائحة الذرة الصفراء تفوح من أصابعنا لكثرة ما التهمناه.

كانت الأمور أسهل بكثير مع أمي، أقل تعقيداً.. أقل خطراً. برفقتها لم أكن مضطرة للبقاء متيقظة طوال الوقت، لم أكن أحتاج لمراقبة ما أقوله طوال الوقت خوفاً من فتح جرح ما. كانت مرافقتها في مثل هذه العطل الصغيرة، وليومين فقط، أشبه بالنوم عالياً بين الغيوم الناعمة..حيث يسقط كل ما كان يؤلمني آلاف الأميال نحو الأسفل.. بعيداً عني.

كنا نحتفل بنهاية دورة أخرى من علاجها الكيماوي، والتي اتضح أنها الأخيرة. ونزلنا في فندق منعزل وجميل. وجدنا فيه منتجعاً ومركز لياقة بدنية وغرفة ألعاب تحتوي على شاشة مهولة الحجم وطاولة بلياردو. أما في غرفتنا، التي كانت عبارة عن مقصورة خاصة، فقد وجدنا شرفة خشبية يبدو منها حوض السباحة والمطعم وبساتين ريدوود

التي تغطي الجبال وصولاً حتى الغيوم. بعض الأشجار كانت قريبة من شرفتنا لدرجة أننا كنا نميز لون الظلال على فراء سنجاب واقف على غصن قريب. أيقظتني أمي في الصباح الباكر من يومنا الأول هناك وقالت: «باري أسرعي.. يجب أن تري هذا»، وهناك.. خارج النافذة تماماً وجدت غزالاً يقضم من وريقات الشجيرة المجاورة.

دفعت كرسيها المدولب ومشينا بين شجيرات الحديقة المحيطة بنا، فقالت: «منظري غير جميل» توقفت بجانب نافورة صادحة بالمياه وجلست على مقعد خشبي مجاور لها.. أدفأت الشمس الصاعدة وجهينا.. راقبنا عصافير طنان الماء الأزرق وهي تندفع بين الزهور إلى أن أغفت أمي، فعدت بها إلى المقصورة.

تناولنا الشاي والمعجنات عصر يوم الأحد على شرفة المطعم، الذي كان سقفه يشبه أسقف الكاتدرائيات الخشبية، وامتلأت جدرانه برفوف الكتب، علقوا على أحدها صائد أحلام، وعلى آخر حجراً يحمل نقشاً يقول (نثق بالله). رأيت من الشرفة رجلاً وفتاة في مستوى أدنى منا يلعبان تنس الطاولة بملل واضح.

«يجب أن نحسن مظهر هذه الحواجب» قالت أمي. كانت ترتدي معطفاً شتوياً فوق بلوزة سميكة وقبعة صوفية خاطتها بنفسها قبل عام ونصف لتضعها على رأسها الخالي من الشعر.

«سوف أرسمها لك بقلم تخطيط خاص».

«أريدها فاتنة إذاً».

«فاتنة مثل حاجبيّ إليزابيث تايلور في فيلم كليوباترا؟».

«لم لا؟». أومأت بابتسامة ضعيفة. تناولت رشفة صغيرة من الشاي وابتسمت بكل عضلات وجهها والخطوط الجديدة التي بدأت تظهر عليه، بكل طاقتها.. وقالت: «عندما قابلت عبد الله، كنت أبيع الملابس على رصيف في بيشاور. قال أن حاجبيّ جميلان».

توقف الزوجان اللذان كانا يلعبان تنس الطاولة عن اللعب واتكآ على السور الخشبي، تقاسما سيجارة وتطلعا عالياً نحو السماء المضيئة الصافية.. لفتت عضلات وعظام الفتاة القوية نظري.

«قرأت في نشرة الفندق عن وجود معرض فني وحرفي في بلدة كابيتولا المجاورة.. ما رأيك؟ هل تحبين الذهاب؟».

«باري؟».

«نعم».

«أريد أن أخبرك بشيء».

«حسناً».

«عبدالله لديه أخ في باكستان، أخ غير شقيق».

التفت إليها بكامل جسدي بحدّة.

«اسمه إقبال، لديه أبناء، يعيشون في مخيم لاجئين قرب بيشاور».

وضعت كوبي على الطاولة وحاولت أن أتكلم لكنها قاطعتني.

«ها أنا أخبرك الآن، أليس كذلك؟ هذا هو المهم. أبوك عنده أسبابه، ومتأكدة من أنك تستطيعين تخمينها وحدك.. فكري بالأمر. المهم هو أن تعرفي بوجود أخيه، وأنه كان يرسل له المال ليساعده قدر الإمكان».

أخبرتني كيف أنه كان يرسل لعمي هذا ألف دولار كل ثلاثة أشهر، عبر تحويلات بنكية تصله إلى بيشاور.

«لماذا تخبرينني الآن؟».

«لأنني أعتقد أنك يجب أن تعرفي، حتى لو كان لا يريد إخبارك بالأمر. بالإضافة لأنك ستتولين أوراقنا المالية قريباً وستكتشفين الأمر في كل الأحول».

استدرت نحو الوادي أمامي وراقبت قطة تحوم حول طاولة التنس في الأسفل. لاعبتها الفتاة في البداية ثم هربت منها القطة عبر السور. دارت الأفكار في رأسي.. *لديّ عائلة خارج الولايات المتحدة.*

«سوف تهتمين بالمعاملات المالية لوقت طويل». فعلت ما بوسعي لإخفاء الارتجاف في صوتي. غرقنا في صمت عميق لفترة من الوقت ثم تكلمت أمي بصوت خفيض بطيء، كما كانت تتحدث معي قبل الذهاب لحضور الجنائز في المسجد، لتقنعني بالسكوت أثناء الصلوات وعدم التململ والتذمر.. وكيف يجدر بي الدخول للحمام قبل الذهاب للمسجد كي لا أضطر لفعل ذلك هناك.

«هذا غير صحيح.. لقد آن الأوان، يجب أن تكوني جاهزة».

زفرت الهواء المحتبس في صدري والذي كان يجرح حنجرتي بقسوة. سمعت صوت منشار كهربائي من مكان ما. وارتفع صوت أنينه العنيف عبر أرجاء الغابة الصامتة.. وتردد الصدى.

«أبوك كالأطفال. إنه يشعر بالفزع من فكرة الفقدان.. يخاف أن يُترك وحيداً. يخشى أن يفقد طريقه دونك يا باري».

نظرت إلى الأشجار المغمورة بنور الشمس.. إلى الأوراق التي تلمع تحت الضوء، وشعرت بشدة انطباق أسناني على بعضها.. تجمعت الدموع في عينيي وأحسست بطعم الدم في حلقي لأنني لم انتبه للساني العالق بين أسناني.

«أخ؟».

«نعم».

«عندي الكثير من الأسئلة».

«اطرحيها الليلة، عندما أرتاح. سأخبرك كل ما أعرفه».

أومأت. ابتلعت بقية الشاي، الذي برد. ولاحظت على الطاولة القريبة زوجين يجلسان ويتبادلان أوراق الصحيفة.. لاحظت أن المرأة ذات الشعر الأحمر تراقبنا بهدوء من فوق الصحيفة في يدها.. تنتقل عيونها بيني وبين أمي التي يبدو وجهها بلون الرماد، والقبعة الصوفية ويديها الملطختين بالكدمات وعينيها الغائرتين وتكشيرتها العظمية.

عندما تلاقت عيوننا ابتسمت المرأة بشكل بسيط وكأننا نعرف بعضنا منذ أمد بعيد، وكأننا تشاطرنا سراً لا يعرفه أحد آخر.

«ما رأيك يا أمي.. هل نذهب للمعرض؟».

نظرت أمي نحوي بثبات.. ولاحظت حجم عينيها الكبير نسبة لرأسها، ورأسها الكبير جداً نسبة لجسدها، بعد كل ما مرّت به.

«يمكنني شراء قبعة جديدة».

رميت المنديل على الطاولة ودفعت الكرسي إلى الوراء ومشيت باتجاهها ودفعت كرسيها بعيداً عن الطاولة.

«باري؟».

«نعم؟».

أمالت رأسها نحو الخلف ونظرت نحوي إلى الأعلى، فسقطت على وجهها أشعة الشمس من بين أغصان الأشجار.. وقالت: «هل تعرفين كم منحك الله من القوة؟ كم منحك من القوة والنبل؟».

لا يوجد تفسر واحد لكيفية عمل العقل.. بعد آلاف وآلاف اللحظات التي تقاسمتها مع أمي خلال كل السنين.. كانت هذه اللحظة هي أكثر الأوقات إشراقاً ولمعاناً في حياتنا.. أهم لحظة. والوحيدة التي تعيش في مخيلتي وتدب في عقلي روح الحياة النابضة... أمي تنظر إليّ نحو الأعلى ووجهها مقلوب رأساً على عقب، ونقاط نورانية تلتمع على صفحة وجهها وهي تسألني إن كنت أدرك القوة والنبل اللذين وهبهما لي الله.

بعد أن أغفى بابا على الأريكة، سحبت باري الشال لتغطي به بقية جسده بلطف، ومسّدت خصلة شعره الساقطة على وجهه ورفعتها خلف أذنه ووقفت أمامه تراقبه لفترة. أنا أحب مراقبة نومه أيضاً لأنه يبدو على ما يرام أثناء النوم. يتلاشى الفراغ والضياع، والنظرة

الباهتة الغائبة.. بعد أن يغلق عينيه. كما أنه يبدو أكثر ألفة ولطفاً، أشبه بنفسه القديمة، يبدو أكثر حضوراً وكأن شيئاً من ماضيه يتسرب لحاضره خلال النوم. تساءلت في نفسي إذا ما كانت باري تستطيع تخيل هذا وهي تنظر لوجهه المستريح على الوسادة، إن كانت تستطيع تخيل شخصيته القديمة وضحكته المعتادة، القديمة أيضاً.

ذهبنا سوية إلى المطبخ، تناولت إبريقاً من الخزانة وملأته بالماء.

«أريد أن أريك بعضاً من هذه» قالت باري بحماس واضح، وأخرجت ألبوم صور من حقيبتها.

«أخشى أن قهوتنا لن تضاهي المعايير الباريسية». قلت وأنا أملأ آلة تحضير القهوة.

«لا تكترثي للأمر، لا آبه لأمر القهوة كثيراً»، نزعت وشاحها الأصفر ووضعت نظارات القراءة على عينيها ونظرت إلى الصور.

جلست بجانبها أمام طاولة المطبخ بعد أن سكبتُ لنا القهوة.

«Ah oui. Voilà ها هو» ثم دفعت الألبوم باتجاهي وقالت: «ها هو المكان الذي ولدنا فيه أنا وأبوكِ، وأخونا إقبال أيضاً».

عندما اتصلتْ بي من باريس، ذكرتْ اسم إقبال لتقنعني بأنها من تدعي حقاً. لكني عرفت أنها صادقة، عرفت منذ اللحظة التي رفعت فيها سماعة الهاتف ولفظتْ اسم أبي وسألتْ إذا ما كان هذا هاتف منزله. ثم سألتها أنا عن هوية المتصل، فأجابتني فوراً: أنا أخته. خفق قلبي بشدة في تلك الآونة وتحسستُ المسافة الفاصلة بيني وبين أقرب كرسي.. وغرق كل شيء حولي في عتمة وصمت.. كانت صدمة.. نعم، شيء يحصل للناس في المسرحيات والأفلام السينمائية، والذي نادراً ما يحصل مع الناس العاديين في الحياة. ومن ناحية أخرى، وهذا ليس تبريراً، شعرت بشيء جوهري وأكثر هشاشة لدرجة أنه قد يكسر بمجرد التلفظ به.. لم أفاجأ باتصالها، وكأنني كنت أتوقعه طوال

عمري..عبر كل حياتي المرسومة بغرابة، قد تكون الظروف، أو القدر، سمّه ما شئت.. كنت متأكدة من أننا سنجد بعضنا بعضاً.. أنا وهي.

حملت الهاتف إلى الباحة الخلفية وجلست على كرسي قرب مسكبة الخضراوات حيث كنت أزرع بعض الفلفل، بجانب القرع الذي زرعته أمي. أدفأت الشمس رقبتي وأشعلت سيجارة بيد مرتجفة.

«أعرف من أنتِ.. لقد عرفتكِ طوال حياتي».

ساد صمت ثقيل لكنني شعرت أنها تبكي بصمت، أنها أبعدت رأسها بعيداً عن الهاتف لتبكي دون أن أسمعها.

تحدثنا قرابة الساعة، أخبرتها أنني أعرف قصتها، وأنني كنت أطلب من أبي أن يروي لي حكايتها كل ليلة قبل النوم. قالت باري أنها لم تكن تعرف القصة، وأنه من المحتمل أنها كانت ستموت دون أن تعرفها لولا الرسالة التي تركها أخ زوجة أبيها نبي.. قبل أن يموت في كابول. والتي حكى فيها عن أحداث طفولتها مع عدة أشياء أخرى. قالت أن الرسالة وضعت في عهدة شخص اسمه ماركوس فارفاريس، وهو جراح تجميلي يعمل في كابول، والذي فتش عنها ووجدها في باريس. حكت لي عن رحلتها إلى كابول في الصيف ولقاءها بماركوس الذي أخذها إلى شادباغ.

شعرت بأنها تستجمع نفسها قبل نهاية المحادثة الهاتفية تلك لتقول أخيراً: «حسناً.. أنا جاهزة.. هل أستطيع التحدث معه الآن؟».

وعندها اضطررت لإخبارها عن حالته.

سحبتُ الألبوم باتجاهي ودققت النظر في الصورة التي أشارت إليها باري. رأيت قصراً شامخاً وراء جدران لامعة بيضاء عالية، تعلوه أسلاك شائكة. وهو يبدو كفكرة مأساوية في خيال أحدهم عن القصور. ثلاثة طوابق وردية وخضراء وصفراء وبيضاء، تكلل جدرانه الأفاريز والأبراج والفسيفساء والزجاج العاكس كالمرايا، كناطحات السحاب.. نصبُ

غريبٌ لتكريس القهر والأحزان.

«يا إلهي..». تنفسّت بشدة.

«C'est affreux، non ؟ إنه فظيع.. الأفغان يدعونه قصراً، قصر المخدرات. إنه منزل أحد أكبر مجرمي الحرب».

«أهذا كل ما بقي من شادباغ؟».

«من القرية القديمة. نعم. هذا.. مع عدة هكتارات من بساتين الفاكهة».

مررت أصابعها فوق صورة القصر وقالت: «أتمنى لو كنت أعرف موقع بيتنا القديم، أعني.. مع وجود هذا القصر في هذا المكان.. سأكون سعيدة بمعرفة الموقع الدقيق له»

أخبرتني أن شادباغ الجديدة بلدة حقيقية، توجد بها المدارس والعيادات ومنطقة للتسوق وفندق صغير على بعد ميلين من موقع القرية القديمة. بحثتْ عن أخاها غير الشقيق في البلدة مع مترجمها وقد عرفت كل هذه التفاصيل من المكالمة الأولى الطويلة التي أجريناها على الهاتف. عرفت منها أن أحداً في البلدة لم يتعرف عليه إلى أن صادفت باري رجلاً عجوزاً عرفه، والذي أخبرها أنه رآه وعائلته أثناء إقامتهم في حقل قاحل بجانب الطاحونة القديمة. كان إقبال قد أخبره بأنه كان يتلقى المعونة المادية من أخيه الأكبر الذي يعيش في شمال كاليفورنيا. سألتها على الهاتف إن كانت قد سألت الرجل عن اسم الأخ الأكبر، وقد أعطاها الرجل الاسم الصحيح. ومن ثمّ، لم يكن البحث عنا صعباً كما قالت.

«سألت صديق إقبال عن مكانه الآن، سألته عما جرى له لكنه لا يعرف مكانه أو أي شيء آخر عنه. لكنه كان متوتراً عندما أجابني، كما أنه لم ينظر إليّ عندما نفى معرفته بمكان إقبال، وأعتقد يا باري أن شيئاً سيئاً قد حدث له».

قلبت الصفحات وأرتني صور أبناءها آلان وإيزابيل وتيري، لقطات أحفادها في حفلات أعياد ميلادهم، ولقطات أخرى لهم بملابس

السباحة على حافة بركة ماء، وشقتها في باريس، ذات الجدران الزرقاء الفاتحة كلون السماء والستائر البيضاء الناعمة على النوافذ. رفوف الكتب ومكتبها المزدحم بالأوراق في الجامعة حيث كانت تُدرّس الرياضيات قبل أن يجبرها الروماتيزم على التقاعد.

تابعت تقليب الصفحات، أرتني صورة صديقة حياتها كوليت وزوج إيزابيل آلبرت وزوجها المتوفى إريك، كاتب المسرحيات الذي توفي بنوبة قلبية عام 1997. توقفت عند صورة لهما، وهما يبدوان شابين جداً لدرجة الاستحالة، يجلسان جنباً إلى جنب على طنافس ومساند برتقالية في مكان يبدو كمطعم مغربي، وهي ترتدي بلوزة بيضاء، وهو ببلوزة قطنية وشعره طويل وهزيل ومربوط من الخلف.

«تلك كانت الليلة التي التقينا بها، كان موعداً مُعدّاً من قبل كوليت».

«وجهه لطيف وودود».

أومأت باري.. «نعم.. فكرت عندما تزوجنا بأننا سنقضي وقتاً طويلاً سوياً.. خمسة وثلاثين عاماً ربما، ثلاثين سنة على الأقل. ربما أربعين أو خمسين إذا كنا محظوظين كفاية.. لم لا؟» حدقت في الصورة وضاعت فيها لبعض الوقت، ثم ابتسمت قليلاً وقالت: «لكن الزمن.. كالسحر. لا تنالين منه ما يكفيكِ أبداً» دفعت الألبوم بعيداً عنها وتناولت رشفة من قهوتها وسألتني:

«وأنتِ؟ أخبريني.. ألم تتزوجي أبداً من قبل؟».

باغتني سؤالها، قلبت صفحة أخرى، أجبتها دون أن أنظر إليها:

«نجوت من محاولة واحدة بأعجوبة».

«آسفة.. لم أفهم».

«أعني.. كنت سأتزوج، كنت على وشك الزّواج، لكنني لم أفعل».

لم أخبرها بالحقيقة..لأن الحقيقة مؤلمة بما فيه الكفاية لقلب عالمي.. لأنها ما زالت، وبعد كل ذلك الوقت، تجرحني وتوقد في عظام صدري

وجعاً لا أستطيع الهروب منه.

«أعتذر، أنا وقحة جداً».

«لا بأس.. لقد وجد لنفسه امرأة أكثر جمالاً وأقل... أحمالاً، على ما أعتقد. وطالما أننا نتحدث عن الجميلات.. من هذه؟» أشرتُ إلى صورة امرأة مميزة بشعرها الأسود الطويل وعينيها الواسعتين، تحمل في الصورة سيجارة بطريقة غريبة وقد أمالت رأسها بلامبالاة، إلا أن نظرتها مؤثّرة، نفّاذة كما تنفذ السهام إلى القلب، كما أنها توحي بروح التحدي.

«هذه أمي، نيلا وحداتي، أو.. إنها من كنت أعتقد أنها أمي. أنت تفهمين بالطبع».

«إنها رائعة الجمال».

«لقد كانت كذلك فعلاً.. انتحرت عام 1974».

«آسفة».

«لا، لا داعي لذلك. أنا على ما يرام». مسّدت الصورة دون وعي بإبهامها ثم قالت: «كانت أنيقة وموهوبة.. كانت مثقفة وقد تمتعت بكثير من الآراء القوية التي كانت تخبرها للناس. لكن أحزانها كانت عميقة جداً أيضاً. لقد أعطتني مجرفة، وطلبت مني أن أعيد ملأ الفجوات العديدة في داخلها. طوال حياتي، ومنذ طفولتي البعيدة، هذا ما كنت أقوم به معها».

أومأتُ.. فأنا أفهمها تماماً.

«لكنني لم أستطع القيام بتلك المهمة، لم أرغب بالقيام بها، وفيما بعد.. قمت بالعديد من الأشياء الطائشة، تهورت كثيراً». ارتخت على الكرسي وهبط كتفاها ووضعت يديها النحيلتين على حضنها وفكرت دقيقة ثم قالت: «J'aurais dû être plus gentile، كان يجب أن أكون أكثر لطفاً معها. الإنسان لا يندم أبداً على إحسانه لأحد ما. لن تقولي لنفسك أبداً في شيخوختك.. يا ليتني لم أكن لطيفة مع أحدهم.. لن تفكري بهذه

الطريقة أبداً» بدا وجهها منكوباً بحزن نابض حديث وطازج.. وكأن تلك المرأة ماتت منذ لحظات. «لم يكن الأمر صعباً.. كان يجب أن أحسن إليها أكثر من ذلك.. كان يجب أن أعاملها بلطف أكبر».

تنهدت بعمق ثم أغلقت ألبوم الصور وقالت بابتهاج بعد فترة صمت «*Ah*، *bon*، أريد أن أطلب منك خدمة».

«بالطبع، تفضلي».

«هلا أريتني بعضاً من لوحاتك؟».

ابتسمنا لبعضنا البعض.

بقيت باري معنا لمدة شهر، تناولنا الإفطار سوياً كل صباح في المطبخ. كانت تأخذ قهوة مع خبز محمص، وأنا أشرب اللبن الرائب، ويتناول بابا البيض المقلي مع الخبز. وهو طعام أحبه منذ العام الماضي فقط. قلقت من أن يسبب له ارتفاعاً في معدل الكوليسترول في الدم، فسألت الدكتور بشيري في أحد مواعيد الفحص الدوري لوالدي، فابتسم لي بطريقته الهادئة التي تبدو وكأنه يتكتم على أمر ما وطلب مني ألا أقلق حول هذا الأمر، وقد طمأنتني كلماته قليلاً إلى أن فكرت بالأمر وتناهى إلى فكري أن ما عناه الدكتور بشيري هو أننا تجاوزنا هذا الأمر الآن ولا جدوى من القلق حياله بعد أن وصلت حاله لما هو عليه الآن.

بعد الإفطار، كنت أنسحب إلى غرفة نومي التي حولتها لمكان عملي، لأقوم بمهامي اليومية، بينما ترافق باري والدي لبقية الوقت. وفقاً لطلبها، دونت لها مواعيد البرامج التلفزيونية التي يحبها والدي ومواعيد حبوب الصباح، والوجبات الصغيرة التي يحب تناولها والأوقات التي يجوع فيها عادة، كان تدوين كل شيء يحتاجه فكرتها هي.

«بإمكانك الدخول لغرفتي وسؤالي متى شئت».

«لا أريد إزعاجك، مقاطعتكِ. وأريد أن أعرف كل شيء عنه.. أريد أن أعرفه».

لم أخبرها بأنها لن تعرفه أبداً كما تتمنى. ومع ذلك.. أخبرتها ببعض الأمور عنه.. كيف أنني أستطيع تهدئة غضبه إذا ما أصيب بنوبة هياج إذا ما أعطيته دليلاً مصوراً عن مفروشات المنزل وطرق تحسين البيوت وترميمها، على سبيل المثال.. وهو شيء لا أفهمه حتى الآن، لأنه يهدأ بتلك الطريقة أحياناً، وأحياناً أخرى لا يفعل.. ولهذا أشتري الأعداد الجديدة دوماً من تلك الأدلة.

«إذا ما أردته أن يغفو، ضعي التلفاز على قناة الطقس أو أي قناة رياضية عن الغولف، ولا تسمحي له أبداً بمشاهدة برامج الطهي».

«لماذا؟».

«لأنها تثيره وتغضبه، لأسباب عديدة».

كما كنا نخرج في نزهات قصيرة بعد الظهر، كي لا يتعب الاثنان.. بابا وباري. كانت الحيرة تملأ عينيه وهو ينقل نظره بيني وبين باري ونحن نمشي على الرصيف، وهو يرتدي قبعة موزع الجرائد القديمة وسترته ذات الأزرار وخفه الصوفي في قدميه. توجد في حيّنا مدرسة إعدادية لها ملعب كرة قدم قديم، وبجانبه توجد حديقة عامة بها ساحة للعب الأطفال، حيث كنت أصطحب والدي أغلب الأحيان. ودائماً ما كنت أجد هناك أماً شابة مع طفلها أو اثنتين تراقبان أطفالهن أثناء لعبهم في صندوق الرمل، وأحياناً كنا نرى مراهقين فارين من المدرسة وهم يتأرجحون ويدخنون. نادراً ما كانوا ينظرون إلى أبي، وعندما يلحظونه، كانوا يتفحصونه بلا مبالاة وبرود، وأعتقد أن الناس كانوا يستنكرون وجوده بينهم، بدلاً من مأوى العجزة.. كما لو أنهم يعتقدون أن أبي كان يجب أن يعمل بشكل أفضل على نفسه حتى لا تباغته الشيخوخة وتفسد حياته، وكأنهم يلومونه على أمراضه وآلامه.

خرجت في أحد الأيام من غرفتي لأعيد ملأ فنجان القهوة، فوجدتهما يشاهدان فيلماً سوياً، والدي على كرسيه المدولب.. وخفيه بارزان من تحت الشال المتدلي عن ركبتيه وقد أحنى وجهه للأمام وفمه فاغر بعض الشيء، وقد عبس واجتمع حاجباه بتركيز على الحدث أمامه، وقد جلست باري بقربه على الأريكة، وكفاها مطويان على حضنها وساقاها متقاطعان عند الكاحلين.

«من هذه؟».

«إنها لاتيكا».

«من؟».

«لاتيكا، الفتاة المتشردة من جماعة الأطفال المشردين، التي لم تستطع القفز إلى القطار».

«إنها لا تبدو صغيرة».

«نعم، لقد مرت العديد من السنين، إنها أكبر سناً الآن. كما ترى».

في الأسبوع الماضي.. كنا نجلس في الحديقة عندما قالت باري: «عبدالله.. هل تذكر أنه كان عندك أخت صغيرة عندما كنت طفلاً».

بالكاد أنهت جملتها عندما بدأ بابا بالنحيب. وضعت رأسه على صدرها وراحت تعتذر له.. «أنا آسفة.. أنا آسفة» مراراً وتكراراً بذعر شديد وهي تمسح الدموع عن خدوده. لكنه تابع البكاء لدرجة أنه بدأ يختنق.

«وهل تعرف من هذه يا عبدالله؟».

همهم بابا بكلمات غير مفهومة؟.

«إنه جمال، الولد الذي ظهر في برنامج المسابقات».

«لا، ليس هو» قال بابا بحدّة.

«ألا تعتقد أنه ذاته؟».

«إنه يقدّم الشاي للناس».

«نعم.. لكن هذا عرض لذكرياته عن ماضيه.. ما اسم هذا الشيء بالانكليزية؟».

«الخطف خلفاً». قلت وأنا أضع فنجان القهوة على فمي.

«برنامج المسابقات يحدث الآن يا عبدالله، وعندما رأيته يقدم الشاي، كان يتذكر ماضيه».

«رمش بابا عدة مرات بعينيه. وعلى الشاشة، جلس سليم وجمال على قمة مرتفع في مومباي، وقدماهما تتدليان من الحافة».

راقبته باري وكأنها تنتظر إشراق شيء ما في عينيه.

«دعني أسألك يا عبدالله، إذا ما ربحت مليون دولار في أحد الأيام، فماذا ستفعل بها؟».

علت وجهه تكشيرة وتململ في مكانه ثم أجاب

«أعرف ما سأفعله» قالت باري. فنظر بابا إليها بشرود.

«إذا ربحت مليون دولار، سأشتري بيتاً في هذا الشارع، بهذه الطريقة سنصبح جيراناً، أنت وأنا، وكل يوم.. سأحضر إلى هنا لنشاهد التلفاز سوياً».

عبس بابا دون أن يتكلم.

وبعد دقائق عديدة فقط، كنت في غرفتي أضع السماعات على أذني وأطبع على لوحة المفاتيح عندما سمعت صوت تحطم زجاج مفاجئ وصوت صراخ بابا بالفارسية. انتزعت السماعات وهرعت إلى المطبخ. وهناك، رأيت باري ملتصقة بالحائط بجانب المايكروويف وهي تضع يديها أمام وجهها خوفاً من بابا، الذي ثبتها بعصاه من كتفها، والزجاج المكسور منتثر حولهما على الأرض.

«أخرجيها من هنا» صرخ بابا عندما رآني. «أريد هذه المرأة خارج منزلي حالاً».

«بابا».

شحب خدا باري وانهمرت الدموع من عينيها.

«ضع العصا من يدك يا بابا حباً بالله! لا تقم بأي خطوة.. ستجرح نفسك بالزجاج».

سحبت العصا من يده بصعوبة، وراح يصيح «فلترحل.. إنها سارقة».

«ماذا يقصد؟» قالت باري ببؤس.

«لقد سرقت حبوب الدواء مني».

«حبوبك هنا يا بابا». وضعت يدي على كتفه وأخرجته من المطبخ، بدأ يرتجف بين ذراعي. وبينما كنا نتجاوز باري كاد أن يضربها بساعده مرة أخرى واضطررت لتهدءته من جديد. «لا بأس عليك يا بابا.. هذا يكفي.. «هذه حبوب دواءها هي.. وليست لك، إنها تتناولها من أجل يديها المريضتين». تناولت دليل تسوق مصور عن طاولة القهوة وقدمته له عندما جلس في كرسيه المدولب.

«أنا لا أثق بهذه المرأة.. أنت لا تعرفينهم، أنا أعرفهم من مجرد النظر إليهم، أولئك اللصوص». قال وهو يجلس على الكرسي. أخذ الدليل من يدي بعنف وبدأ يتصفحه بعصبية. ثم أغلقه فجأة بقسوة ونظر إلي بعجب وقال: «كما أنها كاذبة أيضاً، أتعرفين ما قالت.. تلك المرأة؟ هل تعرفين ما قالته لي؟ قالت أنها أختي.. *أختي* ! انتظري حتى تسمع سلطانة بالأمر».

«حسناً يا أبي، سنخبرها سوياً».

«امرأة مجنونة».

«سنخبر أمي ثم سنضحك ثلاثتنا على تلك المرأة المجنونة، استرخي الآن يا بابا، كل شيء على ما يرام».

قلبت التلفزيون على قناة الطقس وجلست بجانبه وربتُ على كتفه إلى أن توقف عن الارتجاف وتباطأت أنفاسه ولهاثه، وأغفى بعد أقل من خمس دقائق.

في المطبخ، جلست باري على الأرض، متكئة على غسالة الصحون، مهزوزة الكيان، تمسح وجهها بمنديل.

«أنا آسفة جداً، لم يكن تصرفي صحيحاً».

«لا بأس»، قلت وأنا أحضر المكنسة من الخزانة. وجدت على الأرض مع الزجاج حبوب دوائها الوردية والبرتقالية مبعثرة على الأرض. لممت الحبوب ثم كنست الزجاج.

«Je suis une imbecile، لقد أردت إخباره، اعتقدت أنني لو أخبرته بالحقيقة.. لا أعرف بما كنت أفكر».

أفرغت الزجاج المكسور في سلة المهملات وانحنيت وسويت لها قميصها وتفقدت المكان الذي ثبتها به بابا من كتفها بالعصا.

«سوف تتحول هذه لكدمة» جلست على الأرض بجانبها. ففتحت يديها ووضعت فيهما الحبوب.

«غالباً ما يهيج بهذا الشكل، يوم هكذا ويوم هكذا».

«ما رأيك بالبحث عن مساعدة طبية محترفة لمساعدتك على تحمل مسؤوليته؟».

تنهدت، وأومأت. فكرت كثيراً في الفترة الأخيرة بالصباح الذي سأستيقظ فيه في البيت وحدي، بينما يتكوم والدي أبي على سرير غريب في مأوى ما، وهو ينظر لطعام إفطاره الذي حضره له الغرباء. وفي مشهد آخر، كنت أتخيله جالساً وراء طاولة في غرفة نشاطات مكتظة بعجائز خرفين مثله.

«أعرف..لكن ليس بعد. أريد أن أعتني به لأطول فترة ممكنة».

ابتسمت باري وتنفست بعمق، ثم قالت: «أفهمك تماماً».

لست واثقة من فهمها لمبرراتي، لأني لم أخبرها بالسبب الأهم... لأنني بالكاد أستطيع الاعتراف به لنفسي. لا أستطيع الاعتراف بالخوف الذي ينتابني لمجرد التفكير بالحرية التي سأنالها بعد وضع

أبي في المصح رغم كل توقي للحصول عليها. أخاف مما سيحصل معي، مما سأقوم بي لنفسي. عشت طوال حياتي كسمكة آمنة في حوض زجاجي شفاف منيع على الاختراق أمام كل محاولات الحياة حولي. حيث كنت أراقب العالم المتلألأ على الطرف الآخر، أتصور نفسي فيه عندما أرغب بذلك.. لكنني كنت دوماً محمية ومحاطة بشدة بحدود الدنيا التي رسمها لي والدي، ووضعها بعناية حولي. كنت أعرف ذلك في طفولتي، وأرى أن تلك الحدود تضعف من حولي وتتلاشى مع ضعفه المتزايد يوماً بعد يوم. أعتقد أني كبرت داخل الزجاج، وأخاف اليوم الذي سيكسر فيه، عندما سأكون وحيدة، عندما سأنطلق نحو المجهول الواسع وأتخبط بعجز، أتوه، أختنق بحثاً عن حوض يحميني.

الحقيقة التي نادراً ما اعترفت بها، هي أنني احتجت للاستناد على أبي دائماً، احتجت لوقوفه خلفي. لماذا تخليت عن حلمي بالدراسة في كلية الفنون إذاً دون أي مقاومة عندما طلب بابا مني ألا أذهب إلى بالتيمور؟ لماذا تركت نيل إذاً، الرجل الذي خطبت إليه قبل عدة سنوات؟ والذي كان يمتلك شركة طاقة شمسية صغيرة؟ أذكر وجهه المربع الذي أحببت عندما التقيته أول مرة في مطعمنا، عندما سألته عما يرغب أكله ونظر إلي وابتسم ابتسامة عريضة.. كان صبوراً وودوداً وهادئاً.. لقد كذبت على باري. لم يتركني نيل لأجل امرأة أكثر جمالاً.. لقد أنهيت علاقتي به. وحتى عندما تعهد بتغيير ديانته والتحول للإسلام، وبدراسة اللغة الفارسية، بحثت فيه عن كل العيوب، عن أي أعذار. ذعرت في النهاية وهربت إلى زوايا حياتي وبيت والدي المعتاد.

نهضت باري من جانبي.. نظرت إليها وهي تسوي ملابسها وصعقتني فجأة معجزة وجودها هنا، هنا.. على بعد سنتمترات مني.

«أريد أن أريك شيئاً».

نهضت وذهبت إلى غرفتي. أحد مكاسب عدم مغادرة بيت الأهل هو

أن أحداً لا يفرغ غرفتك القديمة ولا يبيع ألعابك في معرض لبيع الأشياء المستعملة في الحديقة الخلفية، ولا يتخلص من ملابسك. أعرف أنه نسبة لسنوات عمري الثلاثين، أنني أحتفظ بالكثير من بقايا طفولتي حولي، حشوت معظمها في درج كبير تحت سريري، وها أنا أفتحه الآن. داخله تقبع ألعابي القديمة.. الحصان الوردي ذا الشعر الطويل، الكتب المصورة، كل بطاقات أعياد الميلاد وأعياد الحب التي صنعتها لوالديّ وأنا في المدرسة الابتدائية وألصقت عليها حبوب الفاصولياء الملونة والنجوم اللماعة الصغيرة ورششتها بغبار لامع ملون لاصق. في آخر مرة تحدثت فيها مع نيل.. عندما قطعت علاقتي به قال: «لا أستطيع انتظارك يا باري. لن أنتظرك حتى تكبرين».

أغلقت الدرج وعدت لغرفة الجلوس حيث جلست باري مقابل أبي على الأريكة. جلست بقربها.

«تفضلي» وأعطيتها كومة من البطاقات البريدية.

وضعت باري نظارات القراءة على عينيها وفكت الرباط المحيط بالبطاقات. تجمدت عندما نظرت إلى البطاقة الأولى.. إنها صورة لِ (لاس فيغاس)، تظهر فيها لقطة ليلية لسيزرز بالاس.. مشعة بالأنوار، متألقة. قلبتها وقرأتْ الملاحظة المكتوبة عليها.

21 تموز 1992

حبيبتي باري.. لن تصدقي مدى حرارة هذا المكان. أصيب بابا اليوم بحرق في يده عندما وضع كفه على ظهر سيارتنا. وقد وضعت له ماما معجون الأسنان على الحرق. في سيزرز بالاس الذي ترينه في الصورة، يوجد جنود رومانيون يحملون السيوف ويرتدون الخوذات والأردية الحمراء. حاول بابا إقناع ماما بأن تقف بجانبهم ليلتقط لها صورة، لكنها رفضت. لكنني فعلت! سأريك الصورة عندما سأصل للمنزل. هذا كل شيء الآن. أتمنى لو كنت هنا معي.

باري

ملاحظة: أنا أتناول ألذ مثلجات بالليمون تناولتها في حياتي الآن وأنا أكتب إليكِ.

تناولت باري بطاقة أخرى تظهر عليها صورة قلعة هيرست، وقرأت الملاحظة المكتوبة على وجهها الآخر وقد انقطعت أنفاسها:

كان يمتلك حديقة حيوانات خاصة به.. أليس هذا أمراً ممتعاً؟ العديد من حيوانات الكنغر وحمار الوحش والظباء والجمال ذات السنامين! كما كان يمتلك نسخة من مدينة ديزني، ميكي بقبعة الساحر والعصا السحرية. صرخت أمي عندما سقط الرجل المتدلي بالحبل من السقف! كان يجب أن تسمعي صراخها..

من خليج لا غول، غابات ميور، بحيرة تاهو.

اشتقت لكِ. كنت ستحبينها بالتأكيد، أتمنى لو كنت معي هنا.

أتمنى لو كنت معي

أتمنى لو كنت معي

«هل كنت تكتبين البطاقات البريدية لنفسك؟» قالت باري وهي تنزع نظارتها.

نفيت بهز رأسي «بل إليكِ.. إنه أمر محرج» ضحكتُ.

وضعت باري البطاقات من يدها على الطاولة واقتربت مني.

«أخبريني».

نظرت إلى الأسفل ودورت ساعتي حول معصمي «اعتدت التظاهر بأننا أختين توأمتين، أنا وأنتِ. لم يكن أحد يراكِ غيري. كنت أخبرك كل شيء.. كل أسراري.. كنت حقيقية بالنسبة لي، قريبة مني على الدوام. لم أشعر يوماً بالوحدة، بسببك. وكأننا كنا شريكتين في عصابة تتألف منا نحن الاثنتين فقط.

ابتسمتْ بحنان شديد.

«كنت أتصور أننا ورقتين.. حملتهما الرياح أميالاً بعيداً عن شجرتنا

الأم، لكننا متصلتين رغم المسافات بجذور الشجرة التي ننتمي لها».

«كان الأمر معكوس بالنسبة لي، أنت تقولين أنك كنت تشعرين بحضور مرافق لك.. بينما كنت أشعر أنا بغياب.. غياب مبهم غير مفهوم السبب أو المصدر. كنت كالمريض الذي لا يستطيع تحديد مكان الألم، لا يستطيع سوى الشعور بالجرح، والألم الناتج عنه». وضعت يدها فوق يدي وصمتت شفاهنا قليلاً بينما تحدثت عينانا بالكثير.

تململ بابا في جلوسه على الكرسي أثناء إغفاءته.

«أنا آسفة حقاً» قلتُ.

«لماذا تشعرين بالأسف؟».

«لأنكما وجدتما بعضكما بعد فوات الأوان».

«لكننا وجدنا بعضنا بعضاً في النهاية.. أليس كذلك؟». قالت والعاطفة تنضح من صوتها. «وهذا هو وضعه الآن. لا بأس. أنا سعيدة. لقد وجدت جزءاً ضائعاً من ذاتي» شدت على يدي «ووجدتك أيضاً يا باري».

سقت كلماتها شوق طفولتي. أشعر بشدة الوحدة التي ملأت أيامي في صغري، أذكر كل مرة همست باسمها ـ اسمنا ـ وحبست أنفاسي بانتظار رجع الصدى، وكلي ثقة وإيمان بأنه سيعود يوماً ما، سيرتد إلي حاملاً إياها. وها أنا الآن أسمعها تردد اسمي، في غرفة الجلوس.. انطوت كل السنين الماضية التي فرقتنا وتلاشت.. تقلص الزمن نفسه إلى صورة، إلى بطاقة بريدية، وتجسد بجانبي أكثر آثار طفولتي إشراقاً، حملت يدي، وتفوهت باسمي. اسمنا. شعرت بانغلاق شيء ما، بسقوط شيء ما في مكانه، شيء انتزع من مكانه، مزق عن بقيته منذ أمد بعيد، وها هو يلتئم مرة أخرى. شعرت بدقات ناعمة في صدري، صوت القلب المكتوم المجاور لقلبي الآن، وهو يبدأ حياته من جديد.

ابتسمت

غنت لي باري تهويدة فرنسية للأطفال، تتحدث عن جسر آفينيون.. همهمت باللحن أولاً ثم غنت الكلمات:

Sur le pont d'AvignonL'on y danse,

l'on y danseSur le pont d'AvignonL'on y danse tou en rond.

«علمتني إياها أمي عندما كنت صغيرة». قالت باري وهي تحكم ربط الوشاح حول عنقها. كان الجو بارداً، رغم سطوع الشمس وزرقة السماء المغرية. ضربت الشمس سطح النهر العريض الرمادي وتكسرت لألف شظية نورانية من الضياء.

«كل طفل فرنسي يعرف هذه الأغنية».

كنا نجلس على كرسي حديقة خشبي أمام الماء. وبينما راحت تترجم لي الكلمات، تأملت المدينة البادية أمامي وراء النهر. شعرت بالرهبة لوجودي في مكان كهذا، مكان مترع بالذاكرة الموثقة بشكل عجائبي، محفوظ بكل تلك الدرجة من العناية.. بعد أن اكتشفتُ تاريخي الخاص. كل شيء في هذه المدينة مترع بالتاريخ والذكريات. عجبت لنقاء الهواء أثناء مرور الريح فوق صفحة النهر وحملها للمياه وارتطامها بالضفاف الحجرية، عجبت من شدة الضياء المنتشر حولي، من شعوري بأنه ينبع من كل الاتجاهات.. حتى من كرسي الحديقة الذي أجلس عليه. يمكنني أن أرى من مكاني هذا مركز المدينة القديم وتشابك أزقتها المتعرجة الضيقة.. كما أرى البرج الغربي لكاتدرائية أفينيون، وتمثال العذراء المذهّب اللامع فوقه.

حكت لي باري عن قصة الجسر، عن الراعي الذي ادعى أن الملائكة طلبت منه بناء جسر حجري يصل بين ضفتي النهر وأمدته بالقوة العضلية اللازمة لانجاز الأمر، في القرن الثاني عشر. وقد أثبت

للناس صحة ادعائه بحمله لصخرة كبيرة الحجم ورميها في الماء. أخبرتني عن أصحاب الزوارق النهرية الذين يتسلقون الجسر لتكريم راعيهم: القديس نيكولاس. وعن كل الطوفانات عبر مر القرون التي هدمت أقواس الجسر وسببت لها الانهيار مع الوقت. حكت كل القصص بنفس اللهجة الحماسية السريعة التي كانت تتحدث بها صباحاً عندما أخذتني إلى قصر بابيس المبني على الطراز القوطي، وهي ترفع سماعات الدليل السياحي عن أذنيها لتنبهني إلى تصوير جصي (فريسكو)، أولتنقر على مرفقي لتلفت نظري لنحت مميز، أو زجاج ملون، أو تقاطعات زخارف السقف في الأعلى.

خارج القصر البابوي، تكلمت دون انقطاع.. سردت لي أسماء كل البابوات والقديسين والكاردينالات الذين عاشوا فيه، مشينا عبر في صحن الكنيسة بين أسراب اليمام والسياح والتجار الأفارقة الذين يرتدون الملابس اللماعة، ويبيعون الساعات والحلي المزيفة، ومررنا أمام موسيقي يعزف الغيتار. لا أذكر أنها ثرثرت بهذه الطريقة أبداً عندما زارتنا في الولايات المتحدة، لهذا أشعر أنها تناور في الحديث لتصل إلى شيء ما، شعرت أن كل ما تقوله جسر يساعدها للوصول لمبتغاها.

«لكنك سترين الجسر الحقيقي الآن، عندما سيصل الجميع.. سنذهب إلى بونت دي غارد.. هل تعرفينها؟ لا؟ *Oh là là. C'est vraiment merveilleux* لقد بناه الرومان في القرن الأول الميلادي لنقل الماء من يور إلى نيمس.. مسافة خمسين كيلومتراً! إنه تحفة معمارية نادرة يا باري».

وصلت فرنسا منذ أربعة أيام، وها نحن في أڤينيون منذ يومين. تركنا باريس التي يظللها الغمام والبرد، وأتينا إلى حيث نستطيع رؤية السماء الصافية، والتمتع بالنسمات الدافئة وأصوات العصافير الصادحة من كل الأشجار. سحبت حقائبي بسرعة جنونية للخروج من القطار في

المحطة.. وقفزت من بابه مع أمتعتي بينما بدأت الأبواب تغلق بالفعل خلفي. فكرت أني لا بد أن أخبر بابا بأن ثلاث ثوان فقط كانت تفصلني عن الانتهاء في مرسيليا.

«كيف حاله؟» سألتني باري عندما كنا في سيارة الأجرة التي أقلتنا من مطار شارل دي غول إلى شقتها.

«إنه أفضل حالاً» قلتُ.

إنه يعيش في مأوى للعجزة الآن. عندما ذهبت لاستطلاع ذاك المكان، اصطحبتني المديرة في جولة حول أرجاءه، وهي امرأة ضعيفة البنية وطويلة ذات شعر أحمر، اعتقدت في ذلك اليوم أن المكان ليس سيئاً أبداً.

«أعتقد أنني توقعت أن المكان سيكون سيئاً ومنفراً».

«هل اعتقدت ذلك حقاً؟» قالت وهي تضحك باحتراف واضح.

«أعتذر، كانت جملتي هجومية».

«لا عليك. نحن ندرك الطريقة التي يتصور بها الناس الأمكنة المماثلة لهذا.. هذه هي منطقة المعيشة. وإذا أخذنا حالة والدكِ التي وصفتها بعين الاعتبار.. لا أعتقد أن المكان هنا سيناسبه. أعتقد أن وحدة متابعة مرضى الذاكرة ستكون أكثر ملائمة له.. ها هي».

استعملتْ بطاقة خاصة لتفتح الباب المؤدي إلى الداخل. لم تفح رائحة القرفة أو الصنوبر من الوحدة المغلقة هذه. ارتعش شيء ما في أعماقي وأمرتني غريزتي البدائية بالاستدارة والعودة من حيث أتيت. فوضعت المسؤولة يدها حول ذراعي وشدت عليها.. ثم نظرت في عيني برقة شديدة. تابعنا الجولة وأنا أغرق بموجة هائلة من الشعور بالذنب.

ذهبت لرؤية بابا في صباح اليوم السابق لسفري إلى أوروبا. مررت عبر منطقة المعيشة داخل الملجأ ولوحت بيدي لكارمن، المرضة الغواتيمالية التي ترد على الاتصالات الهاتفية. عبرت كذلك صالة تجمع المرضى المليئة بكبار السن الذين كانوا يستمعون إلى رباعي وتري

مـن طـلاب مدرسـة ثانويـة يرتـدون اللبـاس الرسمـي الموحّـد الخـاص بالمدرسة. ثـم مـررت مـن غرفـة التسلية، المليئـة بالحواسيب ورفـوف الكتب ورقع الدومينو الجاهزة للعب، والإعلانات والنصائح المعلقة على الجدران أيضاً، مثل هذه: هل تعلـم أن الصـويا تسـاعد علـى تخفـيض مستوى الكولسترول الضار لديك؟ لا تنسوا ساعة الأحاجي يـوم الثلاثـاء في الساعة الحادية عشرة صباحاً.

دخلت وحدي للقسم المغلق من الملجأ.. لا توجد حفـلات شـاي في هـذا الجانب من الباب، لا مسابقات ولا مباريات ولا ألعاب. لا يبدؤون نـهارهم باليوغا. ذهبت لغرفة بابا لكنه لم يكن هنـاك. كـان سـريره مرتبـاً وتلفـازه مطفأً ووجدت نصف كأس ماء بجانب سريره. شعرت ببعض الارتياح، أنـا لا أحب رؤيته في سـرير المشـفى، مستلقياً علـى أحـد جانبيـه وهـو يضـع إحدى يديه تحت الوسادة، وعينيه الفارغتين ثابتة على الجدار.

وجدت أبي في الصالة العامة الخاصة بهذا القسم، غارقـاً في كرسـي مدولب بجانب النافذة المفتوحة على الحديقة. كان يرتدي منامة قطنية وقبعة موزع الصحف التي يحبها، وقـد غطـى حضـنه بمئـزر خـاص.. دعته المرضة بمئزر تهدئة الأعصاب. وهـو مطـرز بـالكثير مـن الضـفائر القماشية والأزرار التي يمكن فتحها وإغلاقهـا.. وقـد قالـت أنـه يبقـي أصابع المريض مشغولة لتفريغ الشحنات العصبية التي تعتريه.

قبلت خده وسحبت كرسياً إلى جواره. لقد حلق له شخص ما ذقنه، وبلل شعره وسـرّحه أيضـاً، كمـا شـعرت وأنـا أقبلـه برائحـة الصـابون المنعشة على وجهه.

«غداً هو اليوم الموعـود، سـوف أسـافر لزيـارة بـاري في فرنسـا. لقـد أخبرتك.. هل تذكر؟».

رمش بابا بعينيه دون تمييز.. لقد بدأت حالته تتراجع قبل إصـابته بالذبحة، بدأ يمر بفترات صامتة طويلة، وبـدأ يبـدو مغمومـاً ومتكـدراً.

تحول وجهه لقناع ثابت بعد الذبحة، تجمد فمه بشكل ابتسامة صغيرة مؤذبة وثقيلة.. لا تنم بصلة إلى عينيه. لم يتفوه بأي كلمة منذ إصابته بالذبحة.. أحياناً.. تتسع شفتاه قليلاً ويصدر عنه صوت غريب يشبه صيحة الاكتشاف: آآه.

«سوف نلتقي في باريس، ثم سنركب القطار إلى أفينيون. وهي بلدة في جنوب فرنسا، كان الباباوات يعيشون فيها في القرن الرابع عشر. لذا.. سوف نشاهد معالم المدينة. لكن أهم ما في الأمر، أن باري أخبرت كل أبناءها عن زيارتي، لذا سيقومون بالانضمام إلينا.

ابتسم بابا لي، كما ابتسم لهكتور عندما جاء لزيارته الأسبوع الماضي، كما ابتسم عندما أريته طلب انتسابي لكلية الفنون والعلوم الإنسانية في سان فرانسيسكو.

«ابنة أختك إيزابيل وزوجها آلبرت يمتلكان منزلاً لقضاء العطلات في بروفانس، قرب بلدة تدعى لي بو. لقد اطلعت على معلومات عنها عبر الانترنت يا بابا. إنها بلدة خلابة، مبنية على قمة أحد جبال الألب البيضاء، قريباً من قلعة أثرية تعود للقرون الوسطى، وتطل على البساتين والسهول الممتدة أسفل الجبال. سألتقط الكثير من الصور لأريك إياها عندما أعود».

جلست على مقربة منا امرأة في روب الحمام، تحاول حل أحد الألغاز التركيبية، وعلى طاولة أخرى جلست امرأة مشعثة الشعر ترتب ملاعقاً وشوكاً وسكاكين زبدة في حقيبة ملاعق فضية. وعلى الشاشة العملاقة أمامنا، كان المحققون يحاولون وضع الأصفاد في يد أحد المشتبه بهم.

«آآآه» قال بابا دون أن ينظر إلي.

«آلان، ابن أختك، وزوجته آنا سيحضران مع أبنائهما الخمسة. لا أعرف أسماءهم جميعاً، لكنني واثقة من أني سأحفظها عندما ألتقي بهم. أهم ما في الأمر، وأكثر ما يثير غبطة باري، هو أن ابنها الأصغر تيري

سيحضر أيضاً. لم تره منذ سنوات، لم يتكلما مع بعضهما لسنوات عديدة. سيطلب إجازة من عمله في أفريقيا ليحضر الاجتماع العائلي الكبير الذي سيجري».

قبلت خده مرة أخرى عندما هممت بالمغادرة، أطلت النظر إلى وجهه وأنا أتذكر كيف اعتاد المجيء إلى روضة الأطفال لاصطحابي بالسيارة، وكيف كنا نذهب أولاً لإحضار أمي من عملها في أحد المطاعم. كنا نجلس بانتظارها بينما تنهي مناوبتها وأنا ألتهم المثلجات التي كان المدير دائماً يهديني إياها، وأدع أبي يطلع على رسوماتي التي أنجزتها في ذلك اليوم. تذكرت اهتمامه بكل واحدة منها وتفحصها بأناة شديدة، وهو يومأ برأسه.

«كدت أنسى».

انحنيت للأسفل وأديت طقس وداعنا المعتاد قبل رحيلي عنه.. مسحت بأصابع يديَّ خديه صعوداً إلى جبينه ثم رأسه، لأسحب من ذهنه كل الكوابيس المزعجة. فتحت الكيس الخيالي ورميت فيه الكوابيس وربطه بإحكام.

«تفضل».

صدر عن حلقه صوت غير مفهوم فتابعت: «أحلاماً سعيدة يا بابا، أراك بعد عدة أسابيع. لم نفترق عن بعضنا أبداً من قبل لمثل هذه المدة الطويلة».

شعرت غريزياً أثناء مغادرتي أنه يراقبني، وعندما استدرت باتجاهه وجدته منحنياً للأمام ليلعب بأحد أزرار مئزره.

باري تتحدث عن منزل العطلات ذاك، لقد أرتني صوراً له. إنه جميل، منزل ريفي حجري أعيد تأهيله ليلاءم الحياة المعاصرة، فوق تلال اللوبيرون. وقد زرعت أمامه أشجار مثمرة ولاحت من نوافذه أرضيته الريفية الواضحة تحت أشعة الشمس المتسللة من النوافذ العديدة.

«لن تري ما أقصد في هذه الصورة، لكنه يمتلك إطلالة رائعة على الجبال».

«هل سيسعنا جميعاً؟ أعني أن عددنا كبير على بيت ريفي».

«Plus on est de fous، plus on rit.

كيف تقولونها بالانكليزية؟ كلما كان العدد أكبر كلما كانت السعادة أكبر؟».

«البهجة تقصدين».

«Ah voilà. C'est ça».

«ماذا عن الأطفال؟ أين سيبقون؟».

«باري؟».

نظرت إليها بعمق وقلت «نعم؟.»

تنهدت طويلاً ثم قالت: «تستطيعين إعطائي العلبة الآن».

أومأت. مددت يدي داخل حقيبة يدي المحشورة بين قدمي. أعتقد أنني كان يجب أن أجدها قبل أشهر، عندما نقلت بابا إلى مأوى المسنين. ولكني وضعت كل حاجياته في حقيبة واحدة أحضرتها من الرف العالي في خزانة الردهة، حيث كان أهلي يحتفظون بحقائب السفر. بعد ذلك، أفرغت غرفة والدي، انتزعت ورق الجدران وأعدت طلاء الغرفة. نقلت سرير والديَّ الملكي الكبير وخزانة أمي ذات المرآة البيضاوية الرائعة، وأفرغت الخزانة الكبيرة من ملابس والدي الرسمية التي لم يعد لها داع، وغلفتها بأكياس بلاستيكية. وكومت كل الأغراض في المرآب بانتظار ترحيلها للأبد. نقلت مكتبي لغرفة والدي القديمة وبدأت أستعملها كمكتب خاص بي وغرفة دراسة بانتظار بدء الفصل الدراسي مع حلول الخريف. كما أفرغت الدُّرج القابع تحت سريري منذ دهر.. في كيس مهملات، رميت كل ألعابي القديمة وأثواب طفولتي وأحذيتها وصنادلها البالية..لم أعد قادرة على النظر أكثر إلى بطاقات

الأعياد وأعياد الأم والأب التي صنعت لوالديَّ طوال كل تلك السنين. لم أعد قادرة على النوم ليلاً وأنا أشعر بها موجودة تحتي، تحت السرير. لقد سببت لي ما يكفي من الألم.

وفي أحد الأيام.. قررت تنظيف خزانة الردهة، هناك، على الرف العالي، كانت توجد حقيبة واحدة متبقية، سحبتها.. فسمعت صوت ارتطام معدن داخلها. فتحتها لأجد فيها رزمة ملفوفة بورق أسمر سميك. وقد ألصق عليها ظرف مغلق، كتب عليه بالانكليزية: *إلى أختي باري*. عرفت على الفور خط والدي الذي كنت أحفظه جيداً من أيام عملي في مطعمنا القديم، عندما كان يسجل طلبات الزبائن ليعطيني إياها.

سلمت الرزمة لباري دون أن أفتحها. وضعتها على حضنها ونظرت إليها، مررت يديها على الكلمات المكتوبة على المغلف. قُرعت أجراس الكنيسة مقابلنا وراء النهر، ولمحت طائراً على صخرة يقوم بانتزاع أحشاء سمكة اصطادها للتو. فتشت باري عن نظارات القراءة في حقيبتها وقالت: «J'ai oublié mes lunettes، لقد نسيت نظاراتي».

«أتودين أن أقرأها لك؟».

حاولتْ انتزاع المغلف عن الرزمة لكن يداها لم تساعداها، وبعد صراع طويل.. انتهى بها الأمر بتسليمي الرزمة من جديد لأفتحها لها. حررتُ المغلف وفتحته وأخرجتُ الرسالة المطوية داخله.

«لقد كتبها بالفارسية».

«ألا تستطيعين قراءتها؟». قالت باري وحاجبيها معقودان من شدة القلق «هل تستطيعين ترجمتها لي؟».

«نعم». أجبتها وأنا أشعر بإشراق ابتسامة صغيرة في داخلي، شعرتُ بالامتنان.. ولو كان متأخراً، لكل أيام الثلاثاء التي كان بابا يأخذني فيها لمدرسة اللغة الفارسية في كامبل. أفكر به الآن.. ببقاياه الضائعة، الهائمة في صحراء الفراغ، بالمرض والشيخوخة اللذين جرداه من كل

شـيء، بختـام درب حياتـه الـذي انتـزع منـه كـل الـذكريات المضـيئة اللامعة.. لقد بات كل شيء من الماضي الآن.

حملتُ الرسالة الصغيرة بإحكـام في وجـه الـريح العاصـفة البـاردة، وقرأتُ لباري الجمل الثلاث الوحيدة المكتوبة فيها.

قالوا لي أن سأضطر قريباً للخوض في لجة الماء.. حيث سأغرق.

قبل أن أذهب، سأترك لك هذا الصندوق على الشاطئ.

أصلي لله بأن تجديه، يا أخـتي.. لكـي تعـرفي مـا حملتـه في قلـبي لأجلك طوال عمري، حتى لحظة الرحيل.

آب 2007

«آب 2007!! إنـه تـاريخ تشخيصـه بـالمرض لأول مـرة». أي قبـل ثلاث سنوات من اتصال باري بي.. قلت في نفسي.

أومأت باري ومسحت مقلتيها بكعب يدها..مر شاب وشـابة أمامنـا وهما يركبان دراجتيهما. لمحت فتاة شابة ترتدي تنورة جلديـة قصـيرة سوداء، وتجلـس علـى العشـب وهـي تتحـدث علـى الهـاتف الخلـوي وتمسك باليد الأخرى رسن كلب صغير جداً وداكن اللون جداً.

سلمتني باري الرزمة لأفتحها من أجلها. وجدنا فيها صندوقاً معدنياً قديماً.. لاحت لنا على غطاءه صورة تكاد تتلاشى لرجل هنـدي بسـترة حمراء طويلة، وهو يحمل في يده فنجان شاي حار وكأنه يقدمه لضـيف مثلاً. فتحت المزلاج ورفعت الغطاء، لأجد الصندوق مترعاً بريشات طيور بجميع الألوان والأشكال.. ريشة خضراء طويلة، كثيفة قصـيرة، سـوداء طويلة جداً. أخرى بلون الدراق، عرفت علـى الفـور بأنهـا تعـود لبطـة برية، واثنتين أرجوانيتين، ريشات مخططة بألوان قاتمة مع رسـومات لونية تشبه الزوابع الصغيرة.. وفي الأسفل، قبعت ريشة طاووس خضراء مهيبة وعلى قمتها تلمع عين كبيرة.

نظرت إلى باري وسألتها: «هل تفهمين معنى هذا؟؟».

هزت باري رأسها نافيةً ببطء وذقنها ترتجف. أخذتُ الصندوق مني ونظرت فيه «لا .. الأمر الوحيد الذي أثق به هو أننا عندما افترقنا عن بعضنا.. أنا وعبدالله.. آله الأمر أكثر مني بكثير. كنت الطفلة المحظوظة بالنسيان.. لصغر سني. *Je pouvais oublier*. وما زلت أتمتع بترف نسيان كل ذاك الماضي حتى الآن. لكنه لم يمتلكه، لم ينسى».

رفعت ريشة ومررتها على معصمها وتفحصتها بعينيها جيداً آملة أن تذكرها بأي شيء.

«لا أعرف معنى كل هذا الريش.. لا أذكر أي شيء عنه.. لكني متأكدة أنه يعني أنه كان يفكر بي.. كل تلك السنين. أنه تذكرني».

وضعت ذراعي حول كتفها وهي تنتحب دون صوت. راقبت الشمس وهي تمر بنورها فوق الأشجار الباسقة أمامنا، راقبت النهر وهو يمر من أمامنا تحت الجسر.. الجسر الذي يغني له الأطفال. إنه نصف جسر.. في الحقيقة، لأنه لم يبق من قناطره الأصلية سوى أربعاً.. إنه ينتهي الآن في منتصف الطريق عبر النهر، وكأنه حاول الوصول والتوحد مع الطرف الآخر، وفشل في تحقيق ذلك.

بقيتُ صاحية تلك الليلة في الفندق، شاهدت عبور الغيوم المندفعة أمام القمر الكبير المعلق في سماء نافذتي.. سمعت في غرفتي أصوات كعوب النساء العالية المارة على الرصيف أسفلنا، ضحكات الناس وثرثرتهم.. تناهى إليّ صوت ارتطام الملاعق والسكاكين بالصحون ونقر الكؤوس ببعضها من المطعم المقابل.. مع رنين أنغام البيانو المتصاعدة منه.

تقلبتُ في سريري ونظرت إلى باري النائمة دون صوت بجانبي. بدا وجهها شاحباً تحت ضوء القمر. رأيت بابا في وجهها.. بابا الشاب المتفائل والسعيد، كما كان دوماً، أعلم أني سأجده دوماً هناك كلما نظرت في وجه باري. إنها لحمي ودمي، قريباً سألتقي أبناءها، وأبناءهم، الذين يجري في عروقهم دمي ذاته. لست وحيدة في العالم.

تملكتني فجأة سعادة غامرة، مرت عبر جسدي كموجة بحر، وملأت مياهها النقية عيناي بدموع البهجة والامتنان والأمل.

وبينما رحت أراقب نوم باري، فكرت بلعبة ما قبل النوم التي عودني عليها والدي، مسح الكوابيس من الرأس لمنحي حلماً سعيداً في كل ليلة.. أذكر الحلم الذي كنت أهديه له دوماً.. مددت يدي بحذر شديد كي لا أوقظها ووضعتها بخفة شديدة على جبينها وأغمضت عيناي وفكرت بالحلم...

إنه العصر المغمور بنور الشمس.. إنهما طفلان من جديد، أخ وأخت، صغيران وقويان، مستلقيان في ظل شجرة تفاح مزهرة فوق عشب أخضر. العشب دافئ تحتهم والشمس تدفئ وجوههم، تومض أنوارها بين الأغصان وأزهار التفاح فوقهم.. ارتاحا هناك نعسين، مكتفيين من العالم بمجاورتهما لبعضهما البعض. استند رأسه لجذر الشجرة السميك، ورأسها مرتاح فوق المعطف السميك الذي خلعه وطواه ليسند رأسها إليه. راقبتْ بعينيها نصف المغمضتين شحروراً واقفاً على غصن في الأعلى.. ومرت عبر الأغصان هبة نسيم باردة رفرفت معها أوراق الشجرة بنعومة.

أدارت وجهها ونظرت إليه.. أخاها الكبير، حليفها في كل شيء.. لكنه كان قريباً جداً فلم تستطع رؤية كامل وجهه. تبينت منه حاجبه وارتفاع أنفه ورموشه المنحنية.. لكنها لا تمانع.. إنها سعيدة جداً لمجرد البقاء برفقته، معه.. وبينما سرقتها غفوتها البطيئة بعيداً، شعرت بأنها محمولة فوق موجة من السكون المطلق.. أغلقت عينيها.. واستسلمت للتيار. تلألأت الدنيا حولها بالضياء وغابت، وغاب معها كل شيء.

النهاية

كل ما كانت باري تريده من أمها هو أن تجمع شذرات ذكريات ماضيها المفككة و المتباعدة و أن تساعدها لتحويل ما تذكره إلى نوع من التسلسل المتماسك للأحداث. لكن ماما لم تكن تقول الكثير. حجبت عنها الكثير عن طفولتها في كابول. أبقت باري بعيدة عن الماضي إلى أن توقفت الصغيرة عن السؤال.

و يظهر الآن أن ماما أفصحت بكل شيء لهذا الصحفي في المجلة ؟ أخبرت إتيين بوستولر عن نفسها و عن حياتها في ذلك اللقاء كما لم تفعل مع ابنتها الوحيدة على مر السنين.

باري لا تعرف أنها لا تعرف أي شيء. و لربما كان هذا هو قصد أمها الحقيقي منذ البداية، أن تهز عالم باري، أن تقلبه رأساً على عقب عمداً، لتحولها إلى شخص غريب عن نفسه، لتزيد الشك في ذهنها حول كل ما كانت باري تعتقد أنها تعرفه عن حياتها، لتجعلها تشعر بالضياع كما لو كانت تهيم ليلاً في صحراء، محاطة بالظلمة و المجهول، وكي تشعر بالحقيقة غائمة، كنور صغير جداً يومض في البعيد على نحو متقطع، متحرك مراوغ و منحسر إلى الأبد.

اعتقدت باري أنه لربما كانت هذه عقوبة ماما لها على علاقتها بجوليان، و على الإحباط الذي كانته دائماً بالنسبة لأمها. باري، التي كان من المفترض أن تضع حداً لمعاناة أمها مع الشراب و علاقاتها مع الرجال، و السنين المهدورة في محاولة إيجاد السعادة. انتهت كل تلك الأهداف كما كانت. و كانت كل جلدة إحباط تترك الأم أكثر انكساراً و انحرافاً، وأكثر وهماً عن السعادة. ماذا كنت بالنسبة لك يا أمي؟ فكرت باري. ما الذي كان يفترض بي أن أكون عليه بعد أن ولدت منك، من رحمك، هذا إذا افترضنا أنني ولدت من رحمك؟ هل كنت بذرة الأمل في حياتك؟ هل كنت تذكرة اشتريتها لتتحرري من الظلام؟ هل كنت ضماداً وضعته ليشفيك من تلك الندبة في قلبك؟ و إذا ما كان ذلك صحيحاً، فأنا لم أكن كافية لك. لم أكن كافية لك ولو قليلاً. لم أكن بلسم ألمك. كنت مجرد [illegible] حياتك، مجرد عبئ عليك، و لا بد من أنك اكتشفت هذا مبكراً جداً. [illegible] لكن.. ما الذي كان يمكن أن تفعليه؟ لا يمكنك أن تذهبي لمتجر لتبيعيني بكل بـ[illegible]



